

هِدَايَةُ الْمُرْتَدِّينَ

إِلَى

طُرُقِ الْوَعْظِ وَالْمُخَاطَبَةِ

تَأَلِيفُ

المغفور له صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ علي محفوظ

الأستاذ بقسم التخصص الأزهر الشريف

وعضو هيئة كبار العلماء

طبق ما قرره المجلس الأعلى من مناهج الدراسة

لقسم إجازة الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

هَدَايَةُ الْمُرْتَدِّينَ

دليل كتاب هداية المرشدين

صفحة	المطلب
٤ - ٢	مقدمة الكتاب ومقدمة الطبعة الخامسة
١٢ - ٧	ترجمة المؤلف ونشاطه
٢٤ - ١٣	الفصل الأول : التعريف بالدعوة - معناها - أنواعها - الحاجة إليها - وجوب تبليغها - حكم من لم تبغ الدعوة .
٤٨ - ٢٥	الفصل الثاني : السنن العامة في دعوة الرسل - هدى سيدنا محمد في نشر الدعوة - أصول الدعوة : الحجج البالغة .
٥٨ - ٤٩	الأساليب الحكيمة - الآداب السامية - السياحة الحكيمة - هدية في تربية أصحابه ، أثره فيها كتبه ورسله إلى الملوك والأمم - كتابه إلى ملك الروم - حديث أبي سفيان - كتابه إلى النجاشي - كتابه إلى كسرى - كتابه إلى القوقس - كتابه إلى ملك البحرين - كتابه إلى ملك اليمامة - كتابه إلى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق
٧٠ - ٥٩	الفصل الثالث : أشهر الدعاة من عهد الرسول وهديبهم في الدعوة
٧١	واجب العلماء
٦٤	الفصل الرابع : في الوعظ والإرشاد - أثره في تهذيب النفوس .
	الفصل الخامس : القصص والقصص في الصدر الأول - اختلاف السلف في مدح القصص وذمهم - القصص للذموم ، القصص الحمود . الاسرائيليات ثلاثة أنواع - أمثلة من النوع الثالث
٨٣	الفصل السادس : الوعظ في القرن السادس وتقدير الأمراء له .
١٠٣ - ٨٧	الفصل السابع : آداب الداعي - أول واجب على الداعي - العمل بعله - الحلم وسعة الصدر - الشجاعة في الجهر بالحق - العفة - القناعة

صفحة	المطلب
٩٩ - ١٠٢	قوة البيان - العلم بحال من توجه إليهم الدعوة - علم التاريخ العام - علم النفس - علم تقويم البلدان - علم الأخلاق - معرفة الملل والنحل - العلم بلغات الأمم التي يراد دعوتها - علم الاجتماع . . .
١٠٣ - ١٠٦	قوة الثقة بالله تعالى - التواضع ومجانبة العجب - ألا يبخل بتعليم ما يحسن الوقار والرزانة - كبر الهمة وعلو النفس - الصبر في مقام الدعوة - التقوى والأمانة
١١١ - ١١٦	آدابه السكالية - الورع - محبة الإصلاح - التخلص بالحلال الحميدة - الإخلاص لله في العمل - دوام المراقبة
١١٧ - ١٢١	آداب الداعي مع السامعين - التعريض في الخطاب - التلطف في القول ذكر المدعو بالخير - فراسة الداعي في السامعين
١٢٢ - ١٣١	الفصل الثامن : ما يلزم المرشد اجتنابه . الحوض في دقائق علم الكلام ، التحدث مع العوام بما لا تعقل معناه - صرف ألقاظ الشرع عن ظواهرها
١٣٢ - ١٤٠	الفصل التاسع : السجع والأشعار في الوعظ - السجع القبيح والحسن - الأشعار والجائز منها في الوعظ وما لا يجوز .
١٤٠	فصل العاشر : مراجع الوعظ وهي قسمان أولية وثانوية .
١٤٣	الفصل الحادي عشر : أنواعه والسير فيها على منهج القرآن الحكيم .
١٤٦	الفصل الثاني عشر : إعداد الموعظة وتحضير الموضوع قبل إلقائه .
١٤٧ - ١٦٧	أمثلة مختارة من الحكم النثرية البالغة - قصيدة أبي الفتح البستي
١٦٨ - ١٧٧	أمثلة من الملح التاريخية - أمثلة من الفكاهات الأدبية السامية
١٧٧ - ١٧٨	الفصل الثالث عشر : ضرب الأمثال في العظة - مثل الجلوس الصالح والجلوس السوء . إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها . إنما مثل ومثل ما بعث الله به - ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً - العمل الصالح هو صاحب

محفظة	المطلب
	التافع — أهل الدنيا في تطعمهم بها — كيفية توزيع الجزء على الحسنات والسيئات
١٩١—١٨٨	الفصل الرابع عشر: رعاية المرشد لمقتضى الحال — ما خاطب به المشركين — الرد على منكر البعث
٢٠٠—١٩٢	الفصل الخامس عشر: الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في إرشاد الناس — الترغيب في جنس الطاعات — الترغيب في أنواع الطاعات والمضائل النفسية
٢٠٦—٢٠١	الترهيب، وإنه أربعة أضرب (الأول) ذكر الآيات والأحاديث المخوفة للذنين — معاصي الآباء وشؤونها على الذرية
٢٠٧	(الثاني) حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من البلاء
٢١٠	(الثالث) كل ما يصيب العبد من المصائب والبلاء بسبب جنائنه
٢١٥	(الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب
٢٢٨—٢١٩	الفصل السادس عشر: التحذير من المعاصي بالخوف من الله — ما ورد في فضله — ما يورث الخوف — خوف العلماء — خوف عموم الخلق — القرآن كله مخوف لمن تدبر .
٢٢٩	الفصل السابع عشر: بيان معنى سوء الخاتمة وأنه نوعان
٢٣٤	الفصل الثامن عشر: أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف
٢٣٥	أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في الخوف
٢٤١	الفصل التاسع عشر: الحث على المسارعة إلى صالح العمل
٢٤٥	الفصل العشرون: سنة الله تعالى في الهداية والإضلال
٢٥٣—٢٦٣	نماذج في مواضع القرآن الحكيم — الموعظة الأولى الكلمات النفسية — حكمة تعيين الجهة في الصلاة — سر التوجه إلى بيت المقدس أولاً والرجوع عنه إلى الكعبة
٢٦٣	الموعظة الثانية: صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق
٢٦٨	الموعظة الثالثة: النهي عن الاتهامك في طلب الدنيا

صحيفة

المطلب

- ٢٧٣ الموعدة الرابعة : هداية القرآن الحكيم إلى السعادة
- ٢٧٩ نماذج في مواعظ السنة النبوية - الموعدة الأولى الحث على الكسب
. من طريقة الحلال - مضار البطالة
- ٢٨٤ الموعدة الثانية : علامات النفاق وأنه نوعان : اعتقادي وعملي
- ٢٨٧ الموعدة الثالثة : الزواج وعادات الناس - على ولي البنت أن يحسن
اختيار الخاطب - رعاية حقوق الزوجية - وصية
أب حكيم لابنته عند زفافها - وصية أم حكيمة
لابنتها كذلك
- ٢٩٥ نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية
- المحاضرة الأولى : سر مشروعية القتال في الإسلام - ما جاء في
مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم
- ٣٠٩ المحاضرة الثانية : الرق في الآسالم - حرية النفس . حرية العقل
. المساواة في نظر الدين
- ٣١٦ المحاضرة الثالثة : سر تعدد الزوجات
- ٣١٩ المحاضرة الرابعة : سر تعدد زوجات المصطفى - زواجه بزینب بنت
جحش وما فيه من المصالح الاجتماعية
- ٣٢٩ المحاضرة الخامسة : الحث على الوفاء والتنفير من الاخلاف
- ٣٣٥ » السادسة : إعداد النشء ليكونوا رجالا
- ٣٤١ » السابعة : الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع
- ٣٤٦ » الثامنة : الانسان في الشدة والرخاء
- ٣٥١ » التاسعة : الاقتصاد وأثره في الفرد والجماعة
- ٣٥٥ » العاشرة : الحسد وآثاره السنية في المجتمع
- ٣٦٢ » الحادية عشرة : الغضب وسوء عاقبته
- ٣٦٩ » الثانية عشرة : الانسان هو المقصود من العالم
- ٣٧٤ » الثالثة عشرة : من الإنسان؟ ضرورة الشرع لسعادة البشرية
- ٣٧٩ المحاضرة الرابعة عشرة : عبرة خلقية من سيرة النبي صلوات
الله وسلامه عليه
- ٣٨٧ نماذج من أشهر مواعظ السلف الصالح

المطلب	صحيفة	المطلب	صحيفة
خطبة التحذير من إبداء المسلمين	٤٦٤	وعظ العلماء للأمرء وتقديرهم	
« الدين أو أسرار التشريع	٤٦٧	له - حلم أمير وثبات امرأة .	٣٩٤
« حقوق الأبناء على الآباء	٤٦٩	ما يجب أن يراعى في وضع	
« حقوق الآباء على الأبناء .	٤٧٢	خطب النابر	٤١٠
« إرشاد الصائم	٤٧٤	نماذج من الخطب المنبرية بروح	
« سر مشروعية الصوم .	٤٧٧	عصرية في أم الحوادث .	٤١٥
« سر مشروعية الصلاة .	٤٧٩	خطبة في وراثة الأرض	
« وداع رمضان	٤٨١	بالعمل الصالح	٤١٥
« عيد الفطر	٤٨٤	خطبة في بيان الحكم الصالح ،	٤١٨
« التحذير من العودة إلى	٤٨٥	« أثر الدين في تهذيب النفس	٤٢٢
المعاصي بعد رمضان .		« أهملنا ديننا فسادت حالنا	٤٢٥
« الاتحاد والتحذير من التفرق	٤٨٧	« خروج النساء إلى المقابر	
« الاتحاد وأثره في نجاح السلف	٤٨٩	في المواسم والأعياد .	٤٢٧
« الغش في المعاملات وسوء	٤٩١	« سبب الشقاء مخالفة الدين .	٤٣٠
عاقبته		« التحذير من الربا	٤٣٢
« مضار الزنا - مسجوعة	٤٩٣	« المحافظة على الصلوات .	٤٣٤
« الزنا وعواقبه - رسالة	٤٩٥	« تأليف الجمعيات التعاونية	٤٣٦
« عيد النحر	٤٩٦	« مواساة البؤساء	٤٣٨
« الاقتصاد والتحذير من		« أثر الصلاة في الفرد والمجتمع	٤٤١
الاسراف والتبذير .	٤٩٩	« الاعتبار بالموت	٤٤٤
« الدين ضروري للحياة .	٥٠١	« التحذير من تبرج المرأة .	٤٤٧
« وجوب الاعتصام بالدين	٥٠٣	« التحذير من تقليد الأجانب	٤٥٠
« الإنسان مآله ومضيره .	٥٠٤	« أثر الدين في السعادة .	٤٥٣
« فضل بناء المساجد	٥٠٧	« تناول المسكرات والمخدرات	٤٥٥
« عظات متنوعة يذكرها	٥٠٩	« خروج النساء خلف الجنائز	٤٥٧
المرشد في المناسبات .		« ذم الكبر والتحذير منه .	٤٦٠
« شهادات الأجانب للإسلام	٥٣٣	« مضار شهادة الزور .	٤٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي اختار لنا الإسلام ديناً ، وجعل السعيد من وقف عند حاوذه
وتأدب بأدابه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله شاهداً ومبشراً
ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وشموس
العرفان (أما بعد) فهذا مختصر نفيس في الوعظ والخطابة جعلته نبهاساً للدعاة
الناصحين ، وسراجاً يضيء للخطباء الراشدين . وضعته طبق منهج الدراسة لتقسم
إجازة الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين ، من كليات الجامع الأزهر الشريف
والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يديم به النفع العميم ،
إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

اعلم أن السمالات ثلاثة : نفسية كالعالم والعفة والشجاعة والعدالة ، وبدنية
كالصحة والقوة والجمال وطول العمر في ذلك مع اللذة والبهجة ، وخارجية كالمال
والأهل والعز وكرم العشرة . وأشرفها السمالات النفسية ، وأوسطها البدنية ، وأدونها
الخارجية . والسمالات النفسية محصورة في أمرين : العلم اليقيني ، وصالح العمل .
ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله عز وجل والإيمان به . ورأس الأعمال
الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط
والتفریط . فهذا هو الصراط المستقيم . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إن الذين
قالوا ربنا الله ثم استقاموا » أى قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى ، وإقراراً بوحدانيته ،
وعملوا على وفاق ما قالوا . فليس يراد منه القول باللسان فحسب ، لأن ذلك لا يفيد
الاستقامة ، فإن ذكر الاستقامة عقب ذلك التول دال على أنه كان مقروناً باليقين
التام والمعرفة الحقيقية .

وأن للكمال مرتبتين ، كاملة وأكمل ، فالأولى أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة ما يصير به كاملاً في نفسه . والثانية أنه إذا بلغ هذه المرتبة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين ، ولا ريب أن ذلك فوق الكمال . وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها . فإذا نال هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بإصلاح الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون صحيحاً في دينه مهذباً مستقيماً عاملاً بعلمه ليكون الناس إليه أسكن ، وإلى قبول دعوته أقرب . والحاصل أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى : « والمصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فأقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بصالح العمل ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه . فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما .

المؤلف



المغفور له حضرة صاحب الفضيلة الواعظ الأشهر

الشيخ علي محفوظ

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

ترجمته

في محلة روح مركز طنطا غربية ، كانت تقيم أسرة « محفوظ » وهي أسرة طيبة يتصل نسبها بالحسن بن علي رضي الله عنهما .. في تلك القرية ولد وفيها نشأ ، وحفظ القرآن الكريم واستوعب حفظ بعض المتون .

وفي عام ١٣٠٦ هـ التحق بالجامع الأحدي بطنطا واشتغل بتجويد القرآن الكريم على بعض الفقهاء ، ثم بدأ يتلقى العلم على كبار شيوخه ، فكان من أساتذته الشيخ عبد الرحمن الدماطي والشيخ محمد السبيني الكبير ، والشيخ علي المنوفي والشيخ قطب بكر . وكان في أثناء طلبه العلم مثلاً حسناً للطالب المجد ، واستمر بالجامع الأحدي نحواً من عشر سنوات ظهر فيها نبوغه وتفوقه على أقرانه .

ثم رأى شيخه الأكبر الشيخ الدماطي أن ذلك النبوغ يجب أن يفيد منه الأزهر الشريف ، فحسب إليه طلب العلم فيه فتوجه في عام ١٣١٧ هـ إلى مصر ونزل بالأزهر المعمور ، ثم مالت نفسه إلى مذهب أبي حنيفة بعد أن كان شافعي المذهب فتتلمذ على صفوة علمائه من أمثال الشيخ : محمد الحلبي ، والشيخ بكر الصديق والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ محمد نجيت ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

وفي عام ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٧ م حصل على شهادة العالمية ، ثم اشتغل بالتدريس .

ولما أدخل النظام في الأزهر عام ١٩١١ سار فيه حتى بلغ القسم العالي .

وفي عام ١٩١٨ أنشئ قسم الوعظ والإرشاد في الأزهر ، فكان أول من تعهده بالتأسيس والتوجيه ، وفي هذا القسم وجد ضالته ، فجاهد فيه بكل قواه ، ووقف عليه فكره ووقته ، وسرعان ما أنجب على يديه رجالاً دعاة خير ورسلاً إصلاح ، أشربوا حب الفضيلة وتمت فيهم نازعة الخير .

وفي عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م أوفد على رأس أول بعثة أزهريّة إلى الأقطار

الحجازية لأداء فريضة الحج .

وفي مايو عام ١٩٣٩ قدرت هيئة كبار العلماء مزاياه وعلمه وفضله ، فقررت ضمه
إلى عضويتها ، وصدر بذلك الأمر الملكي رقم ١٦ لسنة ١٩٣٩ .
وفي فبراير ١٩٤١ منح كسوة التشريفية العالمية من الدرجة الأولى .
ثم لقي مولاه في يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة ١٣٦١ هـ ، الموافق
١١ نوفمبر ١٩٤٢ .

نشاطه :

نظر الفقيه بفكره الثاقب إلى العلم والعلماء ، فوجده أشبه بصناعة خاصة بين
طائفة خاصة في مكان خاص لا يعدو العالم والمتعلم ، قد دأب الأزهر على ذلك جيلا
بعد جيل ، وسواد الأمة عن هذا النور محبوب واحتجاب العلماء عنهم ، اللهم
إلا بصيص من النور يظهر في بعض البلاد التي ينبت فيها العلم بوجود عالم من العلماء
أو طالب من الطلاب في ليالي شهر رمضان من كل عام . فأخذ على نفسه المواعيق
أن يجدد عهد السلف الصالح ، وأن يقوم بنشر الدعوة الصحيحة بين طبقات الشعب
المصرى الكريم .

وضع أساس فن الوعظ والخطابة :

ولقد أحب فن الوعظ والإرشاد حباً لا يعدله حب ، وأخلص له إخلاصاً ،
ما بعده إخلاص ، وامتزج هذا الحب وهذا الإخلاص بإيمان قوى لا حد له ، ثم
سكن هذا المزيج المبارك في قلب كريم في نفس طيبة راضية مطمئنة .
وبهذا القلب عقد اللواء وتأهب للغزو ، فأخذ يبث فكرته بين طبقات الأزهر
من علماء وطلاب ، فكان من ثمرات هذا الجهاد إنشاء قسم الوعظ والإرشاد في
كلية أصول الدين .

الوعظ في المساجد والجامع العامة :

ثم انتقل إلى الناحية العملية ، فكان يعشى المساجد كل أسبوع والجامع العامة
ناشراً الفضيلة داعياً إلى التمسك بحبل الله المتين ، فظهر نجمه وسطع نوره ، ورمقته العيون

وأسكتته القلوب في سوبدائها لما عرف فيه من علم وما أوتيته من قوة البيان ودقة الأسلوب وسلاسة التعبير. وقد أنتجت قريحته الفذة في هذا الفن كتاب « سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة » ثم أعقبه بكتاب « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » وهو يعتبر أول كتاب حديث من نوعه.

وكان أهم ما يلاحظ عليه ذوقه الرفيع في الوعظ ، ومراعاته لشعور الحاضرين وعواطفهم ، يستميلهم بالفكاهة النادرة بركة تملك المشاعر ، ويلقي إليهم بالحجج والحكم في دعة تفتح لها الطريق إلى القلوب قبل الأسماع .

الوعظ في القرى :

رأى — طيب الله نراه — أن كثيراً من القرى الريفية قد حرم من العلم فكان يذهب إليها مرشداً وداعياً إلى الله يأذنه . موضحاً في ذلك بماله وراحته ووقته فكان يقضى العطلة الصيفية متنقلاً بالوعظ والإرشاد في شتى البلاد . وقد كان يسجل خطبه في سجل خاص حتى بلغ مجموعها نحو (١٠٠٠) خطبة .

محرابة البدع والخرافات :

رأى — رحمه الله — أن كثيراً من البدع والخرافات قد استحكمت في نفوس الشعب حتى أبعدهم عن طريق الدين المستقيم ، فأخذ يكافح ويجاهد ويذكر القوم بمحاسن الدين وقبائح البدع ولم يذنه عن سبيله ما أقامه دعاة هذه البدع من عراقيل وعقبات . . وظل ثابتاً على عزمه حتى اقتلع الأوهام من القلوب وعاد بالناس إلى حظيرة الدين ، وقد ألف في هذا كتابه العظيم « الإبداع في مضار الابتداع » .

الجميات الإسلامية العامة :

أيقن أن الجميات الإسلامية خير معين على نشر الفضائل بين الأمة فساهم في تأسيس جمعية مطرم الأضرحة الإسلامية وكان من أعضائها العاملين البارزين .

وساهم في تأسيس جمعية الرهانية الإسلامية
وقد انتخب وكيلا لها في أول جلسة عقدت لتأسيسها في عام ١٣٤٦ هـ .
وكذلك ساهم في تأسيس جمعية تحفيظ القرآن بالعباسية وكان من أعضائها
المخلصين .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت جمعية الرد على المبشرين بالخرنفس تناهض
المبشرين فكان رحمه الله خطيبها وحامل لوائها .

وقازت جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية بالكثير من نشاطه ولما
تكونت جماعة أنصار الحج ساهم في جهادها بكل قواه .

الجمعيات الخاصة:

لم يكن الفقيد بكل هذه الأعمال الجليلة بل نظر في صفوف الأمة ، فوجد
طائفة من عظامها المخلصين قد عكفوا على ما لديهم من الأعمال ، فتلطف في الدخول
إليهم ، واستعمل ذكاه وفطنته في استمالتهم وهمس في آذانهم بأحكام الدين الخفيف
فوصلت دعوته إلى قلوبهم ، ووجد التربة صالحة للفرس ، والجو ملائما للانبات ،
فكون جمعية قوامها العطاء وعنصرها :

الطبقة الرفيعة مثل المرحوم الدكتور سالم هنداوى باشا والدكتور سليمان عزمى باشا
والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا وغيرهم من طبقتهم ، واشتغل معهم بتفسير
القرآن الكريم في ليلة معينة من كل أسبوع ، واتخذ لذلك عيادة الدكتور سالم باشا
بعبدين حتى أتمه ، في بضع سنين ، ثم انتقل إلى السنة الشريفة فقرأ معهم كتاب
البخارى حتى أتمه ، في بضع سنين ، وقد كان من آثار هذا الفرس أن طلع المرحوم
الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل على العالم الإسلامي بكتابه العظيم « الإسلام
والطب الحديث » .

كذلك كون رحمه الله جمعية أخرى قوامها الدكتور عبد السلام العيادى ونخبة من نخبة المتفهمين ما بين مهندس وتاجر وموظف وجعل مقرها عيادة الدكتور العيادى بالذرب الأحمر ، وقد ابتدأ فى تفسير القرآن الكريم حتى أوشك على إتمامه ولكن المنية عاجلته قبل ذلك بقليل .

وأنشأ جمعية ثالثة قوامها جماعة من أرباب المعاشات ففرس فيهم الروح الدينية الحققة ، وكان مقرها منزل صاحب العزة أحمد بك فهمى المهندس ، فى المغربلين ثم بالعباسية .

وامتد نشاطه إلى الطبيبات والمرضات داخل المستشفيات ، فتعهدم فى مستشفى فؤاد الأول للولادة بالموعظة الحسنة والنصائح الغالية مما كان له أثر محسوس فى قبابهم بواجبهم الإنسانى على خير الوجوه .

إلقاء دروس دينية فى الإذاعة اللاسلكية

وفى حوالى عام ١٩٣٩ نبئت فكرة إلقاء دروس دينية على أمواج الأثير ، فكان أول من وقع عليه الاختيار لهذا العمل الجليل ، فكان يلقى درساً فى كل شهر تقريباً حتى لقي ربه .

دروس شهر رمضان فى الأزهر الشريف

وكان من عادته رحمه الله أن يلقى درساً فى الجامع الأزهر بعد صلاة العصر من كل يوم من أيام رمضان المبارك ، وقد ظل محافظاً على هذه العادة الجليلة وكان فيها مخلصاً متفانياً ، ولا أدل على ذلك من حرصه عليها وهو فى مرض الموت .

التأليف

ألف الفقيه السكتب الآتية :

١ - الأخلاق - وكان يدرس فى المعهد الابتدائى بالأزهر .

٢ - سبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة .

٣ - هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة . وهو مقرر للدراسة في كلية أصول الدين .

٤ - الإبداع في مضار الابتداع . وهو مقرر للدراسة في كلية أصول الدين .

٥ - الخطابة . (لم يطبع) وقد ظهرت منه مذكرة مختصرة في ١٠٠ صفحة

خاتمة

وهكذا كان الفقيه الكريم شعلة من نور وعلم ، تفرقت أشعتها في كل ناحية من نواحي الأمة ، فكانت السراج الذي يهتدى به المهتدون
كان رحمه الله يرى أن العلم ثروة وزكاتها الوعظ والارشاد ليكون علماً مباركاً طيباً يزيد الله من فضله .

ولقد كان واعظاً بسمته وهيبته ووقاره ووقفته ومشيته قبل أن يكون واعظاً بقوله ومنطقه ، فكان في ذلك مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : -
(خياركم من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقه ، ويرغبكم في الآخرة عمله)
رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما . . .

رحم الله الفقيه الجليل ، وأحله مقامه بين الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

الفصل الأول

التعريف بالدعوة

أرسل الله عزت قدرته وجلت حكمته رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله يذنه وسراجاً منيراً . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، عامرة بالخير والهدى ، وكان في دعوته وعبادته ، وفي حربه وسله ، وفي أسرته وبين أصحابه ، وفي كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله تعالى فيه : « وإنك لعلی خاق عظیم » ، وتحقیقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . رواه ابن ماجه . وقوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . رواه العسكري عن علي وهو ضعيف لكنه صحيح المعنى ، صححه أبو الفضل بن ناصر من طريق آخر . حتى اضطرت دعوته الصادقة القوية ، وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هدام الخلق النبوي ، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعى الحق والاستماع لآيات الله البيّنات ، عاملين بها مخلصين دينهم لله ، وصاروا نوراً يهتدى به إلى طريق التدين الصحيح ، فزاد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ، ولم يترك الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها ، وأمر أصحابه رضی الله عنهم بالتأسي به والسير على نهجه — وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة في الجامع والأسواق ، وهجرة أصحابه في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورساله إلى الملوك والأمراء ، بل كانت حياة الصحابة يومئذ في ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه . ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول وتأثروا بهديها وفهموا غايتها الشريفة ، فتمحلوا الأمانة بمجدارة وأدوها حق التأدية ، فكانوا

في رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية ، في تأدية الواجب على أكل وجه وأعلى مثال ، فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

ومن أضمن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان . وأنه ما قام دين من الأديان ، ولا انتشر مذهب من المذاهب ، ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلا بالدعوة . وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزع من النزعات بعد إحكامها ، إلا بترك الدعوة . فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب ، سواء أكان ذلك الأمر حقاً أم باطلاً .

ولقد علمنا التاريخ ، أنه ما قام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصاراً وأتباعاً — وما نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة ، والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة — ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته ، لأنه الحق ، لما فرضت علينا الدعوة إليه ، ولما كان نتم حاجة إلى الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين ، الداعين إلى الهدى ودين الحق ، ولما وصف الله عز وجل الدعوة إليه بأنها أحسن القول ، ولما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر للناس أن طريقته التي يسلكها هو ومن كان على قدمه ، إنما هي الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة .

والدعوة إلى الله مراتب : (الأولى) دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه : (١) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً والدعوة بالسيف ثانياً ، حماية لها ودفاعاً عن الحق وأهله ، لا قهراً على الدخول في الدين . فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين . (٢) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابق بإظهار الأمر الشريف أفضل (٣) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهرأ ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة ، وإنارة النفوس

المظلمة أكل (٤) أن نفوس الأنبياء حصل لها مزيتان : الكمال في الذات والتكميل للنير ، فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل (المرتبتان الثانية والثالثة) دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى ، وذلك أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفتين : العلم والقدرة ، والعلماء نواب الأنبياء في العلم ، والملوك العادلون نواب الأنبياء في القدرة . والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد . فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد .

وبهذا علم أن أكل الدرجات في الدعوة إلى الله عز وجل بعد الأنبياء درجة العلماء . ثم هم على ثلاثة أقسام : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله تعالى فيهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » والعلماء بصفات الله تعالى وهم أصحاب الأصول ، والعلماء بأحكام الله تعالى وهم الفقهاء . ففي القرن الثاني كان الدين شغل العلماء الشاغل ، فقد عكف قوم على مواظب الدين وحكمه وآدابه وما يحض على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وهم الزهاد والنسك . وقوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما إلى ذلك ، وهم المتكلمون ، وقوم على تخريج أحكام الفروع ومعرفة الحلال والحرام ، وأستنباط ذلك من الكتاب والسنة وهم الفقهاء .

والكل كانوا على جانب عظيم من العلم والعمل والتقوى والورع ، والكل بحاله هذا كان داعياً إلى الله تعالى . وأما الملوك العادلون فهم أيضاً يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه بمحاربة الكفار المعاندين المعتقدين على أهله ، وإما بالمحافظة عليه عند وجوده بنحو قتل المرتدين وقمع العاشقين به ، والضرب على أيدي المتمردين عليه المفسدين في الأرض .

وبالجملة فالدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الخلق إلى الصراط السوي وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بمخلفهم فيها كبار أتباعهم

والعطاء من أولى العلم وذوى القدرة على ضبط الأمور والتأثير في الأرواح وجذب النفوس إلى الخير عن يسلكون سننهم ويهتدون بهداهم .

وأن الداعى إلى الله تعالى خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه في تبليغ شرائعه ، وفي بيان هديه وسنته ، وفي بيان عقائده وأحكامه ، وأخلاقه الكريمة ، وعظاته البالغة ، وأسرار التشريع .

إن الدعوة إلى الخير تربية ، والتربية المفيدة إنما تسكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة . ذلك أن التقليد عريق في بنى الإنسان يميل إليه بفطرته ، والمثل العليا أمامه تزيد في شوقه وتضاعف همته وتهيب به إلى الاحتذاء بل المنافسة ، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة الكاملة النافعة ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، وخرج عن ماتقضية الفطرة السليمة ، ولم يكن في عداد الصادقين الذين أمر الله أن يكون في زميرهم : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » . ولا ريب أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والإخاء بين المسلمين ، ومقاومة الاحقاد ودفع الشبهات عن الدين . وأقرب طريق لبلوغ هذا المقصد الأسنى الوسائل الآتية : -

- (١) بث الدعوة إلى الإسلام بقدر الطاقة (٢) انتشار المرشدين الناصحين بين المسلمين ولاسيما القرى النائية وأهل البوادي منهم (٣) نشر رسائل وكتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وفضائله وآدابه وأسرار التشريع فيه .
- (٤) إلقاء المحاضرات والخطب الدينية في الأندية والمجتمعات العامة ونشر المقالات في الصحف (٥) إنشاء صحف ومجلات باللغة العربية وغيرها في الأقطار المختلفة ، تعنى بالشئون الإسلامية (٦) العمل على إصلاح منهج الخطب المنبرية ودروس الوعظ والارشاد في المساجد (٧) السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها

الأهلية لأجل العناية بالتعليم الديني والتربية الإسلامية ، وبهذا وحده تسعد الأمم الإسلامية وتسلم من خطر الشقاء في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

معنى الدعوة

الدعوة من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده ، ومنه قول الله تعالى : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » من مواعظها والوقوع في الفاحشة التي تذهب بخير الدنيا والآخرة ، وقوله جل ثناؤه : « والله يدعو إلى دار السلام » السلامة من كل المكروه والأمن من جميع المخاوف وهي الجنة ، ومثلها الدعاية . وفي كتاب هرقل « أدعوك بدعاية الإسلام » أي بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

وفي العرف حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل - وهي ثلاثة أنواع : (النوع الأول) : دعوة الأمة الحمديّة جميع الأمم إلى الإسلام ، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق وهذا واجب هذه الأمة بقتضى جعلها خير أمة أخرجت للناس مقيداً بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبحكم وصف المؤمنين الذين أذن لهم في القتال في قوله تعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ، فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر

(النوع الثاني) : دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع كالذي قبله خواص الأمة العارفون بأمر الدين ، وأسرار التشريع ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (النوع الثالث) : ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى في ذلك الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهي عن الشر والتحذير منه ، كل

بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على منكره يعلمه تصدى لنصحه وإرشاده وبيان ما يأمر به الدين الحنيف وما ينهى عنه في هذه الواقعة ، كل ذلك برفق ولين فذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر الذي جعله الله عز وجل آية الإيمان الصحيح ، وسبباً للنجاة من الخسران المبين في قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

الحاجة إلى الدعوة

إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وركبه في أحسن صورة ، وكرمه وعظمه ، وعلى كثير من خلقه فضله ورفعته ، كرمه بالفكر والعقل يميز به الحسن من القبيح ويفرق بين الحق والباطل ، ولكن العقول البشرية وحدها لانستقل بإدراك المصالح الدنيوية فضلاً عن الأخروية ، ولا تهتدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من غرائزها الوقوف على حقائق الأمور ، ولا أن تدرشثونها على نظام محكم عادل لاخلل فيه ولا انحراف فإنها — وإن وصلت إلى الغاية القصوى من الإدراك — قد تميل عن الحق إلى الباطل ، وتنحرف عن الصلاح إلى الفساد ، ويخفى عليها وجه المصلحة ، ولا تهتدى إلى مقبة الأعمال ، وكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه ، وكثيراً ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وإن اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير أو الشر ، فقد تغلب عليها الشهوات ، أو يشتد بها الغضب والحسد ، فيصرفها ذلك عن النافع أو تقع في الضار — وإن خلصت العقول من أسر الشهوات ، أو تسلط الغضب والحسد ، فقد لانسلم من غوائل الخلاف والنزاع ، لاختلاف المدارك والمشارب في أصل الفطرة والجلبة ، فترى الإنسان يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يظهر له الشيء حسناً في وقت فإذا لم يلائم غرضه في وقت آخر عده قبيحاً ، وكثيراً

ما يكون الشيء الواحد مشتملاً على مصلحة ومفسدة ، فيحب إنسان جلب مصلحته
فيبادر إليه ، ويميل آخر إلى درء مفسدته فيفر منه .

فلما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك مصالحها في هذه الحياة وفي تلك
الحياة وعاجزة عن الإطلاع على الحقائق ؛ وكانت عرضة لتغلب الأهواء والشهوات
وما إليها من الرذائل النفسية عليها ، وكان من طبائنها اختلاف المدارك والميول .

لما كانت كذلك اشتدت حاجة البشر إلى الهداة المصلحين ، والدعاة الناصحين ،
يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعونهم إلى ما فيه الخير والسعادة ،
ويحذرونهم من السقوط في مهاوى الشرور والشقاء ، ويجررون العقول من رق
الأهواء والشهوات ، ويطهرون النفوس من أدران النقائص والرذائل ، ويعرفونهم
كيف يتقون الفتنة عند الاختلاف ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين .

وبهذه الدعوة الرشيدة التي استنارت بها البصائر واهتدت العقول - تلك
المجتمع الإنساني طريقاً قويمًا وصراطاً مستقيماً ، فسلم من مخاطر الشقاء ، وفاز بحياة
طيبة ، ثم مازال الاجتماع بعد انقضاء عهد النبوة والرسالة في أشد الحاجة إلى دعاة
مرشدين ، وناصحين صادقين أمناء يحمون دين الله من عبث العابثين ، ويجرسون
عقائد الاجتماع ، ويراقبون الأعمال والأخلاق ، ويرشدونه إلى الخير ويحذرونهم من
عواقب الشر ، وينبرون السبيل إلى ما فيه الخير والسعادة .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال أثر تفريط عظيم في طاعة الله ورسوله ،
بعد ما عظم التساهل والتواكل في أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن
المعكر ، وكثر التهاون وإهمال التناصح ، ورداً ما يتنازع فيه المسلمون إلى كتاب الله
وسنة رسوله ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على
النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير
هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وجوب تبليغ الدعوة

قد علمت مما تقدم أن الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى شديدة ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، والمهم الذي بعث الله له النبيين والمرسلين ، ولو أهمل أمره لاضمحل الدين وفشا الضلال وعم الفساد ، وهلك العباد ، وساء حال الجمعية البشرية ، لهذا جاء وجوبه في الكتاب والسنة ، وعليه انعقد الإجماع ، قال الله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) فقد أوجب على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ، وصونا لاحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات ، ويخطلوا بنظامها ، وتحرفهم عن العمل بها الأهواء الفاسدة إذا هم تركوا وشأنهم ، فالخطاب بهذا كافة المسلمين ، فهم المكلفون أن يختاروا منهم طائفة تقوم بهذه الفريضة ، فهنا فريضان إحداهما على جميع المسلمين ، والثانية على الجماعة التي يختارونها للدعوة — والدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي — فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه مع اندراجهما فيه ، من باب عطف اخص على العام ، إظهارا لفضلهما وشرفهما على سائر الخيرات ، وأنها الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام . في آية (من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل فان الله عدو للكافرين) : وقال جل ثناؤه : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أوجب جل شأنه على كل جماعة كثيرة من المسلمين كأهل بلدة ، أو قبيلة عظيمة ، أن تقوم منهم جماعة قليلة ليتعلموا الدين ، ويحملوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من العلم إرشاد قومهم ، وإسداء النصيحة لهم .

وبالجملة فقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه يجب على كل أمة أن يكون منها

جماعة بقدر الحاجة تقوم بالتفقه في أمر الدين ، وأن يكون المقصود منه دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشاد الناس إلى الدين القويم والصرط المستقيم — ولا ريب أن من تعلم لهذا الغرض العظيم ، كان على المنهج القويم ، وفاز مع الفائزين ، كما قال تعالى : (وأولئك هم المفلحون) وقال جل ثناؤه : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) أى لا تدع التذكير والموعظة فانها تؤثر في الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل ، فانها تزيدهم بصيرة في الدين ، وقوة في اليقين .

ولقد شدد بالانكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة ، وأهل دين أهلوها فقال جل ثناؤه : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فغذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به عن مقتنه وغضبه ، فالملعون منه تعالى هو المحروم من لطفه وعنايته ، المطرود عن باب رأفته ورحمته . وقد كان داود عليه السلام لعن المعتدين عامة والذين اعتدوا في السبت خاصة ، ثم لعنهم عيسى عليه السلام ، وكان سبب ذلك اللعن الذي طال أمده عصيانهم لله تعالى واعتدائهم المستمر — وقد بين جل ثناؤه ذلك العصيان ، وسبب استمرارهم على الخروج عن حدود الله ، بأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحه ، وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والكمالات ، فاذا أهل تجراً الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلا مبالاة ، ومتى صار العامة يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بأذانهم تزول عنهم وحشتها وقبحها من نفوسهم ، ثم يتجرأ الكثيرون على ارتكابها — ذلك كان شأن القوم ودأبهم الذي اعتادوه ، وأصروا عليه ، ذكره الله للمؤمنين عبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونون مثلهم ، ويحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم . روى أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل

يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقميده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لعن الذين كفروا - إلى قوله فاستقون » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر ثم لتأخذنَّ على يد الظالم وتأطرنَّه على الحق أطراً ، ولتقصرنَّه على الحق قصراً ، أو ليضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم » لتأطرنه : بكسر الطاء وضم الراء لتأطرنه وبابه ضرب ، وأصل الأطر العطف ، ولتقصرنه بضم الصاد والراء تمنعنه من مجاوزته ، وبابه نصر . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم . وفرق بين تغيير المنكر وبين النهي عنه ، فإن النهي عن الشيء يكون قبل فعله ، وإلا كان رفعا للواقع ، فإذا علمت إنساناً ينقص المكيال والميزان ، أو يفتش اللبث مثلا ، وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت - والاستطاعة هنا شرط بالنص - فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى العاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منك . أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضا بفعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ، ومعاملته ، وإقرائه السلام ، والرد عليه ، يدل على هذا ما فعله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن عزوة تبوك بغير عذر ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى كون ذلك أضعف الإيمان أنه أقل آثاره وثمراته فى النفع ، لأن مجرد كراهته له بقلبه لا يحصل بها زوال مفسدة المنكر المطلوب إزالته ، فهو قاصر بخلافه باليد واللسان فإنه متعد لأنه كراهة وإزالة وفى خبر آخر : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وهو كناية عن نهاية القلة ، لأن الرضا بالمعصيان الناشئ عن غلبة الشهوة نقصان من الإيمان أى نقصان .

والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقاب وكرامة المنكر ، ولم يبق بعدها مرتبة أخرى . ويؤخذ منه أن عدم إنكار قلب المسلم للمنكر دليل على ذهاب الإيمان منه . وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهوننَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ولا ينافى الوجوب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » لأن معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم ، مثل قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . ومما وجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتدياً مع تركه لهذه الفريضة ، فإذا قام بها ولم يمتثل المخاطب فلا جناح عليه بعد ذلك ، لأنه أدى ما عليه ، والذى عليه القول لا القبول ، وهذه شبهة قديمة العهد عرضت للناس في الصدر الأول . روى أحمد والترمذى وأبو يعلى وغيرهم من حديث قيس بن حازم قال : قام أبو بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرمون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها على غير موضعها أى يتوهمون منها أن الإنسان إذا فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه فى نفسه ، ورأى غيره بضد ذلك فلم يأمره ولم ينهه ، لأخرج عليه ، وليس كذلك ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وشرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدرة وتجويز فائدة وإن لم تكن الامتثال مثل كسر جاه الفاسق وخشية أن يعتاد النشء فعل المنكر ، وترغيب الطائنين فى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ومثل رجاء أن يتعظ فلا يقع المكروه بعد ذلك ، وألا يخاف مكروها يناله ، وألا يترتب عليهما محذور آخر ، فإذا لم تتوافر

هذه الشروط سقط الوجوب وبقى الجواز . وقد استوفينا الكلام على هذا المبحث في كتاب « الإبداع » في الفصل السابع فارجع إليه إن شئت والله الهادي إلى سواء السبيل .

حكم من لم تبلغه الدعوة

وأما حكم من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ في شاقق جبل ؛ فليس بمكلف على الأصح خلافاً لمن قال إنه مكلف لكفاية العقل في وجوب معرفته تعالى عندهم وإن لم تبلغه الدعوة — وعلى القول بأن بلوغ الدعوة شرط في التكليف لا يكفي بلوغ دعوة أى رسول ولو سيدنا آدم ، بل لا بد من بلوغ دعوة الرسول الذى أرسل إليه . فالذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كانوا بين أزمنة الرسل أو في زمن الرسول الذى لم يرسل إليه) ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان — وما ورد من أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار كاسرىء القيس وحاتم الطائي ، وبعض آباء الصحابة ، فإن أحد الصحابة سأله وهو يخطب فقال أين أبى ؟ فقال : في النار . فهي أحاديث آحاد لا تعارض القطعى وهو قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ويجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبهم منهم لأمر يختص به بعلمه الله تعالى ورسوله . وإذا علمت أن أهل الفترة ناجون على المذهب الحق ، علمت أن أبويه صلوات الله وسلامه عليه ناحيان لكونهما من أهل الفترة — والقول باشتراط بلوغ الدعوة في التكليف هو مذهب الأشاعرة وجمع من غيرهم ، فمعرفة الله تعالى وجبت عندهم بالشرع وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لأصلها ولا فرعياً — وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل بمعنى أنه يستقل بإدراك الأحكام وإن لم يرد الشرع ، ويقولون إن الشرع جاء مقويا ومؤكداً للعقل — وبنوا كلامهم على التحسين والتقييح العقليين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والتقييح ما قبحه العقل ، فإذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يمدح على فعله ويذم على تركه حكم بوجوبه ، وهكذا . وأما مذهب الأشاعرة فالحسن ما حسنه الشرع والتقييح ما قبحه الشرع — ومذهب

الماتريديّة أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالاً — لوضوحه لا بناء على التحسين العقلي — كما قالت المعتزلة ، والحق أن العقل لا يستقل بشيء أصلاً .

فتلخص أن المذاهب الثلاثة : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لكن بشرط العقل — والثاني مذهب الماتريديّة ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام — والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل — وقد علمت الفرق بين قول الماتريديّة بوجوب المعرفة بالعقل ، وقول المعتزلة بثبوت الأحكام بالعقل ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الفصل الثاني

السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين

من أنعم النظر فيما قصه الله تعالى في كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من أنباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد انفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى (توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله تعالى رب العالمين المتصرف في أمورهم) والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسل من غير تفريق بين رسول ورسول ، والترغيب في طاعة الله جل وعلا ، والترهيب من مخالفته وعصيانه ، والحث على التحلي بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق السيئة — ويرى أيضاً أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية في أممهم — فترى نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشتى الوسائل ، لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، وترى لوطاً عليه السلام جعل همه في القضاء على الفاحشة (اللواط) لافتتان القوم بها ، وترى

شعبيا عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينههم عن نقص الكيل والوزن ويأمرهم بإيفائهما لانتشار الفسب بينهم ، وترى موسى عليه السلام يعمل على انجاء الشعب الاسرائيلى من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، لأن حال ذلك الشعب كانت حينذاك تستوجب الاسعاف أولا . كل هذا قام به الرسل مع الصبر واحتمال الأذى فى سبيل إقامة الدين . ومن هذا كله نعلم أن الداعى إلى الله تعالى ينبغى له أن يوجه همته إلى معالجة الشرور والمفاسد الفاشية فى قومه ، ويبدأ بأشدّها خطراً وأكبرها ضرراً كما سيأتى بسطه . فهذه هى السنن العامة على وجه الاجمال فى دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وعلى الدعاة والمرشدين ، بل على كل ذى غيرة على دينه أن يرجعوا فى تعرف ذلك تفصيلا إلى كتاب (دعوة الرسل) لصاحب الفضيلة أئينا الأستاذ المسلمة الشيخ محمد العدوى فهو العمدة فى هذا المقام وبالله تعالى التوفيق .

هدى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فى نشر الدعوة

الأصول التى أقام الدعوة عليها هى : الأصل الأول الحجج البالغة فكانت دعوته صلوات الله وسلامه عليه تقوم على الآيه البينة والحجج المحكّمة ، فقد اعتمد فى تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل السليم ويألفه الذوق ويتلمسه الوجدان ، ولا تقف دونه البديهية ولا تنكره الحقيقة — ولذا لم يعتمد فى ذلك على الخوارق ، بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويهيب بها إلى التأمل فى الكون وما حوى من مظاهر الابداع والانتقان ، وفى كل شىء له آيه ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لا شريك له : موجود كامل الوجود ، ومن كان كذلك فهو واهب الوجود لكل موجود ، يدعوهم إلى النظر فى الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح ، والبرهان القاطع ، إلى أن خالق الأكوان على هذا الإحكام والانتقان ، ومدبرها على هذا النظام البديع ، لا بد قوى قادر وعليم حكيم ، لا يعجزه شىء ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة فى الأرض ولأ فى السماء ، منزّه عن مشابهة المخلوقين ، غنى عن العالمين ،

فلا صاحبة ولا ولد « بديع السموات والأرض أى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » على يدى هذا الرسول الأمين ، هكذا آمن الناس بالله عن بينة ، وأشرىوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الحكيم ، فقد جعل العقل حكماً ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وعاب تقديس ما كان عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها — ولم تكن معجزته صلوات الله وسلامه عليه القاعرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية — كان صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله تعالى بهذه الطريقة الواضحة ، وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة ، وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة : « قل هذه سبلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . تقول هذه هى طريقة القرآن وسبيله الحكيم ، التى أرشد إليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إليه تعالى ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عليهم أجمعين .

فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الأحكام والاتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى ، فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم ، فقال جل وعلا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « فلينظر الإنسان م خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتعاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وقال جل شأنه : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » وقال : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » أي فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته .

وقال جل وعلا في التوحيد وإنكار الشرك : « فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يذهبواكم سواء عليكم ادعوتهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألمه أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبسطون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » وقال تعالى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقال جل وعلا : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين » وما إلى ذلك من الآيات البينات على التوحيد وإنكار الشرك .

وقال في تقرير عقيدة البعث :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضمة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد

إلى أرذل العمر ليكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » قال الحسن البصرى رضى الله عنه : جاء أمية بن خلف بعظم نحر قد صار رمياً ففركه حتى صار كالرماد ثم قال : يا محمد أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا ؟ لقد قلت قولاً عظيماً ما سمعناه من غيرك ، من يحيى العظام وهى رميم ؟ فقال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » فانصرف مبهوتاً . وقال عزت قدرته وجلت حكمته « ق والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مرجح . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طامع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » وما إلى ذلك من الحجج البالغة ، والبراهين القاطعة ، مما يسلكه فى تقرير العقائد الإلهية ، وتوجيه الناس إلى الحقائق الواقعة ، وإثبات البعث والجزاء .

وعلى الجملة فقد أحكم الله تعالى ما شرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله الصادق الأمين ما يسلكه فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم . ومن تتبع أخبار الداخلين فى الإسلام ، وجد الكثير منهم كان يعتقد الإسلام بمجرد

أن يعرض عليهم الإسلام ، ويتلى عليهم شيء من القرآن — أما اقتراح المعجزات والإخبار بالغيب من بعض المعتنقين فإنهم يريدون به التهمك واللجاج ، لأنه كان يطالبهم بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ، وهم يطالبونه بما ليس من شأنه ، ولا من حدود وظيفته . من ذلك ما حكى الله عنهم : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً : أو تسقط السماء كما سقط علينا كثماً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولم نؤمن لربك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » ومنه .. « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » كالناقة والعصا واليد وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . ومنه « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأنيكم إلا بفتنة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولهذا رد عليهم بقوله « قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى الشؤء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

الثاني الأساليب الحكيمة

إن للحق والفضيلة نوراً وجمالاً ساحراً جذاباً تشعر به النفوس بأصل فطرتها ، غير أن نفوساً قد انحرفت عن سنن الفطرة السليمة لسوء المنبت ، أو فساد التربية بحكم الوراثة والبيئة الرديئة ، فصارت لا تبصر نور الحق ، ولا يروقها جمال الفضيلة ، يظهر أمامها الحق واضحاً فتراه باطلاً ، وتتجلى بين يديها الفضيلة فتراها رذيلة . وأصحاب هذه النفوس القذرة تراهم بالحشرات أشبه ، يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم (فمن العناء سياسة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذئب) لأن أمثال هؤلاء لا يميلون إلى الرشد والهدى ، بل يألفون النقي والضلال ،

ومن هذا النوع الخبيث عصابات كثيرة مئى بها الإسلام ، ورسول السلام صلوات الله وسلامه عليه أثناء قيامه بالدعوة ، فلم ييأس من إصلاحهم ، وكان يعالجهم وكل الطوائف بالحكمة البالغة ، والعظة النافذة ، فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة للعقول ، خفيفة على القلوب ، فيدعو بالبرهان الجلى ، والحجة القاطعة طلاب الحقائق ، وهم خواص القوم ذوى النفوس القوية ، وبالخطابيات المقنعة ذوى النفوس الضعيفة ، ويدعو للماندين المجادلين بالباطل بأحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين ، تلبية لأمر مولاة « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » فكان صلوات الله وسلامه عليه يسلك الطرق الكفيلة بنجاح دعوته ، ويورد لكل مقام مقالا يليق به ، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها ، كما سيأتى بيانه .

فن أساليبه الحكيمية فى الدعوة — أنه كان يسأل عن الشيء الخاص فيجيب بما يتناوله وغيره ، حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره كقوله : « إن الإسلام يَحِبُّ ما قبله » فى جواب من قال له : استغفرلى . وهو رجل من بنى محارب كان يؤذى رسول الله أيام كان يعرض نفسه على القبائل ، فلما جاء ذلك الرجل فى السنة العاشرة فى وفد بنى محارب مسلماً ذَكَرَ النبيّ بما كان يصنمه معه من الأذى ، واستعطفه بطلب المغفرة عن صنيمه ، فأجابه بما يفيد عدم المؤاخذة عن كل من اعتنق الإسلام ، أياً كانت سيئاته التى أسلفها قبله ، وقد كان يكفيه فى الجواب أن يقول له « غفرت لك » .

ومنها — الإيجاز إذا اقتضى الحال ذلك كما فى مكاتباته للملوك والأمراء ، والأطنابُ عند مقتضى الحال كما فى خطبه فى الحث على التزام الأحكام أو التحريض على القتال ، وتوجيه النفوس إلى التجميل بالفضائل . كما يعلم ذلك بالنظر فى خطاب الله تعالى لمشركى العرب قبل الهجرة ، وخطابه تعالى لليهود بعدها كما سيأتى إيضاحه .

ومنها — إعطاء الوسائل صورة ماتقضى إليه ، كما فى قوله صلوات الله وسلامه عليه : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » : رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى

من حديث ابن مسعود . فقد صور للسامع الدلالة على فعل الخير في صورة الفعل نفسه ، لأنهما في الأجر سواء . وكقوله : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » . رواه مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو . فقد أعطى من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه لأنه تسبب في سبهما .

ومنها ضرب الأمثال وصوغ التشابيه التي تهدي إلى الحقيقة ، فإن للتمثيل أثراً كبيراً في إظهار الحقائق الخفية ، وتقريب المعاني البعيدة ، حتى تصير واضحة مألوفة ، كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . وقوله : « ترى المؤمنين في تواصلهم وتراحهم ونشاطهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وراه البخارى من حديث النعمان بن بشير . فقد مثل المؤمنين في تبادل المودة والرحمة والمطف بالجسد في روابطه العضوية ، إذا اعتل عضو اعتلت باقي الأعضاء . وهكذا تكون المؤمنون الكاملون . فهو يرشدنا بهذا الأسلوب الحكيم إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين من الاتحاد والوثام لتقوية أواصر الروابط والمحبة .

الثالث الآداب السامية

قد تكون الدعوة قوية الحجة حكيمة الأسلوب . ولكن بعوزها شيء من الآداب الراقية وحسن التصرف ، إذ لا يكفي في الدعوة إلى الحق أن يطرق الداعي بها الأندية والمجتمعات أو يمرضها على الأفراد في مختلف الأوقات ، دون أن يكسوها من جمال الأدب ما يجعلها حسنة السمات ، بعيدة الأثر في نفوس السامعين ، فكم من خطيب مصقع ونصيح موقوّه ، يغشى المجالس ويترامح الدعاة الناصحين في الدعوة إلى الحق والفضيلة فلا يكون نصيبه إلا أعراض الناس

عن دعوته كما يعرضون عن البضاعة المزجاة، ولو علموا العلة في ذلك لأصلحوا أنفسهم أولاً وألبسوها حلة الأدب وخلعوا على دعوتهم من هذه الخلل النفيسة، فإن كل من يتصدى لتكميل الناقصين، وإصلاح النفوس، لا بد أن يكون مثلاً أعلى في الاستقامة والخلق الفاضل؛ لهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه داعياً إلى الله بأخلاقه وأعماله قبل أن يكون داعياً بقاله. وهذه هي الطريقة المثلى التي شيد عليها صرح الإسلام، وأحكم بها دعائم الإيمان، فكان صلوات الله وسلامه عليه قدوة حسنة، وشخصية ممتازة بكل مزايا الأدب والكمال، التي تكون في الدعوة إلى الخير والفضيلة، أدبه مولاه فأحسن تأديبه، وربّه فأكمل تربيته كما قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» متفق عليه. وأثنى عليه بقوله تعالى: «وإنك لعلی خلق عظیم» وكثيراً ما كان يظهر أدبه في أقواله وفي أعماله كالأمثلة الآتية:

١ - أنه كان يأخذ فيها بالرفق والحلم والثبت والصبر، فكثيراً ما كان يلحقه الأذى من سفهاء المشركين فيلتفاه بالصبر الجميل، امتثالاً لقول ربه: (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم). وكان يرميه بعض الجفأة من الأعراب بالكلمة الغليظة الخبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام والإنعام، تلبية لقول مولاه (فاصفح الصفح الجميل) وهو الذي لا عتاب بعده، ثم هو بعد ذلك يعرض عليهم دعوته في لين من القول، معرضاً عن جهل الجاهلين، وعت المشاغبين - وكان في استرساله في دعوة إلى الله تعالى مع ثباته واحتماله مثلاً يحتذى وإماماً يقتدى.

٢ - تنزله مع المدعوين إلى حد أنه كان يتقدم إليهم بأجمل عبارات التلطف والمجاملة كقوله: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم». رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ - أنه كان لا يواجه أحداً بعينه عندما يريد أن يؤذبه أو يزجره مادام يجد في الموعدة العامة كفاية، وهذا من الأدب الراقى البالغ منتهى الحكمة، قالت

عائشة رضى الله عنها : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعهُ ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية » . متفق عليه . إلى غير هذا من المثل العليا في أدبه الذي كان من أكبر الأسباب في نجاحه في دعوته .

الرابع السياسة الحكيمة

لقد كان سياسته الحكيمة عظيم الأثر في نجاح دعوته ، وإنشاء دولته ، وقوة سلطانه ، ورفعة مقامه ، إذ لم يعرف في تاريخ السياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحين في أية أمة من الأمم ، كان له مثل هذا الأثر العظيم ومن من المصلحين المبرزين سواء أ كان قائداً محنكاً أو مربياً حكماً ، اجتمع لديه من رجاحة العقل وأصالة الرأي وقوة العزم وصدق الفراسة ، ما اجتمع في رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولقد برهن على وفور ذلك كله فيه صحة رأيه ، وصواب تدبيره ، وحسن تألفه ، وأنه ما استغفل في مكيدة ، ولا استعجز في شديدة ، وإليك أمثلة من سياسته الحكيمة في الدعوة إلى الله تعالى :

١ - كان صلوات الله وسلامه عليه يتحرى بالموعظة أوقات الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها ، حتى لا يجعل الوعظ على الناس ركماً فيتناقلوا عن سماعه ويفوتهم كثير من إرشاداته النافعة ، ونصائحهم الغالية . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا — أو قال يتحنينا — بالموعظة كراهة السامة علينا » . متفق عليه . وقريب من هذا تشويقهم إلى العلم بالشيء الذي يريد بيانه بالاستفهام عنه ، كقوله لابن مسعود رضى الله عنه : « هل تدري ما حق الله على عباده ؟ فقال : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . متفق عليه .

٢ - أنه كان يفعل الشيء في بعض الأحيان مسaire لمن يعلم أنه يريد فعله ، كاتخاذ خاتماً من فضة نقشه (محمد رسول الله) لتوقيع رسائله إلى بعض الملوك ،

حينما أراد أن يدعوم إلى الإسلام ، وقيل له : إنهم لا يقرءون إلا كتابا مختوما . وهذا فيما يرجع إلى العادات ، ولم يكن في فعله جناح يستدعى تركه .

٣ — أنه قد يترك الأمر الذي لا ضرر فيه اتقاء للفتنة : كما ترك هدم الكعبة وبناءها على أساس إبراهيم ، اجتنابا لفتنة قوم كانوا حديثي عهد بجاهلية ، وقال لعائشة رضى الله عنها : « لولا قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت هدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وبلغت به قواعد إبراهيم » . متفق عليه .

٤ — تأليفه القلوب بالمال ، فكان يؤثر بعض حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال ، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية بالإسلام ، وهذا إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم رسوخاً لا تنزله الفتن . وإلى أمثال هؤلاء أشار صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « يا سعد إنى لأعطي الرجل وغيره أحب إلىَّ منه ، خشية أن يكبه الله في النار » . أخرجه البخارى . وفي رواية مسلم من حديث ابن شهاب « خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه » — كبه الله لوجهه من باب رد : صرعه — أما ما كان يعطيه بعض أشراف قريش قبل الدخول في الإسلام فليس لنشر الدعوة ، لأنها كما تعلم تعتمد قبل كل شيء على البرهان والحجة ، وإنما كان إعطاؤهم لتلافى أحقادهم ، لأن الهدايا تذهب بالأحقاد ، وتجمع القلوب إلى القلوب . وغايتها أنها تجعل النفوس متهيئة للنظر في صدق الدعوة ، وصحة العقيدة ، فإنها تتصل بالقلوب من ناحية الآيات البينات ، والبراهين الواضحة ، وهذا النوع وما قبله هم المؤلفون قلوبهم ، وهم صنف ممن شرع الله لهم إعطاء الزكاة بآية « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » .

٥ — تألفه بالجاه ولطف الكلام ، كما كان في موقفه مع الأنصار حين منَّ على رجال من قريش بكثير من المال . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : « أفياكم أحد من غيركم ؟ فقالوا : لا ! إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم .

قال : إن قریشاً حدیثو عهد بجاهلیة ومصیبة ، وإنی أردت أن أجبرهم وأنألفهم ، أما ترضون أن یرجع الناس بالدنیا وترجعون برسول الله إلى بیوتکم ؟ لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » متفق علیه .

٦ — تألفه بالمعروفی موضع الانتقام ، والإحسان فی مكان الإساءة ، عن أبی هريرة رضی الله عنه قال : « بعث النبی صلی الله علیه وسلم خیلاً قیل نجد فجاءت برجل من بنی حنیفة یقال له ثمامة بن أثال فربطوه بساریة من سواری المسجد ، فخرج إلیه النبی صلی الله علیه وسلم فقال : ما عندک یا ثمامة ؟ فقال . عندی خیر یا محمد ، إن تقتلنی تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم علی شاکر ، وإن كنت ترید المال فسل منه ما شئت . فترك حتی كان الغد قال له : ما عندک یا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم علی شاکر . فتركه حتی كان بعد الغد فقال : ما عندک یا ثمامة ؟ قال : عندی ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نجد قریب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! یا محمد ! والله ما كان علی الأرض وجه أبغض إلی من وجهک ، فقد أصبح وجهک أحب الوجوه إلی ، والله ما كان أبغض إلی من دینک ، فأصبح دینک أحب الدین إلی — أو قال الأديان — والله ما كان بلد أبغض إلی من بلدک فأصبح بلدک أحب البلاد إلی » . متفق علیه . النجیل : قليل الماء . وعن أنس بن مالك رضی الله عنه قال : « كنت أمشی مع رسول الله صلی الله علیه وسلم وعليه برد نجرانی غلیظ الحاشیة ، فأدرکه أعرابی فجذب بردائه جبذة شدیدة ، قال أنس : فنظرت إلی صفحة عاتق النبی صلی الله علیه وسلم وقد أنرت فیها حاشیة الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : یا محمد سُرّ لی من مال الله الذی عندک . فالتفت إلیه فضحك ثم أمر له بمطاء » . متفق علیه .

٧ — تألفه بالاین وترك الشدة فی موضع المؤاخذة — كثيراً ما كان یصادف مخالفة لأمره ، أو جحوداً لفضله ، فیقابل الخائف بالتسامح ، ویجزی الجاحد بالزید ،

حين يصل التألف ، ولا يكون هناك مجال للتقاطع . فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :
لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم قال : « إنا قافلون إن
شاء الله ، فنقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ وقالوا مرة نقفل . فقال : اغدوا
على القتال فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فأعجبهم ، فضحك
النبي صلى الله عليه وسلم . » متفق عليه . ومن هذا القبيل ما وقع في غزوة أحد من
مخالفة الرماة لأمر الرسول بالابحار مواضعهم ، ثم برحوا المكان الذي أوصاهم
بملازمتهم ، وكان ذلك سبباً في هزيمة جيش المسلمين ، أتى أن النبي صلوات الله
وسلامه عليه أخذهم وأغلظ عليهم ؟ كلا بل قابلهم باللين والرفق ، فعفا عنهم ، ولم
يقابلهم بالشدّة والعنف فأنى الله عليه لتلك بقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت
لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم
وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين) فظاً :
سوء الخلق . غليظ : قاسى القلب . وجلة الأمر أن القوم لما انهزموا أولاً يوم أحد
لم يعامل هؤلاء الرماة بالشدّة والقسوة ، بل باللين والرفق . فكان هذا تحقيقاً لقوله
تعالى في مدحه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وكيف لا يكون كذلك وهو يقول صلوات الله
وسلامه عليه : « لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض
إلى الله تعالى من جهل إمام وخرُّقه » وهو بالضم ضد الرفق . وعن جرير بن عبد الله
رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يحرم الرفق
يحرم الخير كله » . رواه مسلم . فلما كان صلوات الله وسلامه عليه إمام الداعين ،
وسيد المصلحين ، وجب أن يكون أوفهم حليماً وأحسنهم خلقاً

وعن هذه المعاملة الحسنة اجتمع قلوب أصحابه حوله فتفانوا في محبته والدفاع
عن دعوته بمؤازرته ومناصرته — وليس ما يبدو من مخالفة الأصحاب إلا أمور
نادرة صورية ينفذ كل البعد أن يقصد بها المخالفة ، بل مشارها ، على ما يظهر من

فخواها ، إنما هو الرأى والاجتهاد ، كتوقفهم عن التحلل من عمرة الحديبية إلى أن تحلل منها الرسول أمامهم فتابعوه ! وكادوا يقتلون من نهاقتهم على متابعتهم — وكاستعظامهم لبعض شروط المعاهدة ، حتى قال الفاروق رضوان الله عليه : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فلم تعطى الدنيا في ديننا ؟ ثم تبين لهم حسن تصرف النبي وصواب عمله فتابعوه وأثنوا عليه .

وأما مجازاته لمنكر الإحسان بالمزيد ، ومعاملته باللين وعدم التعنيف ، فلأن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : « أحسنت إليك يا أعرابي ؟ فقال الأعرابي : لا ! ولا أجلت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال . أحسنت إليك ؟ قال نعم ! جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببت قتل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك . فلما كان العشي جاء فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أ كذلك ؟ قال الأعرابي : نعم ! جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً » ذكره في الشفاء وعن الحسن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤاخذ أحداً ولا يقرف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد — أى لا يسمع وشاية الواشين — ويقرف : يعيب ، من قرّفه إذا عابه

٨ — تألفه بالصبر على الأذى واحتماله له من أعدائه ، حتى كان فيه المثل الأعلى للدعاة إلى الخير . أودى في الله في نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعاً حكيماً ، وصبوراً كريماً ، فكم ناله من أذى المستهزئين وكيد المناقنين ؟ فالج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى ، حتى جعل له من أمره فرجاً وصار يهد لأصحابه سبيل المهاجرة ، حتى أذن له فيها ، فهاجر وقبض الله له من الأنصار المخلصين من استعان به على نشر دعوته ، وإقامة دينه — نعم أودى في

سبيل الدعوة إلى الله حين لم يؤذ أحد في الله إذ ذاك ، فكان يقابل الأذى بالصبر الجليل ، ويعامل أعداءه بالمداراة ، ويتألفهم بحسن المصانعة ، فكان يقابل الحق ، والخرق بالحلم والرفق ، والصلب واللجاج بالوداعة والأناة ، وما كان ذلك ليضعف من عزمه فيثنيه عن تبليغ أمر الله والمضى في سبيله السلمي ؛ بل ما فتى يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتي هي أحسن ، حتى ظهر أمر الله وانتصر عليهم بيد رحمة الله إحدى الطائفتين العير أو النفير ، وأمدده ربه بخمسة آلاف من الملائكة مسومين — بكسر الواو وفتحها معلين — فقتل منهم نحو السبعين من بينهم عتبة بن ربيعة داهية الحرب ، وابنه الوليد ! وأخوه شيبه ، وأبو جهل ، وابن مُعيط ، وغيرهم ممن كانوا يؤذون الرسول وأصحابه ، ويعنون ويحرضون ولا يستحون — أظن أنه تشفى منهم بعد ذلك بالتمثيل ؟ كلا : فما جدع لهم أنفًا ، ولا صلح لهم أذنًا ، ولا بقر لهم بطنًا ، ولا لآك لهم كبدا . وكان كل هذا في استطاعته — بل أمر بهم فدفنوا في القليب ، ثم وقف وقفة الأسف يناديهم بأسمائهم : يا عتبة بن ربيعة ! يا شيبه بن ربيعة ! يا أبا جهل ! إلخ ، أيسرركم أنسكم كنتم أطعمتم الله ورسوله فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا . متفق عليه . وقد أسر منهم نحو هذا العدد — أترى أنه فتك به ليستريح من عنائه والسيوف لم ترد إلى أعناده ، وقد كانت أرواحهم على شفرائها ؟ كلا ! بل أخذته العاطفة عليهم فقبل الفداء من بعضهم ومن على الآخر بغير فداء ؛ حتى عاتبه الله في شأنهم . وهذا لعمرك من الرحمة والحكمة . أجل ، إن في صنيعه هذا لسياسة رشيدة ، وحكمة بالغة وعبرة يدق — إلا على من نظر بنور الله — الاعتبار بها .

ذلك أن أتباع الرسول وإن تمسوا في ذلك الوقت للانتقام إلا أن منهم من كان يمت للأسرى بالعصية النسبية . أو بالمصاهرة ، أو بالصدقة القديمة ، وإن مرق الإسلام وقطع كل هذه الصلات ، إلا أن الأتباع كانوا حديثي العهد بالجاهلية فكان من الحكمة ألا يستثير النبي حفيظتهم . وحسبك موقفه صلوات الله وسلامه

عليه في العفو عن سادة قريش وقد أمكنه الله من رقابهم عند فتح مكة ، فقد انتصر عليهم ووقعوا في أصفاد الأسر ، ومع هذا من عليهم باطلاق سراحهم فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن سياسته الحكيمة تألفه أصحابه بحسن المعاملة ، ويتجلى هذا فيما نعمته به أصحابه من أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أوسع الناس صدرأ وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، يؤلف الناس ولا ينفهم ، ويكرم كريم القوم ويوليهم عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل أحد من جلسائه نصيبه — من جالسه أو قاربه الحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، حتى صار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء . وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخاب (صخب من باب تعب ورجل صخب وصاحب وصخاب كثير اللفظ والجلبة) ولا فاحش ولا عياب ، ولا مداح : فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، مادعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبيك » متفق عليه . وعن أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفاً ، والله ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده صلى الله عليه وسلم إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزع » رواه أبو نعيم . وهذا غاية في حسن المعاملة . وفي أثر آخر عن أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ » أي ما شأنه وما حاله . متفق عليه . ولا يخفى ما في المحالطة من دفع الوحشة وتوفير أسباب الألفة — والنغير تصغير نغر وهو طائر صغير كالعصفور كان ذلك الصبي

يلعب به فئات . فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يواسيه ويمارجه . وعن الصعب ابن جثامة قال : أهديت إلى رسول الله حماراً وحشياً فرده علي ، فلما رأى ما في وجهي قال : « إنا لم نرد عليك إلا لأنا حرم » . متفق عليه . فأى لطف أحسن من هذا ؟ وأي شعور أرق من هذا ؟ وعن جرير بن عبد الله : « ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رأيتني إلا ابتسم في وجهي ، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخليل فضرب بيده في صدري وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً » . متفق عليه . ما حجبني أي معنى من الدخول على مجلسه المختص بالرجال . بل كان يرجع عن رأيه إلى رأي بعضهم وبشاورهم في الأمر فينزل على رأي أفلهم ، كما هو معروف في غزوة بدر ، أنه نزل منزلاً للقتال فقال له الحجاب بن المنذر إن كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة . فقال : « باجتهاد ورأى » ثم ارتحل عنه كما هو مبسوط في السير — وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولا يخفى ما في مشاورتهم من تطيب نفوسهم وتأليف قلوبهم ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن بحاجة إلى مشاورتهم بما ينزل عليه من الوحي ، وبما وهبه الله تعالى من نور البصيرة ورجحان العقل ، ولما كان استقلال الولي بالرأى يشعر باستبداده وترفعه وعدم المبالاة بالرعية ، ومن شأن هذا أنه يورث الغضاضة ، ويستثير الحفيظة . ولا سيما من النفوس العربية ، اقتضت شرعته الحكيمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ، ولا سيما في أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعرهم بمكاثمهم عنده واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم في الأمر) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة في أمتي ، فمن شاور منهم لم يعدم رشداً ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » . وقال الحسن رضي الله عنه : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة . ولكن أراد أن يستن من بعده — وعلى الجملة فالشورى

ركن عظيم من أركان الاجتماع ، فإن الأمة إذا اختارت من بين أفرادها رجالا عرفوا بالفضل وسداد الرأي وحسن تصريف الأمور . وعهدت إليهم بمعاونة الحكام في سن القوانين ومراقبتهم في تدبير الشئون ، كان ذلك أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ فيها ، وأضمن لرعاية مصالح الرعية وحفظ حقوقهم وعدم الاستبداد فيهم ، ولذا جعل الله الشورى أساساً للحكم في الإسلام ، وأمر نبيه بها ، وامتنح القاعين بها في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » بل كان يسوسهم بالنزول معهم إلى أبعد من هذا . روى أنه عليه الصلاة والسلام « كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر على سلخها . وقال آخر على طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جمع الخطب . فقالوا يا رسول الله نكفيناك العمل ، فقال علمت أنكم تكفونني ولكنني أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وكان يباسط أصحابه ويمازحهم ، فقد كان رجل يسمى زهيراً يهاديه بما يستطرف من البادية ، وكان الرسول يكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، ويقول « زهير باديتنا ونحن حاضرته » وجاء يوماً إلى السوق فوجد زهيراً قائماً فجاءه من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه الرسول فجعل يمسح ظهره في صدره وجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : « من يشتري العبد ؟ قال زهير : إذن تجدني كاسدا . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت عند الله غال » .

ومن حسن المعاملة أنه كان يدعو أصحابه بكنائهم وأحب أسمائهم ، وإذا أتى قوماً جلس حيث ينتهي به المجلس ، لا يجب مظاهر التفضيم من القيام والتزلف إليه بزخرف القول ، يؤثر أهل الفضل ويحذر الناس ويحترس منهم دون أن يمنع أحداً منهم بشاشته وبشره ، وكثيراً ما كان يتغافل عما يعافه ويعرض عن يتكلم بغير الجليل ، ولا يواجه أحداً بما يكره ، أفضلهم عنده أهمهم نصيحة وأكثرهم نفعاً للناس ، مجلسه مجلس هدى وعلم وحياء وحلم وأدب وخير ، لا مجال فيه للوشاة والسعاة بالنميمة ،

كما لا تذكر في مجلسه البيوب — ومع رفقه بجلساته ونزوله إلى مستواهم كان مهيباً جليلاً ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا فيما ينفع . ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه ، إلى غير ذلك مما لا يتفق مثله للقياصرة والأكاسرة وأكبر الناس رهبة وهيبة . توافرت عنده الأموال فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ، بل كان ينفقها في وجوه الخير والإصلاح وينفق بها الفاقة من الناس ، وما أكثر ما كان ينفقها في مصالح المسلمين وكف عدوان المشركين وكسر شوكة المعتدين ، وكثيراً ما كان يبني على الطوى وعنده الكثير من المال ، فما ينام ولا يهدأ له بال إلا أن يقوم فيقسمه على المستحقين ، ومن لم فيه أمل ، ثم يعود فينال حظه من النوم — روى أن عمر رضى الله عنه قال في جمع من الصحابة : إن الله قد كان خص لرسوله في هذا النى شيئاً لم يمطه أحدا غيره ، فقال جل وعز « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الآية ، فكانت خالصة لرسول الله ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، ولقد أعطاكموها حتى بقي منها هذا المال . وثبت أن ابنته فاطمة سألته خادماً عما أتى به من الرقيق ، وقد أثرت في يدها الرحي من شدة العمل ، فلم يجبهها إلى ما طلبت باعتبارها واحدة من نساء المؤمنين ، وما كان عنده من الرقيق لا يكفي لجميع نساء المؤمنين . ولم يقف في معاملة أصحابه عند حد القول ، بل كان يقول ويفعل معهم كما يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلى » رواه مسلم . الضياع بالفتح : العيال — إلى غير ذلك مما حقق به مبادئ الفضيلة والعدالة والمساواة ، ورباهم عليه حتى اجتمعت قلوبهم إليه وملكوه أعنتها ، بل وهبوه أرواحهم وأمواهم ، يجاهدون بها في سبيل نشر دعوته وإعلاء كلمة ربه ، صابرين مخلصين .

هدية في تربية أصحابه على الأخلاق السامية

وذلك يتجلى بكل معانيه في معاملته لم على النحو الذي قدمنا ، لأن لم به أسوة يحرسون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلمهم إلى ذلك بحسب ، بل كان يتمهدم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة . ويمرهم على الأخذ بها ويشجع الحسن منهم ولو بالكلمة الطيبة حتى تصير ملكة وخلقا ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون . من إرشاده إلى الأخلاق الفاضلة قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب النواب واستكمل الإيمان : خلق بعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » . أخرجه البزار من حديث أنس . وقوله : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة . وعن عبد الله ابن عمرو رضی الله عنه أنه قال : أراد معاذ بن جبل سفراً إلى جهة فقال : يا نبي الله أوصني ، قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً قال : زدني . قال : إذا أسأت فأحسن . قال زدني . قال : استقم وليحسن خلقك » . أخرجه ابن حبان في صحيحه . وقوله : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة . وقوله : « عفوا تعفّ نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » . رواه الطبراني من حديث عائشة . وقوله « مامن شيء بأثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذي » . أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء : البذي بفتح فكسر ثم تشديد الذي يتكلم بالفحش وردى الكلام . وقوله : « خيار عباد الله الذين إذا رؤا ذكر الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالقيمة المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب » رواه أحمد وغيره من حديث عبد الرحمن ابن غنم : « إن خياركم أحسنكم أخلاقا » متفق عليه « إن لله خلقا خلقهم لخواجج

الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » رواه الطبري وغيره « أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تطرد عنه جزعاً ، أو تقضى عنه ديناً » رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا وإذا كان عليهم لم يظأوا ، وإذا كان لهم لم يمسروا » رواه البيهقي من حديث معاذ رضى الله عنه . مطل من باب نصر وعسر غريمه طلب منه الدين على عسرته ، بابه ضرب ونصر ، وعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضى الله عنهما كلام فقال عمار : لقد هممت بأن لا أكلمك أبداً . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا خالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا وقال لعمار : إن خالدًا يعمار سيف من سيوف الله على الكفار ، قال خالد : فازات أحب عماراً من يومئذ » . « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر ابن عبد الله . « إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيراً منحه خلقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منحه خلقاً سيئاً » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة . « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قلت يا رسول الله وما بوائقه ؟ قال : غَسْمُهُ وظلمه » أخرجه أحد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . الغشم بفتح فسكون الظلم فالعطف تفسير . « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح . « من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله

ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أسر دنياه » أخرجه الحاكم عن ابن عمرو . وقال أنس رضى الله عنه : « لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي قط أف ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله إلا فعلت كذا » . متفق عليه — هذا إلى ما غرسه في نفوسهم من ملكة النظر والبحث والاستنباط ، إذ لم يكن همهم على المعجزات بل توجيه النفوس إلى النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق — كاستبصار .

فنشأ من ذلك (١) معرفة الخالق التي هي رأس المعارف والعلوم اليقينية ، (٢) تقوية غريزة حب النظام والجمال ، وناهيك بجمال الطبيعة . (٣) تربية ملكة تقدير الجمال والنظام والبحث في الروابط والأسباب ، وفي ذلك تربية الأفكار وتنمية العقول لأن شأنها الميل إلى التعليل والاستنتاج ، وناهيك بتربية العقول والأفكار وما ينشأ عنها من الآثار الحسنة ، ولهذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح من الشخصيات اليقظة التي لا تتخذها الشموذة والخرافات والأوهام ، بل قل أن تجد للكهانة بين أبناء الأمة الإسلامية سوقا نازقة كما تجدها في سائر الديانات ، ذلك أن الإسلام قام على النظر في البرهان (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) — (٤) غرس مبادئ قوة العزم والرأى واستقلال الفكر والاعتماد على النفس ، ولهذا لم يجد النبي صلوات الله وسلامه عليه في أصحابه ضعفا في مواقف الجدد ، فلم يجد همهم فاترة وعقولهم قاصرة ، كما وجد موسى عليه السلام في بني إسرائيل ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبونه بلسان الخائر الجبان (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ألا بعداً لقوم لا يؤمنون ، لهذا كانوا يقترحون الآيات ويمعنون في طلب المعجزات ؟ كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا .

أثر هديه العظيم في تربية أصحابه

لقد كان لهذه التربية الحكيمة أثرها البالغ في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين — فهذا المقداد بن عمرو يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه

حين أخبرهم عن عزمه على لقاء الأعداء في غزوة بدر : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلفه . فدعا له بخير -- و برك الغماد موضع في أقصى أراضي هجر .

وهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثل ذلك حين قال النبي في هذا الموقف الرهيب « أشيروا على أيها الناس - يريد الأنصار - لأن العدد فيهم ولأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لاتبج عليهم نصرته إلا مادام بين أظهرهم ، فإن فيها (يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا) فقال سعد بن معاذ : كأنك تريدنا يا رسول الله . فقال أجل . فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا المدو غدا ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسر بذلك . نعم قالوا ذلك للرسول عن عقيدة ثابتة وعزيمة صادقة ، لأنهم كانوا مؤمنين عن نظر في الدليل وتفكير في البراهين ، فضلا عن نظرم في قوة إيجاز البيان ، والنظم الذي جاء به القرآن ، فلماذا وقالوا الإيمان يملأ نفوسهم ، والعقيدة تملك عليهم مشاعرهم وحواسهم « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فامض يا رسول الله لما أمرت » ذلك بعزيمة ماضية لانهاب الموت ، وأقوى مما تكون العزيمة إذا مازجتها العقيدة وخاطبتها بشاشة الإيمان ، ولذلك جاهدوا مع نبيهم حق الجهاد ابتغاء رضوان الله الذي اهدوا إلى معرفته بقولهم السليمة ، وكانوا

مخلصين في جهادهم ، وكانوا صادقين في إخلاصهم ، وكانوا مؤمنين بحقهم وباطل عدوهم ، وكانوا واثقين بنصرهم لأنهم نصر الله ، وكان لسان حالهم يقول (قل هل تر بصون بنا إلا إحدى الحسينين) : النصر أو الشهادة ، ولذا كانوا كالجبال الراسيات التي لا تزلزلها العواصف ، بل كانوا كالصواعق على أعداء الله ورسوله ، ولهذا خطوا أول خطوات النصر في موقفهم هذا يوم بدر ، ثم تتابع النصر وما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم من القرع ، ولا سيما بعد أن أساهم الله في كتابه بقوله (إن يمسك قرع فقد مس القوم قرع مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس) القرع بالفتح والضم الجراح والقتل ولذا ساروا إلى الأمام حتى أعز الله بهم الإسلام وظهرت كلمته على سائر الأديان . وحسب الرسول صلوات الله وسلامه عليه من آثار هديه العظيم هذا الأثر البالغ الذي تجلى بأكل معانيه في عزم أصحابه وعلو همتهم ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على مبدأ العدالة والمساواة ما تجلى أيضا بأكل معانيه في الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على قوة الثقة بالله تعالى بالتوكل عليه ورجاء الثبوت عنده ، ما تجلى بأكل معانيه في الناسك عثمان رضي الله عنه ، « أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما خلقت وراءك لأهلك يا عمر ؟ قال خلقت لهم نصف مالي . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : ما خلقت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟ فقال عدة الله وعدة رسوله فيكي عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير إلا كنت سابقنا » . رواه ابن أبي حاتم من حديث عامر الشعبي . وعن عبد الرحمن بن خباب قال : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة « فقال عثمان بن عفان : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حصص على الجيش فقال عثمان : يا رسول الله على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حصص على الجيش فقال عثمان : يا رسول الله على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فنزل

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ماعلى عثمان ماعمل بعد هذا » . أخرجه أحمد والترمذى . والأحلاس جمع جلس : وهو كساء يُجعل على ظهر البعير تحت رحله — والقتب غطاء يوضع على ظهر البعير كالأكاف لغيره وما إلى هذا مما لا نطيل به والله الهادى إلى سواء السبيل .

كتبه صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك والأمم

لقد سن لنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سنة حسنة بمكاتبته الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يبلتوا أمهم ، فذكر كتبه إلى الملوك والأمراء لتكون عوناً للدعاة العاملين ، ونبراساً للهداة المرشدين ، فنقول : بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر السنة السادسة من الهجرة ، كاتب صلوات الله وسلامه عليه ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبي بكتاب إلى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك ، وكان في الكتاب على ما ثبت في الصحيحين :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم : أسلم يؤتاك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً آرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » . سلام على من اتبع الهدى . معناه سلم من عذاب الله من أسلم ، فليس المراد به التحية ، وإن كان اللفظ يشعر به ، لأنه لم يُسلم فليس هو ممن اتبع الهدى : الأريسيين جمع أريسي نسبة إلى أريس كقميل وهو الفلاح ، بصدده إياهم عن الإسلام (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى عليك مثل إثمهم .

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا أحداً من قومه نسأله عنه
— وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة — فجاءت رسل
قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه في القدس قال
لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان :
أنا — لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره — فقال قيصر : أدن مني ،
ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا
أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه كي لا تنجولوا
من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو
فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال لا ، قال هل كنتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال : فهل كان من آباءه من
ملك ؟ قال لا ، قال فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . قال
هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال بل يزيدون . قال هل يترد أحد منهم سخطةً لدينه
بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال لا ، ونحن الآن
منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قال نعم ، قال فكيف
حربكم وحره ؟ قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا . قال فيم
يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان
يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ،
فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل
تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا .
فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك
هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلت ما كان
ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آباءه من ملك ،

فذكرت أن لا ، فقلت لو كان من آباءه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ،
وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل
وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان
حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، فقلت لا ، وكذلك الإيمان
حين تحالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه ، فقلت نعم ، وإن الحرب بينكم
وبينه سجال ، وكذلك الرسل تُبْتَلَى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم ،
فذكرت أنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبينهاكم عن عبادة الأوثان
ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يندر؟
فذكرت أن لا ! وكذلك الرسل لا تغدر ، فقلت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث
ولم أظن أنه منكم ، وإن كان ما كتبتى به حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، ولو أعلم
أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لقمت قدميه . قال أبو سفيان :
فعلت أصوات الذين عنده وكثر لعنهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ،
فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك
بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام . ولما سار
قيصر إلى حمص جمع عطاء الروم في قصر له فيها ، وأمر بالأبواب فأغلقت ، ثم أطل
عليهم فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا
هذا النبي . فخاصوا حبيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى
قيصر نفرتهم ويئس من الإيمان قال ردوهم عليّ ، فقال لهم إني قلت مقاتلي أختير
بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن
هرقل ، فقلبه حب الملك على الإسلام فذهب بإثمه وإثم زعيته ، ولكنه رد حبيصة
رداً جميلاً - حاصوا . نفروا -

وكتب إلى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي
ملك الحبشة ، أسلم أنت فأني أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس
السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكنيته ألقاها إلى صميم

البتول^(١) الطيبة الحسينة ، فحملت بعيسى فخلق الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

وقد بعث صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري فقال للنجاشي : يا أحممة إن عليّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك في الرقة علينا وكأننا في الثقة بك منك ، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نحضك على شيء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، قاضي لا يجوز ، وفي ذلك الموقع الحزُّ وإصابة المفصل ، وإلا فانت في هذا النبي الأُمِّي كاليهود في عيسى بن مريم ؛ وقد فرّق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمتك على ما أخافهم عليه ، بخير سالف وأجر يُنتظر . فقال النجاشي : أشهد بالله إنه النبي الأُمِّي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارته موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفي من الخبر . ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أحممة ، سلامٌ عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً ، إنه كما ذكرت وقد عرفت ما بعثت إلينا ، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً . وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . والتفروق خلافة بين النواة والقشر .

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله

(١) البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج وقيل المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا

ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » ، أَسَلِمَ تَسَلَّمَ فَإِنِ آيْتِ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْجُؤُوسِ . فلما قرأ عليه الكتاب حرقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مرق الله ملكه . وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً ، وقد بدأ هذا الشقي بالمدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتي به إليه ، فواجهه الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهيه عما أمره به أبوه — وكان الحامل لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي

وكتب صلوات الله وسلامه عليه إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتاك الله أجره مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وبث به صلوات الله وسلامه عليه مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بعيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشد هم عليه قريش وأعداء له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعبسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائكم أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، خالق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولستنا نهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به . فقال المقوقس : إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر

بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا السكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبأ ، والأخبار بالنجوى ، — الخبأ : ما خفي في غيره ، وإخراجه : إظهاره . والنجوى : السر . — وسأنظر . وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فجعله في حُق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك » ؛ ولم يسل . وإحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام جاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاهما الحسان بن ثابت رضى الله عنه . والبغلة دُلْدل بقيت إلى زمن معاوية رضى الله عنه .

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه عنهم كيف رأيتهم قالوا رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا بهجة أمرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يفسلون أطرافهم بالماء ويحشعون في صلاتهم ، وهنا قال المقوقس والذي يحلف به : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد هذا وصف المسلمين أيام كانوا في عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى المنذر بن ساوى

بعث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ،

أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من الجوس فإنه آمن ، ومن أبي فعليه الجزية » . فأسلم وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلى في ذلك أمرك .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، (أما بعد) فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فأبما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفقتك في قومك فآترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم . وإنك مهما تضلح فلن نمرلك عن عمالك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى ملكي عُمان

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى ملكي عُمان كتابا وبمته مع عمرو بن العاص وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدِ ابني الجَلَنْدِي سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوكا بدعاية الإسلام أسلما تسلكا فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين إنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما . وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلكم تحل بساحتكما ونظير نبوتي على ملككما » كتبه أبي بن كعب وختم الكتاب . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان ، فلما قدمتها عدت إلى عبدِ - وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقا - قلت : إني رسولُ رسولِ الله صلى الله

عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسنة والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلتُ أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبد من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام . قال فتى تبيغته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشي ! وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أفره واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نستحل في ديننا . ثم قال : ما أرى هرقلَ علم بإسلام النجاشي . قلت بلى ! قال بأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يُخرجُ له خرّجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال : لا والله لو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته . فبلغ هرقلَ قوله فقال له النّبيّاق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرّجا ويدين بدين غيرك ديننا محدثنا ؟ قال هرقل ؟ رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ؟ لو كان أخى يتابعني عليه لركبنا حتى تؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن أسلم مَلَكَه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال إن هذا خلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل ، قال يا عمرو :

تؤخذ من سواهم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ قلت: نعم! فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عدوهم يطيعون لهذا. قال فسكنت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بَضْعِيَّ — الضبع وسط العضد أو ما تحت الابط — فقال دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه قال تكلم بمحاجتك، فدفعت إليه الكتاب محتوما ففرض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ قلت: تبموه إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بقولهم مع هدى الله أيام أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتقبه نُوطُوك الخليل وتبيدُ خضراك، فأسلم تسلم ويستملك على قومك ولا تدخل عليك الخليل والرجال. قال: دعني يومى هذا وارجع إلى غداً. فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هنا، وإن بلغت خيله أنفت قتالا ليس كقتال من لاقى. قلت: وأنا خارج غداً. فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه. فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً. وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني.

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى ملك اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هُوَذَةَ بن علي، سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر — الخلف للبعير والحافر للفرس ويطلقان عليهما، والمراد إلى غاية ما تصل إليه قوتي — . فأسلم تسلم

وأجمل لك ما تحت يديك ». وقد بعث بهذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامري فأكرم هودّة وفادته وكتب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب ، تهاب مكاني ، فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك . وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر . فقدم بذلك كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . وقرأ النبي صلوات الله وسلامه عليه كتابه فقال : « لو سألتني سبابة من الأرض ما فعلت ، بادّ وبادّ ما في يديه » فلم يلبث أن مات منصور الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة . وكان صلوات الله وسلامه عليه يولي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر

وقد وجه صلوات الله وسلامه عليه شجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شمر الفسّاني ، وكان يقيم بقرظتها ، وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » فلما قرأ الكتاب رمى به وقال : من ينزع ملكي مني . واستعد ليبرسل جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف أن كان دحية عنده فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعاً من غير قتال — ثم بعث بعد ذلك عليّ بن أبي طالب إليهم ووفاه بمكة في حجة الوداع — وبعث المهاجر بن أبي أمية الخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري باليمن ، فقال : سأنظر في أمرى — وبعث جرير بن عبد الله البجليّ إلى ذى الكلاع الحميري وذى عمرو يدعوها إلى الإسلام فأسلما وتوفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وجرير عندهم .

الفصل الثالث

أشهر الدعاة من عهد الرسول وما بعده وهديمهم فيها

لقد كان المسلمون في الصدر الأول ، ولا سيما على عهد الخليفين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، يهتمون بأمر الدين ، فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم ، الذين عاشروا النبي صلوات الله وسلامه عليه وتلقوا عنه ، متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ، ومقاومة كل ما يمس شيئاً من عقائده وأحكامه وآدابه ، ومصالح أهله . فخطبهم في التحريض على القتال دعوة إلى الله تعالى ورفع دينه وإعلاء كلمته ونشر دعوته ، وخطبهم في الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى الألفة والأخاء دعوة إلى الله تعالى ، وخطبهم في الشورى مظهر لفهم الدين ، كل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية . والكل كان مرجعه في هذا كتاب الله وسنة رسوله ، والمبادئ الإسلامية المعلومة من الدين ، وهكذا في كل أغراضهم كان الدين فيها هو الأساس الذي تقوم عليه دعوتهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الدين الخفيف كان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الذي إليه يحتكمون ، والشرع الذي على مقتضاه يسرون ، في كل ما يأتون وما يذرون ، كما يعلم هذا بالوقوف على خطبهم في قواد الجيوش ووصاياهم في عمال الولايات ، ونصائحهم في جمهور الأمة - وكانت عامتهم من ورأيهم يراقبون القائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصلوك من رعاء الشاء يأمر مثل عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب . ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم ورفعة مقامهم ليسوا بمعصومين - وقد صرح عمر رضى الله عنه بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . وقد كان في صدر الإسلام وما يليه يتصدر للدعوة والإرشاد في المساجد العامة والجميعة العامة أجراء العلماء المشهود لهم بالفضل ، وكان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ، ويتبعهم العدد الكثير من

عامة الأمة ، فكان لهم أحسن الآثار وأعظم القوائد في تصحيح العقائد وإصلاح الأعمال ، وتهذيب النفوس ، والإرشاد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

ومن أحرز قصب السبق في هذا المضمار الحسن البصرى ، وهو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى . كان أبوه يسار من سبي ميسان -- بلدة بالعراق -- سباه الأمير المغيرة بن شعبة مع سيرين أبي محمد بن سيرين ، حينما افتتحها في عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى . وكانت أم الحسن -- وتسمى خيرة -- مولاة لأم سلمة زوج النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وفي بيتها ولد الحسن سنة ٥٢١ هـ . وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة نديها تطله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليه نديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كانتا من بركة ذلك . ولشأ الحسن بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة عن الأعراب ، وسمع عثمان ، وروى عن عمران ابن حصين وأبي موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وجندب وزيد بن ثابت الأنصارى . ولما أتم علومه ومعارفه ، وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتباً للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان ، وأحد فاتحها لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن وفضله . وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب في الأعمال والولايات ، مع انقباض مسجد البصرة بعقد فيه مجلسه ليقفه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكمته ، وبينهم معارفه وفلسفته ، وينشر بينهم دعوته السياسية في تثبيت دعائم الدولة ، إلى أن اختاره عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٥٩٩ هـ . وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين . وحقاً لقد كان سيد التابعين ، وإمام أهل العلم والحكمة والرأى في عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة في أعلى مقام مع الزهد والورع ، والنسك والتقوى ، حتى كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن ، وإنه سيد سمح ، وإنه أخطب الناس وأفصحهم ، وإن علانيته أشبه بيسريته ، وسريته بعلانيته ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ناهيك من

رجل استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما في يديه من أمر دينهم .
قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلاً يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال :
رحم الله الحسن ، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله : ، فكيف يعمل بعمله ، كأن والله
إذا ذكرت عنده النار كأنه لم يخلق إلا لها ، وما روى قط إلا وكان النار والجنة
بين عينيه ، خشية ورجاء ، لا يفلب أحدهما صاحبه — وسمته السيدة عائشة
رضي الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ؟ وقيل لعلي
ابن الحسن رضي الله عنهما : إن الحسن البصرى يقول : ليس العجب لمن هلك
كيف هلك ، وإنما العجب لمن نجا كيف نجا . فقال علي : سبحان الله هذا كلام
صديق . وروى عن الأعمش أنه كان يقول : ما زال الحسن البصرى يعني بالحكمة
حتى نطق بها . وسممه آخر وهو يعظ فقال : لله درك إنك لفصيح إذا تلفظت ،
ناصح إذا وعظت . وكانت مجالس الحسن مجالس الذكر يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه
من النساك والعباد في بيته مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السخيتاني
ومحمد بن واسع وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور
فيتكلم عليهم . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصرى .
إلى غير ذلك من الصفات التي ألبسه إياها شيوخ عصره . وقد روى أبو حيان
التوحيدى وصفاً جامعاً له قال :

كان الحسن بن أبي الحسن البصرى من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً
وورعاً وعفة ورقة وتألماً وتنزهاً ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل
إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانياً ، لا قريباً ولا مدانياً ،
كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته في وزن سريرته — عاش تسعين سنة لم يُشرف
بمقالة شنعاء ، ولم يُرَن بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقي الأديم ، محروس الحریم ،
يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسمهم من بيانه ، ويفيض
عليهم بافتقانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقي منه التأويل ، وهذا يسمع منه

الحلال والحرام ، وهذا يجوده المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعدة ، وهو في جميع هذا البحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشبهه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تنبيه لأئمة في الله ، ولا تُذهله رائحة عن الله . يجلس تحت كرسيه فتادة صاحب التفسير وعمرو وواصل صاحبها الكلام ، وابن أبي إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبغى صاحب الرقائق ، وأشبهه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجري مجراه ؟ ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوض غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ، ولسان عاضب ، وأن يكون من دعاة الدولة والذائدين عن كيانها ، المواطنين لدعائمها وأركانها بما أوتي من فصاحة وبيان ، وقوة لسن وافقتان . ومهما أغفل التاريخ من الكلام عن مذهبه السياسى فإن بما لاشك فيه أن الدولة المروانية مدينة له بقوة حكمته وبلغ بيانه . كما هي مدينة للحجاج بقوة سياسته وشدة جنانه وأنت عليم بأثر الدعاية السياسية في بسط نفوذ الدولة وقيام سلطانها في الأقطار ، وانبعاث هيبتها في الصدور . فلما كانت الدولة الروانية قد نشأت في عصر لا يزال الدين غضاً ، كان لا بد للقاءم للدعوة لها من الالتجاء إلى الدين للاستعانة ببعض ما يتصل به من الفكر والآراء والأقيسة ، يشد بها جوانب دعوته السياسية وقد كان ذلك المزيج من السياسية . وقد كان ذلك المزيج من السياسة والدين مذهب الحسن فيما هو بسبيله من هذه الناحية ، من حياته السياسية .

فلولا الحسن وسيف الحجاج ، لوئدت الدولة المروانية في مهدها ، ألم تر إلى الحسن وقد جلس في مجلسه وبين يديه صنوف من الناس على اختلاف الملل وفيهم حتى اليهود والنصارى ، يصغى كل منهم إلى أقواله ، وهو يخرج بهم في أساليب الكلام من باب ويدخل معهم في كل باب ، ثم يقول لهم فيما يحدثهم به : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، وإنما هم نعمة ينفق الله بهم من يشاء ، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع وفي أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه في حلها ، فقال لهم : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : يا رسول الله ألا تسعر لنا ؟ فقال : إن الله هو المسعر ، إن الله هو القابض . إن الله هو الباسط . وإني والله ما أعطيتكم شيئاً ولا أمنعكموه . بهذا وأمثاله كان يزرع هبة الملوك والولاة في صدور الناس ، وبهذا وأمثاله كان يبعث الرضا في النفوس ، غير مصانع ولا مخادع ولسكنه الصدق واليقين والثقة بما يحدث ويقول . ولم يكن يهاب أحداً في قول الحق مهما علا قدره وعزت شوكته .

لما ولي يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق وخراسان سنة ١٠٣ هـ استدعى ابن هبيرة إليه الحسن ومحمد بن سيرين ، وعامر الشعبي ، فلما حضروا إليه قال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة له ، وقد ولاني ماترون فيكتب إلى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ فاستكان ابن سيرين والشعبي تقيّة ولم يجروا واحد منهما على معارضته ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيالك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدينه وعباده . فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله . فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فأكبر ابن هبيرة ذلك منه وأجازهم وأضعف جائزته ، فقال الشعبي لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا . وهذا يدل على ما كان له في الدولة من مكانة وفي النفوس من جلاله .

ومحصل هذا أن الأمير كان يكتب إلى ابن هبيرة كتباً يرى في تنفيذها معصية الله . فيخاف إن أطاعه غضب الله وإن عصاه لم يأمن سطوته فعرض أمره على هؤلاء فهون الشعبي وابن سيرين عليه الأمر ميلاً منهما إلى هوى الأمير . أما الحسن فقد أنكر عليه طاعة الأمير فيما فيه معصية واشتد في الإنكار . وأن هذا الوالي انعظ بقوله وانقاد له وأجرل له في العطاء اشجاعته في الجهر بالحق كما ترى

أما مذهبه الاعتقادي فيظهر أنه كان يرى رأى القدرية كأكثر زعماء المعتزلة وأكابريهم . قال أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، كما في قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » وقال داود بن أبي هند : سمعت الحسن يقول : كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي . وهذا هو بعينه رأى المعتزلة في القدر — وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ رحمه الله . وتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا بشأنه حتى لم تقم صلاة العصر بالجامع في ذلك اليوم ، وكانت هذه أول مرة وقع فيها هذا الحادث منذ كان الإسلام ، وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . هذا قليل من كثير من مناقبه رحمة الله تعالى عليه .

وأبو إدريس الخولاني عائد الله بن عبد الله أحد من جمع بين العلم والعمل ، أخذ عن معاذ بن جبل وكثير من الصحابة ، كان واعظ أهل دمشق وقاصمهم وقاضيتهم قال الزهري : كان أبو إدريس من فقهاء الشام ، توفي سنة ثمانين — وطاوس بن كيسان اليماني الجندی من الأبناء سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم ، وكان رأساً في العلم والعمل والوعظ ، قال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقال الذهبي : كان طاوس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئاً في وعظ الملوك والأمراء ، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة .

وعمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمداني المرحبي الكوفي وكان يكنى أباذر

وهو ثقة في الحديث ، روى له البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .
ووالده أبا ذر بن عبد الله يكنى أبا عمر ثقة أيضاً من أقران النخعي وسعيد بن جبير
روى له الجماعة . كان عمر هذا قاصاً بليغاً مؤثراً إذا وعظ بكى وأبكى الناس . قال
ابن السماك : لما دفن عمر ابنه ذر وقف على قبره فبكى . وقال : اللهم إني أشهدك
أنى قد تصدقت بما تئيبني عليه من مصيبتى فيه عليه . فأبكى من حضر ، ثم قال :
شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، ثم ولى وهو يقول : انطلقنا وتركناك ، ولو أقفنا
ما نفعناك ، ولكن أستودعك أرحم الراحمين . مات سنة ثلاث وخمسين ومائة
رحمة الله عليه .

وابن السماك وهو أبو العباس محمد بن صبيح مولى بنى عجل المعروف بابن السماك
القاص الكوفي ، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ جمع كلامه
وحفظ ، ولقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم ، مثل هشام بن عروة والأعمش .
وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره . قدم بغداد زمن هارون الرشيد ثم رجع إلى
الكوفة فمات بها سنة ثلاث وثمانين ومائة ، ومن كلامه : خف الله كأنك لم تطعمه ،
وأرج الله كأنك لم تعصه . ومنه : من جرعت الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته
الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . ومنه أيضاً : خير الإخوان أقلهم مصانعة في النصيحة ،
وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف
السلطان ، ما لا يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير
الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يختبر ذل الرجال
عند الفاقة والحاجة ، وأخباره ومواعظه كثيرة .

وسفيان الثوري وهو أبو عبد الله سفيان بن سعد الثوري الكوفي كان إماماً
في الحديث وغيره ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وتقاه وثقته ، وهو أحد
الأممجة المجتهدين والهداة المرشدين ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى :
ورغبهم في ثوابه ويحذرهم من عقابه . وكان الناس يختلفون إليه للائتناف به في

دينهم ودينهم ، وله مع الأبرار مواقف مشهودة كما سيأتي . توفي رحمه الله بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة . وثوري نسبة إلى ثور بن عبدمناة من أجداده .

وابن سمعون وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل الواعظ البغدادي المعروف بابن سمعون ، كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ولطف العبارة ، وكان لأهل العراق فيه اعتقاد عظيم ، وتعلق شديد . توفي رحمه الله ببغداد سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

وشذيلة الواعظ ، وهو أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور الجليلي المعروف بشذيلة الفقيه الشافعي الواعظ ، كان فقيهاً فاضلاً واعظاً ماهراً . فصيح اللسان حلوا العبارة ، كثير المحفوظات ، صنف في الفقه وأصول الدين والوعظ . توفي رحمه الله ببغداد سنة أربع وتسعين وأربعمائة - وشذيلة - بفتح فسكون ففتح الياء واللام - لقب له .

والامام ابن الجوزي عالم الآفاق وواعظ العراق ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب بحال الدين الحافظ . كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ . صنف في فنون عديدة ، وله في الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه يطول شرحها . وسيأتي بيان طريقته في نشر الدعوة . توفي رحمه الله عليه ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة . والجوزي نسبة إلى فرضة الجوز موضع مشهور .

هؤلاء الذين سميناهم أجل الذين كانوا يروون الحديث ويفتون الناس ويدعونهم إلى الخير . وأمثال هؤلاء من برعوا في الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى الحق . وستقف إن شاء الله تعالى على شيء من مواضع هؤلاء الأجلاء ومواقفهم لدى الأبرار .

هديهم فيها

والكثير منهم كان يسلك في دعوة الناس وهدايتهم طريق الكتاب والسنة ، وبعضهم كان كثيراً ما يستعين في التذكير بضرب الأمثال وقصص الأولين ،

سيراً على نهج القرآن الحكيم استرعاء للسامعين . وقد غلب ذلك على هذا البعض حتى عرفوا باسم القصاص ، وحتى استسهله طائفة من الدخلاء واسترسل فيه إلى أن نسي معه المقصود الأسمى من الإرشاد ، فكان بعض من أوتى ذلحة في اللسان وقوة في البيان يعتمد على هذا الطريق ، ويتصدى للوعظ مع قلة بضاعته العلمية وعدم تمكنه في الحقائق الدينية ، فيختلس من العامة إجلالا وتعظيماً لاحق له فيه . وكان ذلك يثير عليه من معارضة المنافسين له ما يكشف خبيثته ، ويبين غور مقدرته بل كان منهم من يفتضح أمره ويظهر جهله .

وكان عاقبة هذا التنافس انصراف كثير من كبار العلماء عن التصدي إلى إرشاد الناس ، وعكفوا على تحقيق المسائل العلمية ، فأنعين بما كانوا يجدون من اللذة العقلية في الوقوف على دقائق العلوم ، مكثفين بمن يعرف فضلهم ويعترف من بحار علمهم ، بقلوب سليمة ورغبة صادقة من خواص الطلاب ، فأصبح العلم صناعة محصورة بين طبقة خاصة ، وتركوا جمهور الأمة لمن يتصدى لإرشادهم من ذوى البضاعة المزجاة ، وباليتمهم مع هذا أحسنوا العمل وأخلصوا في القيام بهذه الوظيفة الخطيرة ، بل قاموا يريدون بها الارتزاق . فجزَّ ذلك إلى سقوط المنزلة وانحطاط القيمة وانصراف الناس عنهم وضياع روح التأثير والانتفاع . ومن هنا أفلت العامة من أيدي العلماء ، وترفع السادة العلماء عن مخالطتهم ، وأصبح الفريقان يتلاومون ويتناكرون ، فهؤلاء يقولون : ما بال الناس قد ثقل عليهم أمر الدين وانصرف نفوسهم عن الهدى والرشد ! ؟ وأولئك يقولون : أين العلماء العاملون يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ أين حماة الدين يصلحون الفاسد ويقومون الموعج — وزاد الخرق انساعاً بميل الأمراء والحكام إلى إقصاء ذوى الغيرة من العلماء فراراً من قيودهم الضيقة « في زعمهم » ولكيلا يزاخموهم في المكانة التي استأثروا بها ، فأبعدوا المخلصين الصادقين في التمسك بالدين ، وقرَّبوا المنزلفين المتساهلين المسهلين لهم رغائبهم ، المسارعين إلى هوامهم ، فزاد هذا

في أتواء العلماء العاملين منكبين على ممارسة العلوم ، منهمكين في أنواع العبادة ، واجدين لذلك من اللذة الروحية ما أنساهم زخرف هذه الحياة ، وشغفهم عن التعلق بحطام الدنيا ، حتى استلأنوا ما استوعره المترفون . وأنسوا بما استوحشه المنعمون . قال قائلهم : « نحن في لذة لوعلمتها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف » .

ولقد كان الاقبال على الدعاة والتعلق بالمرشدين موجوداً في كل عصر ، على قلته وعدم وفائه بحاجة الأمة ، وكان الناس يعززون العلماء ويوقروهم ويقرون لهم بمنزلة خاصة لما يعرفون لهم من علم وعمل ، ويعتقدون فيهم أنهم حفظة الدين وحراسه — ولازال أمر الإرشاد يتراجع إلى الوراء حتى لم يبق منه اليوم إلا اسمه ، ولم يعرف منه الآن إلا رسمه ، والأمة تندهور في أخلاقها وتتأخر في معلوماتها ، حتى ضلت سواء السبيل ، وجارت من حيث لا تدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى . وتاهت في تيه الهوى . وتردت في مهاوى الردى . وأصبح المعروف منكراً ، وصار المنكر معروفاً . كل ذلك من سكوت رجال الدين وتساهل الأمراء وإهمال الحكام في تنفيذ أوامر الدين ، إلا من رحم الله .

ولو أن رجال الدين وجهوا شطراً من عنايتهم إلى النظر في أمراض الأمة وساروا في العمل على مداواتها بحزم وحكمة ، لكانت الأمة اليوم صحيحة في عقائدها ، سالحة في أعمالها . قوية في عاداتها . متينة في أخلاقها . بصيرة في أمر دينها . سليمة من الزلل . بعيدة عن مواقع الخطر . وإذا كانت علل تدهور الأمة في آدابها وتأخرها في أمر دينها إنما نشأت من إغفال تعليمها وتهذيبها ، وإهمال إرشادها إلى الخير وتحذيرها من الشر ، فسبيل إنقاذها من سقطتها وخلصها من ورطتها بين واضح ، وسهل قريب — وهو أن يبصر السادة العلماء هذا الخطر الحديق بالأمة ويدركوه كما هو ، ثم ينشطوا في الدعوة إلى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويفرسون الفضيلة في نفوس الأمة ، خصوصاً الناشئة من أبنائها وبناتها — فهذا وحده هو سبيل سعادتها وفلاحها إذا أحببنا أن نكون

من السعداء المفلحين . وهذا — دون سواه — طريق خلاصها من الشقاء ونجده
العيش إن رغبتنا أن نكون سادة آمنين .

ولا يفتي رجال الدين عذراً عند الله أو عند الناس أن يلقوا كل التبعة على
ولادة الأمور إذا لم ينضروا الدين . أو على الأغنياء إذا هم قبضوا أيديهم عن المساعدة
بالمال أو الجاه . . أو على الفاجرين والملحدين إذا هم تعدوا حدود الأدب مع الله ،
وتمردوا على شرع الله . فقد علمهم الله كيف يدعون إلى الخير ، وعلمهم أن العلم
النافع متى اقترن بالإخلاص لا بد أن يحدث في القلوب (ولو قاسية) والنفوس الغافلة
(ولو طاغية) أن لا يستهان به . وعلمهم أن الحق لا بد ظافر منصور وإن قل
أهله ، وأن الباطل لا يثبت في وجه الحق أبداً وإن كثرت أشياعه وأنصاره .
قال الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه « لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق » .

أى لا بقاء للباطل إلا في غفلة الحق عنه ، كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة
ينبت بإهمالها ، وينمو بإغفالها ، فإذا وجه الزارع إليها عنايته غلبه الخصب وذهب
به النبات النافع .

وقال بعض الحكماء قليل الحق يدفع كثير الباطل كما أن قليل النار يُحرق
كثير الخطب .

واجب العلماء

لا يظلم السادة العلماء من يقول لهم : أنتم ورثة الأنبياء في العلم والحكمة ،
وخلاف لهم في وظائفهم ، وما كان من طريقهم أن ينزروا في مساجدهم ، ويلزموا
أما كنهم ويلزموا الناس أن يقبلوا عليهم بل كانوا يتعرضون لهم ويسعون وراءهم
يدعونهم إلى الخير ، ويرشدونهم إلى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد ، بل
جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الدماحين على الدعوة إلى الخير والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كان محفوفاً بالمسكاره والخاوف ، ومك قتل

في سبيل ذلك منهم نبي وصديق ، فكانوا أفضل الشهداء . روى أبو داود في سننه عن أبي سعيد مرفوعاً « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » وقد ورد أن علماء السلف تصدوا لنصيحة الملوك والأمراء الظالمين على ماسياً أن شاء الله .

لا يظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم وأدوا الأمانة التي في أعناقكم إلى أهلها ، بعد إيمانهم بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبعد قول الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا^(١) قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وبعد قول إمام المرشدين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه . ثم تدعونني فلا يستجاب لكم » رواه الترمذي وقال حديث حسن . وبعد قول سيد الداعين إلى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » رواه مسلم . وبعد قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : ما أتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق لا يكتمه . وقوله كرم الله وجهه : ما أخذ الله على الجهال أن يتصلوا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا .

لا يمس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم في تخليهم عن إرشاد الأمة حتى غلبهم عليه الدخلاء ، وبرز فيه الأدعياء ، بمن لا يحسنون تهذيب الأخلاق ، وتشقيف العقول ، وهداية الناس ، بل هو محتاج إلى أن يهدى لتصحيح عقائده وإحكام دينه ، وإصلاح نفسه .

لا يمس كرامة العلماء من يقول لهم : أتمم رعاية الأمة في تصحيح عقائدها وصيانة دينها وكل راع مسئول عن رعيته .

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

(١) الإنفار الإعلام بالخوف للاحتراز عنه وكل منذر معلم ولا عكس والمراد التلميح والإرشاد .

أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الأكفاء . وألو الأهواء . وتمادوا في باطلهم حين تمخلى رجال الدين عن واجبهم . وتنحوا عن وظيفتهم . فكانت العاقبة ما ترى مما يحتاج إلى أزمة طويلة . وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة في إعلام كلمة الله ، والدعوة إلى طاعة الله بعد إحكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقناع ووسائل التأثير ، مع صدق النية والإخلاص في العمل ، والتحلى بالرفق والتجمل باللين وسعة الصدر .

فهذا هو سبيل الحكمة لا يضل من سلكه . ولا يزل من تمسك به . فإنه نعم السبيل الذى يوصل إلى الغاية المقصودة ، والطريق القويم الذى يرشد إلى الصالة المنشودة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفصل الرابع

في الوعظ والإرشاد

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ . وتذكير . وقصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصيح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفي الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر في النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية . والتذكير : تعريف الخلق نعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والتذكير يقال على الاتعاظ ومنه قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقوله « سيدك من يخشى » ومثله الادكار « فهل من مدكر » .

(والقَصَص) تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها . والقصاص من يفعل ذلك . وهو في الغالب عبارة عن يروي أخبار الماضين - وكثير من الناس يطلق على الواعظ اسم القاص - وعلى القاص اسم المذكر . والتحقق ما ذكرنا .
وأما الإرشاد : فهو الهداية إلى الطريق الموصل إلى المطلوب - والرشاد والرشد بضم فسكون ، والرشد بفتحات ، كما في القاموس ، الهداية والاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . يقال استرشد الشخص إذا طلب الرشد أو اهتدى . وقد يطلق الوعظ والإرشاد في عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية الاعتقادية أو العملية أو الخلقية ، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار .

وإجمالاً فالوعظ هو النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبيث على العمل . والإرشاد الحث على الخير والتحذير من الشر على الوجه المتقدم وهو الترغيب والترهيب .

وغايته : صلاح المعاش والمعاد والعوز بسعادة الدارين . وفضله عظيم . وشرفه جسيم . فإنه متملق بطلب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة .

ولما كان الإنسان مركباً من الجسم والروح ، وكان كلاهما عرضة للأمراض والعلل ، لا جرم كان محتاجاً إلى طيبين ومتشوقاً إلى علاجين . علاج الجسم وعلاج الروح ، ولا شك أن أفضل الطيبين ما أصلح أشرف الجزأين ، ولا يخفى أن طب الأجسام قد يصادف ذا روح تيريرة ونفس خبيثة ، فتكون صحتها فساداً وشراً على المجتمع . ومحال أن يكون مثل هذا في طب الأرواح فهو دائماً مفض إلى الخير والصلاح ويشرف فن الوعظ والإرشاد على بقية فنون الخطابة بأمور : (الأول) أنه وظيفته الأنبياء والمرسلين ، ومن على سنتهم من العلماء العاملين والهداة الراشدين والعطاء المجاهدين : فانهم إنما بشوا هداية العالم وسن طريق السعادة للناس في الدارين بتعليمهم عند الجهالة ، وإيقاظهم من الغفلة ، ووقفهم عند حدود الأدب ،

عند التمرد لينقذهم من حضيض الجهل والذيلة ، إلى ذروة العلم والفضيلة (الثاني) من حيث إنه يتعلق بأشرف الأمور وأخطرها — أعنى الأمور الروحية — (الثالث) من حيث الغاية أى سعادة الحياة بالتحلى بالفضيلة والتخلى عن النقيصة ثم الفوز بالسعادة الدائمة .

أثره في تهذيب النفوس

معلوم أن الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجالها . وكثيراً ما تودى بحياتها إذالم تسعف بالعلاج الناجع قبل استفحالها واشتداد خطرها . والقلوب كالأجسام يعرض لها من الأمراض والعلل ما يطفى نورها ، وقد يفقدها حياتها ، وذلك بورودها موارد النى والضلال . وانهما كما في اللذات والشهوات والتهاون بالأوامر والنواهي ، وعدم المبالاة بأنواع الفسوق والفجور ، وسببثات البدع ونبد الآداب الدينية والأخلاق الحمدية ، وارتكاب كل مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح .

فمن هذه الأعمال تكون أمراض القلوب وعللها ، قال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ركبها كما يركب الصداً وغلبها ، وهو أن يصر على المعاصى ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه : ولا دواء لها إلا مرام الشريعة الفراء المركبة تركيباً علمياً كياوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح ، من السكتاب والسنة ، فهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس . وتسلم القلوب من المخاطر ، وترجع عن غيها إلى رشادها وتعدل عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوى — وبالوعظ والتذكير تهذب النفوس وتتنبه العقول من غفلتها . وتستيقظ من رقدتها . وتستنير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصى . قال بعض الحكماء : الموعدة موقظة للقلوب من سنة الغفلة . ومنقذة للبصائر من سكرة الخيرة . ومحبية لها من موت الجهالة . ومستخرجة لها من ضيق الضلالة .

وعلى الجملة فالوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصالح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها . ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء ، ونساء حال المجتمع الإنساني .

والبرهان الحسي قائم على أن الأمة التي انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم ، وأن المعنى الذي يتناولونه في نصيحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشاراً وأشد رسوخاً في نفوس تلك الأمة . وأن الأمة إذا فرطت أو أفرطت في شيء يستعان دائماً على اعتدالها بوعاظها وخطبائها .

فالواعظ الماهر والخطيب الحكيم ، يستطيع بما وهبه الله عز وجل من نور الحكمة . وقاطع الحجة . وساطع البرهان . وقوة البيان . ومثانة علمه بتأليف وتركيب هذه الأدوية النافعة ، أن يصحح القلوب من أمراضها ، وينبذ العقول من غفلتها ويظهر النفوس من أدران النقائص والذائل . وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها وتعود إلى حد الاعتدال . وتتحرى بالفضائل والكمال . وبالله تعالى التوفيق .

الفصل الخامس

القصاص والقصاص في الصدر الأول

القصاص هم الذين يقصون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم . ينقلون ذلك موعظة واعتباراً ، وكانوا في القرن الأول يقدمونهم في حروب بني أمية ليقصوا على المقاتلين أخبار الشهداء وفضائلهم ، وما وعدوا به في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليحتمسوم بذلك قبل لقاء العدو ، حتى لا تستولى عليهم رهبة ، ولا يملكهم فزع ، ولا ترد وجوههم

آمال الحياة . وهو ضرب من السياسة وحسن النظر في التدبير ، وكان ذلك دأب
الحجاج الثقفي أمير العراق لبني أمية في حروبه ، لأن أكثر من قاتلهم كانوا من
المستيمين ديانة أوحية ، كالخوارج ، والناقين عليه وعلى بني أمية من العرب .
أما قبل هذه الدولة فكانت الموعظة في الحروب ، والتذكير بوعد الله تعالى
للمجاهدين في إعلاء كلمته من شأن القواد ، يخطبون بذلك الناس ، ولا يتجاوزون
الكتاب والسنة وكلمات لهم بين ذلك ، ولم يكن القصص في زمن النبي صلوات الله
وسلامه عليه ، ولا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لاجتماع كلمة المسلمين ، وقرب
عهدهم بالنبوة ، وإنما أحدث في عهد معاوية رضي الله تعالى عنه حين كانت الفتنة
بين الصحابة وكان قاصراً على الموعظة الحسنة والتذكير ونحوه . قال السيوطي
وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا : لم يقص
في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ولا زمان أبي بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص
محدث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . وأخرج ابن أبي شيبة والروزي عن
ابن عمر قال : لم يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أبي بكر ،
ولا عهد عمر ، ولا عهد عثمان ، إنما كان القصص حين كانت الفتنة . وفي التخریج
الكبير للعراق من رواية الزهري عن السائب فيما أخرجه أحمد والطبراني إلى قوله
ولا زمن أبي بكر ثم قال : وأول من قص تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب أن
يقص قائماً فأذن له اه ومنه عرفت اختلاف الرواية في زمن حدوث القصص ، ولعله
كان قليلاً في زمن عمر وعثمان ثم كثرت بمقتله رضي الله عنهم أجمعين . وأول من قص
من الصحابة الأسود بن سريع ، وكان يقول في وعظه إذا ذكر الموت وخاطب الميت :
فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فأني لا إخالك ناجياً
وأول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثي ، وقد حضر مجلسه عبد الله
ابن عمر وسمع منه فكان ذلك داعياً إلى إقبال الناس ورغبتهم في استماع القصص ،
لمكان ابن عمر من الدين والورع — وقد أقرته كذلك عائشة رضي الله تعالى عنها

ولم تنكر عليه ، حدث عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها ، فقالت : من هذا ؟ فقال أنا عبيد بن عمير ، قالت رضى الله عنها : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم ، قالت : خفف فإن الذكر ثقيل . وقد اتخذ معاوية رضى الله عنه قاصاً كان يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر ، ولعل هذا من دهائه في السياسة رضى الله عنه . وأول من لزم القص في مسجد المدينة مسلم بن جندب الهذلي إمام أهل المدينة وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من سره أن يسمع القرآن غصاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ثم كان أول من قص في مسجد البصرة جعفر بن الحسن رضى الله عنه ، وأول من أقرأ القرآن فيه .

ولم يكن القص في القرن الأول مردولاً لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن والحديث . ولم يكن يشوبه شيء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية ، وأكثره يأخذونه عن أسلم من أهل الكتاب ، وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة في قصص الأولين كعبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة — وكعب الأحمري الذي أسلم في خلافة عمر وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ، وعن هذين الرجلين ، ووهب بن منبه المتوفى سنة أربع عشرة ومائة أخذوا سواد قصصهم بما يتعلق بالأمم ، وأحوال الأنبياء ، والنذر الأولى ، وما يجري مع ذلك — وكان وهب من الأبناء « أناس الفرس » لأن جده جاء إلى اليمن فيمن بهم كسرى حين استنجدوه على الحبشة ، وقد أخذ آباؤه عن اليمن أخبار اليهود ، وأخذوا عن الحبشة أخبار النصارى ، ثم كان وهب يعرف اليونانية أيضاً ، فاتسع بذلك علمه حتى قالوا عنه إنه قرأ من كتب الله اثنتين وسبعين كتاباً ، وهو أول من صنف قصص الأنبياء في الإسلام ، ومن أخذوا عنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعي ، وهو من الأبناء ، وتوفي سنة ست ومائة ، ثم ورث الرواية عنه ابنه عبد الله بن طاوس .

ولما كان القرن الثاني وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين

هم الحسن البصرى رضى الله عنه نشأت بعده الطبقة التى أخذت عنها العامة ، وقد اضطربت الفتن ، وكثر الكلام ، وفشت الأكاذيب فى الحديث ، وأخبار العرب والشعر ، فصار هم القاص أن يجيئ بالفرائب ، ويكثر من الرقائق ، لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية ، ولم يبق فى حلقات القصاص إلا العامة ، فمن ثم ساءت المقالة فيهم كما سبق ، وصار القاص عند أولى العلم أحق محرراً ، إلا قليلاً ممن استوعبوا ، وتبينوا وساروا فى مذهب الرواة (وهو نقل الكذب^(١) الذى لا بأس به واسناده إلى أهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان .

ويبتدىء تاريخ هؤلاء بعد الحسن البصرى رحمه الله بموسى بن سيار الأسوارى ، قال الجاسقظ وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، والفتنان إذا التقنا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضم على صاحبها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار ، ولم يكن فى هذه الأمة بعد أى موسى الأشعري أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى — ثم قص فى مسجده (بالبصرة) أبو على الأسوارى^(٢) وهو عمرو بن فاندستا وثلاثين سنة ، وابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن تكون الآية قد ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك — وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ، ويحتج به ،

(١) المراد للكذب من الحكايات المرغبة فى الطاعة المهدرة من المعصية أو الداعية إلى

فضيلة والتخل عن رذيلة .

(٢) بضم الهمزة نسبة إلى الأساورة بطن من تميم .

وخصاله المحمودة كثيرة - يقولون إن أبا علي هذا لم يُسمع منه كلمة غيبة قط ، ولا عارض أحداً من المخالفين والحساد والبغاة بشيء من المكافأة - ثم قص من بعده القاسم بن يحيى وهو أبو العباس الضريز ولم يدرك في القصص مثله .

وكان يقص معهما وبمدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . فأما صالح المري فإنه كان يكنى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس ، قال الجاحظ فذكر أصحابنا أن سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار من أصحاب الحديث ، كان في أواخر القرن الثاني قال له مرحوم : هل لك أن تأتي قاصا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه . فأتاه على تكره لأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقته وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة ، وحدث قتادة عن الحسن . رأى بياناً لم يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : ليس هذا قاصاً هذا نذير . ولما نضجت العلوم في القرن السادس ذهب القصص وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد ، إذ كان اسم القاص قد أصبح لقباً عاماً مبتدلاً ، وأكثر المتصدرين في الوعظ إنما يكون من أهل الحديث ، والمتسعين في العلوم ، ولم يزد المتصوفة في الأخبار إلا ما يزعمون أنهم احتووه بعلم خاص والله أعلم بغيبه .

وقد اختلف السلف في مدح القصص وذمهم فبعضهم يحرص على الحضور عندهم وبعضهم ينهى عنه ، فنذكر لك فصلاً يكون فصلاً لهذا الأمر فنقول : القَصَصُ قِصَانٌ : مذموم ومحمود ، والأول نوعان : « أحدهما » الاشتغال بالقِصص والحكايات عن الأمم السابقة التي يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة في القرآن الحكيم ، وتزيد عليها ، فإن ذلك مما ينذر صحتة ، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، كاسرائيليات الخازن ، وبدائع الزهور ، فكان هذا مذموماً لما فيه من الكذب ، وعلى فرض خلوه عنه الأسلم البعد عنه ، فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه

الصدق والكذب ، والنافع والضار ، فمن هنا نهى عنه — ولذا قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً .

وثانيهما الاشتغال بحكاية أحوال تسمى إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، أو عن كونها هفوة نادرة الوقوع ، ومردفة بما يكثرها ومتدركة بحسنات تغطي عليها كما هو المعهود في حضرات السلف ، فإن العاصي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيها ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن المشايخ وبعض الأكابر ، وكلنا بصدد المعاصي ومن الذي عصم منا فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني مقاماً وأحسن حالاً ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فكان هذا أيضاً مذموماً لافضائه إلى إفساد حال السامعين .

في الروض الفائق في المواعظ والرقائق : أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقاً له فذهب إليه وكان عند المזור خادمة وكانت طريفة حسنة فأعجب بها ذلك الولي الزائر وشغفته حباً ولم يزل كذلك حتى وقع عليها في زمن يسير — ولما أدرك أن صديقه قد ينزل به من صاب العذاب والأذى ما لا تحمد عقباه فرها ربا . فأتى صديقه وعلم بما كان فعدا خلفه فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده قد مشى فوق الماء فسأله في ذلك فقال له ذلك قضاؤه وهذا رضائه فسر بذلك وخلي سبيله — وما إلى ذلك من الحكايات التي لاحقيقة لها إلا في خيال هؤلاء القصاص المفتونين وينبذها الدين الصحيح والعقل السليم .

ولذا لما دخل علي رضي الله عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول : لا يقص في مسجدنا . ذلك أنه سمع من كلامهم ما لا ينطبق على الدين فرأى أن المصلحة في إخراجهم ، وفي تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها حتى انتهى

إلى الحسن البصرى رحمه الله وهو يعظ الناس فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرج ،
إذ كان يتكلم فى علم الآخرة ، والتذكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس ،
وأفات الأعمال ، وخواطر الشيطان ، ووجه الحذر منها ، ويذكر بألاء الله ونعمائه ،
وتقصير العبد فى شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها ونصرها ، ونكت
عندها ، وخطر الآخرة وأحوالها ، فهذا هو التذكير الحمود شرعاً الذى ورد الحث
عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه . أخرج السيوطى فى الجامع الكبير والحاكم
فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا أبا ذر لأن تغدو لتعلم آية
من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » هذا .

والقصص الحمود ما خلا عن هذين المحذورين ، ورجع إلى ما اشتمل عليه
القرآن الحكيم ، وما صح فى الكتب الصحيحة ككتب السنة ، والتفسير
الموثوق بها . أخرج ابن أبى شيبه والمرزوى عن ابن سيرين قال : بلغ عمر أن قاصداً
يقص بالبصرة فسكتب إليه (الرتل آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربياً
لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص) إلى آخر الآيات فعرف الرجل
فتركه - أى نبهك ونحدثك أحسن الحديث لما فيه من العبر والحكم والعجائب
التي ليست فى سواه مع المطابقة للواقع ومثانة الأسلوب - ومقصود سيدنا عمر
رضى الله عنه تنبيه ذلك القاص إلى السير فى القصص على طريق القرآن ، ونجوى
الصدق واجتناب الأخبار التي لا يعلم صحتها - فعرف الرجل مقصوده وعجز نفسه
عن تحقيقه فترك القصص . وأخرج عبد بن حميد فى تفسيره عن قيس بن سعد قال :
جاء ابن عباس حتى قام على عبيد بن عمير وهو يقص فقال : (واذكر فى الكتاب
إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . واذكر فى الكتاب إسماعيل) الآية (واذكر
فى الكتاب إدريس) الآية . ذكرنا بأيام الله ، وأثن على من أثنى الله
عليه . يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها . والمراد عظمتها بالترغيب
والترهيب ، والوعد والوعيد . فالترغيب بأن يذكرهم نعم الله عليهم وعلى من قبلهم

من آمن بالرسول في سائر ماسلف من الأيام ، والترهيب بأن يذكرهم عذاب الله وانتقامه عن كذب بالرسول من الأمم فيما سلف من الأيام ، كالذي نزل بعاد وثمود ، ليزداد الطائع ، ويقلع العاصي ، فهذا محمود لأن فيه عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر قال تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء ، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبد الله ابن عمر رضى الله عنه ، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ، ثم خست هذه الصناعة فعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم ، وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن ، فمن القصص من يستييح وضع الحكايات المرغبة في الطاعة المزهدة في الدنيا وآفاتهما ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذا من نزغات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكره الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه غنية عن الاختراع في الوعظ والإرشاد .

وللخلاص من خطر القصص : قال العلماء لا يجوز لقاص أن ينقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير معرفة بالصحيح والسقيم وإن اتفق أنه نقل حديثنا صحيحا كان آثما في ذلك لأنه ينقل ما لا علم له به ، ولا يحل له النقل من كتب التفسير لأن فيها الأقوال المنكرة والصحيحة ، ومن لا يميز الغث من السمين لا يحل له الاعتماد على الكتب . وكيف يُقدم من هذه حاله على تفسير كتاب الله تعالى — فلا يحل لأحد بهذا الوصف أن ينقل حديثاً من الكتب بل ولو في الصحيحين ما لم يقرأه على من يعلم ذلك من أهل الحديث ، فقد حكى الحافظ أبو بكر بن خير اتفاق العلماء على أنه لا يصح لمسلم أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا حتى يكون عنده هذا القول مرويا ولو على أقل وجوه الروايات

فالذي تخلص مما ذكرنا أنه لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم الحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم العارف بصحيحه وسقيمه ومسنده

ومقطوعه ، العالم بالتواريخ و بسير السلف المحافظ لأخبار الزهاد الفقيه في دين الله العالم بالعربية واللغة . ومدار كل ذلك على تقوى الله وإخراج الطمع من أموال الناس وحب الثناء والمدح من قلبه . كذا حققه الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه .

وجملة القول أن الإسرائيليات ثلاثة أنواع : نوع مقبول بلاشك وهو ما شتمل عليه الكتاب وصحت به السنة . ونوع مردود بلاشك وهو مالا يصدقه العقل ولا يشهد له النقل . والثالث مجهول الحال ، وهذا يجب علينا قبل الحكم عليه أن نضعه في ميزان الشرع القويم ، والعقل السليم . فإن أيدى الشرع وصدقته العقل قبلناه ونشرناه كمبرة أو دعوة إلى خالق كريم . وإلا تركناه وراء ظهورنا وولينا وجوهنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الكفاية لمن أراد الهداية (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى ذلك الرد خير لكم وأحسن عاقبة .

ومن أمثلة النوع الثالث ما روى أن رجلاً من بني إسرائيل وجه ابنا له في تجارة فمضت أشهر ولم يقف له على خير فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ؛ فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالماً فسأله أبوه هل أصابك في سفرك بلاء ؟ فقال له نعم غرقت السفينة بنا وغرقت مع جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقال لي قل لأبيك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بزائد عليهما .

ومنها ما روى أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته و بين يديهما دجاجة مشوية فقرع الباب سائل فخرج إليه وانتهره فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت عنه نعمته وطلق زوجته ثم تزوجت بعده برجل فجلس يأكل في بعض الأيام هو وزوجته و بين يديهما دجاجة وإذا بسائل يطرق الباب فقال لزوجته ادفعي له هذه الدجاجة . فدفعتها إليه ورجعت باكياً فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن هذا السائل كان زوجها الأول وذكرت قصته مع السائل الذي انتهره فقال لها زوجها أنا ذلك السائل . فهذا وأمثاله لو عرض على موازين الشريعة القراء

تقبله والمقل السليم بصدقه فهو يدخل في مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه
(صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكاً) وأن منع الصدقة عن مستحقها
يجمل العزيز ذليلاً فالظلم عاقبته وخيمة .

الفصل السادس

الوعظ في القرن السادس وتقدير الأمراء له

كانت مدينة السلام (بغداد) تمتاز على غيرها من مدن العالم الإسلامى بكثرة
فقهائها المحدثين . ووعاظها المذكرين . وكان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ومداومة
التنبيه والتبصير . والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير . مقامات تستنزل لهم
من الله تعالى واسع الرحمة وجزيل الإحسان ، وتمتع القارعة الصما أن تحمل بدارهم .
مقامات خلدت لهم أحسن الذكرى وجميل الأحدث . قال أبو الحسين محمد بن أحمد
ابن جبير الأندلسى من أدباء القرن السادس في رحلته ما محصله — فأول من شاهدنا
بجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقه المدرسة
النظامية . والمشار إليه في التقديم في العلوم حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة
إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسى
موضوعة . فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغات محرجة مؤثرة — ثم اندفع
الإمام المذكور وخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير
كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على
معانيه ، ثم وجهت إليه المسائل من كل جانب فأجاب عنها وما قصر ، ودفعت إليه
عدة رقاع فجمعها في يده وجعل يجاب عن كل واحدة منها وينبذها إلى أن فرغ
منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجمع : فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هيناً ليناً
ظهرت فيه البركة والسكينة أرسلت فيه العبرات لا سيما في آخره فإنه سرت حمياً وعظه
إلى النفوس حتى أطارتها خشوعاً وفجرتها دموعاً . وبادر الثابون إليه وقوعاً على يده .

وشهدنا له مجلساً ثانياً إثر صلاة العصر يوم الجمعة أيضاً حضر ذلك اليوم مجلسه
سيد العلماء الخراسانية . ورئيس الأئمة الشافعية صدر الدين الخجندی دخل المدرسة
المذكورة فاهتزت له القلوب . ورمقته الميون . فأخذ الإمام رضی الدین فی وعظه مسروراً
بمحضوره متجعلاً به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه الأول فأفاد وأجاد .
ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحى جمال الدين
أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقى على
اتصال من قصور الخليفة . وهو يجلس به كل يوم سبت فشهدنا مجلس رجل ليس
من عمرو ولا زيد . وفى جوف الفراكل الصيد . آية الزمان . وقرة عين الإيمان .
رئيس الحنبلية . إمام الجماعة . وفارس حلبة هذه الصناعة . المشهود له بالسبق فى البلاغة
والبراعة . مالك أئمة الكلام فى النظم والنثر ومن أبهر آياته أنه يصعد المنبر ويتدىء
القراء بالقرآن وعددهم يربو على العشرين قارئاً . فينتزع منهم الثلاثة آية من القرآن
يتلونها على نسق بأدب وخشوع فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية .
ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة فإذا فرغوا أخذ
الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته مجللاً مبتدراً . وأفرغ فى أصداف الأسماع من الفاظه
درراً . وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقرا وأتى بها على نسق القراءة
لا مقدماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أن أبداع من فى
مجلسه تكلف تسمية ما قرأ آية آية لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلاً .
ويورد الخطبة القراء بها مجللاً . « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون » فحدث ولا حرج عن
البحر وهيئات ليس الخبر كالخبر . ثم إنه أتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ
وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب . وذابت بها النفوس . إلى أن علا الضجيج
وأعلن التائبون بالصياح . وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . كل يلقى
ناصيته بيده فيجرها ويمسح على رأسه داعياً له . ومنهم من يفتشى عليه ويرفع
فى الأذرع إليه فشهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة . ويذكرها أهوال يوم القيامة

— وفي أثناء مجلسه ذلك تطير إليه الرقاع بالمسائل فيجواب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الزائق من نتائج تلك المسائل — والفضل بيد الله يؤتية من يشاء .

ثم شاهدنا له مجلساً ثانياً بكرة يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع في حرم الخليفة خص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعامه فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس وقعدنا إلى أن وصل هذا الخبر المتكلم فصعد المنبر وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب فبكت العيون لقراءتهم فلما فرغوا منها وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات سطع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أثناءها منتظت ومشي الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لود فضل على الناس » فتأدى على هذا السين . وحسن أي تحسين . فكان يومه ذلك أعجب من أمسه . ثم سلك سبيله في الوعظ كل ذلك بديهة لا روية . ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون . وأبدت النفوس نر شوقها المكثون . وتطارح الناس عليه نادمين تائبين فطاشت الألباب . واستولى عليها الوله والذهول . واهتزت القلوب ولم تجد للصبر سبيلاً ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديهة التريق . تملأ القلوب خشية وزهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام :

أين فؤادي أذابه الوجد وأين قلبي فما صحا بعد
يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والبكاء كاد يمنعه من الكلام فنزل عن

المنبر دهشا . وقد أطار القلوب وجلا . وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمموع . فمن معلن بالانتحاب . ومن متعفر في التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه . وما أسعد من رآه — وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطى من ملكة^(١) النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل الذي يضيق الوجود عن مثله ، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من وعاظ الغرب — وكذا قد شاهدنا بمكة والمدينة مجالس لجملة من كبار العلماء من خراسان وغيرها فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ — فسبحان من جعله عبرة لأولى الألباب — فهذا يبين لك كيفية وعظ الأولين ومبلغ اعتناء المتقدمين من كبار العلماء بإرشاد الناس وتذكيرهم وإقبال الأمة والأمراء عليهم . والانتفاع بهم . ويدلك على منزلتهم من العلم . ومكانتهم من النصيح والتذكير . وأنهم بحق أحكموا وسائل التأثير في النفوس . وبرعوا في الاستيلاء على القلوب . وأنهم كانوا يقترفون نصائحهم من مناهل الكتاب والسنة . وقد ساعدهم على هذا الفوز العظيم أنهم كانوا على جانب كبير من التقوى وصالح العمل . متجملين بالعفة والزهد والورع ، ومتكلمين باقتناع ومكارم الأخلاق « إن هذا هو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

فيمثل مقامات هؤلاء الأجلاء . المباركين الأولياء ، ترحم العصاة ، وتقلع الجناة وتستيدم العصمة والسلامة ، وتسعد الأمم في الدنيا والآخرة . والله تعالى أسأل أن يجازي كل ذي خير خيراً ، وينقذ ببركة العلماء العاملين عباده العاصين ، من سخطه وغضبه برحمته وكرمه ، إنه المنعم الكريم الرحمن الرحيم .

(١) الملكة معركة مصدر كالمك أي الاستيلاء عليها بقوة روحه في العظة .

الفصل السابع

آداب الداعى

قد عرفت أن الدعوة إلى الله في الأصل عمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأن السادة العلماء نواب عن الأنبياء في هذا الأمر الخطير فهم أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه القويم ، والقائمون على حدود الله ، والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتزويه .

لذلك كانوا أئمة الناس وقادة الخلق يسرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم وبما يرشدونهم إليه من التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة ، اعتقد الناس فيهم ذلك وأملوهم له . فأحلوهم من أنفسهم محلاً لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانة يغبطون عليها وريحوا منزلة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل ، وناهيك بقوم إذا فعلوا لخطتهم العيون ، وإذا قالوا صغت إليهم الآذان ووعت القلوب وحكت الألسنة . فهم مطمح الأنظار وموضع الثقة ، والحجة البالغة ، والبرهان القاطع ، والنور الساطع للناس أجمعين « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » دعا إلى توحيده وطاعته وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه واتخذ الإسلام ديناً ونحلة^(١) .

حقاً ليس أحد أعظم شأنًا وأسعد حالاً ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لله تعالى ، عارفاً به عاملاً بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العالمين العاملين الدعوة إلى الله عز وجل ، من ذوى القلوب الحية ، والإيمان الصادق والإخلاص الصحيح .

ولا ريب أن الله تعالى ربط سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بالوقوف عند

(١) والآية تشير إلى أنه ينبغي للداعى أن يكون صحيحاً في دينه مهذباً مستقيماً عاملاً بعلمه ليكون الناس إليه أسكن وإلى قبول دعوته أقرب .

حدوده — وامتنال أوامره — واجتناب نواهيه — وأنه بمقدار وقوف العبد عند حد الأدب مع مولاه يكون حظه من تلك السعادة — وغنى عن البيان أن السادة العلماء قد انفردوا بفهم الأوامر والنواهي ، ومنهم وحدهم يتعلمها سائر الناس . وأنه بقدر قيام العلماء على حدود الله واتباعهم الأوامر واجتنابهم النواهي يكون اتباع الأمة واجتنابها فاذن سعادة الأمة في قبضة السادة العلماء إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس — ومن هنا كانت وظيفتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة ، وتزداد وظيفتهم خطراً ومسئوليتهم عظماً إذا هم تصدوا للدعوة والإرشاد ، لهذا وجب أن تتوافر في الداعي إلى الله تعالى الصفات الآتية .

الصفة الأولى

إن أول واجب على الداعي العلم بالقرآن والمراد به النظر فيه قبل كل شيء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة . وكذلك السنة ، وما صح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالتقدير الكافي من الأحكام ، وأسرار التشريع مع الصدق في نشرها ؛ فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا لمن اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المرتبة وليتمكن من تعليم ذلك على الوجه الصحيح فلا يزيع في عقيدة ، ولا يخطيء في حكم ، ولا يعجز عن إقناع النفوس المتطلعة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية ؛ فيكون الأذغان له أتم ، والقبول منه أكمل — فأما الجاهل فضال مضل وضره أقرب من نفعه ، وما يفسده أكثر مما يصلحه . بل لا يصلح أصلاً إذ لا يميز الجاهل بين الحق والباطل ولا معرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس . قال الحسن البصري رحمه الله : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير ما يفسد أكثر مما يصلح . وفي الحكم : « من سلك طريقاً بغير دليل ضل ومن تمسك بغير أصل زل » ، وأما الكاذب فلا خير فيه ولعنة الله على الكاذبين . لهذا حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم وجعله من أخشى الكبائر فقال تعالى :

« قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . وهذا بعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه . وقال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ؛ متاع قليل ولهم عذاب أليم » . فقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه ، وقولهم في شأن ما لم يحله هذا حلال ، وفي شأن ما لم يحرمه هذا حرام . وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام . إلا بما علم أن الله تعالى أحله أو حرمه .

وأصل الآية صد للعرب عن بدع الجاهلية ومذاهبهم الباطلة التي كانوا عليها بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك . ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان رسوله . والكذب منصوب بلا تقولوا وهذا حلال وهذا حرام بدل منه واللام بمعنى في وما موصولة — والمعنى ولا تقولوا الكذب في شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحلل والحرمة في قولكم : « ما في بطون هذه الأنعام خالصة لكورونا ومحرم على أزواجنا » . من غير استناد ذلك الوصف إلى شرع — وهو تشريع عام لجميع المكلفين في كل ما يتعلق به الحكم بالحلل والحرمة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فحق المرشد أن يدع التكلف لما لا يحسن فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي إليها ولا حد يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلاق به أن يضل ويضل — وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » ، وقال بعض الحكماء : من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلت أن تنطق بما لا تفهم .

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . روى أن رجلاً قال : يا رسول الله أى البقاع خير وأى البقاع شر؟ فقال : « لا أدري حتى أسأل جبريل » . روى من عدة طرق . وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه « من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » ، وقال سيدنا على رضى الله عنه : وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وأن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله . أى هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدري علمٌ فدرى . ومن اتحل ما لا يدري أهمل فهوى : اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن إنك الجواد الكريم .

الصفة الثانية

العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشىء ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويشعر إرشاده . فأما إن كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذه عقبة في سبيل الإصلاح ، وهيئات هيئات أن ينتفع به فإنه فاقد الرشد في نفسه فكيف يرشد غيره . قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ؛ فإن من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل منها ، أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية في نظر العقلاء : فإن من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه في دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه

فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأنز به . كذلك الداعي إذا خالف فعله قوله . أما الائثار بما سيأمرهم به أولاً والتخلق بما يدعو إليه فهو أوقع في نفوس السامعين وأقرب إلى إذعان الراغبين . ولذا كان بعض الدعاة لا يذكر لهم في فضائل العتق حتى أمكنه الله تعالى من شراء رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير في قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه فكيف يُسمع منه فضل من أقامه وأحياه — لما عرفت أن الدعوة إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق تربية ، والتربية النافعة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لا بمجرد القول يرشدك إلى هذا حديث الخلق في الحديبية فإن الصحابة رضی الله عنهم لم يمشوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم به حتى حلق هو أولاً فاقفوا بفعله أجمعين . وهذا سر عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فالداعي من المدعو يجري مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به كذلك محال أن يحصل في نفس المدعو ما ليس بوجود من الداعي فإذا لم يكن الداعي إلا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول — وأيضاً — فنقل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل فكما أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون — قال حجة الإسلام الغزالي رحمة الله تعالى عليه فيما كتبه إلى أبي حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فليست أرى نفسي أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره . ومتى يستقيم الظل والعود أعوج . ولذا قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أبدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُسمع ما تقول ويُشتفى بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب

أفلا تعقلون » فهذا توبيخ لأخبار اليهود على سيرتهم العوجة في الإرشاد فإنه لا شك أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول إذ المقصود من أمر الناس بها إما النصيحة أو الشفقة وليس من العقل أن ينصح الإنسان للغير أو يشفق عليه ويهمل نفسه ، فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا القول وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » تعجيب للعقلاء من هذا المسلك المعيب وللتعجيب وجوه .

منها أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى الخير وتحذيره من الشر وإرشاد النفس إليه وتحذيرها منه مقدم بشواهد العقل والنقل أما العقل فبديهى . وأما النقل فكثيرة ، منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح : « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً » وعن سيدنا إبراهيم : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب فمن وعظ غيره ولم يتعظ فكأنه أتى بما لا يقبله العقل السليم ولهذا قال أفلا تعقلون .

ومنها أن هذا الوعظ يصير سبباً للمعصية لأن الناس يقولون : لولا أن هذا الواعظ مطلع على أنه لا أصل لهذه التحذيرات لما أقدم على المناهى فيكون داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعاصى وهذا مناف للعرض من الوعظ فلا يليق بالعقلاء .

ومنها أن غرض الداعى ترويج كلامه وتنفيذ مرامه فلو خالف إلى ما نهى عنه صار كلامه بمعزل عن القبول وهذا تناقض لا يليق بالعقلاء ، وفي مثل هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان مادعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق .

فألا ية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره

وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الذي لا عقل له فإن أمر الخير بالخير مع حرمان النفس منه مما لا يتفق وقضية العقل — والمراد بها حثه على تركية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتكمل غيرها . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » فهذا وعيد شديد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في نفسه مقصر كمن يكذب في قوله أو يخلف ما وعد . وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » . متفق عليه — تندلق بالادال المهملة تخرج . والأفتاب الأعماء واحدها قتب بكسر فسكون وفيه تغليب العقاب للمرشد الذي يخالف فعله قوله . وعن أنس رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسرى بي رجلاً تقرض شفاهم بمقار يض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » رواه ابن حبان في صحيحه . وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم وأنه قدوة فيزل بزانه كثيرون ولذا قيل : زلة العالم زلة العالم ففي الخبر « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وذلك أن أتباعهم اقتدوا بهم في السوء فلزم أن ينالهم مثل عقاب أتباعهم . قال تعالى : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » وجملة الأمر أن من فتح لغيره باب الشر وسهل له الدخول فيه فقد عظم عذابه ، وكذلك من دعا غيره إلى خير وأمره بالمعروف وسهل له طريقه فقد عظم قدره وحسن جزاؤه عند الله تعالى « أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مثل الذى يُعَلِّمُ الخَيْرَ ولا يعمل به مَثَلُ القَيْلَةِ تَضِيءُ للناسِ وتحرق

نفسها « رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزة بسند حسن وقال أبو الدرداء : « ويل للجاهل مرة وويل للعالم سبع مرات » ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يفر الناس بتنسكه والعالم يفرم بتهتكه . وقال حكيم : أفسد الناس جاهل ناسك ، وعالم فاجر ، هذا يدعو الناس إلى جهله بنسكه ، وهذا يفر الناس عن علمه بفسقه .

وعلى الجملة فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ . ويبصر ثم يبصر . ويهتدي ثم يهتدي ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد . ومسنناً يستحد ولا يقطع وسراجاً يضيء للناس ويحرق نفسه . فمن الحكم المأثورة « مثل العالم الذي يعلم الناس وهو غير عامل كشعلة موقودة تضيء للناس وتحرق نفسها . بل يكون كالشمس تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده . كالنار تحمي الحديد ولها من الحنوء أكثر مما تفيده . وكالمسك يطيب غيره وهو طيب في نفسه . ويجب ألا ينقض مقالته بفعاله . ولا يكذب لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله : « ومن الناس من يمجيك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » وبالله تعالى التوفيق .

الصفة الثالثة

الحلم وسعة الصدر : فكمال العلم في الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب فيستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادئ النفس مطمئن القلب لا يستغزه الغضب ولا يستثيره الحق فتتفر منه القلوب وتشمئز منه النفوس وحسبك في هذا قول الله تعالى لإمام الداعين صلوات الله وسلامه عليه « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » فلو كان الداعي سيء الخلق جافياً قاسى القاب فأغلظ لهم في القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله فخرموا الهداية بأنوار دينهم فماشوا وماتوا جهلاً . وذلك هو الشقاء وهو سببه وعلته .

الصفة الرابعة

الشجاعة حتى لا يهاب احداً في الجهر بالحق ولا تأخذه في نصره لومة لائم
ففي حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » متفق عليه . وعن
عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت
أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » رواه الحاكم وقال صحيح الأسناد
وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلي
بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف في الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن
كان مرأ . وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال
يرى أن لله عليه مقالاتم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن
تقول في كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس فيقول فيأبى كنت أحق أن تخشى » .
رواه ابن ماجه ورجاله ثقات . والمراد بالخشية فيه مجرد رهبتهم مع القدرة .

— فإن كان جباناً ضعيف القلب مجز عن الأخذ بناصر الحق وتغيير المنكر
وتقرب إلى الناس بأنواع المداينة وتودد إليهم بضروب الملق — وما هكذا تكون
الأطباء ولا اللائق بقيادة الأمم — الطبيب الرحيم هو الذى إذا عرف نوع المرض
في أى شخص كان بادر إلى علاجه بما يستأصله حرصاً على سلامة المريض وهو
لا يبالي بكراهة المريض للدواء وتألمه من العلاج . فأما إذا عمل لذلك حساباً وتساهل
مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فإنه
غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم .

والمداينة السكوت على المنكر لداعى الهوى لا الدين فإذا سكت العلماء على .
للمنكرات لداعى الدين كأن يكون فى الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت
سمى سنكوتهم مداراة وهى مطلوبة شرعاً فى الحديث المشهور . داروا سفهاءكم
— والملىق الود واللفظ . وملىق من باب طرب ورجل مَلِيق يعطى بلسانه ما ليس

في قلبه ، و«تَمَلَّقَهُ وَتَمَلَّقَ لَهُ تَمَلَّقَا وَتَمَلَّقَا بِالْكَسْرِ تَوَدَّدَ إِلَيْهِ وَتَلَطَّفَ لَهُ .
وعلى الداعى فى مقام الحججة على الخصم أن يذكر حجته خالية من السب والشتم
وأنواع الغلظة إذ لو اشتملت على شيء من هذا لجاز أن يقابل بمثله كما قال تعالى
« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ويشدد الغضب
وتقع النفرة .

ويمتنع حصول المقصود من الدعوة — أما ذكر الحججة بالطريق الأحسن الخالى
عن السب والنسب والإيذاء فإنه يجذب القلوب ويستميل الطباع إلى قبول الدين الحق
والاستماع إلى النصيح . وبذلك يصل الداعى إلى المقصود ألا ترى قوله جل وعلا :
« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان
للإنسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك
عليهم وكيلًا . » فإنه تعالى أمر المؤمنين على لسان سيد الداعين أن يقولوا عند
محاورتهم مع المشركين الكلمة التى هى أحسن ولا يخاشنوهم كقوله تعالى « ولا تجادلوا
أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ثم علل ذلك الأمر بأن الشيطان يفسد بينهم
ويهيئ الشر والمراء ويُغري بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشادة وقد يقضى
ذلك إلى تأكد العناد وتمادى الفساد . فإن الشيطان عدو قديم للإنسان ظاهر العداوة
ينتهز القرض لإثارة الفتن — ومثال الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا لهم ربكم أعلم
بالحكم إن يرد الإحسان بكم أحسن إليكم بالتوفيق للإيمان وصالح العمل . أو إن يشأ
يعذبكم بالإماتة على أسوأ الأحوال . يقولون لهم مثل ذلك ولا يصرحوا بأنهم من أهل
النار وبئس القرار فإنه مما يثير الشرع أن العاقبة لا يعلمها إلا الله وحده فيجوز أن
يختم لهم بخير — وما أرسلناك عليهم موكولا إليك أمورهم تكرههم على الإيمان
وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فلاطفهم ومر أصحابك والمؤمنين بالملاطفة والملاينة
ولا تشدد الأمر عليهم ولا تفاظ لهم فى القول . والمقصود من كل هذا إظهار اللين
والرفق بهم فى مقام الدعوة إلى الله تعالى والإرشاد إلى الخير فإن ذلك أقرب إلى
النجاح وحصول المقصود .

الصفة الخامسة

العفة واليأس مما في أيدي الناس فمن يئس مما عند الناس استغنى عنهم فيبقى سيداً محبوباً جليلاً مهيباً ينتفع به — أما إن كان غير عفيف وتطلع إلى ما في أيدي الناس فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محترماً محقوفاً ثقيلًا مرذولاً ، وهان عليه كل ما يلاقيه من أنواع الذلة والإهانة في سبيل الحصول على ذلك الحطام الفاني . وهذا بلا ريب هو السقوط الذي لا خلاص منه والفقير الذي لا غنى معه فمن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله أوضني وأوجز فقال : « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه » . رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصحح إسناده . وقال أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه . وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا الحسن . قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو دينارهم . فقال ما أحسن هذا .

وبالجملة فواجب الداعي نزاهة النفس عن شبه المكاسب . والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب . فإن شبه المكتسب إثم . وكذا الطلب ذل . والأجر أجدر به من الإنم . والعز أليق به من الذل . وما أحسن قول علي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى :

يقولون فيك انقباض وإنما رأو رجلاً عن موقف الذل أحجبا
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلماً
وما كل برق لاح لي يستغزني^(١) ولا كل من لاقيت أرضاه منعاً
إذا قيل هذا سهل^(٢) قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظلم

(١) استغزاه واستغفاه وأخرجه من داره وأزجمه .
(٢) مورد وهو عين ماء ترده الإبل في المراعى .

أَسْنِيهَا^(١) عن بعض مالا يَشِينُهَا
ولم أبتذل^(٢) في خدمة العلم مهجتي
مخافة أقوال العدا فيم أو لسا
لاخدُم من لاقيت لكن لاخدما
أشقي به غرساً وأجنيه ذلة
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لمظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا^(٣)
محياء بالأطباع حتى تبهما^(٤)

على أن العلم عوض من كل ذلة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجيد بدأ منه . نسأل الله الكريم أن يقيننا بفضلته عن سواه .

الصفة السادسة

القناعة في الدنيا والرضا منها باليسير فإن كان حريصاً على الدنيا منهمكا في طلبها كانت حاله هذه داعية الترغيب في حياها « وحب الدنيا رأس كل خطيئة » وبذلك يكون مفسداً لامصلحاً وضاراً لنافعاً . وما هكذا تكون الدعاة إلى الله تعالى . كان محمد بن واسع البصري رحمه الله يبيل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . ولذا قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غمًا الحسود وأهنأهم عيشًا الفتنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وقال سفيان الثوري العالم طيب هذه الأمة والمال داؤها فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره ؟ والعيان أصدق شاهد على ذلك فإنك ترى أنه على قدر قناعة العلماء في الدنيا تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لإرشادهم

(١) نهنه عن الأمر فتنه كفه وزجره فكف . (٢) الابتذال ضد الصيانة والبدلة بالسكسر مالا يصاب من الثياب والمهجة الروح . (٣) الدنس محرمة الوسخ دنس التوب والمرض والمخلق كفرح دنس دناسه فهو دنس اتسخ ودينس توبه وعرضه تدينساً فعل مايشينه به . (٤) رجل جهم الوجه كالجح والوجه وجهه كتمه لقيه بوجه كالجح كتجهمه أو جهم كسهل صار باسر الوجه أي كالجح والجهايم بالفتح السحاب الذي لاماء فيه .

وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم
والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولاً ولا يقبلون منهم نصيحة .

الصفة السابعة

قوة البيان وفصاحة اللسان وإلا كان النفع بعيداً بل كان مثال الخزي
والعار على الإرشاد وأهله فإن مدار الأمر على البيان والتبيين والإفهام والتفهيم .
وكذا كان اللسان أبين كان أقوى وأجل . كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة
كان أحمد وأكمل . وقد سأله موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون
بإبازع رسالته والإبانة عن حجته والافصاح عن أدلته . فقال حين ذكر العقدة
التي كانت في لسانه ، والحبسة التي كانت في بيانه (واحلل عقدة من لساني
يفقهوا قولي) الحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته . وقال : (وأخي هارون هو
أفصح مني لساناً فأرسله معي ردهاً يصدقني) وقال (ويضيق صدري ولا ينطلق
لساني) رغبة منه عليه السلام في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة .
لتكون الأعناق إليه أميل . والعقول عنه أفهم . والنفوس إليه أسرع . فان
خصمه فرعون كان مشاغباً سباباً مذهب كل جاحد معاند . وشأن كل مختال
مكابد كما أخبر الله تعالى عنه بقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد
يبين) أي ضعيف حقير لا يكاد يبين الكلام . قاله افتراءً عليه وتنقيصاً له في
أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام ؛ من نوع رنة وقد كانت ذهبت
عنه لقوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) وذكر الله عز وجل عظيم منته في
تعليم البيان . وجميل نعمته في تقويم اللسان . فقال (الرحمن علم القرآن . خلق
الإنسان علمه البيان) أي مكنه من التعبير عما في ضميره لإفهام الغير ، كما مكنه
من فهم بيان غيره ، وضرب لنا مثلاً على اللسان ورداءة البيان حيث شبه أهله
بالنساء والولدان فقال (أو من ينشأ في الخلية وهو في الخصاصم غير مبين) أي
أول جعلوا له تعالى من شأنه أن يربي في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه

وهو مع هذا القصور في الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسان في العادة غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لتقصان عقله وضمف رأيه لقبح ما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة — وأصل البيان جمع الفصاحة في اللفظ والبلاغة في المعنى . وقال الزمخشري : هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، والعي ضد البيان والحصر كالتفرح ضيق الصدر عند النطق ؛ وبالجملة فقوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على الداعي ، بهما يملك القلوب ، وبهما يؤثر في الأرواح .

الصفة الثامنة للإمام بما يأتي

١ — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو ما يعبر عنه في العرف بحالهم الاجتماعية . وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبي بكر كونه أنسب العرب ومعناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجن والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والغنى والفقر . وما كان إقدامه — مع ما عرف به من اللين وسهولة الخلق — على قتال أهل الردة إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة فلم يهيب ولم يخف وقد خاف عمر مع شدته المروفة على الكافرين والمنافقين أى خاف أن تضعف شوكة الإسلام بمحاربتهم . حتى قال أبو بكر : والله لو منعوني عقالا مما كانوا يؤدون به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . فهذه قوة العلم لا قوة الجهل — ولك أن تقول إن العلم الخاص بحال من توجه إليهم الدعوة من هذه الوجوه لا بد أن يكون فرعاً للعلم بهذه العلوم في نفسها كما سيتبين ذلك .

٢ — علم التاريخ العام ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات فيبني دعوته على أساس صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير ، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال . ولهذا كان القرآن

الحكيم مملوءا بعبير التاريخ ، والجاهل به لا يصلح أن يكون داعياً إلى الإسلام ولا مرشداً في الأمور العامة على الوجه الذي يرجى قبوله ونفعه .

٣ - علم النفس الباحث عن قوى النفس وخواطرها وميولها وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية . مثال ذلك أن الأصل أن يكون العمل تابعاً للعلم ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضار ويأتونه ، وعمل كذا نافع ويتركونه (والمحرم شرعاً كله ضار والحلال كله نافع) فما سبب ذلك ؟ وهل يُحسن دعوة هؤلاء إلى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير وارتكبوا الشر ؟ فهذه المعرفة هي من علم النفس الذي يؤخذ منه أن من العلم ما يكون ملكة راسخة للنفس حاكمة على إرادتها مصرفة لها في أعمالها ، ومنه ما يكون صورة تعرض للذهن لأثرها في الإرادة فلا تبعث على العمل وإنما يكون مظهره القول أحياناً - وعلم النفس يساوى علم التاريخ في المسكاة والفائدة - وقد كان الصحابة على حظ عظيم من هذا العلم فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وبما هداهم القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من علم النفس وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية ، فقد كان عليهم به كعلم الواضعين له أو أرسخ - يدل على هذا ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة وظهروا به في مواطن الحججة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

٤ - علم تقويم البلدان يُعد الداعي لكل بلاد عدتها إذا أراد السفر إليها وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان والجغرافية . ولذا أقدموا على الفتوحات ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل ، فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقفاً للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم . ومن درس ما حفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك جلياً .

٥ - علم الأخلاق الذى يبحث فيه عن الفضائل النفسية وكيفية تربية المرء عليها وعن النقائص وطرق توقيه منها وهو لازم لرجال الدين وللدعاة أئزم ، كي يستطيعوا معالجة النفوس وتهذيبها - وما ورد فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار الصحابة والتابعين بفضى شهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه .

٦ - معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للداعى بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعاه إليه ، ومن لم يقف على ما عند الناس من المذاهب والتقاليد الدينية لا يستطيع أن يخاطبهم على قدر عقولهم ، كما كان شأن سادة الدعاة ، عليهم الصلاة والسلام .

٧ - العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له . فعن زيد بن ثابت « أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم ، كتبه وأقرانه كتبهم إذا كتبوا إليه » وقال أبو جرة : كنت أرحم بين ابن عباس وبين الناس على أنهم قد استعربوا فما كان معرفة لغتهم الأصلية إلا مزيد كمال فى التفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم ، ولا يقال يمكن أن يستغنى الداعى عن تعلم لغات الأمم بالترجمين من غير المسلمين ، فإنه إن ظفر بالترجمان الأجنبي الأمين لا يتيسر لها أن تفهم من حقيقة الدين عند الترجمة ما يتيسر لها عند مشافهة الداعى لها بلغاتها ، فالواجب أن يكون فى كل جماعة تبعث للدعوة من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبي كما تفعل جمعيات الدعوة إلى النصرانية فإن أفراداً منهم يتعلمون لغات جميع الأمم ، فترام ينقلون إليها كتبهم ونشراتهم الدينية ويتخاطبون بها مع الناس ليتمكنوا بذلك من بلوغ غايتهم المقصودة

٨ - علم الاجتماع الذى يبحث فيه عن أحوال الأمم فى بداوتها وحضارتها ،

وأسباب ضعفها وقوتها وتأخرها وتقدمها على نحو ما في مقدمة ابن خلدون - وهذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق ، فمن كان له حظ عظيم منهما ، وكان صحيح العقل واسع الإدراك فإنه قد يستغنى عن هذا العلم في بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد ، وإن كانت دراسته مزيد كمال فيه وفي فوائده العظيمة - وعلى الجملة يلزم أن يكون الداعي عالماً بأحوال الناس خبيراً بأمراض الاجتماع ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجمل أحوال الناس وعلاهم خطأ كثيراً في إصلاح القلوب وعلاج النفوس وكان كمنظوب جرب دواء في مرض خاص فنجمع فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسم فكذا على القلوب .

الصفة التاسعة

قوة الثقة بالله تعالى في وعده وكأل الرجاء في حصول الفائدة ، مهما طال به العلاج وعظمت المصاعب ؛ فإنه متى تمكن ذلك من نفسه انبعثت همته وقوى نشاطه وتنبه إلى انتهاز كل فرصة مما يناسبها موقناً بأنه لم يظهر تأثيره اليوم ، فقد يظهر مؤمناً بأن الباطل زهوق ، ولا بد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل ، فإن دولة الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها ، ودولة الحق هي الثابتة بذاتها فلا يُغلب أنصاره ماداموا معتصمين به مجتمعين عليه . قال الإمام على رضي الله عنه : لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق .

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد الداعين إلى الله تعالى ؛ لم يثن عزمه عن الدعوة إلى الله تعالى عناد أهل النغي والضلال والعداء ، ومقابلتهم له بالإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المحاصرين ، بل ثابروا عليها ، وفي نهاية الأمر كان الظفر لهم . والنصر حليفهم ، وحقق الله تعالى لهم ما وعد ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وجملة الأمر أنه لا يليق بالداعي أن ييأس من الإصلاح إن لم يؤثر عمله لأول مرة ، بل عليه

أن يكرر النصيحة والعظة المرة بعد الأخرى الأتري دعاة الباطل يثابرون على نشره بين المسلمين بنشاط لا يعرف الملل . ورجاء لا يعتريه اليأس . وإن لم يحصلوا من سعيهم الآن على طائل مع ما يقاسون من الشدائد وما يتحملون من المشاق في سبيل الدعوة إلى النصرانية كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فإن لم يقدر وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل المريض إلى ساحل السلامة . فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين إن شاء الله تعالى بعد صلاحها قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

الصفة العاشرة

التواضع ومجانبة العُجب : فذلك بالدعاة والمرشدين أليق ، ولهم أزم ، لأن التواضع عطف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالمرشدين أقبح ، لأن الناس بهم يقتدون ، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجب بهم أخرى ، لأن العجب نقص يناقى الفضل ، لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العجب لياً كل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب ، وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه » وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة وما تقول إليه من الحوادث : « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فمليك نفسك » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبراني في الأوسط . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه

وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبارة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وسئل الفضيل عن التواضع فقال : أن تخضع للحق وتنفاد له وتقبله ممن قاله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل ، وأن ترفع نفسك عن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل .

وعلة إعجابهم التفات نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر ، قال الله تعالى « ترفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » أى في العلم ، قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذي علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . فينبغي لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير ماقصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وفي منشور الحكم : إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء قال ابن العميد :

من شاء عيشا هنيئاً يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا
وقلما تجد بالعلم معجباً وبما أدركه منه مفتخراً إلا من كان مقلا فيه ومقتصراً ،
لأنه قد يجمل قدره ويحسب أنه نال منه أكثره ، فأما من كان فيه متوجهاً ومنه
مستكثراً ، فهو يعلم من بمد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدده عن العجب به .
انسأل الله الكريم حسن التوفيق .

الصفة الحادية عشرة

أن لا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة ما يعلم ، فإن البخل به ظلم
واؤثم والمنع منه حسد وإثم ، وكيف يسوغ للمرشدين البخل بما مُنحوه جوداً من
غير بخل وأوتوه عفواً من غير بذل ؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما لو بذلوه ل زاد ونما ،
وإن كتموه تناقص ووهى ؟ ولو استن بذلك من تقدمهم ما وصل العلم إليهم
ولا تقرض عنهم بانقراضهم ، واصاروا على مرور الأيام جهالا ، وقد قال الله تعالى :
« وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم
والتباس بصائرهم . ثم قرأ : « إن الذين يكتبون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد
ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا
وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

نزلت في أحبار اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار فقد روى البخاري
وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : « لولا آية في كتاب الله
تعالى ما حدثت أحداً بشيء أبداً » ثم تلا هذه الآية . والكتب والكتبان ترك إظهار
الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقق الداعي إلى إظهاره . والبيّنات الواضحة
الآيات الدالة على الحق ، ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى في أمر محمد
صلوات الله عليهم أجمعين ، والهدى كل ما يهدى إلى وجوب اتباعه صلى الله
عليه وسلم والإيمان به ، وهى الآيات الشاهدة على صدقه عليه الصلاة والسلام ،
والعطف باعتبار التغيرات في المفهوم ، ويلعنهم الله يُبعدهم عن رحمته ، ويذيقهم أليم
نقمته ، ويلعنهم اللاعنون يدعو عليهم بالابعاد عن رحمة الله كل من يتأتى منه
اللعن من الملائكة والثقلين — والآية كما ترى تدل على وجوب إظهار علم الشريعة
وحرمة كتمانها .

وفي الصحيح من عدة طرق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليلنغ الشاهد

منكم الغائب » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار » . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وقال حسن . وأخرج أبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » وروى عن علي رضى الله عنه أنه قال : ما أخذ الله المهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيد البذل . وفي منشور الحكم : من كتم علماً فكأنه جاهله . ثم له بالتعليم نفعان : « أحدهما » ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده » . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا العلم وعلّموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء . قيل وما أجرهما ؟ قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة » « والنفع الثانى » زيادة العلم وإتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيهها لما ليس عندك . وقال ابن المعتز فى منشور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يُخمد بها أن لا تجد حطبها . كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فإيّاك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء : علمٌ علمك ، وتعلم علم غيرك ، فإذا أنت قد علمت ما جهلت . وحفظت ما علمت . وبالجملة فنشر العلم أعظم للأجر وأرفع للذكر وأرسخ للمعلوم . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلى كرم الله وجهه : « يا على لأن يهدى الله بك رجلاً خيراً مما طلعت عليه الشمس » . رواه غير واحد . والله تعالى ولى التوفيق .

الصفة الثانية عشرة

الوقار والريانة بالإمساك عن فضول الكلام ، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه ، والإصغاء عند الاستفهام ، والتوقف عند الجواب وعدم

التسرع والمبادرة في جميع الأمور ، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهله
وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخنا والقبيح والمزاح السخيف
وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين ، فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف
في المزاح ويفحش فيه ، والإقلال من البروز من غير حاجة والترفع عن الجلوس
في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك محل بكرامته
وأعظم الناس قدراً عند الخلق من ظهر اسمه وخفى شخصه . وإجمالاً يجب على المرشد
أن يتحلى بالسكينة والوقار في جميع أحواله حتى في مشيئته وكلامه فذلك مكسب للهيبة
والإجلال لدى الناس وأدعى إلى الانتفاع به .

الصفة الثالثة عشرة

أن يكون كبير المهمة على النفس يستصغر ما دون النهاية من معالي الأمور .
ويترفع عن الدنيا ويفض ب عند الإحساس بالنقص . ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق
فيه مقام الورثة ، فإنه مصلح داع إلى الله تعالى ، ومن كان كذلك انتقلت صفاته
هذه إلى نفوس السامعين . ومعلوم أن كل إنسان يجذبه طبيعه وتحمله جبلته أثناء
عمله إلى ما يميل إليه وينطوي عليه . ومقام الدعوة إلى الله تعالى أحوج شيء
إلى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلما كان الداعي أقوى نفساً وأعلى
همة كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من تأثيره
في نفوس السامعين .

الصفة الرابعة عشرة

الصبر في مقام الدعوة إلى الله تعالى فهو وصف الأنبياء والمرسلين صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين ، ومدار نجاحهم فيها ، ولن تسعد بها كما سعدوا وتظفر فيها
كما ظفروا إلا بالصبر والثبات ، ومتى فقدت الصبر والثبات كنت كمن أراد السفر
في البحر في غير مركب .

قال تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .
لا يستخفك لا يحملتك على الخفة والقلق الذين لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البيّنة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباطيلهم . فإنهم ضالون جاحدون ولا غرابة في صدور أمثال ذلك منهم — فانظر كيف أمره تعالى بالصبر على ما يلقاه منهم من الأقوال المؤلمة والأفعال السيئة ، وقد وعده النصر وإظهار الدين وإعلاء الحق ، ولا بد من إنجاز الوفاء به ، ونهاه صلوات الله وسلامه عليه عن التثؤنر من استخفافهم والافتتان بفتنهم — وإجمالاً أوجب عليه المتابعة على الدعوة إليه سبحانه وحرّم عليه القلق والضجر بما يناله منهم .

وقال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »
رفع منزلتهم وجعلهم قادة يرشدون الشعب الإسرائيلي إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه ، لما صبروا في مقام الدعوة إلى الخير على مقاساة الشدائد ، وكانوا على يقين تام وإيمان صحيح بآيات الله تعالى ، فكانوا كاملين في أنفسهم قائلين بتكميل الناقصين ، جامعين بين العلم والعمل .

وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .
أمره تعالى بالثبات في مقام الدعوة إليه ، والصبر على ما كان يصيبه في الله من أذى المكذبين الجاحدين من قومه ، والاعتداء في هذا الثبات بأرباب الجد والصبر على القيام بأمر الله من رسله الذين لم يضعف من عزائمهم في مقام الإرشاد ما كان ينزل بهم من ضروب الأذى ، وأنواع الشدائد والحن — ونهاه عن الدعاء على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر .

ولا يختص الصبر بعدم استعجال الفائدة قبل وقتها ، بل الصبر على الإيذاء الذي يتلى به الدعاء دائماً أكد وألزم ، وفضله أعلى وأعظم « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .
أى إذا كملت نفسك بعبادة الله فكل غيرك واصبر على ما ينزل بك من

الشدائد والحن ، لاسيا فيما أمرت به إذ كل ما ذكر مما عزمه الله وقطعه وأوجبه على عباده من الأمور - ومع هذا فهي من مكارم أهل الأخلاق الفاضلة وعزائم أهل الحزم السالكين طريق الفلاح .

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » مواعيده « ولقد جاءك من نبي المرسلين » ما يسكن به قلبك . وبالجملة فقد احتمل صلوات الله وسلامه عليه في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد والأذى وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يسببه من دعوته . فكذلك الداعي إلى الحق يجب عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ويواصل السير في سبيله مهما لاقى من صعاب وناله من أذى .

الصفة الخامسة عشرة

التقوى والأمانة والتحرزُ بطاعة الله تعالى عن مساخطه ، فإنها صفة المورث الذي هو خلف عنه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » فالعمل بمقتضى الدين يورث ملكة العلم والحكمة وبهما ينال الخير والسمادة .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » . رواه مسلم ، فلا يصح أن يكون فاسقاً في دينه قبيحاً في سيرته ، فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة ، فتي لم تكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزعه^(١) عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، بل كان شراً على نفسه وعلى الناس ، وأيضاً فإنه لا يقبل قول الفاسق

(١) تزعه تكفه من باب وضع

في الديانات فتتلاشى على يديه وظيفة الإرشاد ، وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية ، والفاسق لا يجوز أن يلى شيئاً من أمور المسلمين ، فلا يكون إماماً ولا قاضياً ولا شاهداً ولا يقدم للصلاة ، ومثله لا يتحامي عن الفتحا بغير علم والعياذ بالله تعالى - رزقنا الله التقوى والاستقامة بمنه وكرمه .

آدابه الكمالية

ويحسن بالداعي أن يتحلى بأمر (منها) الورع باتقاء الشبهات ، والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة ، فإن ذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه وأهون على الإقبال عليه ، وأدعى إلى الانتقياد له لأن حال الداعي يؤثر في القلوب أكثر من مقاله ، وهكذا كانت صفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين رضي الله عنهم أجمعين .

في صحيح البخارى من حديث أنس رضي الله عنه قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بتمرة مستقوطة فقال « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وقدم على عمر رضي الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال : والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين . فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك ، قال لا فقالت لم ؟ قال لأنى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا « وأدخل أصابعه فى صدغيه » وتمسحى به فى عنقك فأصيب فضلا من المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه مسك المسلمين فأخذ بأفنه (سدها بيده) حتى لاتصيبه الرائحة ، وقال : وهل يفتنع منه إلا بريجه قال ذلك لما استبعد ذلك منه وهذا من ورع المتقين . وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت ، إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان فهو من المشنبه ،

وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف .

ومن وقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به — ولذا منع الشرع من التعرض للتهمة : أخرج الزبير بن بكار عن عمر بن الخطاب قال من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، وأخرج البيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب قال كتب لي بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن إلا نفسه حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ روى عن علي بن حسين (زين العابدين) « أن صفية بنت حبيبي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فر به رجالان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال : إنها صفية بنت حبيبي فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً . فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يُدخِل عليك » متفق عليه . وفي رواية « إني خشيت أن يُقذِف في قلوبكما شراً » .

فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فخرسهما من مرور ذلك الوهم في قلبهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول : مثل لا يظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه ومنه يستفاد أنه ينبغي للرجل إذا حدث زوجته أو محرّمه على الطريق أن يقول هي زوجي أو محرّمي حتى لا يتهم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى مالا يليق ، وهذا متأكد في حق العلماء والمرشدين فلا يجوز أن يفعلوا ما يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم مخلص ، لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم وإرشادهم . قال الإمام علي رضي الله عنه : إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره . وإن كان عندك اعتذاره .

ومنها محبة الإصلاح والتفاني في خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الناس

ومحاربة البدع والمنكرات بالحكمة والموعظة الحسنة حتى ينهض بهم إلى أوج الفلاح ودرج السعادة ، فإن ذلك من أخلاق الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء والمرسلين ، وصفة قادة الأمم المجاهدين المخلصين — وما أحسن الداعي يحرص على نفع من يريد إرشاده ويبغى الخير له : قال تعالى في صفة المصطفى صلى الله عليه وسلم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » أي جاءكم رسول من جنسكم عربي مثلكم شديد شاق عليه عنتم ولقاؤكم المكروه حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم بالمؤمنين كافة شديد الرحمة — وبقدر امتلاء قلبه بهذا المعنى يكون له من المحبة والقبول في قلوب الناس ، فالقلوب كالمرآيا المتقابلة ينطبع في أحدها ما ثبت في الآخر ، أما الخمول المتواكل فإنه تكلة عدد وعديم المنفعة .

ومنها التخلق بالخلال الحميدة والشيم المرضية التي أرشد إليها الشرع الشريف ، وحث على التحلي بها . كالسخاء ، والجود ، والمروءة ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ ، والسواك ، ونف الأبط ، وإزالة الروائح الكريهة ، واجتناب الروائح المكروهة ، وتسريح اللحية ، مع المحافظة على أبهة العلم ، ومظاهر العلماء — كل ذلك مما يسهل عليه بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى ، بخلاف التهاون في هذا ، فإنه يقلل من الثقة به وإقبال الناس عليه ، وإمام الدعاة نبينا صلوات الله وسلامه عليه الذي هو وارث له كان على غاية من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

ومنها الإخلاص لله في العمل ، فلا يطلب على الإرشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا من أحد ، ولا تحصيل جاه أو شهرة أو سمعة ، فإن المرشد إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خالياً من الأغراض الدنيوية ، أما إذا كان عمله لشيء من هذه الأغراض فلا أثر لقوله في قلوب الناس ألبتة ، بل يعمل لوجه الله تعالى وطلباً لمرضاته وحسن ثبوته ، وللتقرب إليه سبحانه بهذه الوسيلة العظيمة اقتداءً بإمام المرشدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يرى لنفسه منة على من يرشدهم ،

وإن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الأطواق للأعناق ، فإنه السبب الأكبر لهدايتهم إلى الحق ، بل يرى الفضل لهم إذ سلموا قلوبهم إليه ليتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة ، فنفعتك تزيد بها على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك في إرشاده أكثر من ثوابه عند الله تعالى ، ولولا المسترشد ما نلت هذا الثواب ، وأى عالم لم يكن له من يفيد العلم صار كعقيم لا نسل له ، فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجوداً ، وإن فقد شخصه ، كما قال الإمام على رضى الله عنه : العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة — يريد العلماء العاملين .

وجملة القول أن من قام بالدعوة إلى الله تعالى لشهوة من الشهوات النفسانية فذلك حظه من عمله ، وكان عند الله مذموماً قال تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . أى من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة ، شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نزد له فى ثوابه فنعطيه بالواحدة عشرة إلى سبعمائة ، ومن كان يقصد ثواب الدنيا نؤته شيئاً منها على ما قسمنا له مع حرمانه من نعيم الآخرة فالأعمال بالنيات .

وقال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » مدحوراً مطروداً ، وسعيها حظها ، من السعى وهو الإتيان بما أسره به والانتهاه عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بأرائهم ، واللام رمز إلى اعتبار صدق النية ، والأخلاص فى السعى ، ومشكوراً مقبولاً عنده تعالى مثاباً عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . يعنى ربحها . رواه الترمذى وغيره بإسناد صحيح : فلا يطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال

عز وجل « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله » . فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم العلم ، إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الاتسكاس على أم الرأس .

يجب علينا أن نؤدى الواجب حبا في الواجب ، وإطاعة لخالقنا ، وتلبية لضائرنا وإرضاء لوجداننا ، لا إزعانا لسلطان المادة ، ولا جريا وراء شهوة تحصل عليها أو مقم نصيبه ، فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقي إلى حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلى نفسه — وهذا الشعور الطيب هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الحياة ، وقد حث النبي صلوات الله وسلامه عليه على التخلق به على أبلغ وجه وآكده حيث جعله شرطا للإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخارى — ولنا بالرسول أسوة حسنة في أن الإنسان يعمل الواجب حبا في الواجب . فقد أسدى موسى عليه السلام معروفا إلى بنتى الشيخ الكبير : سقى لها غنمها وكفاهما مؤونة نزع الماء من البئر ، ولما دعاه الشيخ ليجزيه على معرفته خيرا وقدم إليه طعاما يادره موسى قائلا : نحن أهل بيت لا نبيع ديننا بدنينا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا . فاعتذر إليه والد البنيتين بأن تقديم الطعام لكل قادم إنما هو عادتنا مع أضيافنا ، فقبل موسى عذره ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . (نعم) له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم .

فينبغى للداعى أن يتحلى بالآداب الشرعية ، والإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون وارثا نبويا ، وعالما ربانيا ، وأن يعلم أنه لا يجتمع الإخلاص

في القلب ، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار ،
والضرب والحوت — فإذا حدثتكَ نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً
فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا
في الآخرة ، فإذا تم لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص ،
والذي سهل عليك ذبح الطمع علمك يقينا أنه ليس من شيء يطعم فيه إلا ويبد
الله تعالى وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه ، والذي
يسهل عليك الزهد في الثناء والمدح ، علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين .
ويضر ذمه ويشين . إلا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرابي للنبي صلوات الله وسلامه
عليه « إن مدحى زين . وذمى شين . فقال ذلك الله عز وجل » قطعة من حديث
طويل أخرجه ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس . فازهد في مدح من لا يزينك
مدحه ، وفي ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه ،
وكل الشين في ذمه .

ومنها دوام مراقبته لله عز وجل في سره وعلايته ، محافظاً على الطهارة ،
ومواظباً على قراءة القرآن ، ونوافل الصلوات ، والصوم ، وغيرها ، معولاً في كل
أمره على الله تعالى ، معتمداً عليه ، مفوضاً أمره إليه . قال تعالى « إن الله لا يخفى
عليه شيء في الأرض ولا في السماء » وقال تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقال تعالى
« إن ربك لبالمرصاد » أي لبالمكان الذي يتربص فيه من رصده وهو تمثيل لأرصاده
النصاة بالمقاب . وقال تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » وعن أبي يعلى
شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكيس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » رواه
الترمذى وقال حديث حسن . الكيس العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب ،
والعاجز المتصر في الواجب الذي يأتى بهواه ، فنفسه عبد شهوته ، يقع في مساخط
الله ، ويعلل نفسه بعفوه وسعة رحمته ، وقد كتبها تعالى لغيره ، ودان نفسه حاسبها .

وبالجملة يجب على من يتصدى لإصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة ، مرضى السيرة ، عنوان الفضيلة ، ومثال الكمال في أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، وإلا فهو فتنة في الأرض وفساد كبير ، حقا لو توفرت في الداعي صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به ، حقا لو تحقق الداعي بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، ويقدم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، واستطاع أن يداوى القلوب ، ويهذب النفوس بما أوتي من مهارة وحكمة ، وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين الرذائل بسور منيع من زواجره ونصائحها وترغيبه وترهيبه . يقينا لو كان المرشد على ما وصفنا لكان ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقفون به ويهتدون به ويهتدون بهديه ، وبحق يستولى على القلوب ويتغلب على الأرواح ويتصرف فيها كما يشاء ، وفي ذلك كفاية والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

آداب الداعي مع السامعين

وهي كثيرة من أهمها ، وهو من دقائق هذه الصناعة ، أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بتلويح في المقال ، وتعمير في الخطاب ما أمكن ، فالتعمير في ذلك أبلغ من التصريح ، فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بالمقصود منه كان أوقع في نفسه ، وأعظم تأثيرا في قلبه ، وأدعى إلى التنبه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمة المخاطب بتترك المجاهرة بالتوبيخ — وأيضا التعمير لا تفتك به سُجْفُ الهيبة . ولا يرتفع معه ستر الحشمة ، أما صريح التوبيخ والتفريع الشديد العنيف ، فقد يورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار والبقاء على مايم عليه لاسيما النفوس المنطوية على الكبر .

الآثرى قوله تعالى في شأن ذلك الرجل الفيور على دين الله والدعاة إليه « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » لما سمع بنجر رسل عيسى عليه السلام ، وإنكار القوم لهم حضر مسرعا ودعاهم إلى اتباع هؤلاء الرسل برفق ولين ، تأليفا لقلوبهم ، واستمالة

لها نحو قبول نصيحته ، ووصف المرسلين بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي ، والاهتداء إلى خير الدين والدنيا — ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال « وما لي لأعبد الذي فطرني » أي أي مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقتني ، والمراد تقريرهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبيء عنه قوله : « وإليه ترجعون » مبالغة في التهديد على وجه لطيف — ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد ، وزيادة الإيضاح فقال : « ألتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تنفي عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني إذا لني ضلال مبين » فوجه الإنكار إلى نفسه وهو يريدهم به ، أي لا يتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذي فطرني ، مبيناً حال هذه الأصنام التي يعبدونها ، من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم ، وبياناً لضلال عقولهم ، وقصور إدراكهم ، لأنني إذا فعلت ذلك أكون ساقطاً في وهدة الضلال الذي لاشك فيه ، فإن إشرارك ما ليس من شأنه النفع ، ولا دفع الضر ، بالخالق المقدر الذي لا قادر غيره ، ولا خير إلا خيره ضلال واضح ، وخسران مبين ، وهذا تعريض بهم . هذا سبيل الحكمة فاسلكه والله تعالى الموفق للصواب .

ومنها التلطف في القول والرفق في المعاملة مع تحمى الإقناع ، فلهذا شأنه في نجاح المرشد في مقام الدعوة إلى الخير ، والقرآن الحكيم يرشد إلى ذلك في مواضع كثيرة ، تأمل قوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » أي أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ، ليسكن شغبتهم وتلين عريكتهم ، وهذا بالنسبة للمعاندین المجادلين بالباطل كما سيأتي — وقوله : « وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، أي وإن أحد الفريقين من الموحدين والمشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال الواضح — فإن هذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجرميانه

على سنن الإنصاف المسكت للخضم الألد ، ونظيره قول حسان رضى الله عنه :

أتهجوه ولست له بكفء فشركا تلخير كما القداء

وقوله : « قل لاتسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون » .

وهذا أبلغ في الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف ، حيث أسند فيه الإجماع إلى أنفسهم ، ومطلق العمل إلى المخاطبين ، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر — فما بعد هذا التلطف طريق يسار فيه ولا وراء هذا الرفق غاية ينتهى إليها .

والسر في ذلك أن النفوس جبلت على الميل إلى العظمة وحب الكرامة ، وشبت في الغالب على الأنفة والرعونة ، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة ، فمن أراد صرفها عن غيرها إلى رشادها ، وحاول الخروج بها عن مألوفاتها وعاداتها ولم يَمزُجَ مرارة الحق بمحلاوة التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين ، كان إلى الانقطاع أقرب منه إلى الوصول ، ودعوته أجدر بالرفض من القبول وكان كمن رام أن يطهر ثوبا من الدنس فأوقد فيه نارا فأحرقته — ألا ترى قوله تعالى : « فقولا له قولاً ليئلاً لعله يتذكر أو يخشى » فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذكر والانتعاش ، والمعد للنفوس للخوف والانزعاج .

وروى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قربوه ، أذن . فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتحبه لأملك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ؛ أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة لا ، جعلني الله فداءك ، فوضع رسول صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شئ أبغض إليه منه ، يعنى الزنا » رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

فهذه هي الحكمة في الدعوة ، وبها تجب القدوة . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ، وإنا لا نكون متبوعين له صلوات الله وسلامه عليه حتى نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر على سنته وطريقته في اللطف وتجرى الإقناع بالرفق واللين ، ومن أوتى حظه من الرفق فقد أوتى حظه من خير الدنيا والآخرة — ومن هنا تعلم السرفى جمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أكمل الناس عقولا ، وأصفاهم أرواحا ، وأحسنهم أخلاقا ومنها أن يذكره بخير ، ويصفه بحميد ، كأن يبين ماله من حسب ، وما فيه من فضل ، وما عليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ، ويمده بذلك لقبول الموعظة ، إذ لا ريب أن ما يكون للإنسان من شرف ورفعة مناط التحلى بالفضائل والتخلى عن النقائص ، لأن الذى يرى نفسه مفضلا مكرما ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنيا والخصائص التى تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذى يرى نفسه رذلا ساقطا خسيسا ، فإنه لا يبالي ما يفعل — ألا ترى قوله تعالى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » حيث ناداهم باسم أبيهم يعقوب الذى هو أصل عزمهم ومجدهم ، ومنشأ تفضيلهم وطلب منهم أن لا ينسوا نعمته عليهم بشرائه ورساله ، وتفضيله إياهم على العالمين بالنبوة والملك ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحهم فى هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل فى نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأحوال مالا منجاة منه إلا بقوى الله سبحانه فى كل الأحوال ، ومراقبته تعالى فى جميع الأعمال .

وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا » فإنه تعالى بعد أن امتن على بنى إسرائيل بابتداء موسى التوراة لهدايتهم به ، ونهاهم عن أن يتخذوا ربا غيره تعالى يكلمون إليه أمورهم ، ناداهم بهذا العنوان ليحملهم على التوحيد والطاعة بتذكير إنعامه عليهم فى ضمن إنجاء آبائهم من الفرق فى سفينة نوح عليه

السلام الذى أنبى عليه بأنه كان عبداً كثير الشكر له تعالى فى جميع حالاته وفى ذلك إعلام لهم بأن إنجاء من معه كان ببركة طاعته عليه السلام لربه ، وحث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أقبح أنواع الكفران .

وهذا أسلوب حكيم فى الدعوة فينبغى للداعى أن يبدأ بأحياء إحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة فى نفوس المخاطبين ، لتستمد بذلك لقبول النصيحة وتتغلب بهذا الإحساس ، وذلك الشعور على عوامل الهوى والفجوة ، فإن النفس إذا عرفت علوها ، واستشعرت كرامتها ، وسمعت ما فى الرذائل من الخسة حملها ذلك الشعور (شعور الرفعة والكرامة) على النفرة من التسفل بارتكاب تلك النقائص ، وكان ذلك من أحكم الوسائل إلى مساعدة المرشد على بلوغ غرضه من نفوس السامعين .

وجملة القول أن فى الوعظ مسابيح إحساس الموعوظ ، وحرجا قد يحمله على النفور من سماعه والاستنكاف من قبوله - فإذا كان الداعى حكيماً فذكر ما فى الخطاب من فضل ، وماله من منزلة ، ثم أرشده إلى الخير ، وحذره عن الشر ، حمله ذلك على التخلى عما هو فيه من ضلال وشقاء ، وأقبلت نفسه على التحلى بما يدعوه إليه من هدى وسعادة كما يقبل الجريح على من يضمه جراحه ، ويسكن آلامه ، وينقذه من تعب المرض إلى راحة السلامة - فهذا شئ من هداية الكتاب الحكيم لنا ، وكله هدى ورحمة .

ومنها : أن يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم ما يتحملون ، ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم ملاماً وسامة . من الحكم الماثورة : من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مشوئة الاستماع منك : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . قيل لعمر

ابن العاص : ما العقل ؟ قال الأصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان وإنما ركب الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل . وإذا كان المرشد بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يجب على يديه أحد ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا وإياه في عناء مكث . وتعيب غير مجد . فإنه لا يعدم أن يكون منهم ذكى محتاج إلى الزيادة وقاصر يكتفى بالقليل ، فيضجر الذكى ويعجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز ملوه وملهم ، وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشوفى وعائتك : — وجلس ابن السباك يوماً للوعظ وجاريتته تسمع كلامه فقال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت هو حسن لولا أنك تردده ، فقال أردده كي يفهمه من لم يفهمه . فقالت إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه — وعلى الجملة فخير المرشدين الفطن الذى لا يقل ولا يمل والله الموفق للصواب .

الفصل الثامن

ما يلزم المرشد اجتنابه

عما لا يجوز له الخوض في دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، ورؤية البارئ يوم القيامة ، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد السامة يصعب عليهم الخلاص منه ، بل الصواب لهم الاقتصار في أمر العقائد وواجب الإسلام على أن يملأ قلوبهم بالتصديق الجازم بكل ما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقبوله ، والإذعان له ، تصديقاً سليماً من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة ، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين — هذا ما أجمع عليه السلف والمحققون من العلماء — فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحداً بسوى

ما ذكرنا ، وكذا الخلفاء الراشدون ، ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول « نعم » لو تشكك إنسان في شيء من أصول العقائد عما لا بد من اعتقاده ، ولم يزل شبهه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل —

ونقول في التشابه من آيات الصفات وأخبارها خلاصة ما قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه : أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات ، وقد قام البرهان العقلي والنقلي على هذه العقيدة ، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يناقض ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان « إحداهما » طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى « ليس كمثل شيء » وقوله عز وجل « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » وتفويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله تعالى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لخيلتنا . أي فيقال مثلا تؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به ، مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزّه عن الحلول وسمات الحدوث . فهذه طريقة السلف وهي أسلم إذ لا يطالب العبد بالخوض في ذلك ، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه « نعم » إن مست الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا « والثانية » : — طريقة الخلف وهي التأويل يقولون إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شيء منه عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشيء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغي طلبه بالتأويل ، ولا مانع من السير

على كلا الطريقتين في فهم وبيان المتشابه ، لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها ، لأنه لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى .

فظهر مما تقدم اتفاق السلف والخلف على التنزيه ، وصرف النص الموم عن ظاهره الحال عليه تعالى ، لكنهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين المراد من ذلك النص وعدم التمييز ، بناء على الوقف على قوله تعالى : والراسخون في العلم : فيكون معطوفاً على لفظ الجلالة وجملة يقولون آمناً به حينئذ مستأنفة لبيان سبب التماس التأويل . أو على قوله إلا الله ، وقوله والراسخون في العلم استئناف ، وذكر مقابله في قوله تعالى : فأما الذين في قلوبهم زيغ ! أى كالجسمة ، ففهم من يقول إنه على صورة شيخ كبير ، ومهم من قال إنه على صورة شاب حسن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والحاصل أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح اتفق أهل الحق وغيرهم ماعدا الجسمة والمشبهة على أن ظاهره غير مراد لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره - فما يوم الجهة قوله تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » فالسلف يقولون فوقية لا تعلمها والخلف يقولون المراد بالفوقية التعالى في العظمة ، فالعنى يخافون أى الملائكة ربهم من أجل تعاليه في العظمة ، أى ارتفاعه فيها ، ومنه قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » فالسلف يقولون استواء لانعلمه ، والخلف يقولون المراد به الاستيلاء والملك . كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق

أى فهو تمثيل وتصوير لعظمة الله تعالى ، وساطعانه في خلقه .

— وما يوم الجسمية قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » « وجاء ربك » وحديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه

من يستغفرني فأغفر له » فالسلف يقولون بحجى وإتيان ونزول لانعلمها ، والخلف يقولون المراد إتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه ، وبحجى عذاب ربك أو أمره الشامل للعذاب ، وينزل ملك ربنا فيقول عنه - وما يوم الصورة ما رواه احمد والشيخان أن رجلاً ضرب عبده فهاء النبي صلى الله عليه وسلم : « وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته » فالسلف يقولون صورة لانعلمها ، والخلف يقولون المراد بالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته في الجملة ، وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة - وهذا بناء على أن الضمير في صورته عائد على الله تعالى كما يقتضيه ما ورد في بعض الطرق « فان الله خلق آدم على صورة الرحمن » . وما يوم الجوارح قوله تعالى « ويبقى وجه ربك . يد الله فوق أيديهم » وحديث : إن قلوب بنى آدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فالسلف يقولون وجه ويد وأصابع لانعلمها ، والخلف يقولون المراد من الوجه الذات ، ومن اليد القدرة ، وفوقيتها فوقية عظيمة بمعنى أنهم لا يخرجون عن تعلقها ، والمراد من قوله بين أصبعين من أصابع الرحمن . بين صفتين من صفاته وهما القدرة والإرادة .

وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، والبعد عن المخاطرة فيما لا ضرورة بل لاجتاجة إليه - وطريق الخلف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم ، وهى أولى في تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم - والسلف من كانوا قبل الخمسمائة وقيل : القرون الثلاثة : الصحابة والتابعون وأتباع التابعين . والخلف من كانوا بعد الخمسمائة وقيل من بعد القرون الثلاثة - والمشبهة قوم شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ومثلوه بالحوادث - والمجسمة غلاتهم المصرون على التجسيم الصرف ، وأما غير الغلاة منهم فهم مشبهة الحشوية فقالوا هو مجسم لا كالأجسام من لحم ودم لا كاللحوم ، وله الأعضاء والجوارح ، والقدرية فرقة تقول إن أعمال العباد مخلوقة لهم من دون الله - وقد استوفينا الكلام على هذه الفرق وغيرها في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع »

ومما يلزم اجتنابه التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه . فذلك من وضع الحكمة في غير موضعها وهو ظلم - فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها وهو الغالب ، وهو فتنة تؤدي إلى العمل بالباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المحدث لم يبط الحكمة حقها من الصون بل صار في التحدث بها معهم كالعابث بنعمة الله تعالى - ثم إن ألقاها لمن لا يعقلها في معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس في الوسع - وقد جاء النهى عن ذلك : أخرج أبو داود أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « نهى عن الغلوطات »^(١) قالوا وهي صعاب المسائل أو شرارها - وروى الترمذى أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أتيتك لتعلمني من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام : « ما صنعت في رأس العلم ؟ قال وما رأس العلم ؟ قال هل عرفت الرب ؟ قال نعم قال فما صنعت في حقه ؟ قال ما شاء الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكيم ما هُنَا لَكَ ثُمَّ تَمَالِ أَعْمَلِكَ من غرائب العلم » . فالذي تقتضيه الحكمة ألا تعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول وإلا وقع السامع في الفتنة - وقالوا في العالم الحكيم إنه هو الذي يربي بصغار العلم قبل كباره - وقد ترجم على ذلك الإمام البخارى فقال « باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا » وأخرج موقوفا على علي رضي الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أن يحبون أن يكذب الله ورسوله . ويعرفون : ضد ينكرون لا ضد يجهلون أى حدثوهم بما تصل عقولهم إلى فهمه دون ما يعز عليها فتعده منكراً ومحلاً وأخرجه بلفظ آخر « قال على حدثوا الناس بما يعرفون » أى يُدركون بعقولهم « ودعوا ما يشبه عليهم فهمه أتحبون أن يكذب الله ورسوله » . وفي مسلم مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه : « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان

(١) جمع غلوطة بالفتح قيل أصلها أغلوطة حذفت همزتها المضمومة تخفيفاً والأغلوطة ما يغلط فيه وما يغالط به من صعاب المسائل .

فتنة على بعضهم » وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحمّله على غير وجهه ، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل — وخرج شعبة عن كثير بن مرة الحضرمي أنه قال : إن عليك في علمك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل . ولا تمنع العلم أهله فتأنم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك .

ومن حديث ابن عمر مرفوعاً « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » . وقال علي رضي الله عنه : وأشار إلى صدره ، إن ههنا علوماً جمة لو وجدت لها حيلة : وصدق كرم الله وجهه ، قلوب الأبرار قبور الأسرار ، وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء ، وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فاعط كل ذي حق حقه ، وفي معنى ذلك ما روى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه سئل عن العالم من هو ؟ فقال : من يضع العلم موضعه ، ويؤتي كل شيء حقه ، وقال بعض العارفين : من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخشهم حقهم ، ولم يقم بحق الله تعالى فيهم ، ولذا قيل كل لكل عبد بعبارة عقله . وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه ، وينتفع بك ، وإلا وقع الانكار لتفاوت المعيار فليحذر المرشد الشطح بكلمات غير مفهومة ، لها ظواهر راقية معجبة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ولا منها فائدة — كالكلام في مقام الفناء الذي قصرت عباراتهم عن إيضاحه ، ومراتب الشهود التي عسرت التفرقة بين حقائقها ، وكقول القوم في أقسام الإيمان ، وأنه خمسة أقسام :

الأول : إيمان عن تقليد ، وهو الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل ، وهو إيمان العوام (الثاني) إيمان عن علم ، وهو الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها ، وهو لأصحاب الأدلة (الثالث) إيمان عن عيان ، وهو الناشئ عن مراقبة

القلب لله تعالى بحيث لا يغيب عنه طرفة عين ، وهو لأهل المراقبة ، ويسمى مقام المراقبة (الرابع) إيمان عن حق ، وهو الإيمان الناشئ عن مشاهدة القلب وهو للعارفين ، ويسمى مقام المشاهدة (الخامس) إيمان عن حقيقة وهو الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله عز وجل وهو للواقفين ، ويسمى مقام الفناء ، لأنهم يفنون عن غير الله تعالى ، ولا يشهدون إلا إياه - وهناك قسم آخر أسمى من هذه الأقسام ، يسمونه حقيقة الحقيقة ، وهو المرسلين ، وقد منعنا الله تعالى كشفه فلا سبيل إلى بيانه - وقولهم في سر السر ، ونور النور - وما إلى ذلك من اصطلاحات الصوفية - فكل هذا خلاف الشرع ، وما كان عليه سلف هذه الأمة فهو بدعة وضلالة كما أوضحناه في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » .

وبهذا يعلم أن من تقيده من العامة بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ، ورسخ في نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل ، وحسنت مع ذلك سيرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بذكر اصطلاحات المتكلمين ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته التي هو فيها ، وطريقته التي هو سالكها ويقتصر معهم على تعليم العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحب مع بيان سر مشروعيتهما ، كل هذا من غير تدقيق في مسائلها ولا ذكر اختلاف الآراء فيها ، والحث على الأمانة في الصناعات ، والإحسان في المعاملات التي هم بصددتها ، ويملاً قلوبهم من أنواع الرغبة والرغبة بالجنة والنار وبلايا الدنيا وأحوال يوم القيامة ، كما نطق القرآن الحكيم ، وصرحت به السنة الشريفة ، والآثار الصحيحة : ولا يحرك عليهم شبهة من الشبه الكلامية والإشكالات الفقهية ، فإنه ربما تعلقت بقلوبهم ، ويعسر عليهم حلها فيقعون في الشقاء والمهلك بسوء تصرفه - وبالجملة ينبغي أن لا يفتح للعوام باب البحث والجدال ، فإنه ضياع لهم ، وليس من الحكمة في شيء : والله الهادي إلى سواء السبيل .

وما لا يجوز التعرض له صرف ألقاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور

باطنة لا تحتملها الألفاظ ولا فائدة فيها كدأب الباطنية في التأويلات البعيدة ،
وهم جماعة من اللاهدة نسبوا أنفسهم إلى علم الباطن ، وراضوا الأخذ بظاهر
القرآن والأحاديث وقلوا : للقرآن والحديث ظاهر وباطن ، والمراد منهما باطنهما
دون ظاهرهما ، وحرفوا الألفاظ إلى معان أخر غير مفهومة إلا لهم بادعائهم في ذلك ،
حتى أنهم تركوا أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ، زاعمين أن لها
معانى غير ما عمل به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه وأجمع عليه
المسلمون ، وكفلاء الصوفية الذين ذهبوا في التأويل إلى ما وراء طور العقل والنقل
وأساليب اللغة ، ومثلها دعوى القاديانية الهندية التي يأتب أهلها بالأحمدية أن رئيس
محلثهم ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض
الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار
من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم المعتدين
على استقلالهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع عن دينه ووطنه — وإنما
جعل القادياني هذا من أصول دينه دعابة لدولة أجنبية — ولا يزال الباب مفتوحاً
عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحى النبوة متصل في خلفائه وأتباعه — فاقول
بهذا خروج من ملة الإسلام لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام ،
وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل .

فهذا أيضاً حرام في الشرع وضرر على الناس عظيم : فإن الألفاظ إذا صرفت
عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه
عليه وعن أصحابه الذين شاهدوه رضى الله عنهم . ومن غير ضرورة تدعو إليه
من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام
الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن ما يسبق منه إلى الفهم إن خرج
عن جادة الشريعة لا يوثق به ، والباطن لا يضبط له ولا معول عليه فيما يخالف
ظاهر الشرع ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى — وهذا

أيضاً من البدع المنكرة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .

وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها عن معانيها وتنزيلها على معانٍ آخر على رأيهم الفاسد . من ذلك قول بعض المتصوفة في تأويل قوله تعالى : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كل إنسان . وكذا في قوله تعالى : « فاخلع نعليك » أي نفسك ، وفي قوله تعالى : « وأن ألق عصاك » أي كل ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ، فينبغي أن يلتقيه عنه . وفي قوله تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » المراد منه تخليص إبراهيم من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة — وفي قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أنه الحب والعشق إلى غير ذلك مما نقله القاشاني الباطني الذي ملأ تفسيره بأمثال هذه المصائب .

ومن ذلك ما قاله في قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه إنه أراد به الاستغفار بالإسحار ، وقولهم في حديث الإيمان والإحسان : « فإن لم تكن تراه » أي إن أفنيت نفسك تشرفت بالرؤية . مع مخالفته للغة العربية كما لا يخفى إلى غير ذلك حتى يحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، فإن القاعدة عند العلماء (أن الظاهر يجب إقراره على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذا أنه يجب حمل كل لفظ ورد في الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عنها . وبمض هذه التأويلات قطعي البطلان كتبزييل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محس تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له كأبي لهب وأبي جهل من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لا يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه — وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه صلوات

الله وسلامه عليه كان يتناول الطعام مع أصحابه في ذلك الوقت . روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا زاد ابن عاصم في كتاب الصوم « فأكلا تمرأ وشربا ماء » فهذه أمور يدرك بطلانها بالتواتر والحس نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الأحساس . وكان لوضاعى تلك التأويلات من القرس غرض سياسى من إفساد الإسلام على أهله وإحداث الشقاق بينهم فيه وهو إضعاف العرب والقضاء على دولتهم أو إزالة ملكهم للتمكن من إعادة ملك فارس وسلطان الملة الجوسية - ثم رسخ بالتقليد في طوائف جهلوا أصله .

فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل ذلك عن صاحب الشرع ولا عن أصحابه ولا عن التابعين مع سعة روايتهم وكثرة تلقيهم ، ولا عن الحسن البصرى رحمه الله مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم - ولا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده ^(١) من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه تقرير أمر فيأتى بالقرآن شاهداً له يحمله عليه من غير أن يشهد بالتنزيل عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية . وقوله : فيلتبأ مقعده . أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من فسر القرآن برأيه وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك . والمقصود الزجر عن القول في القرآن بالهوى والرأى .

ولا تفهم من هذا أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر في الآيات فلنأخذ نريد هذا ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والتابعين والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة فأكثر ، ولنعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح . فهذا جائز لأنها معان

تحتها الألفاظ بخلاف ذلك كما عرفت لا تحتلها الألفاظ ولا يدل عليها نقل ولا يقرها عقل .

وصفة القول أن النصوص الشرعية تحمل على ظواهرها وما تدل عليه في عرف اللسان ، وأن العدول عن ذلك إلى معان يدهيها أهل الباطن إلحاد . وما سميت الملاحدة باطنية إلا لدعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها ، بل لها معان باطنية لا غير ، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينهما وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان . هذا خلاصة ما في العقائد النسفية وشرحها للهدى .

الفصل التاسع

السجع والأشعار في الوعظ

السجع في الكلام العربي المنشور هو اتفاق فواصل الجمل على حرف واحد نحو فيها سرر مرفوعة . وأكواب موصوعة ، ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ، ويكثر في كلام بلغاء العرب ومواعظ المتقدمين كالإمام على رضي الله عنه والحسن البصرى وأبي الفرج بن الجوزى ، وهو نوعان : حسن وقبيح ، فالحسن ما توفرت فيه شروط ثلاثة « الأول » أن يكون بعيداً عن التكلف والتعسف « الثاني » أن تكون كل سجمة دالة على معنى مغاير لمعنى غيرها « الثالث » أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة للذائق ، وبهذا يكسب الكلام حسنا وجمالا — والقبيح ما خلا من هذه الشروط .

كقول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والقرض ، والنمر والبرض
— والبرض القليل وماء برض قليل وهو خلاف النمر ، والنمر بوزن الجر الكثير

فمثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ولهذا كرهه النبي صلوات الله وسلامه عليه . قال الأزهرى : ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم في جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم « إياكم وسجع الكهان » .

وهو مكروه شرعا ثقيل على النفس ولو في الدعاء ، فعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت لسكاتب : إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ، رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما بإسناد صحيح . وسجع من باب قطع . وروى البخارى من رواية عكرمة عن ابن عباس قال « حدثت الناس كلَّ جمعة مرة » فذكر الحديث وفيه : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

وكل هذا محمول على التكلف فى السجع ، فإن خلا عن التكلف وإعمال الفكر ، وكان لكالم فصاحة الداعى أو لكونه محفوظاً مثلاً فلا بأس به ، بل هو حسن كما عرفت . يدل عليه ما فى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما من قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم منزل الكتاب . ومجربى السحاب وهازم الأحزاب إهزمهم وانصرنا عليهم » وروى البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : أعيد كما بكلمات الله التامة . من كل شيطان وهامة . ومن كل عين لامة » والهامة كل ذات سم يقتل ، وقد تقال على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالقمل والبق ، والعين الامة التى تصيب بسوء فقيه جواز استعمال السجع فى الدعاء الخالى عن التكلف وسر النهى عن تكلف السجع فى الدعاء أنه يذهب الخشوع والخضوع ويلهى عن الصراعة والافتقار وحضور القلب .

ومن أمثلة السجع الحسن قول الإمام أبى القاسم محمود الزمخشري : يا أبا القاسم

حتام تلهو وتلعب . وغراب البين فوقك ينعب . وإلام تروح في التماس الغنى
وتغدو . وسائق الردى وراءك يحدو . ألا وإن بذل الاستطاعة . واستقصاء الجد
في الطاعة . أولى بمن يركب الآلة الحدباء بعد ساعة ، كأنى بجنازتك يسرع بها
إلى بعض الأجداث . وبأهل ميراثك هجروك بعد الثلاث وغادروك وأنت معفر
مطروح . فضمك لحد وضريح . ولم يبق إلا عملك الذى لزمك فى حياتك لزوم
صحبك . وهو يستبق صحبتك بعد قضاء نحبك : فيصحبك على التخت مفسولا
ويرافقك على النمش محمولا . ويكون معك على الاكفاء فى المصلى . ويخالفك
وأنت فى الحفرة مدلى . فإذا راعتك نفخة النشر . وفاجأتك أهوال الحشر . وفر
منك أبوك . وأمك وأخوك . وجدته يفد معك أينما تغد . ويرد حينما ترد . ولعلك
ستصحب من هذا القرين صاحب صدق يؤنسك فى وحشتك . ويلقى عليك
السكينة فى حين حيرتك ودهشتك . ويمهد لك فى دار السلام المهاد الأثر .
ويوردك السلسيل والكوثر .

وقوله رحمه الله : أرضى الناس بالخسار . بائع الدين بالدينار . قِ فاك مما يقرع
قفلك . قد جمع الأصل والقرع . من تبع العقل والشرع . إن صح السرُّ صحَّ
العَانُ . وإن لم يصح فلن ولن . شينان شينتان فى الإسلام . الرشوة والشفاعة
فى الأحكام . رب زيادة هى نقصان فائدة . والكف تنقصها الأصعب الزائدة .
قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج . واللؤلؤ يخرج من الماء الأجاج . شعاع الشمس
لا ينفى . وسراج الحق لا يطفأ . تقول أنا صائم . وأنت فى لحم أخيك سائم . أعمالك
نية إن لم ينضجها نية . اطلب وجه الله فيما أنت صانع . وإلا فعملك كله ضائع .
ومنها قول الحريرى يخاطب الغافل المفتون بالدنيا إنكاراً وتوبيخاً .

إلام نستمر على غيك . وتستمرىء مرعى بغيك ؟ وحتام تتناهى فى زهوك
ولا تنتهى عن لهوك ؟ أنظن أن ستنفعك حالك . . إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك
حين توييقك أعمالك . أو ينفى عنك ندمك . إذا زلت قدمك . أو يعطف عليك

معشرك . يوم يضحك محشرك ؟ هلا اتهمجت محجة اهتدائك . وعجلت معالجة
دائك . أما الحام ميعادك . فما إعدادك . وبالمشيب إنذارك . فما أعدارك وفي الأحد
مقيلك فما قيلك . وإلى الله مصيرك . فمن نصيرك .

ومنها في التحذير من الغرور — يأبها الغرور بالسلامة . ما أعددت ليوم القيامة
يوم الحسرة والندامة . يوم يجعل ولدان شيئا . يوم يدع المسرور كشيئا . الدنيا دار
تجارة فالويل لمن تزود منها الحسارة .

ومنها قول الاصبهاني في أطباق الذهب — يا أرباب القوة والطاقة . أنظروا
بعين الإفاقة . إلى أهل الفاقة . وياركبان الناقة . رفقاً بضعفاء الساقة . وياحمة الأوزار
وخزنة المال المستعار . لا تجروا ذيل الافتخار . على أرباب الافتقار فقلوبهم خير من
قلوبكم . ومطلوبهم أعز من مطلوبكم . شغلكم التجول بالأسواق عن تنسم قبول
الأشواق . وألهاكم حب الرزق عن الرزاق . وياعمار الخراب . وشرباب الشراب
لا تعرفوا هذه القرية الجلحاء . ولا تسكنوا هذه المهلكة الفيحاء . لا تتخذوا الدنيا
الغانية سوقا . إن الباطل كان زهوقا .

وقوله أيضاً — يامن يسعى لقاعد . ويسهر لراقد . ويامن يحرس لراصد :
ويزرع لحاصد . ويبخل لباذل . ويجمع لآكل . تبني الإيوان وعن قليل ينهدم
ركنك وتبسط الرواق وفي الجدد سكنك . قلب كقلوب الكفار وحرص كحرص
الفار ، ينقب بالأظفار . ولا يبقى على المأدوم والفقار . قل لي إذا وقعت الواقعة .
وقرعت القارعة . وأزف لك الرحيل . واجتمع الطيب والعليل . واختلف الفسال
والغسيل . والعائد يغمز عينيه . والطبيب يقلب كفيه . حتى إذا انقطع نفسك .
وخفي جرسك . أينفك حينئذ حلال أصبته أم حرام غصبته : أم نشب حرشته ^(١)
أو ولد حضنته . أو ريع أسسته . أو نبع غرسته ^(٢) أو حطام حرسته أو قفر حرثته

(١) النشب فتحتين المال والفقار وحرشته أجرزته من حرش الضب صاده

(٢) النبع شجر تتخذ من أغصانه السهام

أو وفر أوريثه؟ كلا لا ينفك فيء قد غنمته . ولا يضرك شيء عدمته ولا ينجيك إلا خير أمضيته . أو خصم أرضيته . فاتبه يا نائم واستقم يا هائم . لقد تهت في بادية لا يبلغك ندأى . وترديت في هاوية لا يبلغها ردأى . يفيم هواؤك ويصحي^(١) حين لا ينفكك نصحي . ولا تعص الله في أولاد سوء إذا حضرك الموت غابوا . وما حزنوا لما أصيبوا . بل فرحوا بما أصابوا . وأن تدعهم لا يسمعوا دعائك ولو سمعوا ما استجابوا . وأما الأشعار^(٢) — فالأكثر منها في المواضع مذموم قال الله تعالى في وصف عامة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاؤون » جمع غاو ، وهو الضال المنهك في ضلاله لا يرده شيء « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنقرة وأبخلهم على حاتم .

وقال تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولأن الشعر مقر الكذب قالوا « أحسن الشعرا كذبه » وقال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مقلقا في شعره . — أفلق الرجل وافتلق وشاعر مقلق أتى بالعجيب — ولذا لما أسلم منهم جماعة وكانوا مقلقين ضعف شعرهم كحسان وليبيد ، وقد فطن حسان من نفسه ذلك وقد اختلفوا في مدح الشعر وذمه ، وأحسن ما قيل فيه قول الإمام الشافعي رحمه الله حين سئل عن ذلك : الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وروى مثل ذلك عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المشوق ، وروح الوصال والتشوق إليه ، والنشكى من ألم الفراق كأنشاد قول ابن الفارض : —

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرًّا أرق من النسيم إذا سرى
عنى خذواولى اسمعوا وبنى اقتدوا وتحذثوا بصبايتى بين الورى

(١) أصحت السماء اتشع عنها القيم فهي مصحبة وصحو

(٢) الشعر هو الكلام المتنى الموزون قصدا فإ وقع موزونا اتفاقا لا يسمى شعرا

وقول أبي بكر البصرى من أكابر المحبين :

ولو قيل طأ في النار أعلم أنه رضالك أو مدن لنا من وصالك
تقدمت رجلى نحوها فوطنها سروراً لأنى قد خطرت ببالك
وقوله :

وكان فؤادى خالياً قبل حبيكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلسا دعا قلبى هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح
رميت بين منك إن كنت كاذبا وإن كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شىء فى البلاد بأسرها إذا غبت عن عينى بعيشك يملح
فإن شئت واصلنى وإن شئت لاتصل فلست أرى قلبى بغيرك يصلح

والجلس لا يجمع إلا أجلاف العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات . وقلوبهم
غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة . فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو
ستكن فيها، فتشتمل فيها نيران الشهوات ، فيصيحون ، ويتواجدون ، ويقراقصون ،
وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع ضعف فى الدين . وفساد فى الأخلاق فلو اقتصر
الجلس على الخواص العارفين الكاملين الذين عرفوا باستغراق قلوبهم بحب الله
تعالى ولم يكن معهم غيرهم فلا بأس به إذ أولئك لا يضر معهم الشعر الذى يشير
ظاهره إلى الخلق بذكر الأوصاف المناسبة لهم من جمال ووصال وفراق . فإن المستمع
ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه بحسب المقامات فالأنفاظ هى والمعانى
مختلفة وكل إناء بالذى فيه يرشح -- ولذا كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يتكلم على
بضعة عشر رجلاً فإذا كثروا لم يتكلم .

فينبغى للواعظ فى وعظ العامة أن لا يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة ظاهرة
يرتدع بها عن خبث الباطن . أو بحكمة نادرة يتعظ بها فى كشف السر الكامن
كقول الإمام الشافعى رحمه الله :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا نزل القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالى
فما لحواث الدنيا بقاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع
فأنت ومالك الدنيا سواء
وقول صالح بن عبد القدوس :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى
فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها
شبه الزجاجة كسرُها لا يشعبُ
واحذر مأخاة الدنى لأنه
يعدى كما يعدى الصحيح الأجرُب
وقول بعضهم :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا
والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكا مسرورا
وقول بعضهم :

وفي قبض كف الطفل عند ملاده
دليل على الحرص المركب في الحى
وفي بسطها عند المات إشارة
ألا فاشهدوا أنى خرجت بلائى
وقوله :

عجبت لمن يشرى الضلالة بالهدى
ويحسب أن الخير في جانب الشر
وما كان يوما طالب الشر رابحا
ولا كان يوما راغب الخير في خسر
ولكن هى النفس الأثيمة دائما
تُرِينُ ما تلقاه أبلغ في الضر
ولبعضهم في التحذير من إطلاق النظر إلى النساء .

كل الحوادث مبداها من النظر
ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها
في أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها
فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ما ضر مهجته
لا مرحبا بسرور جاء بالضرر
ولبعض الأدباء في حفظ اللسان والعين .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
وحظك موفورٌ وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
وعينك إن أبدت إليك معائباً
فعاثر بمعروف وسامح من اعتدى
ولبعضهم في الخلق الفاضل .

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأصفح عن سياب الناس حملاً
ومن هاب الرجال تهيبوه
وقال بعض الصوفية في الحث على الرضاء والتسليم .

يا هذه النفسُ أعلى
والحادثات جليها
والعالمون صغيرم
لا تجزعى يا نفس
أن الأمور لها انقضاء
وحقيرها محض ابتلاء
وكبيرم فيها سواء
إن الله يفعل يشاء

ولبعضهم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ندمت على ألا تكون كمثل
وأشد الحسن البصرى في وعظه .

ليس من مات فاستراح بميت
وأشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى الخطيب البليغ القاص .

الشجاع في قصصه .

أرض تخيرها لطيب مقيلها
جرت الرياح على محل ديارم
فأرى النعيم وكل ما يئلهى به
وخطب عبد الله بن الحسن رضى الله عنهما على منبر البصرة في يوم العيد فأنشد :

ابن الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيا
تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاه وذاق الموت بانها

وقال موسى بن عبد الله الخزازي : بلغني أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
كان لا يحف فوه من هذا البيت :

ولا خير في عيش أسرى لم يكن له مع الله في دار القرار نصيب
كل ذلك على سبيل استشهاد لكلامه ، واستثناس لما يورده من أحكامه
فقد روى البخارى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « : إن من الشعر لحكمة » والله تعالى التوفيق .

الفصل العاشر

مراجع الوعظ

مراجعته على قسمين أولية وثانوية « فالأولوية » هي العلوم الدينية التي أساسها
التوحيد وينبوعها الصافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعمل العقائد
ببناء آيات التوحيد ، ولا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة سالحة لتخاطب جميع
العالم على اختلاف العقول والمشارب والملل والنحل ، وهي بمحبتها وقوتها داحضة
لكل شبهة رغم إلحاد الملحدون وزينغ المارقين ، وما على المرشد إذا تعرض للعقائد
إلا أن يرجع إلى كتاب الله تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحر الفيض
ويكسوها بالثوب اللائق بها في مقام التخاطب ، ثم يورد الآية والآيات دليلا على
قوله ، فلهذا تأثير في النفوس يشهد له العيان : أو يسلك من أول الأمر طريق
القرآن الحكيم في عرض الكائنات على الأنظار وتنبئها إلى وجه الدلالة فيها على
وحدانية مبدعها وقدرته وعلمه وحكمته . وهذا أمثل الطرق وأفضلها .

وعلم التكاليف العملية التي سرها حفظ نظام العالم وإصلاح حالى المعاش
والمعاد ، وأيضا الابتلاء والاختبار . فإن كان من العبد الامتثال فالمثوبة . وإن كان

الاباء فالعقوبة . مرجعهُ أيضاً آيات الأحكام والسنة الفراء « وعلم الأخلاق » الذى غايته إصلاح النفوس وإعداد الإنسان لأن يكون إنساناً حقيقياً يصلح للخلافة عن الله عز وجل فى أرضه هو معظم آيات الكتاب الحكيم والسنة الشريفة « وقسم السميات » كذلك مرجعهُ الكتاب والسنة .

وبهذا علمت أن بحرك الزاخر ومنهك الصافى الذى لا ينضب ماؤه ، وأستاذك الذى لا ريب فيه هو الكتاب والسنة . ثم بعدما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الأخلاق لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة — وإن هذا المعنى لتجده كثيراً فى كتب الفحول من العالمين العاملين . والدعاة المرشدين الذين قنعوا فى الدنيا . ورضوا منها بالقليل ، وعلقوا قلوبهم بالله تعالى ، وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

فهذه مراجع الوعظ الأولية التى منها يستمد . لهذا أرشدك إلى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة ، وحفظ القرآن الكريم مجوداً ، وحفظ كثير من الأحاديث الصحيحة أو الحسنه الوجيزة القريبة المعنى ، لتكون أسرع إلى التأثير عند سماعها فلآيات والأحاديث طلاوة تهش لها النفوس وحلاوة تبتهج عندها القلوب — وناهيك بكتاب رياض الصالحين للإمام النووى رحمه الله تعالى ، وكتاب الترهيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى بتخرج الحافظ العراقى ، فإنها نعم العدة والبضاعة الثمينة المرشد . كذلك أرشدك إلى الرجوع كثيراً إلى كتب المتحققين لتستقى منها ما ينعش روحك ويغذى نفسك ويملا قلبك ثقة بالله تعالى ، ولا يتجافى مع أغراض الدين الحنيف الواضحة مثل كتاب منازل السائرين للإمام الهروى بشرحه مدارج السالكين للإمام ابن القيم ودعمهم فى شطحياتهم ومعيباتهم فلاحاجة للناس بها ، بل هى رموز وضموها لأنفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين » .

القسم الثاني - المراجع الثانوية

هي العلوم الوضعية سواء أكانت آلة للعلوم الدينية . ومنها التاريخ والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من عطاء التابعين والأئمة المجتهدين نتعرف منها أعمالهم الجليلة وأخلاقهم الفاضلة التي كونت عظمتهم والتي هي سر نجاحهم ، أم لا كالعلوم الدنيوية التي يتوقف على كثير منها نظام الحياة الاجتماعية من الرياضة والطبيعة بل الفنون والصناعات لقربها من فهم السامعين تفيد المرشد تشبيهات ومقابلات وأمثالا يستعين بها في التعاليم الدينية ويتوصل بها إلى المغازي الأدبية . يرشدك إلى هذا إيمان النظر في قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . فإن الجهاد يتوقف على علوم دقيقة وصناعات كثيرة إذا جهلتها الأمة أو قصرت فيها ضعفت شوكتها ودالت دولتها . وكانت عرضة لأذلال الفاتحين . واستعباد المستعمرين ولوراجعنا تاريخ الأمم الغابرة ، وتأملنا أحوال الأمم الحاضرة . لعلنا كيف عزت الأمم التي شمرت في هذه الفريضة وسعدت ، وكيف ذات الأمم التي قصرت فيها وشقيت .

ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات ، ووظيفته من أعظم الوظائف . وموقف المرشد في الحياة موقف القواد المجاهدين ، والعطاء العاملين وكما أنه لا بد للقائد من إحكام العدة وبعث النظر ، وأصالة الرأي ، كذلك لا بد للواعظ الديني أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والأخلاق الدينية ، ملما بعلوم الاجتماع والعلوم الكونية مما تعرضت له النصوص الشرعية كشتون السموات والأرض والظواهر الجوية ، لئلا يعرض له من ذلك ما قد يعجز عن الجمع بينه وبين النصوص الشرعية ، أو يكون ظاهر الجهالة به ، وقد علمه صفار المتعلمين ، فيتخذ مجزه أو جهله ذريعة إلى ضعف الثقة به وعدم الاذعان له .

كما أنه لا بد ان يكون محيطاً تمام الاحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملماً بجميع أطرافه مستحضراً لما جاء فيه من الآيات القرآنية ، وصحيح الأحاديث النبوية وآثار

السلف الصالح والحكم النافعة ، ليستطيع أن يوفى الموضوع حقه فتعظم فائدته ويأمن من الخلط والزلل ، كما يأتي بسطه — وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع التأني والسكينة ، وإجابة السائل عن كل ما يحتاج إليه ، وتفهيمة على قدر استعداده باللطف والبشاشة والحلم ، وكل هذا لا يغنى عنه من الوعظ والارشاد شيئاً ما لم يكن ماهراً في طرق الارشاد ، عالماً بوسائل التأثير في النفوس واستمالة القلوب ، وهي المهمة التي نحن بصددنا ، وسيأتيك من وسائل التأثير ما فيه الكفاية والله تعالى ولي التوفيق .

الفضل الحادي عشر

أنواعه

هو باعتبار العرف نوعان : تعليم وتأديب « فالتعليم » يكون ببيان عقائد التوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة — وبيان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب والحرام والمسنون والمكروه والمباح ، مقرونة بحكمة التشريع ، ومشفوعة بالحث على التمسك بها ، والتحذير من التهاون فيها — فان من تدبر أسلوب القرآن الحكيم علم أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغي أن تساق إلى الناس مساق الوعظ الذي يبلين القلوب ويبعثها على العمل ، لا أن تسرد سرداً خالية من وسائل التأثير .

« ألا ترى قوله تعالى « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطمئن ، فإذا طهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله » فإن الأمر بالتقوى بعد النهى عن إتيان النساء في الحيض ، والأمر بإتيانهن في موضع الحرث ، والأمر بالتقديم لأنفسنا تحذير من مخالفة هذا الهدى الإلهي . وقوله تعالى « واعلموا أنكم ملاقوه » إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد

منافع الطاعة والامتثال . وتجرح مرارة مغيبة الخائفة والعصيان وقوله تعالى « وبشر المؤمنين » تبشير للطائعين الذين يقفون عند الحدود ، ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والأولاد ، والمبشر به عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة وقوله تعالى « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه وعيد شديد وتهديد عظيم بمد الأمر بالعذة ونهي المطلقات عن كتمان الولد أو الحيض في قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » كأنه تعالى يقول : إن تحقق إيمانهم بالله الذي شرع الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وبينوم الجراء ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات لا بما شرع الله ولا بيوم الحساب — وقوله تعالى : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه يفيد أن الذي تقدم من الأحكام والحدود المقررة بالحكم والمشفوعة بالوعد والوعيد^(١) يوعظ به أهل التصديق بالله وبينوم الجراء على الأعمال ، فهؤلاء هم الذين يتقبلونه فتخشع له قلوبهم ، ويسارعون إلى العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، ورجاء الانتفاع به في العاجل ولآجل — أما سواهم فلا * وقوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله عما تعملون بصير » فإنه ختم به أحكام الرضاع والنظام ، ونفقة الموضع ترغيباً وتهيباً ، ليبعث النفوس على التزام هذه الأحكام والمحافظة عليها ، أى أنه تعالى يحصى لكم أعمالكم وبجائزكم عليها ، فإذا راعيتم حقوق الأولاد بالتراضى والنشاور واجتناب المضارة ، جعلهم قررة أعين لكم في الدنيا وسبباً لثوبة الآخرة ، وإن أهملتم واجبههم وعد كل منكما إلى الإضرار بصاحبه بسبب الولد ، كان الولد بلاء وفتنة لكم في الدنيا وكانا بالإساءة إلى أنفسهما وولدهما عرضة لعذاب الآخرة * وقوله تعالى : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » فإنه تحذير راجع إلى الأحكام السابقة عليه من التعريض بخيطة النساء وغيره ، أى فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم

(١) وهو من أول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتل » إلى هذه الآية السكرية .

فما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » تحذير - جاء على سنة القرآن الحكيم في قرن الأحكام بالعظة ترغيباً وترهيباً : للمحافظة عليها والالتفات إليها . وأما قوله تعالى : « واعلموا أن الله غفور حلیم » بعد ما ورد من الوعيد والتشديد في الآيات السابقة ، فإنه يفيد أن للعبد مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود ، وأراد الرجوع إلى مولاه فإنه غفور له حلیم لا يعاجله بالعقوبة ، بل يمهله ليصالح بحسن العمل ما أفسد بما سبق من الزلل ، ولا ريب أن المرشد إذا سلك في هذا النوع طريقة القرآن الكريم التي ذكرنا شيئاً منها استرعى الأسماع وأخذ بمجامع القلوب .

(والتأديب) يكون بتحديد الأخلاق الحسنة كالحلم والشجاعة والوفاء وبيان آثارها في المجتمع الإنساني والحث على التخلق بها ، وتعريف الأخلاق السيئة كالغضب والجبن والغدر وشرح مضارها ، والتحذير من الانصاف بها من طريق الترغيب والترهيب . وينبغي للمرشد أن يستشهد في كل من النوعين بما جاء فيه من الكتاب والسنة الصحيحة ، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأحوالهم في ذلك رضى الله عنهم أجمعين ، فإن لهذا شأنًا عظيمًا لا يستهان به في الوصول إلى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقي طاهر من الأدناس ، متخلق بما يدعو إليه ، فإن الموعظة إذا خرجت من القاب وقعت في القلب ، وإن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان - وإنك لترى في لهجة القائل وهو يدعو إلى معنى متمكن في نفسه مالا تجده وهو يتصنع في الدعوة مهما كان فصيح اللسان بليغ الأسلوب ، فكل كلام يبرز عليه كسوة من القلب الذي عنه صدر ، وقد سئل الحسن البصرى رحمه الله : ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم وأنت نعظ الناس فتبكي ؟ فقال : ليست النائمة كالشكلى ! والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الثاني عشر

إعداد الموعدة

من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة ، فليعمد إلى المفكرات الفاشية ولا سيما ما كان منها قريب العهد ، وحديثه على أسنة الناس أو ذاتها في الصحف . ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضررا وأسوأها أثرا ، فيجمله محور خطابه وموضع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية ، ويحصى هذه المضار في نفسه أو بقلبه ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار السلف ، ثم يأخذ في كتابة الموضوع إن شاء كتابته ، مُضِنَّة ما فيه من تلك المضار ، وما ورد فيه عن الشارع محذراً من الوقوع فيه حاثا على التوبة منه — هذا إذا أراد الاقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة — فإذا أراد الخفض على عمل صالح أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل ، فليفكر في مزاياه وآثاره الحسنة تفكيراً عميقاً ، وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك في الكتابة المسلك الذي ينما متجنباً السجع المتكلف والحسنات الثقيلة التي كثيراً ما تحفى الأغراض وتحجب المعاني — وينبغي أن يكون تفكيره في جو هادىء بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس ومراجعة العقل أى حائل ، كما ينبغي له أن يكون عند التفكير والإلقاء فارغاً من الشواغل النفسية مقللاً من الطعام والشراب حتى لا تذهب بطلته بقطته ، ويكون نشطاً خفيف الروح حاضر الذهن سريع الخاطر حاضر البديهة .

ثم إذا كتب الموضوع فإن شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء ذكر مضمونه ، وليحذر جهده من قراءته على الناس في ورقة فذلك يضمف قوته ويذهب بتأثيره في النفوس كما هو مشاهد — والثانى أحسن الأمرين حتى لا يكون مقيداً بعبارة خاصة فإذا عرض له أمر جديد أثناء الخطابة أمكنه القول فيه . وكثير من الحفاظ

إذا نسوا جملة تلغسوا أو أرتج عليهم فيفقدون هيبتهم من نفوس السامعين :
وما أحوج الخطيب إلى الهيبة والجلال ! فكان من الأحسن والمصلحة ألا يتقيد
بعبارة يحفظها بل يتخير من العبارات ما يؤدي المعاني التي حصل عليها ببحثه
وتفكيره - هذا إذا كتب الموضوع - وإن شاء عدم الكتابة واكتفى برسم
الموضوع في مخيلته وتسطيره في ذاكرته التي قواها بالمران والممارسة ، كان ذلك أحسن
وأكمل - ومن النافع في مثل هذا الحال تقسيم الموضوع بحسب تقطه إلى أقسام
كي يسهل عليه استحضاره عند لقائه ، ويسير فيه بانتظام مستوفيا كل ما يحتاج إليه ،
وياعداد الموضوع على هذا الطريق الذي رسمنا يكون الخطيب في مأمن من الزلل
والاضطراب ، وتبقى للموضوع صورة ثابتة في نفوس سامعيه وتعظم الفائدة . أما بدون
إعداد الموضوع ، واستحضاره تماما ، وتقسيمه قبل الدخول فيه فلا يأمن أن يتخطب
فيه ويسير في التأدية مشوشاً مضطرباً ، ولا يبقى له مثال في نفوس السامعين ،
ولا يحصلون منه على الغاية المقصودة ويسرع إليهم نسيانه .

ثم بعد ذلك ينبغي له أن يراعى حال التأدية استعداد السامعين ، فيتنزل
في العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنباً الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم
ويتوسط مع الأوساط ، ويتأنق مع الخاصة ، فيكون مع جميع الطبقات حكماً يضع
الأشياء في مواضعها . وفي كل حال يتجافى في كلامه عن كل زخرف باطل لأن
مقصوده لا يتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة السكاذبة ، بل على اختيار المعاني
النفيسة وتنسيقها وشرحها بالدقة ، وصوغها في قالب لطيف ، وإلباسها ثوباً شفافاً
حسناً ، مستعينا في إبلاغها أذهان السامعين وإنفاذها في قلوبهم ودفع السامة والملل
عنهم ، بإيراد الشواهد عليها من الحكم الثرية والشعرية ، والملح^(١) التاريخية ،
والفكاهات الأدبية .

فَإِنَّ الْحُكْمَ الثَّرِيَّةَ قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِ مِنْ

(١) الملح من الأحاديث واحداً ملحاً كسبعة ملح الذي من باب ظرف حسن فهو ملبح .

تواضع لمن لا يكرمه ، ورضب في مودة من لا ينفعه . ومدح من لا يعرفه . وقوله
أظلم الناس لنفسه اللثيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف
وتكبر على ذوى الفضل — وقوله من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ، ومن
وعظه علانية فقد فضحه وشانه — وقوله التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث
الراحة ، وأرفع الناس قدراً من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله .
وقول ابن شبرمة : العجب ممن يحتسى من الحلال مخافة المرض ، ولا يحتسى من الحرام
مخافة النار — وقول بعضهم من سمع بأذنه صار حاكياً ، ومن أصغى بقلبه كان
واعياً ، ومن وعظ بفعله كان هادياً — وقولهم اجتمعت حكاء العرب والعجم على
أربع كلمات : لا تُحْمَلُ بطنك ما لا تطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعمك ، ولا تتق باسراً ،
ولا تنترب بمال وإن كنت . وقولهم : ثروة العاقل في علمه ، وثروة الجاهل في ماله ،
وهم السعيد آخرته ، وهم الشقي دنياه .

وقولهم : إرفع علم الحق يتبعك أهله — العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل
التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه .
أحق من عطفت عليه بملكك ، من لم يستشفع إليك بغيرك — يسار النفس أفضل
من يسار المال ، ومن أحسن وهو على ظهر الأرض لن يساء إليه في بطنها — من
كساه الحياة ثوبه ، خفى على الناس عيبه .

ومن حكم سيدنا على رضى الله عنه

أدب المرء خير من ذهبه — بشر نفسك بالظفر بعد الصبر — خف الله تأمن
غيره — خليل المرء دليل عقله — صاحب الأختيار تأمن الأشرار — عيش قنعاً
تسكن مليكاً — وحدة المرء خير من جليس السوء — شر الناس من لا يبالي أن
تراه الناس مسيئاً — كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان — الحازم من حفظ مافي يده
ولم يؤخر شغل يومه لغيره . وقال حكيم : اجتنب سبع خصال يسترح جسمك ،
وقلبك ، ويسلم لك عرضك ودينك : لا تحزن على ما فاتك ، ولا تحمل هم ما لم ينزل

بك ، ولا تلمُ الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل ، ولا تنظر بشهوة إلى ما لم تملك ، ولا تغضب على من لم يضره غضبك ، ولا تمدح من لم يعلم من نفسه خلاف ذلك — وقال الأحنف بن قيس : لا مهروءة لكذوب ، ولا سؤدد لبخيل ، ولا ورع لسبيء الخلق . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ من ذهب حياؤه مات قلبه — من كذب فجر ومن فجر هلك — ثلاث خصال من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان . حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يمجزه عن المحارم ، وخلق يدارى به الناس — أقلل من الذين تعش حراً ، وقال حكيم : اعقل لسانك إلاغن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال آخر : إذا جالست الجهال فأنصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم . وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من لم يمد كلامه من عمله كثرت خطاياها — ومن الحكم المأثورة : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب الأحمق من وراء لسانه : يتكلم بكل ما عرض له . وقال معاذ رضى الله عنه : أنت سالم ما سكت ، فإذا تكلمت فمليك أولك . وقال بعض الحكماء : إزم الصمت فإنه يكسبك صفو الحبة . ويؤمنك سوء المغيبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار — وقال حممة بن رافع الدوسى من حكماء العرب : أجدر الناس بالصنيعة من إذا أعطى شكر . وإذا منع غدر ، وإذا مطل صبر . وإذا قدم العهد ذكر . وقال : أكرم الناس عشرة من إذا قُرب منح . وإذا ظُم صفع . وإن ضويق سمح . وقال : ألأم الناس من إذا سأل خضع . وإذا سئل منع . وإذا ملك كنع^(١) ظاهره جشع وباطنه طمع — وقال : أجل الناس من عفا إذا قدر . وأجل إذا انتصر . ولم تطفه عزة الظفر — وقال : أنعم الناس عيشاً من تحلى بالعماف . ورضى بالكفاف . وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف .

(١) قبض . يقال : تنكع جلده إذا تقبض . يريد أنه أمسك بجذيل .

وقال : أشقى الناس من حسد على النعم . وسخط على القسَم ، واستشعر الندم على ما انحتم - وقال : أغنى الناس من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم .

ومن الحكم الشعرية قصيدة أبي الفتح البستي وهاهي مشروحة بإيجاز .

١- زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

الزيادة النمو ، يجرى لازماً ومتعدياً ، وهذا لازم لوقوعه في مقابلة النقصان ، وهو لازم . الربح اسم مازجه ، ويجيء مصدراً أيضاً ، وضده الخسران . المحض الخالص الخير ضد الشر . والمعنى : زيادة كل امرئ في دنياه زيادة تشغله عن الله تعالى نقصان في الحقيقة ، وما ربحه من المال في الدنيا خسران في الحقيقة ، إلا إذا كان خيراً محضاً ، وهو ما يتبعى به الدار الآخرة ، والجمع بين الزيادة والنقصان والربح والخسران طباق .

وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق فُقدان

وجدان مصدر وجدت الشيء وجدانا بالكسر ووجوداً مقابل فقدته . الحظ النصيب . التحقيق : مصدر حققت الأمر وأحققته إذا صرت منه على يقين . وفي بمعنى عند . فقدان بضم الفاء وكسرهما . فقد الشيء إذا عدمه . لا ثبات له : لابقائه والمعنى كل نصيب من دار الدنيا أصابه المرء لادوام له ، فانه عند إمعان النظر عدم فلا يهول عليه ، ولا يركن إليه ، والذي يعول عليه عند أولى النهى الحظوظ الأخروية لأنها الباقية ، ولو ذكرت الفاء بدل الواو ليكون تعليلاً لما تضمنه البيت الأول لكان أوجه .

يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً بالله هل لخراب العمر عمران

الخراب ضد العمران ، والدهر الزمان . الاجتهاد بذل الوسع لنيل المقصود . العمر بضم العين عيش الإنسان ، والعمران مصدر كغفران . المعنى يا عامراً لما خربه مرور الزمان باذلا طاقته في كل أوان ، أخبرني هل عامر لخراب عمرك موجود ؟ والجمع بين

العارة والخراب طباق . وبين العمر والعمران تجنيس تام

وياحربصاً على الأموال يجمعها أنسيت أن سرور المال أحزان

الحرص : الجشع - النسيان خلاف الذكر والحفظ أنسيت مبنى للجھول وفاعله الأصلي إما الحرص أو الجمع الدال عليهما أول الكلام . المعنى ياجشعاً في جمع الأموال ، أنسك الحرص والجمع كون سرور المال هوماً وأحزاناً ، أما في الدنيا فكما ترى ، وأما في الآخرة فلأنه يحاسب عليه من أين جمعه ، وفيه أفقه . والجمع بين السرور والحزن طباق .

- دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها فصفوها كدر والوصل هجران

دع . بعد بقرينة استعماله بعن ، ويروى زع مكان دع ، من وزع وزعاً مثل وضعه بضمه وضعا . أى كيفه - زينتها : زخرفها - صفو الشيء خالسه . الوصل : الالتقاء ، والهجران بالكسر كالهجر ضد الوصل . المعنى : لما كان سرور المال يوجب الأحزان ينبغى أن تبعد قلبك عن حب الدنيا والافتتان بزينتها لأن ماتصورت صفوه منها فهو بخلافه ، ووصلك إياها هو في الحقيقة قطيعة .

وأرئع سمك أمثالا أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان

الإرعاء : الأصفاء - السمع : الآذان - والمراد بالأمثال الأبيات التي تذكر بعد - التفصيل : التبيين - الياقوت : الحجر المشهور - المرجان : الخرز الأحمر المعروف . ومعناه واضح

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم وطالما استعبد الإنسان إحسان

استعبد الإنسان إتخذه عبداً والغاء للتعميل - وما في طالما وقلماً كافة ، عن طلب الفاعل ، وتكتب موصولة كما في ربما وإنما ، هذا إذا كانت كافة أما إذا كانت مصدرية فليس إلا الفصل . وهنا يصلح لكل واحد منهما . المعنى يشبه أن يكون مأخوذاً من كلام الإمام على كرم الله وجهه إذ يقول « بالبر يستعبد الحر » معناه : المرء بیره يسترق الحر ويستحق الشكر .

— يا خادم الجسم كم تسعي لخدمته أنطلب الربح مما فيه خسران
الجسم : الجسد وكذا الجسمان والجثمان . كم للاستفهام ، منصوب على الظرفية
أو على المصدر حسب تقدير المميز ، أى كم زماناً تسعى ، أو كم سعياً تسعى . والمهزة
للاستفهام التوبيخى ، أى لا ينبغي لك أن تطلب الربح في غير محله المعنى : يامن
يخدم جسمه ويطلب إرادته أكثر سعيتك لخدمته . وينبغى للعاقل ألا يسعى وراء
شهوته ، فليس في ذلك ربح له ، بل فيه خسرانه ، لأن في خدمته تقويته ،
وهي توجب استيلاء القوة الشهوية والنضبية ، ومن غلبت عليه هذه القوة
التحق بالبهائم .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
الإقبال : ضد الإدبار ، والنفس : الروح — والاستكمال : طلب الكمال
والفضائل جمع فضيلة وهي المزية ، كالتحلى بالأخلاق الحميدة . والمعنى : لما زجر
عن خدمة الجسم لسوء مغبتها ، أمر بتربية النفس ، وذلك بتحليلتها بالأخلاق
الكريمة ، والشائيل المرضية ، وتزيتها عن المسكدرات الطبيعية ، والعلائق البدنية
فإن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه .

وإن أساء مسيء ، فليكن لك في عروض ذاته صفح وغفران
أساء إليه تقيض أحسن إليه — عروض : مصدر عرض الأمر إذا ظهر —
الصفح : الإعراض عن الذلة ، والغفران : النغطية والستر — صدر البيت في معنى
الإشياء أى لا تشتغل بإساءة من أساء إليك ، بل أعرض عنه واستر زاته —
ولو كان مكان الواو فاء ليكون تقريباً على البيت قبله لكان أقرب ولم يحتاج
إلى هذا التكلف .

وكن على الدهر معواناً لذى أمل يرجو نذاك فإن الحر معوان
معوان للمباعدة من المعونة — الأمل : الرجاء — الندى : العطاء — الحر :
كناية عن الكريم : المعنى من كان يرجو منك عطاء يستعين به على نوائب الزمان
فحقق أهله أمله ، لأن ذلك دأب الكريم .

واشدد يدك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خاتك أركان

الشد : العقد ، يقال شد يشد بضم الشين وكسرهما إذا عقد . الحبل : الرسن ويستعمل في العهد مجازاً ، وفي بعض النسخ بحبل الدين مكان بحبل الله . والدين الإسلام . الاعتصام : طلب العصمة ، وهي الحفظ : ركن الشيء جانبه الآخر ، وقد يطلق على العز والمنعة كقوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » المعنى استمسك بعهد الله ودينه الذي رضي له سعادة الناس ، فإن من استمسك به فقد استمسك بالركن الذي لا يشقى أبداً من لجأ إليه واعتصم به في دينه ودنياه .

من يتق الله يمد في عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
التقوى : امتثال الأوامر واجتناب النواهي . والحد : التناء بالجليل على الجليل .
عواقبه : عاقبة كل شيء آخره - يكفه : من الكفاية بمعنى الوقاية - العز :
خلاف الذل . والموان خلاف العز . والمعنى : من يطع الله بامتثال الأوامر
واجتناب النواهي كان محموداً في عواقب ذلك . ويدفع الله عنه شر جميع الناس .
سواء أكانوا أعزاء أم أذلاء .

من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره محجز وخذلان

الاستعانة طلب الإعانة . في طلب أي شيء مقصوده . العجز : الضعف .
الخذلان : ترك العون والنصر . وقوله فإن ناصره محجز ، من قبيل قولهم رجل عدل .
وفيه ثلاثة أوجه : فإن قيل يشترط في الجملة الشرطية أن يكون الأول سبباً للثنائي
وطلب الإعانة من الغير ليس سبباً لأن يكون ناصره عاجزاً : قلنا تقدير الكلام من
استعان بغيره تعالى في طلب مقصوده يكن ذلك سبباً للإخبار بأن ناصره محجز
وخذلان . فجواب الشرط محذوف ، نظير قوله تعالى « إن كان قيصه قد من قبل
فصدقت » أي يكون سبباً للإخبار بأنها قد صدقت . والمعنى يفهم مما ذكر .

من كان للخير ممانعاً فليس له على الحقيقة إخوان وأخذان

ممانع : مبالغة مانع . الحقيقة : من حق إذا ثبت ، والمراد الواقع والخلدن

الصديق . المعنى : من كان دأبه وديذنه منع الناس من الخير فليس له في الواقع صاحب ولا صديق ، وكان شريراً عدواً لنفسه وغيره ، ومن أظهر له المحبة فإما لدفع شره أو لفرض آخر ، وليس في الواقع محباً ولا صديقاً له .

من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للإنسان فتان جاد بالشيء : سخابه وسمح . قاطبة : جميعاً . فتان مبالغة من الفتنة ، وهى الامتحان والاختبار . والمراد هنا السحر والجذب . والمعنى : من سخا بالمال أحبه الناس جميعاً وانقادوا له ، فان طبيعة المال سحر النفوس وجذب القلوب إلى صاحبه .

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان المسألة المصالحة . يسلم : مضارع من السلامة . الغوائل جمع غائلة من الغول وهو الإهلاك فجأة ، يقال غاله الشيء واغتاله إذا قتله من حيث لا يدري وعن الكسائي أن الغوائل هى الدواهي . والمراد هنا الشرور . عاش من العيش وهو الحياة . قرير العين : قرت عينه تفرّ بكسر القاف وفتحها ضد سَخِنَتْ . والمراد الاطمئنان ، الجذل بالتحريك : الفرح . يقال جذل بالكسر يجذل فهو جذلان . المعنى من دار مع الناس ولم يعاند معهم سلم من شرورهم وعاش مطمئناً هادئ البال فرحاً مسروراً .

من كان للعقل سلطان عليه غدا وما على نفسه للحرص سلطان يقال للقوة المفكرة عقل ، وللعلم المستفاد بتلك القوة أيضاً عقل . السلطان : الوالى والحجة والبرهان أيضاً . وعلى الثانى يجرى مجرى المصدر . المعنى : أن من كانت أعماله صادرة عن سلطان الدين والعقل لم تغلب عليه الشهوة ولا الحرص والطمع ، وكان محبوباً لدى الله والناس أجمعين .

من مدطرقا لفرط الجهل نحو هوى أغضى عن الحق يوماً وهو خزيران الطرف : العين . الفرط : أفرط فى الأمر إذا جاوز فيه الحد ، والاسم منه الفرط . الهوى : مقصوراً ميل النفس إلى الشيء ، من هواه بهواه إذا أحبه . والنحو الجانب . الخزى الهوان . أغضى عن الحق أعرض عنه . المعنى : من مدعيته إلى جانب هوى

نفسه الأمانة بالسوء لتجاوز جهله الحد ، وأغض عينيه عن رؤية الحق ، وأعرض عنه في يوم أي يوم ، والحال أنه خزيان في ذلك اليوم ، مهان حيران ، فالعاقل من لا يجعل زمام عقله في يد نفسه وهواه .

حـ من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر برهان
صروف الدهر : حوادثه ونوائبه ، والطبع والطبيعة : السجية التي خلق الإنسان عليها . البرهان : الحجة . المعنى من رجوع إلى حوادث الزمان ونوائبه ونظر إليها بالعين السليمة ، ظهرت له الحجة القاطعة على طبيعة الزمان ، وأنه لا يؤمن غائلته .
ويقرب من هذا البيت قول بعض الأدباء :

إذا اخترت الدنيا لليب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبان
الزرع : البذر على الأرض ، والمراد العمل . يحصد : حصدُ الزرع جذاهه وقطعه والمراد يجذ . إبان الشيء بكسر الميم وتشديد الباء وقته والدموية وقتها ، كما قال تعالى « وأملى لهم إن كيدى متين » . فالظلمة والأشرار إن لم يندموا في العاجل فلهم ندامة في الآجل ، وكان الظاهر أن يقال من يزرع الشر يحصد الشر ، إذ أن المحصود لا يكون إلا من جنس المزروع ، إلا أنه من قبيل إقامة السبب مقام السبب ، وهي سائغة شائعة .

من استنم إلى الأشرار نام وفي قبضه منهم صيلٌ وثمان
استنم إليه : سكن واطمأن ، والمراد ركن إليهم . الأشرار : جمع شر كزند وأزناد ، وقيل جمع شرير ، وهو كثير الشر ، مثل يتيم وأيتام . الصل بالكسر الحية التي لا يفيد معها علاج . والثمان ضرب من الحيات . المعنى : من صاحب الأشرار وخالطهم وصل شرهم إليه من حيث لا يدري ، ولا يقدر على دفعه . وفي ذكر القميص لطيفة تدرك بالتأمل .

كن ريق البشر إن الحرمتهُ صحيفة وعليها البشر عنوان
الريق بالتشديد من كل شيء أفضله ، ومنه ريق الشباب ، وريق الثياب ،

وقد يخفف . البشر — بكسر الباء — طلاقة الوجه . الهمة : ما يبعثك من نفسك على طلب المعالي . الصحيفة : القرطاس . وقيل الأوراق المكتوبة ، وهو المراد هنا بقرينة قوله : وعليها البشر عنوان . المعنى : كن طلق الوجه بشاشاً ولا تكن منقبضاً عبوساً . فإن عادة السكريم إدخال الفرح ابتداءً على أخيه خصوصاً عند اللقاء كصحيفة جاءت من قريب أو حبيب تحمل البشارة ، فإن من وصلت إليه تلك الصحيفة يحصل له الفرح والنشاط بمجرد النظر في عنوانها ، بخلاف ما إذا كانت معنونة بضدها ، فإنه يتألم لمجرد رؤيتها . كذا من دأبه العبوس والاتقباض عند لقاء الناس كما قال بعض الأدباء :

بشاشة وجه المرء خير من القَرَى وكيف إذا جاء بالقرى وهو ضاحك

ورافق الرفق في كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذمه إنسان
الرفق ضد العنف . الأمور : جمع الأمر وهو الشأن — الرفيق : اللين الهين .
المعنى : صاحب اللين في كل الشئون ، فإن اللين من بنى الإنسان لا تلتحقه ندامة ولا يذمه أحد من الناس ، وإنما يذم الشديد للعائد . وفي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . وقال بعض الحكماء : عليك بالصدق في مقالك ، والرفق في أفعالك ، فمن صدق في مقاله جل قدره ، ومن رفق في أفعاله تم أمره .
ولا يفرنك حظ جره خرق فألخرق هدم ورفق المرء بنيان
غرته الدنيا غروراً من باب فقد خدعته بزيتها ، واغتر بالشيء خدع به
الحظ النصيب — الخرق بفتح الحاء مصدر والاسم الخرق بالضم ، والأخرق ضد الرفيق وبابه طرب . المعنى : لما أمر بالزق واللين حذر من الغرور بنصيب جره إليه العنف والشدة لأنهما كالهدم والرفق كالبنيان ، والأول مستلزم للعدم ، والثاني مستلزم للوجود .

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة فلن يدوم على الإحسان إمكان

يقال : أمكنه إذا جعله قادرا . المقدرة بالضم اليسار ، وحذف معمول أحسن
ينفيد العموم أى أحسن إلى كل أحد لأن من أحسنت إليه إذا كان أهلاً له
فالإحسان إليه واجب ، وإن لم يكن أهلاً له فأنت أهل له . ومعنى البيت واضح .

فأروض يزدان بالأنوار فاغمةً والحُر بالعدل والإحسان يزدان
الروضة : الموضع المعجب بالزهور والروضة : العشب والبقل . يزدان من
الزِين بمعنى يتزين . الأنوار : جمع نور بفتح فسكون ، ونور الشجرة زهرها -
فيم الورد : انفتح . المعنى : أحسن ما دمت متمكناً من الإحسان قادراً عليه ،
لأن زينة الحر الكرم بالعدل والإحسان إلى الناس ، كما أن الموضع زينته بالأنوار
المتفتحة . فنزل الحر منزلة الروض ، والعدل والإحسان منزلة الأنوار المتفتحة ،
والأصل في هذا الكلام تقدم المصراع الثانى على الأول ليسكون تمثيلاً له إلا أنه
قدم لضرورة النظم .

صن حُرَّ وجهك لا تهتك غلالته فكل حرُّ حُرَّ الوجه صَوَّان
حُرَّ وجهك المراد به ماء الوجه - الهتك : مصدر هتك الستر هتكاً من باب
ضرب خرقه أو شقه حتى يظهر ما وراءه . وهتك الله ستر الفاجرة : فضحه .
القاللة : شعار يلبس تحت الثوب والدرع ، والمراد من الحر الكريم . المعنى :
صن ماء وجهك لا ترقه لأمر دنيوى لأن الكريم هو الذى بصون ماء وجهه
ويحفظه عن كل لثيم كما بصون عرضه كما قال ابن عبد القدوس .

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل مأؤه
حياؤك فاحفظه عليك فإيما يدل على فعل الكريم حياؤه
دع التكاسل فى الخيرات تطلبها فليس بسعد بالخيرات كسلان
التكاسل إظهار الكسل مع عدم إرادته كالتجاهل . والمراد به هنا الكسل
والتناقل عن الأمر وبابه طرب . السعادة : خلاف الشقاوة . ومعنى البيت جلى .
ولا ظل للمرء يعرى من مهبى وتقى وإن أظلته أوراق وأفنان

الشيء جمع نُهبة وهو العقل سُمي بها لأنه ينهى صاحبه عند القبيح ، وإنما جمعه لأنه أراد به العقل العملي والنظري ، فالعقل قوة للنفس الإنسانية بها يقتدر على تحصيل الآراء في الأمور التي تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس والبدن ، والنظري قوة يتمكن بها من تحصيل العقائد والآراء في الموجودات التي لا تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس الإنسانية . وإطلاق الجمع على الاثنين سائغ . التقى والتقوى بمعنى ، وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي . الأوراق جمع ورق الشجرة والكتاب واحده ورقة . الأفنان جمع فتن وهو الغصن . الواو من وإن أظلمته للعطف على محذوف كقولك « أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني » وعند البعض الواو للحال وعلى كلا المذهبين معنى الشرطية منسلخ عنها ، إذ المراد التسوية . المعنى : أن من لم ينتفع بالعقل بنوعيه ولم يمتثل الأوامر ويحْتَنِبِ النواهي فليس يعد في زمرة الإنسان وإن كانت تظله أوراق الأشجار وأغصانها ، وإن كانت صورته بصورة الآدمي ، فإنه في الحقيقة ليس بآدمي ، لأن كل شيء خلق لغاية ولم تحصل عنه تلك الغاية كان في حكم المدوم ، ولذا كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء هذا ليس بفرس ، وللإنسان البذيء ليس هذا بإنسان ، ويقال فلان لآعين له ولا أذن إذا بطل فعل عينه وأذنه وإن كان شبيهما باقياً ، وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يبصرون » في من لم ينتفع بهذه الأعضاء . وعبر بانتفاء الظل وأراد انتفاء الإنسان لأن الظل من لوازمه وانتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم .

والناس أعوان من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوان

العون إذا استعمل باللام كان معناه المحبة وإذا استعمل بعلی فعناه البغض . الموالاتة ضد المعاداة وهي المصادقة من قولك وليه يليه إذ أحبه وصادقه ، ومنه الولي ضد العدو . الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت لنا عليهم الدولة ، والجمع الدول بكسر الدال . الدولة بالضم في المال يقال صار الشيء

دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والجمع دولات ودول . والادالة :
العلبة يقال اللهم أدنى على فلان وانصرنى عليه . ودالت الأيام دارت . والله يداولها
بين الناس . وتداولته الأيدي أخذته ، هذه مرة وهذه مرة . والمعنى واضح
سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بِأَقْلٍ حَصْرٌ وبأقل في ثراء المال سَحْبَانُ
سحبان رجل من بلغاء العرب يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة يقال
هو أفصح من سحبان بن وائل وبأقل : رجل مشهور بالعي حتى يضرب به المثل
فيقال أعيب من بأقل — الحَصْرُ : العى وعدم البيان . الثراء : كثرة المال . والمعنى
أن الرجل الفصيح البليغ مع الفقر لا يؤبه به ولا يسمع له . والرجل العيبى الذى
لا يكاد يُبين مع العى موقر محترم وهذا من فساد الزمان .

لا تودع السر وشاء به مذلاً فما رعى غمها في الدو سرحان

أودعه مالا دفعه إليه ليكون وديعة عنده واستودعه وديعة استخفظه إياها .
وشى في كلامه وشيا : كذب ، ووشى به عند السلطان وشيا : سعى به . وبابه
وعد . مذل بسره كعلم ونصر وكرم فهو . مذل ومذيل أفشاه الغم : اسم جنس
لا واحد له من لفظه — الدو والدوية : المفازة . والسرحان بالكسر الذئب جمه
سراحين والأثني سرحانة — المعنى لا تقل سرى عند من هو معروف بإفشاء
الأسرار لأنه لا يؤتمن عليه كذئب في فلاة لا يؤمن على الغم بل الغالب أنه يمزقها
ويفرقها . شبه السر بالغم والوشى بالذئب فكما أن صاحب الغم يريد حفظها
كذلك صاحب السر ينبغي له أن يحفظه من واش يفشيه بين الناس ككفرىق
الذئب الغم .

لا تحسب الناس طبعا واحدا فلهم غرائز لست تحصيهن ألوان

الطبع : السجية التى جبل عليها الإنسان وهو فى الأصل مصدر والطبيعة مثله .
للغريزة الطبيعة والقرينة — اللون : النوع والهيئة كالسواد والبياض وهو صفة
الغرائز وكذلك الجملة الفعلية بعدها قدمت للضرورة المعنى : لا تظن أن الناس

طليعة واحدة وغرائز متحدة ، لأن غرائزهم متنوعة وطبائعهم مختلفة ، فإذا اقتضت طليعة بعضهم حفظ السر فلا تظن أن كل أحد أمين عليه . ولتحقيق هذا أورد مثلين . سائر ين فقال :

ما كل ماء كصداء لوآرده نعم ولا كل نبت فهو سعدان

صداء ككتان أعذب عين عند العرب ، السعدان نبت من أفضل مراعي الإبل . أصل المثل الأول أنه لما قتل لقيط بن زرارة من بني دارم تزوج امرأته رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ فقالت : كل أموره حسنة ، ولكنني أحدثك أنه خرج مرة إلى الصيد فلما رجع إلى وبقيصه نضح من دم الصيد والسك توضع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه فضمني ضمة وشمي شمة ، فليتني مت شمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ فقالت : ما كل ماء كصداء لوآرده . فأرسلته مثلا بضرب للشيء يفضل على أقرانه ويعلو على أشكاله . وأصل المثل الثاني ما رواه أبو عبيد عن المفضل أنه لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس وكان مقرطا ، فقال لها أين أنا من زوجك ؟ فقالت : مرعى لا كسعدان . فأرسلته مثلا : نعم . حرف يقرر به ما سبقه مثبتا كان أو منغيا ملفوظا أو مقدرأ كقولك لمن يقول أقام زيد ؟ نعم . أى قام أو يقول لم يتم زيد : نعم . أى لم يتم . وهنا يقرر بها ما تقدم تقديرأ لأن الشاعر لما قال المصراع الأول تخيل سائلا سأله أى أصادق أنت فيما قلت ؟ فقال : نعم . أى أنا صادق فيه — المعنى : ليس كل إنسان من دأبه إخفاء سر صديقه بل إخفاء أسرار الأحرار شيمة الكرام الأبرار ، كما قيل صدور الأحرار قبور الأسرار كما ليس كل ماء كماء صداء في العلامه والعدوية لوآرده ولا كل نبت كنبت سعدان في التسمين والمنفعة لرابعه .

لا يتخذشن بمطل وجه عارفة فالبر يخدشه مطل وليان

خدشه خدشا من باب ضرب جرحه في ظاهر الجلد خرج منه دم أولا —

المطل التسوية بوعده الوفاء مرة بعد أخرى ، وبأية قتل . العارفة . المعروف .
البيان بفتح اللام أكثر من كسرهما وتشديد الياء المطل في الدين فهو مرادف لما
قبله . المعنى لا تجرحن بأظفار مطلق وجه معروفك وإحسانك لأن الماطلة تشين
البر والمعروف . قال بعض الحكماء : خير المعروف من لم يتقدمه مطل ولم يتبعه من
غير البر عاجله ، وأفضل الإحسان ما سلم من المن والأذى .

لا تستشر غير نذب حازم يقظ قد استوى فيه إسرار وإعلان
شاورة في الأمر واستشاره بمعنى ، أى أخذ رأيه فيه ، نذب خفيف في الحاجة
الحزم ضبط الرجل أمره وأخذته بالثقة . يقظ حذر متحذر : الأسرار : السكمان
الإعلان : الإظهار . فيه أى عنده . المعنى : لا تستشر في أمورك إلا من توفرت
فيه هذه الخصال الأربعة الخفة في الحاجة وضبط الأمور واليقظ والصراحة في الحق .

فلتداير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
التداير جمع تدير وهو النظر في الأمر الذى تؤول إليه عاقبته . فرسان
جمع فارس كصبيان جمع صاحب ركض الفرس برجله استحثه ليعدو — أبر الرجل
على أحجابه علام وغلبهم من الأبرار وهو الغلبة والبط — المعنى : لما نهى عن
استشارة من لم تتوفر لديه شروط الاستشارة تخيل أن المخاطب يحسب أن أهل
التدبير انعدموا وأهل الاستشارة فُقدوا ، فأزال هذا التوهم بقوله : فلتداير .
أى أن أهل الاستشارة باقون ولها رجال إذا ركضوا في ميزان الرأى نفعوا من
يرجع إلى رأيهم ، كما أن للحرب فرسان إذا جالوا في ميدان القتال غلبوا على
أعدائهم وظفروا بهم

وللأمور مواقيت مقدرة وكل أمر له حد وميزان
المواقيت جمع ميقات وهو الوقت . محددة حد الشيء نهايته وممناه واضح .
فلا تكن مجالا في الأمر نطلبه فليس يحدد قبل التوضيح بحران
العجل صفة مشبهة من العجلة وهى خلاف البطء . والتوضيح بضم النون وفتحها

الإدراك . البحران : عند الأطباء شر المقاومة والمواقفة التي تكون بين الطبيعة والمرض وتلك إنما تكون في كل ثلاثة أيام ونصف يوم . ثم هذه المقاومة إن وقعت بعد نضج مادة المرض فهي علامة غلبة الطبيعة وآية الصحة ، وإن وقعت قبل نضجها كانت غالباً علامة الهلاك فلذا قال فليس يحمد قبل النضج بحران - المعنى : لما كان للأمور أوقات مقدرة وأزمان معينة ، فيكون لها نهاية عينها الله تعالى لحصولها ولا تحصل قبل بلوغها فإذا لا فائدة في العجلة فليس يحمد كما لا يحمد البحران قبل نضج مادة المرض . وأورد المصراع الثاني على سبيل التمثيل والفاء في المصراع لأول للتعليل .

كفى من العيش ما قد سد من عوز فقيه للحر قنيان وغنيان

المراد من العيش ما يحصل بسببه العيش - سددت الثلمة : أصلحتها وأرتقتها عوز الشيء عوزاً من باب تعب عز فلم يوجد وعزت الشيء أعوزته من باب قال احتجت إليه فلم أجده ، وأعوزني المطلوب مثل أعجزني وزناً ومعنى ، وأعوز الرجل إعوازاً افتقر ، وأعوزه الدهر أفقره . وفي بعض النسخ رفق مكان عوز . والرقم بقية الروح . قنيان : مال يتخذ قنية تقول فنوت الغنم وغيرها قنوة وقنيته قنية بكسر القاف وضمها فهما إذا اقتنيتها لنفسك لا للتجارة ، واقتناء المال وغيره اتخاذ وقى الرجل بالكسر قنى كرضى صار غنياً وراضياً وأقناه الله أعطاه ما يقتنى من القنية والنسب . وأقناه أيضاً : أرضاه . والقنى الرضا ويقال أيضاً أغناه وأقناه : أعطاه ما يسكن إليه . غنيان : مصدر غنيت بكذا عن غيره من باب تعب إذا استغنيت به ، والاسم الغنية بالضم فأنا غنى وغنيت المرأة بزوجها غنياً بالضم استغنيت عن غيره . المعنى : كفاك من المال ما أزال فقرك فلا تطلب كثرة المال لأن بذلك القدر راحة للحر وغنى عن الكثرة مع التعب

وذو القناعة راض من معيشتة وصاحب الخرص إن أترى خفضبان

قنع قناعة من باب سلم رضى بالقسم - الثراء بالمذ كثره المال ومن في من

معيشته بيان لمخدوف أى راض بما قسم الله له من أسباب عيشه بخلاف الحريص
فيه غضبان غير راض عن الله تعالى وإن أكثر عليه نعمته وماله لأنه غير راض
بالمقسم وما أعطاه الله تعالى بالنسبة إلى حرصه قليل .

حسب الفتى عقله خلا يماشره إذا تحاماه إخوان وخلان
حسب الفتى كاف له عن غيره . الخلل بكسر الغاء : الخليل كالحب والحبيب
للمعاشرة : المخالطة — تحاماه الناس . توقوه واجتنبوه . المعنى : إذا اجتنب الفتى
إخوان سوء وأحباب زور فمقله يكفيه عنهم ، فالرجوع إليه عند الحاجة أولى .

هما رضيعا لبان حكمة وتقى وسا كنا وطن مال وطينان
اللبان بالكسر لب المرأة خاصة . الحكم : القضاء وأصله المنع يقال حكم عليه
بكذا إذا منعه من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك . والحكمة وزان قصبه
للدابة سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماع ونحوه ومنه اشتقاق الحكمة
لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأردال . وهي لغة كمال العلم قال ابن الأعرابي حكم
يحكم إذا تنهى في علمه . واصطلاحاً استكمال النفس الإنسانية بالعقل النظرى
والعمل على قدر الطاقة البشرية . وعند القوم إصابة الصواب فى القول والعمل أو
هى نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن يدرك به الأشياء كما يدركها بعينى رأسه .
التقى والتقوى بمعنى وهو ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس . الطغيان مجاوزة
الحد — الاعراب هما ضمير مبهم مبدأ يفسره الخبر كما تقول هى العرب تقول كما
شامت . وقائدة هذا الصنيع تشويق السامع أولاً بذكر المبهم ثم تفسيره ثانياً ليكون
أوقع فى ذهنه . خبره رضيعاً لبان أى لبان ندى واحد بمعنى أخوان . حكمة بدل
من رضيعاً . والمعنى الحكمة والتقوى أخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر والمال
والطينان يسكنان فى وطن واحد لا يفارق أحدهما صاحبه . والحكم باعتبار الأغلب

إذا نبأ بكريم موطن فله وراه فى بسط الأرض أوطان
يقال نبأ بفلان منزله إذا لم يوافقته وراه بمعنى خلف ويحى بمعنى أمام فهو من

الاضداد . والمراد هنا الثاني . بسيط واسع . المعنى : إذا لم يوافق الكريم مسكنه
لحصول الموانع له من الأرزاق فأرض الله واسعة أمامه فلا يتحمل إلى بلد موافق وفي
هذا المعنى يقول بعض الأدباء .

فأقم يدار ما أصبت كرامة وإذا بنا بك منزل فتحول

ياظلماً فرحاً بالمرز ساعده إن كنت في سنة فالدهر يقظان

الظلم وضع الشيء في غير موضعه — المرز خلاف الذل . ساعده أعانه . السنة :
بالكسر النوم الخفيف والمراد هنا النوم وهو غشية ثقيلة تقع على القلب فتمنعه معرفة
الأشياء . والسنة ما يتقدمه من النعاس . الدهر الزمان والمراد خالقه . المعنى : يامن
يظلم الناس مستعيناً بمزه إن سكنت في نوم وغفلة فأله تعالى ليس بناثم ولا غافل
فيجازيك ومحاسبك على ظلمك حساباً عسيراً في هذه الحياة وفي تلك الحياة .

ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكله وهل يلد مذاق المرء خطبان

مرؤ الطعام من باب ظرف ومرى بالكسر صار مريضاً سائفاً هنيئاً تحمد عاقبته
واستمرأ وجده مريضاً . الظلم المراد به ما أخذه ظلماً . الإنصاف : العدل . لذ الشيء
يلذ من باب سلم لذاذاً ولذاذة بالفتح صار شهيئاً فهو لذ ولذيذ . ولذذت الشيء وجدته
لذيئاً يتعدى ولا يتعدى . المذاق الفم أو العصب للفروش على سطح اللسان المودع
فيه القوة الذائقة . أخطب الخنظل إذا صار خطباناً وهو أن يصغر وتصير فيه خطوط
خضر وخطبان فاعل يلد ومفعوله مذاق المرء وهو من باب القلب كقولهم عرضت
الفاقة على الحوض لأن واجد اللفة هو المذاق لا الخطبان . المعنى : لو أنصفت الناس
من نفسك ونظرت إلى العاقبة علمت أن ما أكله الظالم مما أخذه ظلماً لم يسغ من
حلقه بل ينتهي فيه ولا يجد له لذة في الحقيقة فهو بمنزلة الخنظل الذي لا يجد المرء
لذته في تناوله .

يأبها العالم المرضى سيرته أبشر فأنت بصير الماء ريان

السيرة : الطريقة وما عليه الرجل من الأخلاق والأفعال . البشارة : الخبر الذي

يسر به الإنسان حتى يظهر أثر السرور على بشرته . الزيان : ضد العطشان . المعنى :
يامن أنصف بالعلم النافع وحسنت سيرته في الناس بشر نفسك بحسن الحال
والاستغناء عن الناس فأنت حينئذ غني النفس خفيف على القلوب حبيب لدى الله
والملائكة والناس أجمعين .

ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج فأنت ما بينها لاشك ظمآن
الجهل ضد العلم . أصبح بمعنى صار . لجة الماء بالضم معظمه وكذا اللج ومته
بحر لَجِيّ — الظمآن العطشان والبيت متقابل للبيت قبله . فبعد ما بين حال من
جمع إلى العلم النافع السيرة الحسنة ، بين حال من أنصف بضعها ، لكن لما كان
الجهل مستلزماً ضد الثاني من الوصفين تركه . المعنى : يامن رسخ في الجهل ولم يبذل
طاقته في الخروج من ظلمته لو عمرت في لجج لم تنتفع بمائها فأنت فيها على حالك
قبلها إذ لا شعور لك بالعطش لأن جهلك يحول بينك وبين الشعور به فالعلم حياة ونور
والجهل موت وظلمة .

لا تحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان
الحسبان والحسبة : الظن — الدوام الاستمرار . الأبد : الدهر . ساءه ضد
سره من باب قال . ومساءة بالمد والإسم السوء بالضم والفتح ومعناه واضح .
بارافلا في الشباب الوحف منتشياً من كأسه هل أصاب الرشد نشوان
رقل في ثيابه أطالها وجراها متبخترأ من باب نصر . الشباب : الحدائة وكذا
الشبيبة وهو خلاف الشيب — الوحف : الشعر الكثير الأسود ويحرك . ومن
النبات الريان تقول : وحف النبات والشعر يوحف ككرم ووجل وحافة ووحوفة
بالضم غزُر والمراد هنا الحسن والقوة . الإصابة : الوصول والبلوغ — الرشد بضم
فسكون الهداية والاستقامة على طريق الحق — النشوة السكر وانتشا إذا سكر
والنشوان السكران . المعنى : يامن اغتر بشبابه وسكر من كأسه ولم يتدبر في
عواقب أمره أجب عن هذا السؤال وهو : أن السكران يجد طريقاً إلى الهداية
وسبيلاً إلى الاستقامة على الحق (لا) .

لا تغتر بشباب رائق خَصَلِيْ فكم تقدم قبل الشيب شبان

الشباب والشيبية حدائة السن خلاف الشيب — راق الشراب صفا وراقه
الشيء أعجبه وبأبهما قال . الخَصَلِيْ الرطب . الشيب : بياض الشعر . والشيب
دخول الرجل في حد الشيب من الرجال ، الأَشِيْب المبيض الرأس وجمعه شيب —
الشبان جمع شاب — المعنى : لا تغتر بعنفوان الشبان وقوته فكثيرا سبق في الموت
القوى الضعيف والصغير الكبير .

ويا أبا الشيب لونا سحت نفسك لم يكن لملك في الإسراف إمعان
النصح الصدق والإخلاص ومنه التوبة النصوح — الإسراف مجاوزة القصد
— والسرف بفتحيتين اسم منه والمراد الإسراف في بقية العمر — أمعن الفرس
إمعانا تباعد في عدوه وأمعن في الطلب إذا بالغ في الاستقصاء . والمعنى واضح .

هب الشيبية تبلى عذر صاحبها ما عذر أشيب يستهويه شيطان
هب : احسب وافرض يتعدى إلى مفعولين ليس له ماض ولا مضارع —
الشيبية حدائة السن — تبلى تظهر ومنه أبلى في القتال إبلاء حسنا أظهر بأسه —
الأشيب مبيض الرأس — يستهويه يذهب به يقال استهواه كذا إذا هوى به
وأذبه ومنه قوله تعالى « كالذي استهوته الشياطين في الأرض » ذهبت به مردة
الجن بعد أن كان بين الأنس . وقيل استهواه استهامه والمراد زين له الشيطان
طرق المعاصي وأضله عن الهدى — المعنى : افرض أن حدائة السن عذر يقبله
الناس ولا يلومونه على ما فرط منه وإن لم تصلح عذرا فاعذر من أبيض شعر
رأسه وجاءه نذير الموت ، زين له الشيطان أنواع الفساد ويستميله إلى الشرور
والقبائح ؟ فطوبى لمن ملك زمام نفسه ولم يغلب هواه على عقله لأن الهوى مَلِكٌ
غشوم وسلطان ظلم .

كل الذنوب فإن الله يغفرها إن شِيع المرء إخلاص وإيمان
الذنب الأثم والمراد بالذنوب المذكورة ما سوى الشرك بقريئة قوله إن شيع

المرء أُلح الغفر التغطية والستر ، والمراد يتجاوز عنها . التشيع السير خلف المسافر للوداع وكذا خلف الجنائز - الإخلاص في الطاعة ترك الرياء وخالصه في العشرة صافاه . الإيمان حديث النفس التابع للمعرفة أى قول الإنسان بعد العلم بالشىء قبلت هذا ورضيته وأذعنت له . أو تصديق النبي صلوات الله وسلامه عليه في كل ما جاء به عن الله تعالى ومعناه واضح .

وكل كسر فإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران الكسر بمعنى المكسور والجبر : أن تفتى الرجل من فقر أو تصلح عظمه من كسر وبابه نصر تقول جبرت العظم جبراً وجبرانا أصلحته : وجبر العظم بنفسه جبورة الجبر وبابه دخل . القناة الريمح وجمعه فنا كحصى وهى الرماح - الدين ما شرعه الله على لسان الرسول من اعتقادات وعبادات ومعاملات وأخلاق كريمة - المعنى أن الله تعالى يفر الذنوب إذا كان للعبد إخلاص وإيمان لأن الدين يصلح كل ثمة وخلل فى العمل . وأما كسر قناة الدين فخلل واقع فى أصله ولا يرجى له إصلاح .

خذها سوائر أمثال منبهة فيها لمن يتنقى التبيان تبيان الأخذ التناول . السوائر جمع سائر على غير قياس . أمثال جمع مثل وقد تقدم معناه . التهذيب التنقية ويكون بالتنبيه على العيوب ، ورجل مهذب مطهر الأخلاق . الابتغاء الطلب . والتبيان الإيضاح . والمعنى ظاهر .

ما ضر حسانتها والطبع صانعتها إن لم يصفها قريع الشعر حسان الضر خلاف النفع - حسانتها قائلها وناظمها يعنى نفسه والضمير لأبيات القصيدة ، ولما كان الناظم شاعراً مطبوعاً معروفاً بالفصاحة والبلاغة نزل منزلة الصفة التى اشتهر بها فى الأول ، وأراد بالثانى العلم الموضوع لحسان شاعر الرسول صلوات الله وسلامه عليه - الطبع السجية - الصانع من صاغه يصوغه صوغاً وبابه قال : القريم السيد المحنك ، يقال : هو قريع دهره من قرعه دهره إذا كان

ذا كان تجربة وبصيرة يقرع الشدائد والمحن التي تصيبه - الإعراب ما استفهامية خبرها الجملة حسانها مفعول به والضمير فيه يعود على آيات القصيدة المتقدمة ، والروا للحال ، وإن للشرط يصفها فعله ، والجزء محذوف دل عليه ما تقدم - ويروى أن بالفتح وعليه تجعل ما نافية وأن وما دخلت عليه فاعل ضر وقريع الشعر فاعل يصفها وحسان عطف بيان عليه - والمعنى : ما تلونا عليك من الأبيات المنقحة والأمثال المهذبة هي غاية في الحسن ونهاية في الإبداع وإن لم يكن ناظرها قد بلغ رتبة حسان رضى الله عنه . فإن الشعر لا يعتبر باعتبار قائله ، بل بسلاسته وجودة سبكه . قال على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : (لا تنظر إلى من قال ، وانظر إلى ما قال) ومعناه : إذا سمعت كلاماً فلا تنظر إلى حال قائله ، ولكن انظر إلى كثرة طائله وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ومن الملح التاريخية ما روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : اتنى بالشهود أشهدهم ، فقال . كفى بالله شهيداً ، قال فأتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً . قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى » فخرج الذى استلف « فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها » حال كونه « يقدم عليه » بفتح الدال على الذى أسلفه « للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً » زاد فى رواية أبي سلمة : وغدا رب المال إلى الساحل يسأل عنه ويقول اللهم أخلفنى وإنما أعطيت لك « فأخذ » الذى استلف « خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه » الذى استلف منه « ثم زجج موضعها » سمرها بسمامير كالزج وهو النصل « ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك وإنى جهدت « بفتح الجيم والماء » أن أجد مركباً أبث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها »

وفي رواية استودعتكما « فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه » دخلت البحر « ثم انصرف وهو « أي والحال أنه » في ذلك يلتبس مركبًا يخرج إلى بلده « أي بلد الذي أسلفه » فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لمل مركبًا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم « الرجل » الذي كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال : أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك المال « الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف » بصيغة الأمر « بالألف الدينار » التي أتيت بها حال كونك « راشدًا » مهتديا .

وعنه رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ فقال : لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويذهب عني الذي قد قدرني الناسُ » أي تباعد عني وكرهني الناس به أي بسببه . فالتأند محذوف وبابه طرب . تقول : قدرت الشيء وتقذرته واستقذرته : كرهته « فسححه فذهب عنه قدره وأعطى لونا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال : البقر (شك الراوى) فأعطى ناقه عشرين قال بارك الله لك فيها — فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ، قال : شعرٌ حسنٌ ، ويذهب عني هذا الذي قد قدرني الناسُ فسححه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا — قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا . قال : بارك الله لك فيها — فأتى الأعمى فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال : أرز يرد الله إلى بصري فأبصر الناس . فسححه فرد الله إليه بصره . قال فأى المال أحب إليك قال الغنم فأعطى شاة ولدًا : فانتج هذان « المشار إليهما صاحبا الإبل والبقر » وولد هذا فكان لهذا واد من الأبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص

في صورته وهيئته فقال: رجلٌ مسكينٌ قد انقطعت بي الجبالُ في سفري، فلا بلاغَ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللونَ الحسنَ والجلدَ الحسنَ والمالَ بغيراً أتبلغُ به في سفري فقال: الحقوقُ كثيرةٌ. فقال كأنى أعرفُك ألم تكن أبصرَ بقدركُ الناسَ « بفتح الذال يكرهك » فقيراً فأعطاك الله؟ قال إنما ورثتُ المالَ كابرأ عن كابر « أى كبيراً عن كبير في العز والشرف أى ورثته عن أبى وجدى : فقال « إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنتَ - وأنى الأقرعَ في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا وردَ عليه مثل ما ردَّ هذا، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنتَ - وأنى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ انقطعتُ بي الجبالُ في سفري فلا بلاغَ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالفتى رد عليك بصرك شاةً أتبلغُ بها في سفري. فقال: قد كنتَ أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئتَ ودع ما شئتَ فوالله لا أجهدك اليومَ بشيءٍ أخذته الله عز وجل. فقال أمسيك مالكَ فانما ابتليتم » أى امتحنتم أى عاماكم الله العالم بالخفيات معاملة المختبر ليرتب على عملكم جزاءه « فقد رضى الله عنك وسخطَ على صاحبك » متفق عليه، والناقة العشراء بضم العين وفتح الشين وبالمدى الحامل. وقيل الحامل التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر من يوم طرقتها الفحل وهى من أنفاس الإبل. قوله أنتج وفي رواية فنتج معناه تولى نتاجها والنتاج الأولاد والنتج والإنتاج تولى الولادة والنتاج للناقة كالتقابلة للمرأة: « وقوله ولد هذا » هو بتشديد اللام أى تولى ولادتها وهو بمعنى نتج في الناقة: فالمولود والنتاج والتقابلة بمعنى لكن هذا للحيوان وذلك لغيره. وقوله « انقطعت بي الجبال » هو بالحاء المهملة والباء الموحدة أى الأسباب في طلب الرزق. وقوله لا أجهدك: معناه لا أشق عليك في رد شيءٍ تأخذه أو تطلبه من مالى. وفي رواية البخارى لا أحمدك: بالحاء المهملة والميم. ومعناه لا أحمدك بترك شيءٍ تحتاج إليه كما قالوا ليس على طول الحياة ندم أى على قوات طولها.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه . فالتحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم النار فقالوا إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة . إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبِقُ قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طاب الشجر يوماً فلم أرحُ عليهما حتى ناما فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما . وأن أغبِقُ قبلهما أهلا أو مالا فلبنت والقدحُ على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبىة يتضاغون عند قدمي . فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه — قال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحبَّ الناس إلى فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى أَلَمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت . فلما قدمتُ بين رجلها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفتُ عنها وهى أحب الناس إلى وتركتُ الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرجُ عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها — وقال الثالث اللهم استأجرت أجراً وأعطيتهم أجراً غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فشمرتُ أجره حتى كثرتُ منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أدِّ إلى أجرى ، فقلت : كلُّ ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزى بى ، فقلت لا أستهزى بك . فأخذته كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرجُ عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » — متفق عليه — أغبِقُ بفتح فسكون أى ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أقارب ولا رقيقاً والغبوق كصبور ما يشرب بالعشى . وأرح بضم الهمزة وكسر الراء أرجع من أراح رباعياً . ويتضاغون يضحجون من الجوع .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أشتِ الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعثك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل فقال الذى تحاكما إليه : السكا ولد ؟ قال أحدهما لى غلام . وقال الآخر لى جارية . قال أنكحها الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه فتصرفا » متفق عليه . وفى صحيح مسلم من حديث أنس : مات ابن لأبى طلحة ، من أم سليم ، فقالت لأهلها ، أى لقرابتها الذين عندها وشعروا بوفاة ابها ، لاتحدثوا أباطلحة بوفاة ابنه ، لثلاثا يتنفس عيشه وهو صائم . فلينال حاجته من الطعام ، حتى أكون أنا أحذنه فجاء ، فقال : ما فعل ابني ، قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، أى أهدأ أحواله فإنه كان فى قلق واضطراب للزنع . فذهب ذلك حينئذ وظن أبوظلحة أنها تريد أنه زال ألمه وأخذ فى العافية وفى عبارتها التوجيه ، فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب ثم تصنت له ، بتحسين الهيئة بالحلى ونحوه ، أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك الوقت . وهذا يدل على قوة صبرها وكال يقينها ، فوقع بها — جامعا — فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أباطلحة أرايت أخبرني لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم — أى أهل البيت المستعيرين — أن يمنعمهم ؟ قال لا ، قالت فاحتسب ابنك . أى أطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله ولا تندسها بما يحبط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكة . قال أنس : فنضب أبوظلحة وقال لأم سليم : تركتيني حتى تلطخت — أى تقذرت بالجماع — ثم أخبرتنى بابني . فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك (المذكور من فعل أم سليم الدال على حسن صبرها وكال يقينها مما يمجز عنه كثير من الرجال) فقال النبي صلى الله عليه وسلم ببارك الله لكما فى ليلتكما . قال أنس : فحملت أم سليم وولدت غلاما سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ورزق عبد الله هذا تسعة أولاد صالحين كلهم قد قرءوا

القرآن لدعائه صلوات الله وسلامه عليه لها بالبركة - وفي الحديث فوائد : التسليية
عن المصائب ، واجتهادها في عمل مصالحه ، ومشروعية المعاريض إذا دعت إليها
الضرورة ولم يترتب عليها ابطال حق لمسلم ، وإجابة دعوة النبي صلوات الله وسلامه
عليه ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه - والحامل لأم سليم على هذا
الصنيع المبالغة في الرضا والتسليم لأمر الله وقضائه ورجاء اخلافه عليها ماقد منها ،
إذ لو أخبرت أبا طلحة بالأمر في أوله تنكد عليه وقته ولم تبلغ الفرض الذي أرادته ،
فلما علم الله صدق نيته وإخلاصها له في العمل بلغها منها وأصلح لها في ذريتها -
وكان لأم سليم من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى فكانت تشهد الوقائع
وتداوى الجرحى وكانت مثلاً أعلى في الشجاعة والمروءة رضى الله عنها . وبالجملة فقد
ذكر الإمام النووي في رياض الصالحين أحاديث كثيرة نافعة في هذا المعنى وعقد
للملح باباً خاصاً في آخر كتابه هذا فارجع إليه .

ومن الفكاهات الأدبية - ما روى أن المرزبان أحد قواد الفرس دخل
مستسلماً على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا عمر كنا وإياكم
في الجاهلية على بعد من الله جل وعلى ، فقلبتنا كم لأنه لم يكن معنا ولا معكم ، فلما
كان الله معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا باجتماعكم وتفرقتنا - أى ولما جمع
الله تعالى بالإسلام بين قلوبنا غلبناكم .

ومنها ما روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم باناء فيه مرق
حار وعنده أضياف فمئرت فصب المرق على رأسه فأراد ميمون أن يضر بها فقالت له
الجارية : يا مولاي أعمل بقول الله تعالى « والكاذمين النيظ » : فقال لها
قد فعلت . فقالت اعمل بما بعده : « والمافين عن الناس » قال قد عفوت عنك .
قالت الجارية : « والله يحب المحسنين » قال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله
تعالى ولك ألف درهم - وهذا غاية في الحلم والكرم والصفو عند القدرة .

ومنها ما روى : أن محمد بن المنكدر كان يبيع قطعاً من الثياب بعضها بخمسة

دراهم وبعضها بعشرة . فباع غلامه في غيبته قطعة من الخمسات بعشرة فلما عرف لم يزل في طلب ذلك الأعرابي الذي اشتراها حتى عثر عليه فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال : يا هذا قد رضيت فقال وإن رضيت فأنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا فاختر إحدى ثلاث إما أن تأخذ قطعة من المشريات بدراهمك ، وإما أن ترد عليك خمسة ، وإما أن ترد قطعتنا وتأخذ دراهمك . فقال أعطني خمسة . فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا التاجر ؟ فقيل له هذا محمد بن المنكدر فقال لا إله إلا الله هذا الذي نسع أنه مستجاب الدعاء . وهذا مثل أعلى في العفة والأمانة .

ومنها : أنه كان لمالك بن دينار جار يهودي فحول اليهودي مستحبه إلى جدار البيت الذي فيه مالك وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة وكان مالك ينظف البيت كل يوم ولم يقل شيئاً . وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى فضاقت صدر اليهودي من طول صبره على هذه المشقة . فقال : يا مالك قد آذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تحزني ولم تشكني إلى أحد . فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فقدم اليهودي . وأسلم وحسن إسلامه — وعن عبد الرزاق قال : صبت جارية لعلي بن الحسين الماء ليتهايئاً للصلاة فسقط الأبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : « والكاذمين النيط » فقال لها كظمت غيظي . قالت : « والعافين عن الناس » : قال لها قد عفا الله عنك . قالت : « والله يحب المحسنين » قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

من فضائل علي كرم الله وجهه وإنصافه من نفسه ما روى أن يهودياً شكاً — علي بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فلما مثل بين يديه قال الفاروق لعلي أجنس يا أبا الحسن مع خصمك مجلس الخصومة . فظهرت دلائل بالامتناع على وجهه فلحظ ذلك أمير المؤمنين فقال له : أكرهت يا علي أن تجلس

أمام خصمك؟ قال . لا ! ولكنك ناديتني بكنتيتي فرفعتني عليه فكرهت ذلك —
أى أن من آداب القضاء التسوية بين الخصمين في مثل ذلك — فانظر هداك الله
إلى رجل يمتعض لأن الحاكم يرفعه على خصمه لجرد ندائه بكنتيته (يا أبا الحسن)
وهذا مما تغتبط به الناس وترتاح له ولكن عليا رضى الله عنه وكرم الله وجهه كان
حريصا على الحق في نفسه ناصرا له في مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه . إن عددا
قليلًا من هؤلاء السادة الأفاضال الذين يقومون على حراسة الدين الخفيف وآدابه
السامية جديرون أن يفتحوا الأرض وأن يصلحوا منها ما فسد وقد فعلوا فأدهشوا العالم .
ومنها ما حكى عبد الله بن عبد الرحمن قال : كنت عند سهل بن عبد الله
التستري^(١) الصوفي وهو يتكلم على الناس فوقف علينا غلام جميل فد بعض الناس
عينه ينظره وواقفه جماعة في النظر . فقال سهل : مهلا أيها الناس تفترون بحلم الله
عنكم وإمهاله لكم فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح
وما قوم لوط منكم ببيعد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، فانكم هجتم على ما نهاكم
عنه فان عدتم إلى أمره أقام لكم على حلمه ، وإن تماديتم في شهواتكم لم آمن
عليكم عقوبة تأتي إليكم ، فانه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فلبهم البكاء وأعلنوا
التوبة والانابة إلى الله تعالى .

(ومنها أيضا) ما روى أن خدم بعض الملوك التقطوا طفلا وجدوه مطروحا
في الطريق فأمر الملك أن يضموه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت
عليه أمارات النجابة والذكاء فهذه وعلمه ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولى عهده به
فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفاقا وخادما أمينًا ، وبعد ذلك
قدمه في أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ومتصرفا في شئون قصره ،
وفي بعض الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجرانه فذهب ليحضره فرأى بعض
جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يزنيان ، فتوصلت إليه الجارية أن يكتم

(١) بضم التاء الأولى وفتح الثانية ويجوز ضمها منسوب إلى لستر مدينة بخوارستان سكن
البصرة . صعب ذا النون المصري توفي سنة ثلاث وثمانين .

الخبر ، ووعده كل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمن شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر — لكن الجارية أوجبت في نفسها خيفة وتوهمت أن أحد اليتيم يفشى أمرها فانتظرت الأمير حتى حضر ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها فقالت إن أحد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه فعزم على قتله ثم دبر له قتلة في الخفاء حتى لا يعلم الناس بسبب هذا القتل — ذلك أنه قال لكبير خدمه إذا بعث إليك أحداً يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وابعث به إلى لأطمئن ثم ادفن الجثة فأجاب الخادم بالسمع والطاعة ، وفي يوم من الأيام أحضر الأمير أحد اليتيم وقال له : اذهب إلى فلان الخادم وقل له يعطيك كذا وكذا . فامتثل الأمر وذهب إلا أنه لقي في طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم في أمر فاعتذر وقال : إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا نبعث فلانا الخادم نائباً عنك ليحضر ما تطلب حتى تفصل في شأننا . فأجابهم إلى ما طلبوا فأرسلوا واحد منهم وهو الشاب الذي سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب وأخبر الرئيس بالرسالة أخذه إلى المكان الذي أعده ثم قطع رأسه على غرة وجاء به إلى الأمير ، فلما أبصره زال عنه ما كان يجده من انقباض نفسه ، ولكنه لما رفع النطاء عنه رأى رأساً غير رأس أحد اليتيم فسأله عن الذي قتله ، فقال هو فلان ، قال : ألم يكن أحد؟ قال لا ، فأمر بإحضار أحد فسأله عما فعل فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنباً ؟ قال : نعم إنه فعل كذا وكذا مع فلانة ، وقد سأوني بالله وبك أن أكتم الخبر ، فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان من محبة أحد وإكرامه — وكانت هذه عاقبة الوفاء لوفى وعاقبة الخيانة للخائن والجزاء من جنس العمل « وماربك بظلام للعبيد » قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه في مقام التشابه من آيات الصفات وأخبارها النبوية ما خلاصته .

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والنقلى على هذه العقيدة (عقيدة التنزيه) فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شىء ينافى ظاهرة التنزيه فـللمسلمين فيه طريقان إحداهما طريقة السلف وهى التنزيه وتفويض الأمر إلى الله تعالى فى فهم حقيقة ذلك أى يقال مثلاً تؤمن بـ « الرحمنُ على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزّه عن الحلول وسمات الحدوث .

والثانية طريقة الخلف وهى التأويل — يقولون : إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شىء منه عن المعقول فإذا جزم العقل بشىء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل خلافه يكون الحكم العقلى القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بدله من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها أى فيقولون فى « الرحمن على العرش استوى » المراد به الاستيلاء والملك — والقاعدة عند العلماء (أن ظاهر الكتاب أو السنة يجب إبقاؤه على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذه القاعدة أنه يجب حمل كل لفظ ورد فى الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عن تلك الحقيقة اهـ
وبهذا البيان القيم يمكن فهم وتطبيق الوقائع على الوجه المعقول الصحيح وبالله التوفيق .

الفصل الثالث عشر

ضرب الأمثال

لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار فى النفوس — فإن المقصود من ضرب لأمثال أنها تؤثر فى العقول ما لا يؤثره وصف الشىء ذاته — ذلك بأن النرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته يصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك هو النهاية فى الإيضاح — ألا ترى أن الترغيب

في الإيمان إذا كان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القاب كما يتأكد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة — وإذا كره في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة أو بشجرة خبيثة — وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور، وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الأخبار بضعفه مجرداً .

وفرق بين قولك لإنسان وأنت تعظه : إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تفر نفسك ، وأقلع وأنب إلى ربك ، وبين أن تقول له في أمره : إنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع — وكذا بين أن تقول : إن الدنيا لا تدوم ولا تبقى ، وبين أن تقول : الدنيا ظل زائل وعارية تسترد وودعة تسترجع ، وتذكر قول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « من في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » . وتنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وقول الآخر :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعارُ

وما إلى ذلك مما ينبئك عن صيغ التمثيل ويخبرك عن حال المعنى معه . وأن إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداءً أو مجيئه في أعقاب المعاني وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها أكد وقعاً في القلوب وأبلغ أثراً في النفوس إن الآخرة خير لوجوه (الأول) إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة (الثاني) إن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة (الثالث) إن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره ونعم الآخرة صافية عن الكدورات (الرابع) إن نعم الدنيا مشكوكة فإن أعظم الناس تنماً لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني ونعم الآخرة يقينية — وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا — إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط

وهو قوله « لمن اتقى » وهذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن للمؤمن وجنة الكافر .

ولمثل هذا أكثر الله تعالى في كتابه الحكيم وفي سائر كتبه من ضرب الأمثال : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومن سور الإنجيل سورة الأمثال وشاعت في الكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكثر من ضرب الأمثال في مخاطبته ومواعظه كما سيأتي . واعلم أن من قضية وجوب التماثل بين الشيثين في مناط التمثيل تتميل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير .

وقد مثل في الإنجيل غل الصدور بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنايب وجاء في عبارات البلغاء : أجمع من ذرة وأجراً من الذباب وأسمع من قراد^(١) وأضعف من بعوض : وأطيش من فراشة ، وآكل من السوس ، وأعز من مخ البعوضة - إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

ومن الأمثال السهلة في ثبوت الحق وزهوق الباطل قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رايبا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله^(٢) » كذلك « أى مثل ذلك الضرب البديع المشتتل على نكت راتقة » يضرب الله الحق والباطل « أى مثل الحق ومثل الباطل وبين ذلك بقوله « فأما الزبد » من السيل وما يوقد عليه من المعادن « فيذهب جفاء » أى يرمى به « وأما ما ينفع الناس » من الماء الصافي وخالص المعادن « فيمكث في الأرض » ينتفع به أهلها « كذلك » مثل ذلك الضرب المعجيب « يضرب » بين « الله الأمثال » في كل باب إظهاراً لكمال اللطف والعناية في الإرشاد والمهداية فانه تعالى مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من جهة السماء فتسيل به الأودية

(١) ذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها .

(٢) (زيد رايبا) غشاء ورغوة عالية فوق الماء (زيد مثله) خبث مثل زبد الماء في كونه

رايبا فوفه .

على قدر الحاجة والمصلحة حسياً اقتضته مشيئته تعالى وحكمته ، فينتفع به من وجوه شتى ، ويمكث في الأرض بأن يبقى بعضه في منابعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنوات والآبار . وبالسبيكة التي تؤخذ من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد للانتفاع بها في الحلى وعمل الأمتعة كالأواني ، وآلات الحرب والبخار ، ويدوم ذلك مدة طويلة ، ومثل الباطل في عدم نفعه وسرعة زواله يزيد الماء والمعادن .

ومنها في سرعة انقضاء الدنيا قوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » أى اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمثوا بها ولا يكفوا عليها . ولا يضربوا عن الآخرة صفحاً ، وأنها كماء أنزلناه من السماء فالتف بسببه نبات الأرض وخالط بعضه بعضاً لكثرتهم فصار النبات إثر بهجته ونضارته مهشوماً مكسراً تفرقه الرياح — والمشبه به الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر براقاً ثم هشيماً تطيره الرياح كأن لم يكن « وكان الله على كل شيء مقتدراً » قادراً على الكمال ومن جملة الشيء الإنشاء والإفناء .

ومنها ما في الصحيحين عن أنى موسى الأشعري رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلُ الجليسِ الصالح والجليسِ الشؤم كحاملِ المسكِ ونافخِ الكبيرِ فحاملُ المسكِ إما أن يُحذيكِ ، وإما أن يتباعَ منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكبيرِ إما أن يُحرقَ ثيابكِ ، وإما أن تجد منه ريحاً مُنذنةً » . مثلُ . صفة : السوء بالفتح مصدر أطلق عليه مبالغة في التنفير منه وبالضم اسم مصدر . ويجوز ضم وفتح السين فيما ذكر . والكبير بكسر فسكون الرق الذى ينفخ به . يُحذيك كيعطيك وزناً ومعنى . تباع نطاب البيع منه . منتهة قبيحة متغيرة . لجليس لأخيار إما أن يعطى بمجالستهم من القبوضات الإلهية أنواع الهبات فضلاً من الله إحساناً ، وإما أن يكتسب بمجالستهم علوماً وآداباً يستفيدونها ويأخذونها عنهم إما أن يكتسب بمصاحبتهم حسن التناء وجميل الأحدثنة . وجليس الأثرار

إما أن يحترق بشؤم معاصيهم قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »
والركون الميل إليهم بنحو المجالسة والمصاحبة ، وإما أن تدنس سمعته وتقيح بين الناس
سيرته — وفي الحديث حث على مصاحبة من ينال الخير بمجالسته من علم وخلق
حسن وذكر الله تعالى وهداية إلى طرق الخير وأنواع البر ، فمن أبي هريرة رضى الله
عنه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدهم
من يخال » رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح وقال الترمذي : حديث حسن —
والدين الطريق والمسلك . والخليل الصديق . وإذا كان المرء على مشرب صديقه
فلينظر بعين البصيرة إلى أعمال من يريد صداقته وأخلاقه فمن رضى أعماله وأخلاقه
صادقه ومن سخط أعماله وأخلاقه تباعد عنه — من كلام على رضى الله عنه : إياك
وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره — وفي الحديث
أيضاً تحذير من مجالسة من ينال الشر والإنم بمخالطته كالغتاب والنمام والسكير
والزاني والمراني . وهذا المثل في الحث على مصاحبة الأخيار ومقاطعة الأشرار .
وروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثلُ المسلم خدثوني ما هي ؟ فوقع
الناس في شجر البوادي قال عبد الله : ووقع في نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا
حدّثنا ما هي يا رسول الله . قال هي النخلة » .

مثل بكسر فسكون وبفتحتين كشبهه وشبه وزنا ومعنى والمراد الحال العجيبة
أو الصفة الغريبة — وقع الناس ذهبت أفكارهم إلى شجر البوادي وذهلوا عن النخلة
فجعل كل يذكر نوعاً من الأنواع — فاستحييت معنى الحياء من التصريح بما في
نفسى لكونه أصغر القوم ورأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يتكلمان . والمعنى :
كأنه صلوات الله وسلامه عليه قال : إن حال المسلم العجيب الشأن كحال النخلة أو
صفته الغريبة كصفتها . فالمسلم هو المشبه والنخلة المشبه بها ووجه الشبه بينهما
كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها وجوده ما دامت حية والانتفاع بخشبها
وورقها وأغصانها وجمال قوامها وثنضيد طلوعها وجميع أجزائها حتى نواها يتنفع به

علفًا للأبل فكلمها خيرات ومنافع . كذلك المؤمن خير كله بصالح عمله وحسن معاملته ومكارم أخلاقه وما يظهر على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمته فالإيمان الصحيح كشجرة طيبة لا يثمر إلا طيباً . وفي الحديث استحباب طرح الأستاذ المسائل العلمية على تلاميذه اختياراً لإفهامهم وتشجيعاً لهم على حسن التفكير ، وفيه أيضاً مشروعية الامتحان لطلاب العلم ليعرف الكفء للوظائف الدينية من غيره — وفيه أيضاً توقير الكبار وعدم التكلم بمحضرتهم واستحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان وزيادة الإفهام والإيضاح . وهذا المثل في بيان آثار الإيمان الصادق وما يجب أن يكون عليه المؤمن من الأعمال النافعة والأخلاق الفاضلة .

وروى أيضاً من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاه النجاه فأطاعه طائفة من قومه فأدبجوا فانطلقوا على سهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واحتاحهم — فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » — مثل . المثل بفتححتين الحال العجيبة الشأن أو الصفة الغريبة كما سبق . يورده البليغ على سبيل الشبه لإرادة التقريب والتفهيم . ما بعثنى الله به إليكم . أى مع المبعوث إليهم فالمثل مورد لهذه الثلاثة كما يعلم من الحديث . عيني بالثنية والإفراد . النذير العريان : المنذر الذى تجرد عن ثوبه وأخذ يرفعه ويديره فوق رأسه إعلاماً لقومه بالفارّة — ذلك أن ربيثة القوم وعينهم يكون على مكان عال فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألخ به لينذر قومه ويبقى عرياناً — ضرب به النبي صلوات الله وسلامه عليه المثل لنفسه ولما جاء به ولما جاء إليهم تقريباً لإفهام المخاطبين بما يألّفونه ويعرفونه لأنه تجرد لإبذارهم . النجاه بالنصب مفعول مطلق فيه إغراء أى اطلبوا النجاه بأن تسرعوا بالهرب لأنكم لا تطيقون مقاومة ذلك الجيش . والنجاه الثانى تأكيد وكلاهما ممدودان

وجاء فيهما القصر . فأدجوا من الإدلاج وهو السير أول الليل أو كله ومهزته مهزة قطع . المهل بفتحتين السكينة والتأني . فنجوا لأنهم أطاعوا النذير وساروا من أول الليل . صبتهم الجيش أتاهم صباحا هذا أصله ثم استعمل فيمن يطرق بشفة في أي وقت كان . اجتاحتهم بجميم ثم جاء مهمة استأصلهم من جحت الشيء أجوحه إذا استأصلته . ومنه الجائحة وهي الهلاك — وفي الحديث إرشاد الأمة وحثها على التزام المسارعة إلى الخير والطاعة وتحذيرها من الوقوع في الشر والمعصية ببيان حسن مغبة الطاعة وسوء عاقبة العصيان — وهذا مثل في الطائع والعاصي وبيان مآل كل منهما وروى أيضاً من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . القائم في حدود الله المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، والحدود ما نهى الله عنه . واستهموا اقترعوا : نجوا أي الآخذون في أنفسهم ونجوا بالتشديد أي نجوا للآخذين بالمنوعين — وهكذا إقامة الحدود يحصل لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضى بها — وفيه وقوع الجميع في العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من حديث جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً . فقال : اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك — فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد

رسول ، فن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها .

وإذا أردت أن تبين أن العمل الصالح هو الصاحب النافع فاضرب لهم مثلا رجلا كان له أصحاب ثلاثة لا يقوى على مفارقتهم ، وكان يميل إلى اثنين منهم ميلا شديداً ولا يركن إلى الثالث إلا قليلا مع أنه كان حسن الطوية خالص النية ، فاتفق له ذات يوم أنه اتهم بتهمة خطيرة (جناية قتل) فقبض عليه وزج به في أعماق السجن وهو في الواقع بريء ، فأخبر أصحابه بأسره وطلب منهم أن يذهب أحد منهم معه إلى دار القضاء ويشهد له بما يعلم كي ينجو من خطر الحاكم . فاعتذر الأول قائلاً : إنه يتعذر على الانتقال لسكثرة ما عندي من الأشغال . والثاني ذهب معه إلى باب المحكمة ثم أحجم عن الدخول خوفاً من غضب الحاكم عليه واتهامه بالتزوير في الشهادة لكان الصحبة — وأما الثالث الذي كان قليل الميل إليه فإنه لم يتأخر عن الذهاب معه والدخول أمام القضاء . فلما مثل بين يدي الحاكم شهد لصاحبه بالحق وعلم الحاكم صدقه في الشهادة فقبل شهادته وعطف قلبه على صاحبه المتهم فحكم ببراءته وأخلى سبيله .

فالمراد بالأصحاب الثلاثة المال والعيال وصالح العمل — فإن لكل امرئ في هذه الحياة أصحابا ثلاثة ماله وأهله وعمله لا ينفك عنها ولا استغناء له عنها — فإذا فاضت روحه فارقت أمواله التي هي أعز أحبابه ، وأما أهله وعياله فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ثم يتركونه راجعين إلى منازلهم يتنازعون ماترك — وأما أعماله التي كان لا يعرف ما يترتب عليها من حسن العاقبة فإنها لاتفارقه إلى أن يقف بين يدي أحكم الحاكمين وتشهد أمامه لصاحبها لاعليه ، فيشمله الله بصدقه ورحمته ويدخله فسيح جنته — قال صلوات الله وسلامه عليه : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . متفق عليه .

مثل الدنيا وأهلها في تعلقهم بها

الدنيا شبه ملجأ أقامه ملك قوى غنى لياوى إليه أبناء السبيل المسافرين ، وقد أعد في هذا الملجأ كل وسائل الراحة من أغذية وأكسية وأوان وفرش وجميع ما يحتاج إليه اللاجئ من المسافرين ، وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيه انتفاع العارية ثم يتركها لمن يأتي بعده . فيأخذها فرحاً مسروراً وعند الرحيل يتركها راضياً شاكرًا للملك حسن صنيعه . فكان النازلون فيه على قسمين : قسم انتفع بها على أنها عارية ثم سلمها منشرح الصدر شاكرًا وهم العقلاء المتبصرون — وقسم ظن أن هذا الملجأ وطن له وأن جميع ما فيه من متاع ليس عارية تسترد بل منحة مؤبدة فكانوا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح وهم الحقى عمى البصائر .

ومثل آخر للدنيا

مثل الناس فيما أوتوا من متاع الحياة الدنيا كمثل رجل هيا متحفًا جميلًا وأباح الدخول فيه على الترتيب لكل جماعة يوم معين فدخله طائفة منهم فقدم إليهم طبق من ذهب عليه بخور ورياحين ليشموه ويتركوه لمن يأتي بعدهم لا يهتمكوه فمن كان على علم بقانون هذا المتحف ورسومه انتفع به ثم تركه راضياً شاكرًا — ومن جهل قانون المتحف ورسومه وظنوا أنه هبة لهم دائمة ومنحة من صاحب المتحف مؤبدة تفجعوا لاسترجاعه منهم وتألوا لأخذها من أيديهم .

ومثل الناس في اشتغالهم بالدنيا وزينتها عن الدين مثل إنسان منحه ملك عظيم جوهرة ثمينة وأمره بالمحافظة عليها ونهاه عن التفريط فيها ، ثم لقيه صانع خبير بالجواهر فأوصاه أيضاً بالمحافظة عليها وحذره من التفريط فيها ، فلقبه شخص محتال عدو لهذا الملك ولرعيته ؛ فلما رأى تلك الجوهرة حسده عليها وأظهر له جوهرة أخرى مزخرفة ومزينة بكل أنواع الزينة من الذهب والفضة والألماس واللؤلؤ والزمرد والياقوت ولا زال يحتال عليه ويزينها له حتى استبدل هذه الجوهرة المزخرفة بتلك الجوهرة الثمينة ، فلقبه ذلك الصانع ثانياً فسأله عن جوهرة الملك فقال قد استبدلت

بها هذه الجوهرة المزينة ، فقال له الصائغ هذه ليست بجوهرة بل قطعة بلور مزينة بأنواع الخلى وقد خدعت في الاستبدال فاختلفا في أمرها فتحاكما إلى شيخ الصاغة ففضى بأنها قطعة بلور لاجوهرة فسقط في يده وتحسر على ما فرط في منحة الملك .

فالملك هو الله تعالى ، والإنسان هو المكلف ، والجوهرة الثمينة هي الشريعة الفراء ، والصائغ هو العالم الناصح ، والمحتمل هو الشيطان فهو للإنسان عدو مبين ، والجوهرة المزينة هي الدنيا وشهواتها ، وشيخ الصاغة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو المرجع عند التنازع والاختلاف ، وهو المرشد الأول والناصح الأمين وعلماء الأمة نوابه في ذلك ، وكل من فتن بالدنيا وزينتها وشغل بها عن طاعة الله تعالى فهو لاشك خاسر ونادم في الآخرة . « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن فإنه ينفعه ذلك .

ومن الأمثال السهلة في كيفية توزيع الجزاء في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا أن تقول : الناس ينقسمون في الآخرة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك في الدنيا أن يستولى ملك قوى على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون . ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون . ويُنحى سبيل بعضهم فهم الناجون . ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يُنحى إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب . ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في خدمته ونصرته — وتتفاوت الخلع بتفاوت الدرجات في الخدمة . والإهلاك أيضاً يكون بجز الرقبة أو تنكيلا بالمثلثة بحسب درجات المعاندة . وتعذيبُ المعذبين في الخفة والشدة وطولِ المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فكذلك الناس في الآخرة يتفاوتون في الجزاء بحسب تفاوت الأعمال « الرتبة الأولى » رتبة الهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، ولا تكون إلا للجاحدين المعرضين عن الله تعالى المتجردين للدنيا

المكذبين بالله ورسله وكتبه فإن السعادة الآخروية لا تنال أصلا إلا بالإيمان .
« الثانية » رتبة المعذبين وهي لمن تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه ،
وشدة العذاب وخفته وطولته وقصره بأمرين : الأول قوة الإيمان وضعفه ، والثاني
كثرة اتباع الهوى وقتله والكلام فيمن مات على غير توبة « الثالثة » رتبة الناجين
والنجاة السلامة فقط وهم قوم لم يخدموا فيخاع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه
أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين ومن لم تبلغهم الدعوة
وعاشوا على البله فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة
تقربهم ولا جنابة تبعدهم فاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون منزلة بين
المنزلتين « الأعراف » « الرابعة » رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم
السابقون المقربون وما يليق هؤلاء بما يوازي حد البيان قال تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى
لهم من قرأ أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال عز وجل : في الحديث القدسي
« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر » . متفق عليه .

وفي الكتاب والسنة وكتب القوم من ذلك شيء كثير ^(١) مفيد ويمثله يستطيع
أن يسترعى الأسماع ويمتلك القلوب حتى يقودها إلى مباشرة العمل ويرد النفوس
الشريفة عن النقي إلى الرشد ويمثله يمكنه أن يسحر الأبواب حتى ينسى السامع من
يقول ويفكر فيما يقول ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة المرضية ، وبهذا يسهل
عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشر والفساد ، ويفرس فيها حب الخير والصلاح
وروح الألفة والاتحاد ، وبهذا يصلح حال الناس وتنال السعادة في العاجل والآجل
وبالله تعالى التوفيق .

(١) وقد تركنا بيان ما استفاد من بعض هذه الأمثال من العظات والمبر لاستعداد

الفصل الرابع عشر

رعاية مقتضى الحال

وينبغى للمرشد أن يلاحظ ما تقتضيه أحوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية ويراعى أيضاً الزمان والمكان من إلقاء درس أو خطابة أو شدة أو لين أو جدل بالحسنى أو ضرب مثل أو رواية قصص أو إيجاز أو إطناج فيما يقول إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، والجامع لهذه المتفرقات قول الله جل ثناؤه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » فإنه تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى دين الإسلام الذي عبر عنه تارة بالصراط المستقيم ، وأخرى بجملة إبراهيم بالمقالة المحكمة وهي الحجة القطعية المزيحة للشبهة ، وذلك بالنسبة لأولى النفوس القوية الاستعداد لإدراك المعاني الطالبيين للحقائق وهم الخواص ، وبالخطائيات المنفعة والمبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تفاسمهم وتتوخى الخير لهم ، وذلك بالنسبة لذوى النفوس الكدرة ضعيفة الاستعداد الشديدة الألف للمحسوسات القوية التعلق بالزسوم والمعادات ولكن لا عناد عندهم وهم العوام ، وبأحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات تسكيناً لشغبهم وإطفاء للبهيم كما فعل الخليل عليه السلام ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ، لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ورسخ فى نفوسهم من العقائد الباطلة فصاروا بحال لا تنفع فيه المواعظ والمبر بل لابد من إقامهم الحجر لكن بأحسن طرق الجدل لتلين عريكتهم وتزول شكيمتهم . الشغب بالتسكين تهيج الشر ولا يقال شغب بالتحريك .

ويصح أن يقال إن هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن المدعويين على ثلاثة أحوال : منيب متذكر ، وهذا شديد الحاجة إلى معرفة الأوامر والنواهي . ومعرض

غافل ، وهذا شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب . ومعارض متكبر ، وهذا شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الآية الكريمة في حق هؤلاء الثلاثة ، ولم يقيد الحكمة بوصف الحسنه إذ كلها حسنة بخلاف الموعظة إذ ليس كل موعظة حسنة وكذلك الجدال ، وهذا قد يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينته وحدته ورفقه ، فهو مأمور بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن .

والحاصل أن طرق الدعوة إلى الله تعالى تتفاوت بتفاوت أحوال الناس فإن لكل مقام مقالا ، ولكل نفس إعراضاً وإقبالا فقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضاً على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة ، وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس في بعض المجتمعات والوساطة فلا يعدل عنها إلى الدرس . وقد يكون اللين أفضل من الشدة فقد تكره الموعظة لما فيها من الغلظة أو الخرق . قال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أعظك بعبارة فيها بعض الغلظة فأحتملها . قال : كلا ، إن الله أمر من هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر مني ، قال لتبنيه موسى إذ أرسله إلى فرعون : « قولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » أي لا قولاً غليظاً منفرأً ، والقول اللين نحو قوله تعالى : « هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » فإن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه الفوز العظيم والسعادة الدائمة والترجى بالنسبة لهما أي اذهبا على رجاكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجهد طاقته ويبدل أقصى وسعه .

كذلك الإيجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الأسباب الراجحة والتلوب الحاضرة . وأما الإطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة ويكون مع النبي والذكي . وليجعل القرآن الحكيم في ذلك إماماً يقتدى به ومرشداً يهتدى بهديه ، ألا ترى أنه إذا خاطب الرب أخرج الكلام مخرج الوحي والإشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم ، وإذا خاطب غيرهم كبنى إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مطولاً مبسوطاً معاداً في مواضع كثيرة لئلا يفهمهم وتأخر معرفتهم

واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة ، فما خاطب به مشركى العرب فى مقام الاستدلال على قدرة الله ووحدايته قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

بيانه أن أقل درجة المعبود القدرة على جلب ما ينفع العابد ، ودرء ما يضره ، والآلهة التى عبدها المشركون لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقهم ، فكيف ما هو أكبر منه . ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه ، فلام قادرين على خلق الذباب وهو أضعف الحيوانات ، ولا على استرجاع ما سلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يليق بعاقل أن يعبدها من دون الله ، والمعبود فى الضعف والعجز فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل هو تسوية بين السالب والمسلوب : الذباب والآلهة فى الضعف والعجز فالطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما يأخذه مما هو عليه ، ولفظ الآية يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستأب فمن جعل هذا إلهام القوى العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه فى بطلان الشرك وتجهيل أهله وتسفيه أحلامهم والشهادة على أن الشيطان قد لعب بهم أعظم من لعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التى من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات فأعطوها صوراً وتمائيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم أن هذا المخلوق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستردوه منه لمجزوا عن ذلك ولم يقدرُوا عليه

وقوله تعالى في الاستدلال على وحدته وأن الألوهية تقتضى الاستقلال بالتصر
في الملك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق
ولملا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » فان هذا الكلام لا يواز به في
الاقتصار كلام .

ومما جاء في مقام الرد على منكري البعث قوله تعالى « أولا يذكر الإنسان
أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » فإنه لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في
البعث على هذا الإيجاز لم يقدرُوا — ونظيره قوله تعالى « قل يحييها الذي أنشأها
أول مرة وهو بكل خلق عليم » وقوله تعالى « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو
أهون عليه » فإن هذا معلوم لكل صانع يتكرر منه عمل لأن الأول لم يستقر بعد
في خزانة الخليل ، والثاني قد ارتسم وثبت له مثال ، وإذا كان هذا في حق من
يتفاوت في قدرته الصعب والسهل كذلك فما ظنك بمن لا يتوقف مقدوره إلا على
مجرد تعلق الإرادة الأزلية ؟ فهذه الآيات الكريمة على إيجازها برهان قائم على أن
البعث مما يدخل تحت سلطان قدرته تعالى من باب أولى وغير خاف عليك ما جاء
فيه عن بنى إسرائيل .

وعلى الجملة فللايجاز موضع كما أن للإطناب موضعاً فاستعمال أحدهما موضع
الآخر خطأ واضح وعى فاضح ، كما روى عن جعفر بن يحيى البرمكي أنه قال : متى
كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيباً . وقال الخليل : يختصر الكلام ليحفظ ويبسط
ليفهم — وقد كانت العرب تعيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها — فالإطناب إذا
لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو في الوعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز في الافهام محمود .
والمرشد الحازم هو الذي يتفرس في حال القوم ويأتي في كل حال ما يناسبه وسيأتيك
مزيد بيان لهذا المقام مع عدة تطبيقات في الضرب الرابع من أضرب التهريب
فيصطن له .

الفصل الخامس عشر

« الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في إرشاد الناس »

إعلم أن ذلك بطول بيانه . ولا يمكن استقصاؤه . فانه يختلف باختلاف الأمراض الاجتماعية ويتنوع بتنوع الأحوال والدواعي ، ولكنها ترجع إجمالاً إلى طريقتين : الترغيب والترهيب . كما يشير إليه قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم^(١) » ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً . فإن قوله عز وجل ويبشر المؤمنين وما بعده بيان لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ، فالترغيب بوعده الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير ، وتبشيرهم بحسن الثبوة — والترهيب بوعده المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى ، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة — ثم إن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما — والوعيد كذلك يشمل نعمهما وشقاءهما .

فقد وعد جل شأنه المؤمنين الصادقين الاستخلاف في الأرض . والأمن من المخاوف ، والفرجة والسيادة والحياة الطيبة — وأوعده العاصين بالجزى والذل ، وضنك المعيشة في الحياة الدنيا — كما وعد بالنعيم المقيم وأوعده بنار الجحيم في الآخرة . وبالوعد ساق الطائعين إلى الجد في الطاعة ، وبالوعد وقف العاصين عند حد الأدب ؛ وإليك بيان الطريقتين .

الترغيب

نذكر لك من هذا الطريق ما يفيد في حمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة وهو ضربان (الأول)

(١) للذة أو المرغبة أو الطريقة التي هي أقوم الطرق وأسهلها وهي ملة الإسلام والتوحيد ، والمراد بهدائه لها كونه بحيث يهتدى إليها من تمسك به ، لا تحصيل الهداية بالفعل وإلا كان خاصاً بالمؤمنين .

الترغيب في جنس الطاعات بما جاء في ذلك من الكتاب والسنة كقول الله تعالى : « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » . فإنه تعالى وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصلاح العمل - ومنه نصر دين الله - أن يجعلهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف بنى إسرائيل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين ، وأن يجعل دينهم ثابتاً مقررأ بحيث يستمرون على العمل به ويرجعون إليه في كل ما يأتون ، وما يذرون ، وأن يبذلهم بعد الخوف من الأعداء أماناً بتأييدهم بالنصرة والإعزاز ، ولقد أنجز تعالى وعده هذا للهاجرين وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم ، وبذلك رغبهم في الطاعة . وقوله تعالى : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأُولَئِكَ أَجْرٌ يُؤْتَوْنَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ » . أي للذين أحسنوا أعمالهم في هذه الدار مثوبةً حسنة مكافأة لهم فيها على إخلاصهم في العمل ولتمسؤبتهم في الدار الآخرة خير وأعظم مما أوتوا في الدنيا من المثوبة فهذا وعدة تعالى المخلصين في الأعمال بحسن الجزاء في هذه الحياة وفي تلك الحياة ترغيباً لهم في الازدياد من صالح العمل مع الإخلاص فيه .

وقوله تعالى ترغيباً في صالح العمل : « مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . فإنه تعالى وَعَدَهُ حَسَنَ الْحَالِ وَالْمَسَآلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ » . فيعيش الموفق عيشاً طيباً هنيئاً ، وإن كان معسراً فإن معه من القناعة ، والرضى . بالمقسوم ، وتوقع الأجر العظيم ما يطيب عيشه - بخلاف الفاجر الخذول ولو كان موسراً فلا يدعه الحرص ، وخوف القوآت أن يتهنأ بعيشه فهو دائماً في عناء ونكد ، هذا في الدنيا ، والجزاء الآخرة خير وأعظم ، والعيش عيش الآخرة .

وقوله تعالى ترغيباً في التقوى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » . فهذا أيضاً وعد

منه تعالى للمؤمنين الصادقين أن يمنحهم بتقواهم هداية في قلوبهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً وظفراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين والمنافقين كما قال تعالى : « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » أو نجاة مما يحذرون في الدارين وفي الآخرة يستر عنهم السيئات ويفوهم عن الزلات .

والحاصل أن العمل على مقتضى الدين ورعاية سنن الله في خلقه يورث ملكة العلم والحكمة وينير البصيرة ، وبذلك يفرق المرء بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذا ذلك يمنحه الله نصراً على أعدائه يعز به المؤمن ويذل به العدو .

وقوله تعالى ترغيباً في التمسك بالدين : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » أي وأوحى إلى أنه لو استقام الجن والإنس على ملة الإسلام لوسعنا عليهم الرزق — وتخصيص الماء الغزير بالذكر لأنه أصل السعة والخيرات كلها في الدنيا « لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً » لنختبرهم كيف يشكرون — وكأى يختبر الله تعالى عبده بالبلايا ليظهر أمره أبيض عليها أو لا يختبره بانعم أيشكره عليها أم يكفره — ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وسماع مواعظته وقبول وحيه يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا يطيقه .

وقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » البرهان ما يبرهن به على المطلوب ، والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم سمي به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه بل هو نفسه برهان على صدق دعواه وحقية ما جاء به ، يظهر ذلك لكل من عرف حياته قبل البعثة وبمدها ، فإنه برهان بسيرته العملية كما أنه برهان في دعوته العملية . فقد نشأ يتيماً أمياً لم يمن بتربته عالم ولا حكيم ولا سياسي ، ومع هذا قام في كهواته يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله وطاعته ، ويعلمهم حقيقة الإيمان الصحيح بالله تعالى وكل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من تقويم العبادات ونظام المعاملات ومكارم الأخلاق . كل ذلك على أساس الحجج الكونية والبراهين العقلية ،

فلا غرابة أن يسمى هو نفسه برهانا — والنور المبين هو القرآن الكريم ، فإنه كالنور النير في نفسه المنور لغيره ، ولا ريب أن القرآن بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيقته ، وأنه من عند الله بإعجازه غير محتاج إلى غيره ، مبين يبين للناس الحجة الواضحة والسبل المهادية إلى سعادة الدنيا والآخرة إذا هم سلكوها واستناروا بضوئه — والاعتصام بالأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ — والرحمة الجنة — والفضل ما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء كما قال تعالى في آية أخرى « ويزيدهم من فضله » .

والمعنى — بعد ما أقام سبحانه في الآيات السابقة الحجة القاطعة على المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وبطلان ما هم عليه من أنواع الكفر والضلال ، وجه هذا النداء العام إلى جميع المكلفين يدعوم به إلى اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بالنور الذي أنزل معه حيث يقول جل ثناؤه : يا أيها الناس قد أتاكم برهان عظيم شأنه جلى أمره وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم وأنزلنا إليكم على يديه كتاباً كريماً كالنور نير في نفسه منور لغيره يبين لكم كل ما تحتاجون إليه لسعادة العاجلة والآجلة ولم يبق بعد ذلك علة لتملل ولا عذر لمعتذر — وأن الذين صدقوا بالله واعترفوا بوحديانيته وآمنوا برسوله وبما جاء به وتمسكوا بهذا القرآن العظيم سيدخلهم في دار الإحسان ، ويتفضل عليهم زيادة على جزاء أعمالهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة إليه ، ويعرفهم طريقاً قويمًا يبلغون به سعادة الدارين — بالسكال والنصرة والعزة والسيادة في الأولى ، وبالجنة والرضوان في الآخرة — وهذا وعد كريم منه تعالى بهذه الأمور الثلاثة : الرحمة ، والفضل ، والهداية ، ترغيباً لهم في الإيمان بالله ورسوله والتمسك بكتاب الله والعمل بسنة رسوله ، فيا سعادة الموقنين ويا شقاوة الخذولين الحرومين .

وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته ، وإقراراً بوحديانيته ، ثم ثبتوا على هذا الإقرار ومقتضياته ، والخوف هم لتوقع المسكره ، والحزن غم لفوت نافع أو حصول

ضار - والمعنى أنه تعالى كتب لهم الأمن من كل هم وغم - وهذا وعد للذين جمعوا بين التوحيد الذى هو رأس العلوم اليقينية والاستقامة فى جميع أمور الدين والدنيا التى هى رأس الأعمال الصالحة . بالأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكارهِ فى هذه الحياة وفى تلك الحياة - وبمثل هذا الوعد الكريم رغبتهم فى الإيمان والاستقامة . وقوله تعالى « من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يقول جل ثناؤه من أخلص نفسه لله تعالى فلم يشرك معه فى العبادة أحداً وهو مخلص فى هذا التوحيد وفى جميع أعماله فله جزاؤه الذى أعد له على عمله وهو الجنة عند مالكه ومدبر شئونه ولا خوف عليهم فى الدنيا والآخرة من نزول مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات مطلوب - وهذا وعد منه سبحانه لأهل التوحيد الصادق والعمل الصالح مع الإخلاص له بالخير العظيم فى العاجلة والآجلة - وبذلك رغبتهم فى التوحيد وصالح العمل والإخلاص فى ذلك له تعالى .

وقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » أى سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرع فيها محبة يمشون بها فى الدنيا مطمئنين مكرمين لما لهم من الإيمان وصالح العمل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه . وفى صحيح البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام : إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلانا فأحبه فليحبه أهل السماء ، ثم يوضع له المحبة فى الأرض » - وذلك عادة لا يكون إلا لمن تكمل بالإيمان وصالح العمل وتحلى بمكارم الأخلاق وصنائع المعروف - وهذا وعد منه تعالى للمؤمنين العاملين بأنه يجعلهم محل رحمة وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول الناس أجمعين . وبذلك رغبتهم فى الإيمان وعمل الصالحات . وقوله تعالى « فإما يأتينكم منى هدى » من كتاب ورسول « فمن اتبع هداى فلا يضل » فى الدنيا « ولا يشقى » فى الآخرة فهذا وعده تعالى من يتبع الهدى بخيرى الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . يعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتلأ أوامره وانتهى عن نواهيها نجا من الضلال ومن عقابه « ومن أعرض عن ذكرى » هداى الذاكر لى والداعى إلى « فإن له معيشة ضنكا » ضيقاً في الدنيا ، فترى الفاسق شرها حريصاً منهمكاً في جمع المال وعنده فوق ما يكفيه . ولا يهدأ له بال ويضيق صدره لأقل نازلة ، وناهيك بذلك ضيقاً في معيشتهم وتعذيباً لنفوسهم — وترى الصادق الإيمان مملوء القلب بالقناعة والرضا وليس عنده قوت يومه « ونحشره يوم القيامة أعمى » فاقد البصر كما في قوله تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصياً » ويصح أن يكون المراد من هذا أنهم لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلد مسامعهم فقد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون — والمراد بالعمى في الآية التي معنا عدم الهداية إلى طريق الخلاص وفقد البصيرة وقد كان في الدنيا يحسن التفكير ذا بصر في أموره « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت » في الدنيا « بصيراً قال كذلك » مثل ذلك فعلت أنت « أتتلك آياتنا » واضحة نيرة لا تخفى على أحد « فنسيتم » عميت عنها وتركتم ترك المنسى الذى لا يذكر أصلاً « وكذلك » مثل ذلك النسيان الذى فعلته في الدنيا « اليوم تنسى » تترك في العمى والعذاب جزاء وفاقاً — وهذا وعيده تعالى لمن يعرض عن الهدى وداعيه بنكد الدنيا وشقاء الآخرة .

وقال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فإنه تعالى وعد المجاهدين المخلصين في سبيل الله أن يزيدهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلكها كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى » وفي الحديث : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وإطلاق الجهاد بعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة .

وقال تعالى « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » فإنه تعالى وعد من ينصر دينه بالنصر على أعدائه حتى يكون هو الظافر . وبين تعالى أنه قوى على

هذه النصرة التي وعد بها المؤمنين عزيز لا يضام ولا يمنع مما يريد — ولقد أنجز عز سلطانه وعده . حيث سلب المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة المعجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم — أجل نصرهم الله تعالى على هؤلاء الأعداء الأقوياء عندما كانوا متمسكين بدينهم وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرف من بعدهم عنه خرجوا من الوعد ، ولوعادوا لعاد الله عليهم بالنصر المبين — وصفوة القول أن طاعة الله تعالى هي المستتعبة للخيرات في العاجل والآجل وعصيانه مستوجب للشرور والآلام في الدنيا والآخرة .

وكحديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات » وفي رواية مسلم ينفعك الله بهن أى بعلمهن والعمل بمقتضاهن : « إحفظ الله » أى دين الله بحفظ أوامره ونواهيه فتقف عندها بالامتنال والاجتناب فلا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك « يحفظك » في نفسك وأهلك ومالك ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياً طيبة » وما يصيب الإنسان من النوائب والشدائد فهو بتضييع أوامر الله تعالى وأمديه حدوده . قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . « إحفظ الله تجده تجاهك » أمامك بمعنى معك حفظاً وتأيداً وإعانة حينما توجهت وقصدت ، من أمور الدين والدنيا فالعلمية معنوية : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » كناية عن قدم المقادير فلا تبديل ولا تغيير — ولا ينافيه قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » لأن المحو والأثبات مما جفت به الصحف أيضاً — رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وفي رواية الإمام أحمد وعبد بن حميد في مسنده « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء » أى سعة الرزق وحمية البدن « يعرفك في الشدة » بأن يجعل لك من كل هم فرجاً ومن كل

ضيق مخرجا بما سلف منك من ذلك التعرف كما وقع للثلاثة أصحاب الغار^(١) « واعلم أن ما أخطأك » جاوزك فلم يصل إليك « لم يكن ليصيبك » لأنه تبين بكونه لم يصل إليك أنه غير مقدور عليك « وما أصابك لم يكن » قدر « ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً » والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة .

(الضرب الثاني) الترغيب في أنواع الطاعات — كالصلاة والصدقة والصوم والحج والجهاد لإعلاء كلمة الله وبر الوالدين . وإصلاح ذات البين كذلك يلزم ترغيب الناس في أنواع الفضائل النفسية كالشجاعة والعفة ، والصدق والوفاء والأمانة ، والإخلاص والحلم والتواضع ، والكرم والسخاء والصبر لدى الشدائد ، وطهارة الضمير وحب الخير للناس — كذا يرغبهم في إتقان الصنائع الوطنية ، ويحث على ترويجها بالاقبال عليها ، لما في ذلك من تشجيع الحركة الاقتصادية التي تعزبها الأمم وترقى الشعوب ، وإجمالا كل ما ينفع الأمة في العاجل والآجل بذكر ما جاء فيها من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة مع شرح ذلك شرحاً وافياً حسبما تدعو إليه الحاجة — ويرجع في ذلك إلى مثل كتاب رياض الصالحين للإمام النووي — وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء العلوم للإمام الغزالي مع الرجوع في تفسير الآيات والأحاديث إلى مظانها فذلك أعون على الإجابة وتمام الإفادة .

ومن أنفع وسائل الدعوة إلى خير الأعمال وحميد الخصال تنبيه الأمة إلى ماضى أسلافها الصالحين الذين رفعوا منار العلم والدين ونشروا لواء العدل والمساواة لتعلم من هم لعلمها تستحي من أن تكون شر خلف نخير سلف بل لعلمها تندم على سوء حالها فتقلع عما هي عليه من شرور الأعمال وفساد الأخلاق حتى صارت في أخريات الأمم بعد أن كانت في مقدمتها « نعم » هذا من أحسن

(١) حديثهم في الصحيحين من رواية ابن عمر وفي رياض الصالحين باب الاخلاص وقد تقدم .

الطرق التي ترقى شعور الأمة ، وأقرب وسيلة تهيب بها إلى خير الأعمال والتحلى بمجيد الخلال — ذلك أن تذكيرها بشرفها السالف وتشخيص مجدها الرفيع ، وعزها المنيع أمام عيونها يدعوها بلا شك إلى التأسى بهم فيما كان لهم من جلائل الأعمال — وحيد الخصال — أحسن زاجر للمرء عن مساويه إن كان حياً أن يتفكر فيمن مضى من أمته وحماة دين الله فيرى فيهم العلماء الحكماء ، والأمراء العظماء والولاة العادلين ، والشجعان المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم مخلصين في سبيل الله والحق ففازوا بالسعادتين وخلدوا لأنفسهم أحسن الذكرى وجليل الأحدثنة .

وأكبر ما يهون على المرء احتمال الضيم والذل جهله بنفسه ونسيانه شرف أسلافه وأجداده فتخفى عليه سيرتهم الحسنة وأعمالهم الجليلة الخالدة وأخلاقهم الكريمة فلا ينجل أبداً من السقوط في حماة الرذيلة ولا يستحي أبداً من إتيان النقائص .

من يهن يهن الهوان عليه ما لجرح يميت إبلام

لهذا ترى دعاة الاستعمار إذا غلبوا أمة إسلامية جعلوا أكبر همهم القضاء على دينها ولغتها وعاداتها ، وعملوا على إضعاف الروح العلمية فيها حتى تتلاشى قوميتها وتنسى مجدها التالد وشغلها بزخرف الحياة وزينتها وأنواع الملاهي عن كل ما يرقى شأنها فتراها مفتونة بتقاليد الغالبيين وعاداتهم القبيحة الضارة ، وتراها تكثر من الإعجاب بما ظهر على أيديهم من المخترعات وإتقان الصناعات ذلك لجهلها بماضى أسلافها وإلا فقد ظهر على يد السلف الصالح من الحكم والآداب وإتقان الأعمال في سياستهم المدنية وفي حروبهم وقضائهم بين الناس ما هو أعلى بكثير مما يندش له هؤلاء الجهلاء عند ظهوره على يد هؤلاء المستعمرين . فواجب المسلم أن يقف على محاسن دينه وآثار السلف الصالح ليعلم أن المحاسن التي في دينه ولسلفه كثيرة جديرة بالحفظ والعناية وبالله تعالى التوفيق .

طريق الترهيب

ونذكر لك من هذا الطريق الأمور النافعة في التحذير من كل المعاصي صغيرها وكبيرها . والمفيدة في حل عقدة الأصرار . وحمل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أضرب « الأول » أن يذكر مافي القرآن الكريم من الآيات المخوفة للمذنبين وكذلك ماورد من الأخبار والآثار — فان الله تعالى حذر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته . وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدانيته . وجعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة والأولى ، كما جعل الأجساد القذرة عرضة للأمراض القاتلة في الدنيا وهو في كل حال حاكم عادل « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون »

قال الله تعالى « فلما آسفونا أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه » انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين « معناه أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن يُعجل لهم عذابنا وأن لا نحلم عليهم « فجعلناهم سلفاً » أى جعلناهم قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم في استحقاق مثل ما حل بهم من العذاب ومثلاً للآخرين عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم . أو قصة عجيبية تجرى مجرى الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون — وقال تعالى « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » أخبر تعالى أنهم لما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه لغضب عليهم وجعلهم قردة أزلأ مبعدين والخسوء هو الطرد والصغار والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ، روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار ، ومثل هذا قوله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » فالمسخ معنوى لاصورى على الصحيح وليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم نص فيه على كون ما ذكر مسخاً لصورهم وأنهم قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير .

وقال تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة »
أى أنه تعالى لو يؤاخذ الناس جميعاً بما اقترفوا من السيئات كما فعل بالأُم الماضية
ما ترك على ظهر الأرض من نسمة تدب عليها من بنى آدم . وقيل ومن غيرهم أيضاً
بشؤم معاصيهم . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » أى من يخالف الرسول
فيا جاء به من الحق من بعد ما ظهر له بالمعجزات الدالة على صدق رسالته ويسلك
طريقاً غير طريق المؤمنين الذين هم مستمررون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم
نحطه واليا لما تولاها من الضلال ونحذله بأن نخلى بينه وبين ما اختاره في الدنيا وندخله
جهنم في العقبى — وقال تعالى : « لم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم »
وقال تعالى : « ومن بعض الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها
وله عذاب مهين » والآيات في ذلك كثيرة .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « إن الله يغار
وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه » — وفيهما أيضاً
أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها
وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل » . والغيرة الحية والأنفة ،
والمراد بها في حقه تعالى لازمها وهو الانتقام . وروى أحمد والترمذي والحاكم وصحاح
والنسائي وابن ماجه وغيرهم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكثت نكته سوداء في قلبه فإن تاب واستغفر
صقل قلبه ، وإن لم يتب زادت حتى تملو قلبه » أى تفشيه وتغطيه تلك النكته
السوداء « فذلك الران الذى ذكره الله في كتابه — كلاب ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون » أى من الخطايا والسيئات وفي قوله « يكسبون » معنى الاستمرار
والاسترسال . وران عليه بتره وغطاه . أى أن قلوبهم قد أصبحت في غلاف من
ظلمات المعاصى حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ولثل هذا كان السلف
يقولون : المعاصى يريد الكفر . ومن أحدث لكل ذنب يقع فيه توبة نصوحاً

لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا . وقذف هذا . وأكل مال هذا . وسفك دم هذا . وضرب هذا . فيمطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فببت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » . رواه مسلم . وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخارى — والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قيل له هل تركت بنو إسرائيل دينهم ، أى حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم كسجنهم قردة وخنازير^(١) وأمرهم بقتل أنفسهم ؟ قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشىء تركوه . وإذا نهوا عن شىء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسوخ الرجل من قميصه — وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله . وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله تعالى . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا عظمت الذنب فقد عظمت حق الله تعالى وإذا صغرت فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله ، وما من ذنب صغرته إلا عظم عند الله — وقال حذيفة رضى الله عنه : إذا أذنب العبد نكث فى قلبه نكثة سوداء ، فإذا أذنب نكث

(١) تقدم لك أن المسخ معنوى على الصحيح كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره خلافاً لما عليه الجمهور من أن صورهم تحموات فكانوا قردة وخنازير حقيقة .

في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كله أسود . ويؤيده قول السلف : المعاصي
بريد الكفر أى رسوله . باعتبار أنه إذا أورثت القلب هذا السواد وعتمته لم يعد
يقبل الخير قط ، فحينئذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف فيرتكب
ما أراد ويفعل ما أحب ، ويتخذ الشيطان ولياً من دون الله فيضله ويفويه ويمده
ويمنيه ، ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلاً . قال تعالى : « إن يدعون
من دونه إلا إنانا » أى ما يعبد المشركون من غيره تعالى إلا أصناماً مؤنثة كاللات
والعزى ومناة « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً
خارجاً عن الطاعة عارياً عن الخير لأنه هو الذى أغراه على عبادة الأصنام
فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً
مفروضاً » أى شيطاناً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع لأجملن لى منهم
حظاً مقطوعاً أَدعُوم إلى طاعتي « ولأضلنهم » عن الحق بالدعاء إلى الضلالة
« ولأمنينهم » لأتقين فى قلوبهم الأمانى الباطلة من طول الحياة وأن لا بعث
ولا حساب « ولأسرنهم فليبتكن آذان الأنعام » لأحلمنهم على أن يقطعوها وكانوا
يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً وحرّموا الإنتفاع بها
« ولأسرنهم فليغيرن خلق الله » دينه بالكفر وإحلال ما حرم وتحريم ما أحل
« لقوله لا تبدل خلق الله » « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر
خسراناً مبيناً يمدم » يوسوس إليهم أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار
« ويمينهم » مالا يغالون « وما يمدم الشيطان إلا غروراً » باطلا هو أن يرى شيئاً
يظهر خلافه .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم
بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا
من أصحاب السعير » .

وفى التوراة ما معناه : أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين
على الثوات وعلى الروابع . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن وهب قال : إن الرب

سبحانه وتعالى قال في بعض ما يقول لبنى إسرائيل : إني إذا أطاعني العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه بارت فيه وفي آثاره ، وليس أبركتي نهاية ، وإذا عصاني العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتي تبلغ السابع من ولده . ويؤيده قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » فإنه تعالى أمر الأوصياء بأن يخافوا الله في شأن اليتامى خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وإلا فقد عرضوهم للضياع . ففي الآية الكريمة بعث على الرحمة وأن يجب لأولاد غيره ما يجب لأولاد نفسه ، وتهديد للمخالف بحال أولاده ، ولو شرطية جوابها خافوا عليهم والجملة صلة الذين — والمعنى ليخف الله الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا أولاداً ضعافاً خافوا عليهم الضياع بعدهم — وأمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعد الأمر بها مراعاة للبدن والمنتهى إذ لانفع الأول بدون الثاني — وأن يخاطبوا اليتامى بالشفقة وحسن الأدب وفي الحديث « البر لا يبلى والذنب لا ينسى . والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان » أي كما تفعل يفعل معك . والقصاص إن لم يكن فيك أخذ من ذريتك ولذا قال تعالى : « خافوا عليهم فليتقوا الله » فإن كان لك خوف على صغارك وأولادك الضعفاء فاتق الله في أعمالك كلها لاسيما في أولاد غيرك فإن الله تعالى يحفظك في ذريتك . ويسر لهم من الحفظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ما تقر به عينك بعد موتك وتسره لروحك . قال تعالى « وأما الجدار فكان لآلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا » الآية . وأما إذا لم تتق الله في أولاد الناس ولا في حُرهم فاعلم أنك مؤاخذ بذلك في نفسك وذريتك وأن ما فعلته كله يفعل بهم .

فإن قيل هم لم يفعلوا فكيف عوقبوا بزلات آبائهم وانتقم منهم بمعاصي أصولهم ؟ « قلنا » لأنهم تبع لأولئك الأصول وناشثون عنهم « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » أي أنهم يرثون الشر عن آبائهم كما يرثون أوصافهم الجسمية — وإن قيل بالعدوى في الأمراض الحسية فالنفوس أقبل

لها في الأمراض المعنوية . هذا ما تشير اليه هذه الآية — ومن استقرأ أحوال الفجار وجد أنهم لا يلدون إلا فجراً — فالخاص أن الذرية ترتكب ما يستحق عليه العقوبة بشؤم ما كان يصدر من الآباء بمقتضى تلك الوراثة والعدوى . ويؤيد هذا حديث : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه الحاكم . وحديث : « أعف نفسك تعف بناتك » وروى الطبراني في الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناءكم » وسلب المال منهم إن لم يكن لسوء تصرفهم كان من قبيل رد الحقوق إلى أربابها لكونها في الأصل مثلاً منصوبة .

وإن قال قائل قد مجد في فرع العصاة صالحاً كابن أبي طالب وبالعكس كابن نوح وابن آدم القاتل وفي هذا قال بعض الأدباء :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد

وقد يجتث الفرع الذي طاب أصله ليظهر فعل الله في العكس والطرء

قلنا : هذا مع قلته لأمر باطن بطله الله تعالى لو لم يكن منه إلا الأعلام بعجز الخلق حتى السكّل منهم عن هداية أقرب الناس إليهم لكني « إنك لا تهدي من أحببت » أي لا توصل من أحببت — وربما كان للفاسق ظاهراً أعمالاً صالحة باطنة يثيبه الله بها في ذريته فيتمتعين الأخذ بقوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » وفي مسند الإمام أحمد أيضاً كتبت عائشة إلى معاوية رضى الله عنهما : أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس دائماً . وقال أبو الدرداء : احذر أن تُبفضك قلوب المؤمنين وأنت لا تشعر . قال الفضيل هو العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بفضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر — وقال يحيى بن معاذ عجبت من ذى عقل يقول في دعائه : اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو . قيل له : كيف ذلك ؟ قال يعصى الله فيشمت في القيامة كل عدو — وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوقفه بعدها لخير . وقال إن الرجل — أى الكامل — ليذنب الذنب

فإن ينسأ ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة . وفي صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه . وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار » عبر بالذباب لكونه أخف الطير وأحقره — ولأنه يدفع بأذنى شيء — وقال به هكذا — أى نحاه بيده — وفيه تمثيل الذنوب فى نظر المؤمن بالجبل ثقلاً وخطراً وفى نظر الفاجر بالذباب خفة وحقارة — والمعنى أن المؤمن لقوة إيمانه وشدة خوفه من الله تعالى لا يأمن العقوبة بسبب ذنوبه . والمؤمن دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخاف من أقل المفوات ، وأن الفاجر لضعف إيمانه وقلة خوفه من مولاه يستهين بالذنوب ولا يبالي بالمعاصى — وقال بعض السلف : يا أهل المعاصى لا تغتروا بطول حلم الله عليكم واحذروا أسفه . أى شدة غضبه من الإفراط فى المعاصى فإنه تعالى قال « فلما آسفونا انتقمنا منهم » والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغى أن يكثر المرشد منها إن كان ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة . وورثه كل عالم بما أصابه . وبالله تعالى التوفيق

« الضرب الثانى » حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من المصائب والبلايا بسبب هفواتهم التى هى خلاف الأولى فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق فى صحيح البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قام موسى النبي خطيباً فى بنى إسرائيل » يذكركم أيام الله وأيامه هى نعاؤه وبلاؤه « فمثل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم » من جميع الناس فى اعتقاده وظنه فلم يكن ذلك كذباً « فعتب الله عليه ^(١) » تنبيهاً له وتعلماً لمن بعده ولئلا يقتدى به غيره فى تزكية نفسه فيهلك — وأصل العتب المؤاخذة أو تنفير النفس والمراد به عدم الرضا بذلك ، ولذا أمره بالذهاب إلى الخضر للتأدب لا للتعليم

(١) عتب عليه وجد وبابه نصر وطرب .

« إذ لم يرد العلم إليه » تعالى كأن يقول الله أعلم « فأوحى الله إليه إن عبدا من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك » بشيء مخصوص وهو ما علمه من الغيوب وحوادث القدرة مما لا يعلم الأنبياء منه إلا بما أعلموا به . كما قال سيدهم وصفوتهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فى هذا المقام « إني لا أعلم إلا ما علمنى ربي » وإلا فلا ريب أن موسى عليه السلام أعلم من الخضر بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة ويدل هذا قول الخضر فى هذا الحديث : « إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه » فانظر كيف عوتب على حكم بناء على ظنه واعتقاده وامتنحن من أجله بالذهاب إلى الخضر وموسى أفضل منه تأديباً له واعتباراً لغيره — وغاية ما وقع منه أنه ارتكب خلاف الأولى فإنا ونحن المذنبون للمقصرون — وكما روى صاحب القوت رحمه الله أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا ! قال لقولك لأخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون — لم خفت عليه الذئب ولم ترجئى له ؟ — ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال : لأنك رجوتنى وقلت عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً . وبما قلت : يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله . أى اطلبوا خبرها من الإحساس وهو المعرفة . وروى البيهقى فى الشعب من حديث أنس رضى الله عنه : « أتى جبريل يعقوب عليه السلام وقال إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأناكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً ، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر منادياً ينادى ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب ^(١) » — وكذلك لما قال يوسف عليه السلام لصاحب الملك إذ كرنى عند

(١) وأخرجه الحافظ المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب من رواية الاصمغانى فى باب كفالة اليتيم .

ربك . قال الله تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .
فوقب بطول السجن برجوعه إلى غير الله تعالى مع أن الاستغانة بالخلق في دفع الظلم
جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهذا وإن كان حائزاً
لعامة الناس إلا أن الأولى بالصدقين أن يقطعوا نظرهم عن الالتفات إلى غيره تعالى .
وأن لا يشتغلوا إلا بالالتجاء إليه .

ومن ذلك ما جرى لسليمان بن داود عليهما السلام من تخلف رجائه من أجل
أنه لم يقل بلسانه إن شاء الله . قال الله تعالى « ولقد فتنا سليمان وأيقنا على كرسیه
جسداً ثم أناب » فإن أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضى الله
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام
لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له
صاحبه قل : إن شاء الله . فلم يقل إن شاء الله فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة
جاءت بشق رجل والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله
فرساناً أجمعون » متفق عليه ، لأطوفن أى لأجامعن أو لأنعن — وصاحبه قرينه
من الملائكة ، أو وزيره من الإنس ولم يقل إن شاء الله أى بلسانه لا إباء عن
التفويض إلى الله تعالى ، بل لشغل أو نسيان عراه فصرفه عن الاستثناء القدر
السابق أن لا يكون ما تمنى كما هو اللائق بمنصب النبوة . وشق الرجل : هو الجسد
الذى ألقى على كرسیه كما جاء ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد
في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت
بشق رجل فحى به على كرسیه فوضع في حجره . فوالذى نفسى بيده لو قال إن
شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون . فذلك قوله : ولقد فتنا سليمان »
فهذا مما قد يغيب عن الخواص من خفى سكونهم ، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله
تعالى كاتكال المؤمن على قوته . أو إعجابها بها ، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر
ولم يرد بها القرآن الحكيم وروود الأسمار ، بل الغرض منها العظة والاعتبار ، ليعلم

العبد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع جلالة قدرهم عند الله تعالى ، لم يتجاوز عنهم في المحفوات الصغيرة . فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر الذنوب ، فليعتبر بذلك العبد ويكون على غاية الوجل — نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالمؤاخذة ولم يؤخروا إلى الآخرة — والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً — ولأن عذاب الآخرة أشد وأدبر — فهذا أيضاً مما ينبغي للمرشد أن يكثر منه على أسماع المصرين على الذنوب فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة إن شاء الله تعالى .

(الضرب الثالث) أن يقرر في أذهانهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جنائياته التي صدرت منه — فرب إنسان يتساهل في أمر الآخرة ويستخفه ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به — فإن الذنوب كلها يعجل شؤمها في الدنيا غالباً — قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . كالجدب وقلة الأمطار والريح في الزراعات ، والريح في التجارات ، ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثرة الحرق والفرق ، ومحق البركة من كل شيء بشؤم معاصيهم ليذيقهم بعض جزاء تلك الجرائم وتماهه في الآخرة ، لعلهم يرجعون : كي يقلعوا عما هم عليه من السيئات — وقال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ، أي لو أنهم صدقوا بما أوحى إلى الأنبياء معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالسراء والضراء واتقوا ما أنذروا به على أسنة الأنبياء ، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ، لو معنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب ولكن لم تفهم الآيات والنذر فعاقبتهم بما كانوا يفترون من الكفر وأنواع المعاصي — وقال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . أي ما ينزل بكم من المكارة كالآلام والأسقام بالنفس والأهل ، والولد والمهات بالمزروعات والمواشي فهو بسبب معاصيكم التي ارتكبتوها ، ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها ، هذا في المجرمين ، أما ما ينزل بالطائعين من

الحن والبلايا فلأسباب أخرى منها تمر بهم لثواب الصبر عليها ، ورفع درجاتهم
— وفي الحديث ، (خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : البغي ، والتندر ، وعقوق
الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لايشكر) — روى من عدة طرق ، وبنحوه
رواه الطبراني من حديث جابر ، وعن أبي بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق
الوالدين فإن الله يجعله لصاحبه في الحياة قبل المات » : رواه الحاكم والأصبهاني
سند صحيح — حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بذنوبه ، وقد تسقط منزلته من
القلوب فيصير ثقيلاً مرذولاً ، ويستولى عليه أعداؤه — قال تعالى : « وضرب الله
مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه
فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، أى جعل القرية التي كانت هذه حالها مثلاً لكل
قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم
نقمة — والمثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشيء
موجوداً أم لم يكن فيجوز أن يراد قرية مقدره على هذا الوصف — وأن يكون في
قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضرها الله مثلاً لغيرها إنذاراً من مثل عاقبتها .
آمنة : ذات أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كما ينزل
ببعض القرى من إغارة الأعداء عليها وطلب الإيقاع بها — مطمئنة : ساكنة قارة
لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث في بعض القرى من الفتن الداخلية
بين أهاليها ووقوع بعضهم في بعض — يأتيها رزقها : أقواتها — رغداً : واسعاً
من جميع نواحيها — فقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والعصيان ، بدل الشكر
والطاعة ، فعاجلهم الله بالعقوبة وغشيتهم من آلام الجوع والخوف وأضرارها
ما غشيتهم بما كانوا يقتربون فيما قبل على وجه الاستمرار وهو الكفران والتمرد وهو
في كل ذلك حاكم عادل — ولقد جاءهم : هذا من تمام التمثيل أتى به لبيان أن
ما صنوه من كفران هذه النعم لم يكن خروجاً عما يوجبه العقل السليم فقط ،

بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى واقد جاء أهل تلك القرية رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الطاعة والشكر على النعمة وأنذرهم بسوء عاقبة أمرهم فكفروا برسالته وكذبوه فيما أخبرهم به - فأخذهم العذاب المستأصل لشأقتهم عقب ما ذاقوا منه ما سمعت . وهم ظالمون أى حال تلبسهم بجرمة الكفر والتكذيب غير مقلعين بما ذاقوا من المقدمات الزاجرة عنه لو كانت لهم ضمائر وفيه دلالة على تماميهم في الكفر والعناد ، وتجاوزهم في ذلك كل حد معتاد . وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى كما يرشد إليه قوله سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا في حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ولا يخطر لهم خوف من عدو ولا قاق داخل على بال وكانت تجبي إليهم تمرات كل شيء . واقد جاءهم رسول منهم وأى رسول ، فأنذرهم وحذرهم فسكفروا بنعم الله تعالى وكذبوه صلى الله عليه وسلم فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » . ما أصابهم من جذب إليهم وأزمة شديدة فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعلهز وهو طعام يتخذ من الدم والوبر في دقت المجاعة وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من إغارة سراياه صلى الله عليه وسلم على مواشيهم وغيرهم وقوافلهم . وما حل بهم يوم بدر أشد وأسى .

وقال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العريم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأئل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . فهؤلاء قبائل اليمن غرهم الله تعالى نعمة ومنحهم حياة طيبة ، فلما أعرضوا عن واجب الشكر سلهم الله النعمة وأرسل عليهم سيلا جارفاً أغرق أموالهم وخرب بلادهم : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه

ثم أعرض عنها إنا من الحمرين منتقمون » - وقال تعالى : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجازوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا في الأرض . وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم وتكبروا عن طاعة الله سلط الله عليهم أقواماً ذوي قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا واتخذوا من جلودهم نعالا ومن شعارهم حبالا - وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضاً مما جرت به السنة الإلهية قضينا : أوحينا - والكتاب التوراة - وجاسوا : ترددوا لطلبهم بالفساد - خلال الديار في أوساطها للقتل والفتك بهم إلى غير ذلك من الآيات .

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه » واللام في الرجل للعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين فلا يقدر فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أكثر مالا وأحسن صحة من العلماء لأن الكلام في مسلم أراد الله أن يرفع درجته في الآخرة فيصيبه من ذنوبه في الدنيا . وبه عرف أنه لا تنافي بينه وبين خبر : « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولذا وجه بعضهم الخبر بأن الله تعالى لطائف يحدتها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته ، والانهماك في نهمته - فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زجراً له عما أقبل عليه . وتأديباً له لئلا يعود لمثله ، فعادة الله في خلقه أن العبد متى مال قلبه إلى شيء والتفت خاطره إلى شيء جعل ذلك الشيء منشأ للآفات فحينئذ ينصرف وجه القلب عن عالم الحدوث إلى عالم القدس فإن آدم عليه السلام لما تعلق قلبه بالجنة جعلها محنة عليه حتى زالت الجنة فبقى آدم مع ذكر الله تعالى - وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذ خليلاً والخلة مقام يقتضى أفراد المحبوب بالحبة فلما أخذ الولد شعبة من الوالد جاءت غيره الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمر بذيح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب

المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه
فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وتم مراد الله -
وهذا الامتحان كان في إسماعيل أول أولاده على القول الصواب عند علماء الصحابة
والتابعين ومن بعدهم - ولما استأنس يعقوب بيوسف عليهما السلام أوقع
الفراق بينهما حتى بقي يعقوب مع ذكر الحق جل وعلا . ولما طمع محمد صلى
الله عليه وسلم من أهل مكة بالنصرة والإعانة صاروا من أشد الناس عليه حتى قال :
« ما أودى نبي مثل ما أودى » ، ومشاهد أن من يتعاق بالمال أو البنين يصيبه
من آلام الحياة ومتاعها ما يذهب بلذة ما تعلق به منها . قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَلْهَمُوا أَمْوَالَكُم وَلَا أَوْلَادَكُم عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب
يصيبه . وهو معنى قولنا صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود
إليه أبدا » وعن عائشة رضى الله عنها « ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى
الشوكة يشاكها وحتى إنقطع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » والوصب
بفتح الصاد المرض والنصب بالفتح التعب والنصب بضم فسكون الشر والبلاء
والشسع بالكسر واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها . وقال بعض السلف
ليست اللعنة سواداً في الوجه ، ونقصاً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب
إلا وقعت في مثله أو شرمته - وهو كما قال - لأن اللعنة هي الطرد والابعاد .
فإذا لم يوفق للخير ويُسَّر له الشر فقد أبعاد . والحرمان عن رزق التوفيق أكبر
حرمان . وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويجره إليه ويتضاعف فيحرم العبد
عن رزقه النافع من مجالسة الناصحين أطباء القلوب . المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة
الصالحين المهذبين ؛ بل يمتن الله فيمقته الصالحون .

حكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في وسط الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً
عن الوقوع حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى ويبكى ويقول هذا مثل العبد
لا يزال يتوق الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنوب فعندها يخوض في الذنوب

خوضاً - وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر -
ولذا قال الفضيل رحمه الله : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك
أورثتك ذلك - وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى -
وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي - وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله
لا يفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه . فدقائق العقوبات على قدر
جلائل الدرجات

والحاصل أن القوم حملوا الحديث على الكملة من الرجال . والرزق على
المعنوى . والحديث في ذاته شامل للكملة وغيرهم . وصالح لإرادة الرزق بنوعيه
الحسى والمعنوى . فأهل الدنيا يعاقبون في رزق الدنيا بتعذر طرق الاكتساب
ونقص الأموال وهلاكها . وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق
لصالح الأعمال وتعذر فتوح العلوم النافعة وحسبك في هذا قول الإمام على رضى الله عنه :
لا ينزل البلاء إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة - والأخبار والآثار كثيرة في شؤم
الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس . والذل والاستعباد
وكثرة الهموم حتى تظهر السكابة على وجوه أرباب المعاصي ويحرمون بركة الرزق .
وإن جاءت أحدهم نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر عليها حتى يعاقب
على كفرانه ، بل من شؤم المذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب من بعده صفته
بطريق العدوى كما سبق . فان ابتلى خلقه بشيء كان ذلك أيضاً إيلاماً له في ذريته .
وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته . ويوفق
لشكرها ويبارك له في رزقه وفي ولده . وتكون كل بلية نزات به كفارة لذنوبه
وزيادة في درجاته ، بل قال بعضهم كل بلية اقترنت بالصبر كانت نعمة .

(الضرب الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد
الذنوب كالقتل . والزنا . وأكل الربا . ومال اليتيم . وتناول الحجر . والميسر والسرقه .
والقذف . والغيبة والنميمة . كذلك يلزم تحذير الناس من أنواع الرذائل الخلقية ،
كالجبن والشهه والكذب ونقض العهد والقدر والخيانة ، والنفاق والراء ، والغضب

والكبر ، والبخل والشح ، والجزع عند البلايا ، والحقد والحسد ، وتفغيرهم من عدم إتقان الأعمال والمصنوعات ، وعدم الاقبال عليها لما في ذلك من إمامتها وكسادها فتأخر الأمة وتفقد استقلالها وعزتها — وإجمالاً كل ما يضر بالأمة في دينها ودنياها ويُرجع في هذا إلى مثل كتاب الزواجر والترغيب والترهيب ، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . فينبغي المرشد أن يكون كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنقض . والسحنة^(١) على العلل الباطنة ويستغل بعلاجها فليستدل المرشد بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداءً بإمام المرشدين صلوات الله وسلامه عليه . والسلف الصالح من بعده فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال : « لا تغضب . فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخارى . وقال له آخر : أوصني . يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو النفي ، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع^(٢) وإياك وما يعتذر منه » رواه العسكري في الأمثال والحاكم وغيرهما وصحح إسناده . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفي الثاني مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وعدم حضور القلب في الصلاة . وكثرة الاعتذار لأخوانه فنهاه عنها وقال رجل لمحمد بن واسع البصرى رحمه الله : أوصني . فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال : وكيف لي بذلك ؟ قال إلزم الزهد في الدنيا أخرجك أبو نعيم في الحلية فكان محمد بن واسع تخيل في السائل مخايل الحرص على الدنيا فأسره بالزهد فيها — والمخايل العلامات والأمارات . وقال رجل لمعاذ بن جبل رضى الله عنه أوصني فقال كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكأنه تفرس فيه آثار القظاظ والغلظة — وكتب معاوية إلى عائشة رضى الله عنهما أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى — وذلك حين تولى الامارة . فكنتت إليه : من عائشة

(١) السحنة بفتح السين الهيشة وقد تسكن

(٢) أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه

إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس . ومن التمس سخط الله
رضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك » رواه الترمذى والحاكم . فانظر
إلى قهها كيف تعرضت للآفة التي يكون الولاية بصددها من سראعة الناس وطلب
مرضاتهم — وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاهك
الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يقنوا عنك من الله شيئاً والسلام .

فإذن على المرشد أن يصرف عنايته إلى تفرس الصفات الخفية . وذكر النصائح
اللائقة بالمقام والأشخاص ليكون اشتغاله بهمهم ، فإن ذكر جميع مواظب الشرع
مع كل واحد غير ممكن . والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه إضاعة للوقت .
ووضع الشيء في غير محله — فإن كان المرشد يتكلم في جمع لا يدرى باطن حاله
فطريقه أن يعظ بما يشترك الناس في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر
فإن في الشريعة أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله
ما روى أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري رضى الله عنه : أوصنى . قال : عليك
بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ،
وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت
إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله :
أوصنى فقال : أعز أمر الله يعزك الله . ومن وعظ ابن مسعود رضى الله عنه : مكارم
الأخلاق من عمل أهل الجنة ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وأهل المعروف
في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . ومعنى قوله : وأهل المعروف في الدنيا الخ أن
أصحاب المعروف في الدنيا يأتون يوم القيامة فيغفر لهم بمعرفتهم وتبقى حسناتهم حية ،
فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له ويدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان
إلى الناس في الدنيا والآخرة — وقال ابن عباس رضى الله عنهما صاحب المعروف
لا يقع وإن وقع وجد متكا — وقال لقمان لابنه : يا بني لا تركز إلى الدنيا ولا
تشغل قلبك بها فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، يا بني

لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عمالا بعينك ، ولا
تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بني
من يرحم يرحم . ومن يصمت يسلّم . ومن يقل الخير ينعم ومن يقل الشر يأتّم ، ومن
لا يملك لسانه يندم . وقال أيضاً لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتك . وأنصت إليهم
بأذنيك . فإن القلب يحيا بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء . ولا
تجادلم فيمقتوك . وخذ من الدنيا بلاغك . وأنفق فضول كسبك لآخرتك . ولا
ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً . وعلى أعناق الرجال كلال . ولا تجالس
السفيه ولا تخالط ذا الوجهين — عال الرجل افتقر فهو عائل والجمع عالة ، والعيلة
القدر وعيال الرجل من يعولهم وواحد العيال عيّل كجيد ، وكلا حملا وثقلا عليهم ،
فهو مرادف لعيال — وقال رجل لأبي حازم ^(١) أوصني فقال : كل ما لو جاءك
الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه
— وروى البيهقي في الشعب قال : أراد موسى أن يفارق الخضر فقال له موسى :
أوصني . قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً وكن بشاشاً ولا تكن غضاباً وارجع
عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تعبر امرأً بخطيئته . وابك على خطيئتك
يا ابن عمران — وكتب الحسن البصري رحمه الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه
الله : أما بعد فخف مما خوفك الله . واحذر مما حذرك الله . وخذ مما في يديك لما
بين يديك . فعند الموت يأتيك الخير اليقين والسلام — وكتب عمر إليه يسأله أن
يعظه فكتب إليه : أما بعد فإن الهول الأعظم والأمر المفظعات أمامك
ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه
ريح ، ومن غفل عنها خسر ومن نظر إلى العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ضل ،
ومن حلم غمّ ومن خاف أمن ، فإذا زلت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع . وإذا
جهلت فاسأل . وإذا غضبت فأمسك والسلام — فظع الأمر كظرف فظاعة فهو
فظيع شديد شنيع جاوز الحد في التبعج — وكذا أفضع الأمر إفضاعاً فهو مفضع —

(١) هو سلمة بن دينار المدني النابغ المصير بالأعرج كل كلامه حكم وعظة .

وأفزع الشيء واستفطعه وحده فظيماً ، وكتب مطرف^(١) بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله ، أما بعد : فأن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يفتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز ، إلى عدى ابن أرطاة الغزاري^(٢) رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله ، أما أولياؤه فعمتهم ، وأما أعداؤه ففرتهم — وكتب أيضاً إلى بعض عماله ، أما بعد : فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذا كر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، وأعلم أن الله أخذ للظالمين من الظالمين . والسلام — رواه أبو نعيم في الحلية .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ الناس وإرشاد من لا يدري خصوص حاله — فهذه المواعظ مثل الأغذية يشترك الكافة في الانتفاع بها ، متى كانت من ناصح أمين ، مهذب حكيم — قال عامر بن عبد القيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان ، وبالله تعالى التوفيق .

الفصل السادس عشر

أن يحذر الناس من المعاصي بالخوف من الله تعالى فيبين لهم الخوف ، وما ورد في فضله ويتلو عليهم كثيراً مما يورث الخوف ، ويذكر لهم أحوال الأنبياء والملائكة والصحابة والتابعين والسلف الصالح فيه .

فالخوف تألم القلب وانزعاجه لتوقع مكروهه في الاستقبال ، وينتظم من علم

(١) من أقران الحسن البصري .

(٢) كان عاملاً له على البصرة ونقل سنة اثنتين ومائة . روى له البخاري في الأدب المفرد .

وحال وعمل - فالأول هو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوز العفو والافلات ، ويكون خوفه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله من تفاحش الجناية ، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً ومنقماً ، وكونه مخفوناً بمن يحته على الانتقام ، وكان هذا الخائف لاشقيع له عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فقوة خوفه وشدته على قدر العلم بقوة هذه الأسباب ، وضعفه بضعفها . وقد يكون الخوف لاعتبارة جناية بل عن صفة المخوف ، كالذي وقع في مخالب السبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالباً وإن كان اقتراسه بالاختيار ، كذلك الخوف من الله عز وجل تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، وأنه لو أهلك العين لم يبالي ولم يمنعه مانع ، وكل من يفعل ما يريد من غير مبالاة يجب الخوف منه - وذلك لخوف الملائكة قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فإنه خوف الإجلال .

وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً - وعلى قدر معرفته بعيوب نفسه وعلمه بجلال الله تعالى واستغنائاه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وهم العارفون بانفسهم وربههم - والخشية أشد الخوف وقيل خوف يشوبه تعظيم الخوف منه وفي الصحيحين من حديث عائشة رضيت الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . ثم إذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف وانزعاج القلب ، ثم يفيض أثر ذلك من القلب على الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط منه واستعداداً للمستقبل - ولذا قيل : ليس الخائف من يسكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه - وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

وأما فضل الخوف فاعلم أن ما ورد فيه خارج عن الإحصاء . وناهيك دلالة على فضله أن الله تعالى جمع للخائفين بين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال تعالى « ولما مكثت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وإنما حصر الخشية في العلماء لأنها إنما تكون عن علم ما يخشى منه ، والعلماء هم الذين علموا قدره وسلطانه وشدة تنزيهه وبطشه وأنه الذي يفعل ما يريد من غير مبالاة « ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وقال عز وجل « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » فخص الرضوان بأهل الخشية — وقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » أمر بالخوف منه وأوجبه ، وجعل الإيمان منشأه وعلته ، فلذا لا يتصور أن يفتك .ؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعفه بضعف معرفته وإيمانه . وقال تعالى « سيذكر من يخشى » — وأخرج ابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياهم كما يتحاتتُ عن الشجرة اليابسة ورقها » . وروى ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه « قال الله سبحانه وتعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنتته يوم القيامة » وآمنتته بالمد جعلت له الأمان — وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضل العلم دال على فضل الخوف لأنه ثمرة العلم بالله تعالى .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله . أى لأنها تمنع النفس عن الخالفات — ورأس الحكمة أصابها وأسمها ، والحكمة هنا نور يقذفه الله فى قلب المؤمن التقى يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطأ . وقال أبو سليمان الداراني : كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : من خاف دله الخوف على كل خير . أى أرشده إلى ما فيه كل خير فى الأولى والآخرة إما ظاهراً وإما باطناً . وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : مسكين ابن آدم

لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . أى لأن خوفه منه يحمله على الشج بما معه على نفسه وعياله ، والإخلال بواجب المال . فلو خاف النار كما يخاف الفقر لهرب من أسبابها إلى أسباب الجنة - وقيل له : من آمن الخلق غدا ؟ فقال أشد خوفاً اليوم - وقيل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير - أى تزول عن مواضعها من شدة الخوف - فقال والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف « وفيه استحضان لتغليب جانب الخوف على جانب الرجاء - وعلى الجملة فالتشديدات الواردة في الأيمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر . وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده ، بل كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية . فإن البكاء ثمرتها ، قال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله » . وذكر منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . متفق عليه - وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ النار أحد بكى من خشية الله حتى يمود اللبن في الصرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخرى مسلم أبداً » رواه الترمذى وقال حسن صحيح - وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي تقرب العبد إلى الله تعالى .

وأما ما يورث الخوف - فقد عرفت أن الخوف من الله تعالى على مقامين الخوف منه والخوف من عذابه . والأول خوف العلماء وأرباب القلوب السليمة والبصائر النافذة العارفين من صفاته تعالى ما يوجب الهيبة والحذر المطلعين على سر قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » وقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » .

والثانى خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما دارى جزاء على الطاعة والمعصية . وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان . وتزول تلك نلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة . وبالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ، فإن فانت المشاهدة

فالسماح لا يتخلو عن تأخير . ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ،
وغلب أمن المكر على الظلمة الأطمعيا ، والفراعنة الأغبياء . والجهلة والعوام والرعاع
والطغام ، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار
العذاب ولا بمد الحجاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » فهذا
رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفا
ففي الحديث الصحيح : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفي صحيح البخارى
عن أم العلاء امرأة من الأنصار « أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة
قالت : فطار لنا - أى وقع - فى سهمنا عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم
ومتعبديهم . ومن شهد بداراً فاشتكى فرضناه حتى إذا توفى وجعلناه فى ثيابه دخل
علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى
عليك لقد أكرمك الله تعالى . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك
أن الله أكرمك ؟ فقلت لا أدرى بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى
عليه وسلم : أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إنى لأرجوه الخير » . أى فالإنكار
عليها من حيث جزمها بتلك الشهادة من غير مستند قطعى ، فكان اللائق بها أن
تبرزها فى حيز الرجاء لا الجزم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال صلى الله
عليه وسلم : « ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعلُ بى . قالت فوالله لا أزكى أحداً
بعده » . أى على جهة الجزم بل على جهة الرجاء وحسن الظن بالله تعالى : « قالت
وأحزنتنى ذلك فمنت فرأيت لعثمان عيناً تجرى فحُت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال ذلك عمله » - ولما توفى عثمان هذا قبيل صلى الله عليه وسلم خده وبكى حتى
سالت دموعه الكريمة على خد عثمان وبكى القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
« اذهب عنها - أى الدنيا - أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس بشئ » .
وسماه صلى الله عليه وسلم السلف الصالح . وهو أول من قبر بالبيع رضى الله عنه -
فأمل زجره صلى الله عليه وسلم عن الجزم بالشهادة على الله فى عثمان هذا مع كونه
شهد بداراً وقوله « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرتُ لكم^(١) » وكونه قبله وبكى ، ووصفه له بأعظم الأوصاف وأفضلها وهو أنه لم يتلبس من الدنيا بشيء ، وبأنه السلف الصالح ، تعلم أنه ينبغي للعبد وإن عمل من الطاعات ما عمل أن يكون على حيز الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء . « فل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً » .

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « شيبتي هود وأخواتها الحاققة ، والواقعة . وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت والغاشية » روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتماهن مع قصرهن على ذكر أحوال الآخرة ومحائثها وفضائلها ، وأحوال المهلكين والمعذبين ، مع ما اشتملت عليه هود من الأسر بالاستقامة كما أمر . وهو من أصعب المقامات الذي لا يتأهل إلا هو صلى الله عليه وسلم وهو كقيام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يناسب كل جارحة من جوارحه تلي الوجه الأكل . ولذا لما قيل له صلى الله عليه وسلم عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه : أتعمل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » والقرآن كله مخاوف لمن تدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى : « وإني لفجار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . لكان كافياً ، إذ شرط للمبالغة في مغفرته أموراً أربعة يعجز العبد عن آحادها . التوبة والإيمان الكامل المراد في نحو قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه من حديث أنس . والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله وشهوده

(١) قال ذلك لعمر رضى الله عنه لما قال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . وهي قطعة من حديث الصحيحين وفيه قصة الظلمة التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعنة إلى مشركي مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإدامة الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى بقلبه وحاله ودعائه وإخلاصه —
وأشد منه قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فما سي أن يكون من المفلحين »
فقد نهبك الله تعالى إلى أنك إذا تبت توبة نصوحاً وآمنت إيماناً كاملاً ، وعملت
عملاً صالحاً كنت على رجاء أن تعد من زمرة الفائزين — ولا تغتر بما قيل إن عسى
من الله واجبة الوقوع فإنه أكثرى لا كفى . قال تعالى « فقولا له قولاً لنا لعله
يتذكر أو يخشى » وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش تذكراً وخشية نافعين —
فياك وأن تأمن مكر الله وإن وصلت إلى ما وصلت فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم
الخاسرون — واستحضر قول الله تعالى « ليسأل الصادقين عن صدقهم » . وقوله
تعالى « فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين . فانقصن عليهم بعلم وما كنا
غائبين » وقوله « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين
اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » أى ما من أحد إلا داخل النار كان ذلك أمراً محتوماً
أوجبه الله عز وجل على نفسه وقضى أنه لا بد من وقوعه ألبتة ، ثم يخرج منها الذين
اتقوا الكفر والمعاصي ويترك فيها الكفار والمعصاة جثياً ، ومنها را بهم كما كانوا
عند إحضارهم حول جهنم — وقوله تعالى « يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفداً
ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » أى نجمهم إلى ربهم الذى يغفرهم برحمته الواسعة
وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لإكرامهم وإتمامهم ونسوق المجرمين
كما تساق البهائم إلى جهنم عطاشاً فإن من يرد الماء لا يرد إلا لعطش — وقوله
تعالى « سنفزع لكم أيها الثقلان » فإنه غاية فى الوعيد مستعار من قول الرجل لمن
يتهدده سأفزع لك أى سأنجرد للإيقاع بك من كل ما يشغنى عنه والمراد التوفر
على النكابة فيه والانتقام منه — وقوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » يكفيه فى الاهتمام به ويشغله
عن غيره — وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ،
يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فخوف عذاب الله هو الذى

أذهب عقولهم وطير تمييزهم وصيرهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتميزه ، ولا نجاة من تلك الأفراع والأهوال إلا بالتقوى كما أمر الله عز وجل . وقوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فنن الله علينا ووقانا عذاب السموم » فأخبر تعالى أنه يسأل بعضهم عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله تعالى ، فيقول الموفقون : إنا كنا في الدنيا في أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله فمن الله علينا بالمغفرة والرحمة ووقانا نار جهنم . والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام - سميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة - وقوله تعالى « والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فانظر بعين بصيرتك ونور سريرتك إلى أنه تعالى قد حكم على كل إنسان^(١) بأنه خاسر إلا من جمع أموراً أربعة فإنه ينجو من الخسران المؤدى إلى الهلاك - الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق بأن يقبلس بما دل عليه الكتاب والسنة من الأخلاق ، والآداب ، والأحكام ، والشروط في سائر الأقوال والأفعال ، والأحوال الظاهرة والباطنة فلا يأتي شيئاً منها إلا وقد أخلص فيه وابتغى به وجه الله وحده . والتواصي بالصبر بأن يصبروا على الطاعات ، وعلى ما يلقونه من المكروه والبليات ، وعن المعاصي وما لها من الشهوات واللذات . فن تحقق بهذه الشروط الأربعة كما ذكرنا كان على رجاء عظيم من السلامة من الخسار والبوار والعار والشنار بالفتح العيب والعار .

وفي الصحيحين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقرين » فقال : يا معشر قريش اشترؤا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبدمناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمه رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سليمانى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً : عشيرة الرجل رهطه الأدنون : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « يا رسول الله والذين

(١) إذ : أل فيه للسموم والاستفراق بدليل الاستثناء.

يأتون « هكذا قراءة عائشة رضی الله عنها » ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون « يارسول الله هو الذي يزنني ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال لا يا بنت أبي بكر - أو يا بنت الصديق - ولكنه الرجل يصلي ويصوم ، ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » . رواه الإمام أحمد والترمذي والبيهقي وغيرهم . وفيه دلائل على أن الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لكونه لا يعلم قبول عمله خلفاء ما يطرأ على الأعمال من الآفات - وعن عدی بن حاتم رضی الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » متفق عليه - وعن أبي هريرة رضی الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن عمله فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذي وقال حسن صحيح - وعن أبي هريرة رضی الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يومئذ تحدث أخبارها » ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وكان ابن السكك يعاتب نفسه ويقول لها : تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطالبين أن تدخلها . هيهات هيهات . للجنة قوم آخرون ، ولهم أعمال غير ما نحن عاملون - وقال بعض السلف : لو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحداً خشيت أن أكون ذلك الرجل - وكان سهل التستري رحمه الله يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : « وقلوبهم وجلة » ، ولما احتضر سفيان الثوري رحمه الله جعل يبكي ويجزع ، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم

من ذنوبك . فقال أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . ومعناه أن المال الجنة إذا تحقق موته على التوحيد — فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدمها مثل الابتداع في الدين ، والزنا والربا وأكل مال اليتيم والكبير ، والتفاح ، والحقد والحسد وجملة من المعاصي والصفات المذمومة . وإنما كان الابتداع في الدين سبباً في سوء الخاتمة لأن المبتدع مرتكب إثماً وعاص لله تعالى — ولا نقول الآن هو عاص بالكبائر أو بالصغائر بل نقول هو مصر على ما نهى الله عنه ، والإصرار يعظم الصغيرة — إن كانت صغيرة — حتى تصير كبيرة ، وإن كانت كبيرة فأعظم . ومن مات مصراً على المعصية يخاف عليه ، وربما إذا انكشف الغطاء وعابن علامات الآخرة استفزه الشيطان وغلبه على قلبه حتى يموت على التغيير والتبديل . وخصوصاً حين كان مطيعاً له فيما مضى من زمانه مع حب الدنيا المستولى على قلبه — قال عبد الحق الأشبيلي رحمه الله : إن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سُمع بهذا قط ولا علم به والحمد لله — وإنما يكون لمن كان عنده فساد في العقل ، أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم أو لمن كان مستقيماً ثم تغيرت حاله أو خرج عن سننه وأخذ في طريق غير طريقه فيكون عمله ذلك سبباً لسوء خاتمته وسوء عاقبته والعياذ بالله قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وجملة القول أن المبتدع مع كونه مصراً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه معارض للشريعة بعقله غير مسلم لها في تحصيل أمره معتقداً في المعصية أنها طاعة حيث حسن ما قبحه الشارع وفي الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره فهو قد قبح ما حسنه الشارع ، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة إلا من رحم الله . وقد قال تعالى في جملة من ذم : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ، والمكر جلب السوء من حيث لا يظنون له فمكر الله تعالى استدراجاً

العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ، ولا يأمن مكره تعالى إلا الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها والاستعداد القريب ، المستفاد من النظر في الآيات - وسوء الخاتمة من مكر الله إذ يأتي الإنسان من حيث لا يشعر به نسأله تعالى العفو والعافية^(١) . - ولذا اشتد خوف الصحابة من النفاق وقد فسره الصحابة والتابعون بما لا يخلو عن شيء منه إلا صديق . قال رجل لابن عمر رضى الله عنه : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه البخارى . وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج^(٢) . فالمراد النفاق العملى لا الاعتقادى - فإن النفاق العملى هو ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً ومراعاتها علناً ، نسأل الله تعالى السلامة .

الفصل السابع عشر

سوء الخاتمة

هو نوعان : الأول وهو أخطر النوعين وأسوأهما عاقبة - أن يظلم الجحود على القلب عند سكرات الموت فتفيض الروح في حال غلبة الجحود فيكون ذلك حجاً بين العبد وبين الله تعالى أبداً وذلك يوجب البعد الدائم والعذاب الخالد - وسبب الجحود ضعف الإيمان في الأصل . ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومتى ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوى حب الدنيا ، حتى لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، ولا أثر له في كفها عن السيئات - وذلك يورث الانهماك في اتباع الشهوات حتى يُظلم القلب ، وتتراكم عليه ظلمات

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتاب الأبداع في مضار الابتداع الطبعة الرابعة .

(٢) أى الدخول في الأمر والخروج منه على وجه مخالفه .

الذنوب فلا تزال تطفى . ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى تصير طبعاً وربنا -
فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفاً لشعوره بفراق الدنيا ، وهي المحبوب
الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعاره فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج
ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهته من حيث أنه من الله تعالى فيخشى
أن يشور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب - كما أن الذي يحب ولده حياً ضعيفاً
إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب
الضعيف بغضا . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة
فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً .

والذي يُفضى إلى مثل هذه الخاتمة غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح
بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى - أما من كان حب
الله تعالى أغلب على قلبه من حب المال فهو أبعد عن هذا الخطر - فحب الدنيا
رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق لقلة المعرفة بالله
تعالى إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، ولهذا قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
والله لا يهدي القوم الفاسقين » . أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم
أولى من طاعة الله ورسوله ، ومن المجاهدة لإعلاء كلمة الله فانتظروا بما تحبون حتى
يأتى الله بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذا وعيد شديد ، وتهديد شنيع للمتهمين ، في
طلب الدنيا .

فإذن كل من فارقت روحه في حالة الانكار على الله تعالى ، وظهر بغض فعل
الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله ، وماله ، وسائر محابه الدنيوية كان موته قدوماً
على ما أبغضه ، وفراقاً لما أحبه . ^(١) قِيَدَمَ على الله قدوم العبد المبغض الأبق إذا

(١) قدم من سفره قدوماً ومقدماً بالفتح من باب تعب - وقدم يقدم كنعصر ينصر قدماً
كقفل بمعنى تقدم قال تعالى يقدم قومه يوم القيامة - وأقدم على الأمر إذا ما فعله بشعاعة .

قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال ، وأنواع الاهانة — وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد الحسن المطيع المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ، ووعثاء الأسفار طمعاً فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الاكرام ، وبدائع الأنعام — قال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم رحمه الله : يا أبا حازم ما لنا نيكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخرتيم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب — قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالثائب يأتى أهله فرحاً ، وأما المسىء فكالعبد الأبقى يأتى مولاه خائفاً محزوناً .

الثانى وهو ما دون الأول أن يغلب على القلب عند الموت حب شهوة من شهوات الدنيا فيتمثل ذلك فى القلب ويستغرقه ، حتى لا يبقى فيه متسع لغيره فيكون استغراق قلبه به صارفاً وجهه إلى الدنيا ، ومتى انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومتى حصل الحجاب نزل العذاب — فإن اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطير لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، كما أنه يبعث على ما مات عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب تضاد الصفة التى غلبت عليه ، فإن ذلك بالأعمال ، وقد انقطعت بالموت ولا أمل فى الرجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، ويشتد الندم حيث لا ينفع ، إلا أن أصل الإيمان إذا كان قد رسخ فى القلب بصالح الأعمال فإنه ينجيه من الخلود فى النار ويخرجه منها القليل منه كما فى الخبر « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . رواه البخارى .

ولهذا النوع سببان : أحدهما كثرة المعاصى والآثر ضعف الإيمان — وذلك أن مقارفة المعاصى من غلبة الشهوات ، ورسوخها فى القلب بكثرة الألف والعادة وكل ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله إلى

الطاعات أكثر كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى ، وإن كان إلى المعاصي أكثر غلب ذكرها على قلبه عند الموت — فربما تفيض روحه عند غلبة معصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى لا شغاله بما تقيد به — فالذي غلبت طاعاته على معاصيه بعيد عن هذا الخطر — والذي غلبت عليه المعاصي وكان قلبه بها أفرح منه بالطاعات خطره عظيم جداً — وأما الذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو أبعد عن هذا الخطر . ويعرف هذا بمثال : هو أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره ، ولا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة — فالمرهق الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع — والفقيه الذي قضى عمره في درس المسائل يرى من أحوال العلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة — والتاجر يرى من أحوال التجارة أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الألف — وسكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيحضره عند ذلك جملة من الأحوال التي عهدها في طول حياته ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكر الشيء في القلب طول الألف فطول الألف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح — ولذلك تخالف منامات الصالحين منامات الفاسقين . فتكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة وتميل إليها نفسه فربما تفيض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته — وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها .

ومن أراد السلامة من ذلك فلا سبيل له إلا المجاهدة طول العمر في نظام نفسه عن الشهوات محافظة على القلب منها ، ويكون طول المواظبة على الخير ، وتخليه الفكر عن الشر عُدّة وذخيرة لحالة سكرات الموت وشدائده ، فإن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه — ولذا نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة ، فكان مشغولاً بالحساب الذي طال إلفه له فغلب على لسانه ولم يوفق للشهادتين .

وبهذا عرفت أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم تسلّم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح - ومن أجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، إذ ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء ، واستيلائه على القلب وهو لا يخلو عن أمثاله - وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج عنه حب الدنيا والأهل والمال ، والولد وجميع الشهوات . إذ لا يَهْتَجُم على صف القتال موطناً نفسه على الموت ، وبائعاً دنياه بأخرته ، وراضياً بالبيع الذي يباعه الله به إلا حباً لله وطلباً لمرضاته ، وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها من خاطر السوء الذي قال فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبق بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة^(١) ، فيختم له بما سبق به الكتاب » ، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاء بل هي الخواطر المتقدمة ، فاشتغل بالاستعداد لها - فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحفظ من المعاصي جوارحك ، ومن الفكر فيها قلبك ، واحترز من مشاهدة المعاصي وأهلها جهلك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ، وبصرف إليه فسكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفسك خاتمتك إذ يجوز أن تخطف فيه روحك - هذا ما دمت في اليقظة ، فإذا أردت النوم فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يظلمك إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ليس على لسانك فحسب ، فإن حركة اللسان وحده ضعيفة الأثر وبالله تعالى التوفيق .

(١) الفواق بضم الفاء وفتحها ما بين الجلبتين من الوقت لأنها تحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب .

الفصل الثامن عشر

أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف

لاريب أن عقل الأنبياء وعلمهم ومكاتهم عند الله تعالى وكذا الملائكة لم يكن دون عقلك ، وعلمك ، ومكانتك . وقد اشتد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على القرآن قلتُ يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية — فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً — قال حسبك الآن فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان » — أحب صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن من غيره ليكون عرض القرآن سنة أو ليتدبره ويفهمه فإن المستمع أقوى على التدبر ، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها — وقراءته صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب رضى الله عنه كانت ليعلمه كيف أداء القراءة ومخارج الحروف . وبكاؤه صلى الله عليه وسلم على المفرطين أو لعظم ما تضمنته الآية من هول المطلع وشدة الأمر — ذرفت العين ذرفاً من باب ضرب دامت . وذرف الدمع سال وذرفت العين الدمع — وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله » — متفق عليه — وروى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن عبد الله بن الشيخير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » — أى فوران وغليان كغليان المدر على النار يسمع صوته ، والأزيز صوت غليان القدر . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه »

رواه ابن أبي الدنيا . وروى الإمام أحمد رحمه الله أن داود عليه السلام مارفح رأسه إلى السماء بعد هفوته حياء من الله عز وجل ، وسببها أن الخصم لما تسوروا الحراب ودخلوا عليه من طريق غير مألوف غلب على ظنه عليه السلام أنهم يريدون قتله فهم بالانتقام لنفسه منهم ثم تبين له عذرهم فهدأ رَوْعه وسكن غضبه ، ومال إلى الصفع والتجاوز عنهم ، طلباً لمرضاة الله تعالى - وكانت هذه الواقعة هي الفتنة ، لأنها جرت مجرى الابتلاء والامتحان - ثم إنه عليه السلام طلب من ربه أن يفر له ما هم به من الانتقام منهم وتاب من ذلك الهم وأتاب فغفر له هذا القدر من الهم والعزم - هذا أقرب ما قيل في بيان فتنة داود عليه السلام . وما عداه فهو إما بعيد الوقوع أو محال صدوره منه لإخلاله بمقام النبوة . وقال المسيح عليه السلام : معاشرَ الحواريين ، خشية الله ، وحبُّ الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان عن الدنيا . بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل - رواه أبو نعيم وغيره وعن أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « سأل جبريل عليه السلام ما لي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ فقال جبريل : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد - وروى ابن أبي الدنيا أن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيمذهبهم بها - فهذا شيء من أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته وقس نفسك وتأمل في القصور عن لحوق درجاتهم عليهم الصلاة والسلام .

أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في شدة الخوف

عرفت أن أعظم حامل على خوف الله تعالى وخشية سطوته هو العلم ، ومن ثم غلب الخوف على علماء الصحابة ومن بعدهم حتى كان بعضهم يضعف وبعضهم يدهش^(١) وبعضهم يسقط مغشياً عليه قال الله تعالى « إن الذين أوتوا العلم من

(١) دهش الرجل يدهش وبابه طرب .

قبله إذا يتلى عليهم يجرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويجرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً « فهؤلاء علماء أهل الكتاب حين سمعوا القرآن استولى عليهم خوف الله تعالى فسقطوا على الأرض ساجدين من شدة الوله والخشية - ومن شدة الخوف قال أبو بكر رضى الله عنه : ليتنى كنت شعرة في صدر مؤمن ، وقال يوماً لطائر : ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه قيل له في الصلاة : قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء . فقال مروه فليصل - وفي رواية عنها قالت قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء . متفق عليه . فكان رضى الله عنه رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن كما في البخاري :

وقال عمر رضى الله عنه عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر له ، وروى أنه رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فكان يعاد أياماً ، وأخذ يوماً تيناً من الأرض فقال : يا ليتنى كنت هذه التينة ليتنى لم أخلق ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ليتنى كنت نسياً منسياً ليت أمى لم تلدنى - وقال له ابن عباس رضى الله عنهما : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل بك وفعل ؟ قال : وددت أن أنجو لا على ولا لى ، وفي رواية لا أجر ولا وزر ، وكان فى وجهه رضى الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا القيامة لكان غير ماترون - رواه صاحب الحلية - ولما قرأ رضى الله عنه سورة التكوير وانتهى إلى قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » خر مغشياً عليه . ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى « إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع » نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زماناً ، ورجع إلى منزله ففرض شهراً يعود الناس ، ولا يدرون ما مرضه ولا يستبعد أن يتفق العشي والإغماء بل

الموت لمن سمع الموعظة بحق فضعف عن مقاومة الرقة وشدة التأثير الحاصل بسببها .
فقد روى عن ابن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع
ابن خزيمة فررنا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار فنظر الربيع إليها
فتمايل ليستقط - ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون
فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية « إذا رأيتم من مكان بعيد
سمعوا لها نغيظاً وزفيراً وإذا أنفوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً »
فصعق الربيع أى غشى عليه فاحتملناه فأتينا به أهله قال : وربطه عبد الله إلى الظهر
فلم يفق فربطه إلى المغرب فأفاق ورجع عبد الله إلى أهله - فهذه حالات طرأت
لواحد من أفاضل التابعين بمحضر صحابي جليل ولم ينكر عليه لعله أن ذلك خارج
عن طاقته فصار بتلك الموعظة الحسنة كالمغمي عليه - تغيظاً غليظاً كالغضب إذا
غلا صدره من الغضب . زفيراً صوتاً شديداً . مقرنين مصمدين قد قرنت أى جمعت
أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال - ثبوراً هلاكاً وقال عثمان رضى الله عنه وددتُ
أنى إذا مت لم أبعث - وقال ابن عمر رضى الله عنهما في قوله تعالى « أمن هو
قانت آناه الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » هو عثمان بن عفان
رضى الله عنه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه ليتنى إذا مت لم أبعث - ولم يرد به حقيقة
التمنى ، بل أظهر أن له قبائح يخاف من المواخذة بها بعد البعث . ونظيره ما وقع لأسامة
حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه حيث قتل من نطق بالشهادتين ظاناً
أنه إنما نطق بهما انتقاء لا حقيقة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاتبه وكرر
عليه : هلا شقت عن قلبه ؟ قال أسامة حتى تميت أنى لم أكن أسلمت يومئذ -
فإنه لم يتمن الكفر ولا تأخير إسلامه حقيقة إلى بعد هذه الواقعة وإنما تمنى سبق
هذه الفعلة منه لإسلامه حتى يكفرها بالإسلام - ففي الصحيحين من حديث أسامة
ابن زيد رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من
جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشينا

قال : لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى فطمعته برمحي حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال قلت يا رسول الله إنما كان متموداً . قال أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » .
وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح . قال : أفلا شقتك عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ » الحرقه بضم الحاء وفتح الراء بطين من جهينة القبيلة المعروفة . متموداً معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها .

ونقول إن أسامة قد اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفاً من السيف ، فلما عتب عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا رسول الله أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد عنته كآبة وهو يقبل يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال رُكب المغزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهممت أعينهم بالدموع حتى تبك نياهم ، والله كأنى بالقوم باتوا غافلين — ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم — همت عينه : فاضت ، وبابه نصر — وبه : نداء ، وبابه رد — وقال معاوية رضى الله عنه لضرار بن ضمرة الضدائى : صف لى علياً . قال : ألا تعفينى . قال : بل صفه ، قال : ألا تعفينى . قال : لا أعفئك . قال أما أنه لا بد « فإنه كان بعيد المدى » واسع العالوم والمعارف لا تدرك غايته فيها « شديد القوى » فى ذات الله ونصرة دينه « يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقرب كفه » تأسفاً وحزناً إذ هذا فعل المتأسف

الحزين « ويخاطب نفسه » بالمزججات والمقلقات « يعجبه من اللباس ما خشن »
 من باب سهل « ومن الطعام ما حضر ، كان والله كأخذنا يميننا إذا سألناه ، ويأتينا
 إذا دعواناه ، ونحن والله مع تقربه لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبه له فإن تبسم فمن
 مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، ولا يطمع القوي في
 باطله ، ولا يياس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لرأيتيه في بعض موافقه وقد
 أرخى الليل ستوره ، وغارت نجومه وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتمل
 تملل السليم « أى اللديغ سمي به تفاؤلاً » ويبكى بكاء الحزين وكأني سمعته يقول
 ياربنا ياربنا بضرع إليه ثم يقول يا دنيا يا دنيا الى تعرضت ؟ أم بي تشوقت ؟
 هيئات هيئات غرسي غيرى ، قد بتتلك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ،
 وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ،
 فذرفت عين معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكه وقد اختنق القوم بالبكاء .
 قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟
 قال : حزن من ذبح واحداً في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها » — رقا
 الدمع والدم سكن وبابه قطع — والعبرة بالفتح تحلب الدمع .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد . وكذا قال طلحة
 ابن عبيد الله رضى الله عنه أحد العشرة — وقال عمران بن حصين رضى الله عنه :
 وددت أن أكون رماداً تنسفى الرياح في يوم عاصف — وكان على بن الحسين
 رضى الله عنه إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟
 فيقول : أندرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟ — وسئل ابن عباس رضى الله عنهما
 عن الخائفين فقال : قلوبهم مانخوف قرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت
 من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقتنا ، وبين يدي الله موقفنا .
 وهذا منه رضى الله عنه بيان عن الخائفين بحسب حاله .

وسر الحسن البصرى رحمه الله بشاب وهو مستفرق في ضحكك جالس مع قوم
 فقال له الحسن : يا فتى هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة

تصير أم إلى النار؟ قال لا . قال فما هذا الضحك؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا . وروى عن ميسرة بن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أمي لم تلدني . فقالت له أمه حين سمعت منه ذلك مرارا : يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أننا واردوا النار ، ولم يبين لنا أننا صادرون عنها — أى ولا جزم عنده بأنه من المتقين الناجين فلذا اشتد خوفه منها — وكان عطاء السليمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو — وقيل له في مرضه : ألا تشتهي شيئاً؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة — ويقال إنه مارفح رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة — وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء قال . هذا من أجلى يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس — وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب؟ فقال يا بني ليست النائحة التكلية كالنائحة المستأجرة . رواه أبو نعيم في الحلية — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال بخير . قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتملق كل إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون؟ . قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حالى أشد من حالهم — نقله في القوت .

فهذا شيء من مخاوف الخلق والأولياء والعلماء والشهداء والصلحين رضى الله عنهم أجمعين — ونحن أجدر منهم بالخوف — ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة . وإلا فليس أمننا لقله ذنوبنا وكثرة طاعتنا . بل قادتنا شهوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فعميت بصائرنا فلا قرب الرحيل ينهبنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزججنا ، ولا وعظ الواعظين يؤثر فينا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا ويصلحنا إن كان تحريك اللسان

بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا — سئل سعيد بن جبیر رضى الله عنه عن الخشية فقال : هي أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معاصيه . فهذه هي خشيتك . وأما الغرة بالله فهي أن يتأدى الإنسان في المعصية ويتمنى على الله المغفرة — وكيف يفتر المعاصي ويطمع في النجاة وهي ليست إلا للعشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة — ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم ليتنى كنت شعرة في صدر مؤمن — وهذا عمر أفضل الناس بعد أبي بكر رضى الله عنهما وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ومع ذلك سأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بالمنافقين والفتن ، فقال له : يا حذيفة هل أنا من المنافقين ؟ فقال : لا والله لست منهم يا أمير المؤمنين — فخاف عمر رضى الله عنه أن تكون نفسه قد لبست عليه حاله وسترت عنه عيوبه وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروطاً بشروط لم تحصل منه فلم يفتر به وعلى الجلة فليس يراد بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل — وإنما يراد خوف يسكن القلب حتى يمنع صاحبه عن المعاصي ويجعله على ملازمة الطاعة فهذا هو الخوف الفافع — لا خوف الحقى الذين إذا سمعوا ما يوجب الخوف لم يزيدوا على أن يقولوا : رب سلم نعوذ بالله ، وهم مع ذلك مصرون على القباح — والشيطان يسخر بهم كما تسخر أنت بمن رأيتَه وقد قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن منيع بابه مفتوح له فلم يفرغ إليه . وإنما اقتصر على رب سلم حتى جاءه السبع فأكله .

الفصل التاسع عشر

الحث على المسارعة إلى صالح العمل والتحذير من التأخير
لا شك أن من له إخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما في غد والآخر بعد سنة يستعد للأول دون الثانى — فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار ، وعدمه نتيجة بعده — فمن انتظر الموت بعد سنة اشتغل بطول المدة ونسى ما ورائها ولم يفكر أن كل يوم يمضى نقص منها — وذلك يمنعه من المبادرة إلى العمل فإنه أبدأ يرى لنفسه

متسماً من الوقت فيؤخر العمل — وقد قال الله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » من المسابقة بمعنى المبادرة والسارعة أى بادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم وتزودوا في دنياكم لأخراكم فإن الله تعالى قد بين لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط . وقال تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » أى بادروا إلى ما يؤدى إليهما من أداء الواجبات وترك المنهيات — وتخصيص المرض بالذكر للمباينة في وصفها بالسعة إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى على طريق التمثيل . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا قرأاً منسياً » شاعلاً عن أمور الآخرة « أو غنى مطعياً . أو مرضاً مفسداً » لحاله « أو هرماً » الهرم بالفتح كبير السن وقد هرم من باب طرب « مُفنداً » مورثاً للفند محركا وهو ضعف الرأى والخطأ فيه « أو موتاً مجهزاً » سريماً « أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » الداهية الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه — والقيامة في أقصى غاية من الفظاعة والمرارة . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس . حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك . وفراغك » في هذه الدار « قبل شملك » بأحوال القيامة « وشبابك قبل هرمك . وغناك قبل فقرك » وهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها — رواه البيهقى والحاكم بإسناد حسن . وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » من الشواغل الدنيوية المانعة عن أمور الآخرة . والغبن بالسكون في البيع وفي الرأى بالتحريك — ومن لم يستعملهما فيما ينبغي فقد ضين ولم يحمد رأيه — وقال أبو حامد أى أنه لا يفطنهما ثم يعرف قدرهما بعد زوالهما — وفيه تشبيه المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال بأن كلا من أسباب الربح فن عامل الله بامثال أوامره ربح . ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله وخسر — ونبه بكثير على أن الموفق لذلك قليل — رواه البخارى والترمذى .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السَّعَف فقال : ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فيامضى منه » .
 رواه ابن أبي الدنيا والترمذى بإسناد حسن والسَّعَف : غصون النخل جمع سَعْفَة بالتحريك . وقال جابر بن سَمْرَةَ رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذرٌ جيشٍ يقول صَبَحَكُمْ ومَسَاءً كَبَعْتُمْ أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه » رواه مسلم — شبه حاله فى خطبته وإنذاره بقرب القيامة . وتهالك الناس فيما يرديههم بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم يقصد الإحاطة بهم بفتة فلا يفوته منهم أحد — فكما أن المنذر يرفع صوته وتحمر عيناه ويشتد غضبه على تعافلهم فكذا حاله صلوات الله وسلامه عليه عند الإنذار . والساعة منصوب على المعية أو مرفوع بالمطف على الضمير المتصل أى بعثت وبعثت الساعة تنزيلاً لها منزلة الموجود مبالغة فى تحقق وجودها ومجيئها — والمقصود التنبيه على قرب القيامة وأن الباقي من عمر الدنيا قليل ليسارع الناس إلى العمل استعداداً للموت وما بعد الموت . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح . فليل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإناية إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » رواه البيهقى فى الشعب والحاكم وابن أبي الدنيا وغيرهم من طرق عديدة . وقال عمر رضى الله عنه : « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة .

وخطب الإمام على رضى الله عنه على المنبر فقال : « اتقوا الله عباد الله وبادروا أعمالكم بأعمالكم » أى سابقوها وعاجلوها بها أى استكملوا أعمالكم قبل حلول أعمالكم « وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم » أى اشتروا ما يبقى من النعيم الأبدى بما يقضى من لذة الحياة الدنيا وشهواتها المنقضية « وترحلوا فقد جد بكم » الترحل الانتقال ، والمراد منه هنا لازمه وهو إعداد الزاد الذى لا بد منه للراحل والزاد فى الانتقال

عن الدنيا ليس إلا التقوى : فقد جُدَّ بكم - أي حُبِّتُمْ وأزجَّعْتُمْ إلى الرحيل « واستعدوا للموت فقد أظلمكم » قرب منكم حتى كأن له ظلاً قد ألقاه عليكم ، ولا عدة له إلا صالح العمل « وكونوا قوماً صيِّح بهم فاشبهوا » أي كونوا قوماً حذرين إذا استنماتهم الغفلة وقتاً ما ثم صاح بهم صائح الموعظة انتبهوا من نومهم وهبوا لطلب النجاة « وعلّموا أن الدنيا ليست بدار » إقامة « فاستبدلوها بدار الآخرة فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى » بل منحكم قوة العقل التي تصفر عندها كل لذة دنيوية ، ولا تقف رغائبها عند حد منها فكأنها مقطورة على استصغار كل ما تلاقيه في هذه الحياة . وطلب غاية أعلى مما يمكن أن ينال فيها فهذا الباعث الفطري لم يوجدته الله تعالى عبثاً فاستعملوه فيما خلق له - وسدى مهملين بلا راع يزجركم عما يضركم ، ويسوقكم إلى ما ينفعكم . ودرعاتنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلقناؤهم . وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية « هي الأجل » تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة . وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة « ذلك الغائب هو الموت يسوقه الليل والنهار بكرورها عليك وما أسرع مرها والانتهاى إلى الغاية » وإن قادماً يقدّم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة « وذلك القادم أيضاً هو الموت إما بفوز وإما بشقوة وعدته الأعمال الصالحة والملكات الفاضلة » فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تُحْرِزون به أنفسكم ذئباً « أي تحفظونها به وهو تقوى الله في السر والنجوى وطاعة الشرع وعصيان الهوى » فاتق عبد ربّه نصح نفسه . قدّم توبته وغاب شهوته « أوامر بصيغة الماضي جاءت بياناً للتزود بالمأمور به قبلها » فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المصيبة ليتركها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها « حال من الضمير في عليه أي لا يزال الشيطان يفعل معه ذلك حتى يفاجئه الموت وهو في أشد الغفلة عنه » فيألفها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة « لأنه أوتى فيه الهلة وممكن فيه من العمل فلم ينشط له » وأن تُوَدِّيه أيامه إلى شقوة نسال الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة « لا تظنيه

ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه « ولا تقصُر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عازية ، والضيف بر محل والعازية مؤداة » . رواه الطبراني — وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول في موعظته : « المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية : « إنما نعدُّ لهم عدًّا » يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسِك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك » . رواه ابن أبى الدنيا — فرحم الله امرأ علم أن الدنيا ساعة ، فجعلها طاعة وابتغى الرحمة وهرب من العقوبة حتى جاءه أجله وهو على ذلك .

الفصل العشرون

سنة الله تعالى في الهداية والإضلال

صرح القرآن الحكيم في مواضع كثيرة بأن أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد الإنسان منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح — ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضللال والشقاء . وأيضاً فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما انصفوا به من الفجور .

فمن الأصل الأول قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فإنه يفيد أن العبد إذا آمن بهذا الكتاب الكريم واهتدى به مجملاً وامثلاً وأمره واجتنب نواهيه وصدق بأخباره كان سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا غاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية — وذلك أن الإنسان إذا آمن بالله

فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على صالح الأعمال حصلت له ملكة راسخة في الإقبال على الآخرة وفي الإعراض عن زخارف الدنيا ، وكلما كانت هذه الأحوال أكثر كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل كانت معارج المعارف أكثر ، وإشراقها ولعانها أقوى . ولما كان لانهائية لمراتب المعارف والأنوار العقلية لا جرم لانهائية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى : « هدى للمتقين » ، فكلمتا اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد من التقوى والاستقامة ، وكلما فوتت على نفسه حظاً من التقوى فاتته حظ من الهداية بحسبه — فكلمتا اتقى زاد هداية ، وكلما اهتدى زادت تقواه . قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . فأفاد أن الله تعالى يهدي بالقرآن من طلب رضاه بالإيمان به إلى طرق السلامة من المخاطر والنجاة من العقاب ، وينقذهم من ظلمات فنون الكفر وأنواع الضلال إلى نور الإيمان والهداية بتيسيره وتوفيقه — فالنور والكتاب المبين هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك والإلحاد والزيف ، وإبانة ما خفي على الناس من الحق — والصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الله تعالى ، والهداية إليه عين الهداية إلى سبيل السلام ، عطفت عليها تنزيلاً للتفاير الوصفي منزلة التفاير الذاتي .

وقال تعالى : « هو الذي يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً » ، فأنه عزت قدرته وجلت حكته أبداع الآيات الكونية الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرد الألوهية ، وجعلها أمام أبصاركم وعقولكم لتستدلوا بها على كمال قدرته وبالغ حكته ، وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى ، وتخصوه بالعبادة والتعظيم اللائق بجلاله وينزل من أجلكم ما هو سبب أكيد في رزقكم وحياتكم وهو المطر . وأفردته بالذكر مع كونه من الآيات المذكورة ، لانفراده بعنوان كونه من آثار رحمته

وجلائل نعمته الموجبة للشكر : « وما يتذكر إلا من ينيب » أى وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة ويعمل بمقتضاها إلا من يرجع إلى الله تعالى ويتفكر فما أودعه في تضايف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ، ومن ليس كذلك فهو بمنزل من التذكر والاتعاظ وكذلك الشأن في الآيات التنزيهية لا ينتفع بها إلا من أقل عليها وتدبر ما في ثناياها ، وتأمل ما فيها من الحكم البالغة ، والعلوم النافمة له في دينه ودنياه . أما من أعرض عنها فهو محروم من هدايتها والانتفاع بها — والحاصل أن الآيات البينات إنما تنفع النفوس المستعدة لقبول الحق المتوجهة إلى طلبه ، وأما النفوس الخبيثة التي يفضحها الحق ويؤاها ويظهر باطلها التي تحب ستره والاسترسال فيما هي فيه من اللذة البهيمية والجاه الزيف ، فإن الآيات المذكورة لا تزيدها إلا مرأً وجدلاً في القول وجهداً وعناداً بالفعل : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وقال تعالى « فذكر إن نعمت الذكرى سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا » . أمر الله جل وعلا رسوله المصطفى بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى ، والاستعداد لامتنال أوامره والتزام أحكامه ، وأشار بقوله إن نعمت الذكرى إلى ما عليه أهل الباطل القائمون على ما ورثوا عن آبائهم ، وإلى جودهم وصلابة جهلهم ، وأن الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا (وذلك كما تقول للواظ : عظ المرابين إن سمعوا منك) ، وليس الشرط قيداً في الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الأمر بالتذكير عام نعمت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله صلوات الله وسلامه عليه أصدق شاهد على ذلك ، ولذا أردف الأمر بقوله : « سيذكر من يخشى » ، أى سيتذكر بتذكيرك من يخاف الله تعالى في الجملة ، فيزداد خوفه بالتذكير فيتفكر في أمر ما تذكر به ، فيقف على حقيقته فيؤمن به ويعمل عليه — فالذكرى نافمة حتماً في فريق من الناس وهو الذى يخاف الله ويخشى عاقبة الجحود

والعناد بعد ظهور الدليل ووضوح وجه الحق ، وإنما يتجنب الذكري ولا ينتفع بها الأشقى الذي غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان بإعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع . وهذا الطريق الذي لا يخلو منه زمن سياتى من الله جزاءه كما قال تعالى : « الذي يصلى النار الكبرى » هي نار الآخرة والصفري نار الدنيا ثم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة .

وقال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير فهو تعالى حكيم يعطى الهداية للخير لأهلها .

وقال تعالى : « ويهدى إليه من أناب » . أى أنه تعالى يهدى إلى جنبه العلى الكبير هداية موصلة كل من أقبل على الحق وتأمل ، في تضعيف ما نزل من دلائله الواضحة .

وقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بأيمانهم » فهدهم أولاً للإيمان بكل ما يجب الإيمان به فلما آمنوا هدهم بالإيمان هداية بعد هداية ، أى أنه تعالى يوفقهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة ويهديهم بإيمانهم أيضاً إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية . كما قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، فإن العمل بدين الله مع رعاية سنن الله فى خلقه يورث العلم والحكمة وينير البصيرة وبذلك تنكشف أمامه الأشياء ونظير هذا قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، أى يزيد المؤمنين المهتدين هدى ، وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى البعض الآخر كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه ، كما أن بعض الغواية يجر إلى بعضها - وهو ممكن عقلاً إذ لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً بالبعض ، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ، ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطاً بالبعض ، فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يمنح الهداية التى هى المشروط - مثاله الإيمان هدى ، والإخلاص فى الإيمان زيادة هدى ، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان ، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص - وقوله جل ثناؤه فى سورة

القتال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أى الذين اهتدوا إلى طريق الخير فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ، زادهم هدى بالتوفيق إلى سبل السعادة ، فى الدنيا والآخرة — وإجمالاً زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة ، فى أمور الدين والدنيا ، « وآتاهم تقواهم » ، ألمهم إياها وأعانهم عليها . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » . ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل — وبالجملة فالإيمان الصادق له نور يسطع فى القلوب فيهديها فى ظلمات الشبه ، وينير لها السبيل إلى الحق الذى لا يشوبه باطل ، فيسهل عليها أن تميظ كل أذى يتمتر فيه السالك .

وقال تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فى سورة إبراهيم فى قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . ولقمان فى قوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليبريكن من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . وسبأ فى قوله : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حطط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومرزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . والشورى فى قوله : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فأخبر جل شأنه عن آياته العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته القرآنية الإيمانية أنه إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والأناوبة ومن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما تذكر بها من يخشاه سبحانه . قال تعالى : « طه ما أنزلنا

عليك القرآن لتشتقي إلا تذكرة لمن يخشى » . وقال في الساعة : « إنما أنت منذر من يخشاها » . وأما من لا يؤمن بها ، ولا يرجوها ولا يخافها ، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية .

ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم التي كذبت الرسل وما حل بهم من أنواع العزى والذل في الدنيا قال بعد ذلك : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » . فأخبر أن في عقوبات المكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة واعتقد صحته ووجوده — وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة في حقه — وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات لأنها أساس الإيمان فنصفه صبر ونصفه شكر — وعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه — وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ولا يتم الإيمان إلا بالصبر والشكر فإن رأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى والشهوة ، ورأس الشكر التوحيد ، فإذا كان العبد متبعاً هواه مشركاً بمولاه ، لم يكن صابراً ولا شكوراً ، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً .

ومن الأصل الثاني وهو اقتضاء التجور والكبر والكذب للضلال قوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض » فإن تخصيص الإضلال بهم مترتباً على صفة الفسق وما هم عليه من القبائح المذكورة بعده إيذان بأن ذلك هو الذي أعدم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال . فإن كفرهم وعدوهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر في حكمة ضرب المثل إلى حقارة المثل به حتى رسخت به جهالتهم . وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا ما قلوا — فالمراد من الفاسقين هنا العاتون الساردون في الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله والاستهزاء به . وقوله تعالى « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » فإنه صريح في أنه تعالى أبعدهم عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم

العارض وإبطالم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرّة ، بعد أن خلقهم على الفطرة
والتمكن من قبول الحق ، وسبب الآية أن اليهود ادعوا أن قلوبهم مغشاة بأغشية
جبليّة لا يكاد يصل إليها ما جاء به النبي صلوات الله وسلامه عليه ولا تفقهه . فرد الله
عليهم ما قالوا وكذبهم فيه ببيان أن المانع كسبي لا جبلي

وقوله تعالى : « فإلّم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » روى أن
قوماً من المنافقين استأذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو معتلين
بوباء المدينة ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين ،
فاختلف المسلمون في كفرهم وإسلامهم ، فبين الله أمرهم وأخبر تعالى بأنه قد ردّهم
في الكفر كما كانوا بسبب ما كسبوه من الارتداد والحق بالمشركين والاحتتيال
على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وأصل الرّكس رد الشيء مقولاً بآ .

وقوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » فأخبر جل شأنه أنه يثبت المؤمنين
على ما ثبت لديهم بالحجة وتمكن في قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها
العجيبة « كلمة التوحيد » في الحياة الدنيا ، فلا يزالون عنه إذا فتنوا في دينهم كالذين
قتلهم أصحاب الأخدود وبلال وصهيب — وفي الآخرة فلا يتاعشون إذا سئلوا عن
معتقدهم في الموقف ، ولا تُدهشهم أهوال القيامة — وأنه تعالى يخلق في الكافرين
الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنين بسوء اختيارهم وظلمهم لأنفسهم . حيث
بدّلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الواضحة فلم يهتدوا إلى
الحق « ويفعل الله ما يشاء » من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه
مشيئته النابعة للحكم البالغة .

وقوله تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في
طغيانهم يعمهون » فأخبر أنه تعالى عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه
وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتنابه
فلا يبصرونه . لكن لا مع توجههم إليه واستعدادهم له بطريق الإيجاب . بل بأن

يخليهم وشأنهم بعدما علم فساد استعدادهم ونفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلاً ويطبع على قلوبهم حسماً يقتضيه استعدادهم كما بينه تعالى بقوله: « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » أى نذعهم في طغيانهم متحيرين لانهديهم هداية المؤمنين كما قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله بحسن الطاعة حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم من العلوم الدينية والجهاد لإعلاء كلمة الله — ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين قلوبهم .

وقال تعالى: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » فأفاد أنهم لما أصروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه عاقبهم الله تعالى بصرف قلوبهم عن قبول الحق والميل إلى الصواب بصرف اختيارهم نحو النقي والضلال . وقال تعالى: « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته فقالوا أساطير الأولين . وقال تعالى في شأن المنافقين: « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم » أخبر تعالى أنهم رجالا ونساء متشابهون في النفاق وصفقاً وعملاً كأن كلا منهم عين الآخر يأمرون بالكفر والمعاصى وينهون عن الإيمان والطاعة ويمتنعون عن بذل المال فى سبيل الله ، وأنهم تركوا التقرب إليه تعالى بالطاعة والإنفاق فى سبيله ، فجازاهم على نسيانهم له تعالى وإهمالهم لطاعته بجرمانهم من التوفيق والهداية ، وفضيلة التقرب إليه بالإنفاق والجهاد فى سبيله فى الدنيا ، ومن الثواب على ذلك فى الآخرة . قبض اليد كناية عن الشح . والمراد من نسيانهم تعالى لهم لازمه وهو جعلهم كالنسي الذى لا يتعهد ولا يعتنى بشأنه ذلك لخبيثهم وقبائحهم — وقال تعالى فى موعظة المؤمنين وحثهم على الخير وتحذيرهم من الشر ومشابهم للمنافقين فى أخلاقهم وقبائحهم: « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » أخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل

الصالح وهما الهدى ودين الحق — فأنسام طلب ذلك ومحبته ومعرفة والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له تعالى وإغفالهم لذكره وطاعته .

وقال أيضاً في حق المنافقين : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاوناً منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة رضی الله عنهم : ما الذى قال الساعة ؟ استهزاء في صورة الاستعلام والاستعادة شأن الخبيث المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد — فأخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم بأنهم لم يتوجهوا نحو الخير أصلاً واتبعوا أهواءهم الباطلة — وبين أنه تعالى زاد الذين اهتدوا إلى طريق الحق هداية بالتوفيق والإلهام وأعانهم على تقواهم — فإن المؤمن المهتدى يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم .

وعلى الجملة فإن من تدبر آيات الهداية والاضلال يعلم أن الله تعالى إنما يهدي من هو مستعد للهداية بسبب إجابته إلى ربه وأخذه في سبيل تعرف الحق واستعماله مواهبه فيما خلقت له — وأن من تكبر عن معرفة الحق وأعرض عن كتاب الله وهدى رسوله واتبع هواه جدير بأن يطمس الله على قلبه ويصرفه عن آياته . تلك هي سنة الله عز وجل في خلقه المبينة على غاية الحكمة ونهاية العدل .

نماذج في مواعظ القرآن الحكيم

قد عرفت بما تقدم لك خطورة وظيفتك وعظم مسئوليتك إذا تصدرت لمهنة الناس وإرشادهم ، وما ينبغى أن يكون عليه المرشد من الصفات النفسية والآداب الدينية التي يتحلى بها ليسكون وارثاً نبويا وعالماً ربانيا ، ذا حياة طيبة نافعة ، نائماً للفضيلة . محارباً للنقيصة مهذباً للنفوس ، صالحاً للتأثير في الأرواح — وعرفت أيضاً مراجع الوعظ وأنواعه والطرق التي يسلكها في إرشاد الناس إلى الحق من الترغيب والترهيب .

وبقى عليك أن تعرف جملة من مواظب الكتاب الحكيم والحكم النبوية العالية ، وكيف تتصرف فيها على سبيل الحكمة بحسن التأدية عند القيام بواجب مهمتك ، فإن منهلك الصافي وبمرك الزاخر الذي لا ينضب معينه ، وإمامك الذي تقتدى به ومرشدك الذي يهديك إلى سواء السبيل هو ذلك الكتاب المبين . والسنة الشريفة . وآثار السلف الصالح . ثم كل كتاب في أصول الدين الحنيف أو الفروع أو الأخلاق ، لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة .

وسندك رلك بمون الله تعالى وحسن توفيقه موجزاً من المواظب الجامعة لكثير من شعب الإيمان ووجوه البر ، وشيئاً مما يتعلق بجملة الخلائق وخصوصاً الإنسان حتى تعرف منزلته من بينها وما قدر له من العيش الرغد والحياة الطيبة بقيامه بوظائف العبودية ونزعه لكسب الفضائل وخصائص الإنسانية . ليكون لك نبراساً تستضيء به ومثالاً حياً تنسج على منواله في عمالك — وإجمالاً تهتدى به في طريق دعوة الخلق إلى الله تعالى حتى تسير بهم نحو السعادة في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

الموعظة الأولى الكمالات النفسية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئک الذین صدقوا وأولئک هم المتقون » كان صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يصلى إلى بیت المقدس وبقى كذلك بعد الهجرة يصلى إليه أكثر من سنة (سبعة عشر شهراً) فلما أمر بالتوجه إلى الكعبة كثرت الخوض فى أمر القبلة وكان فى ذلك محنة للمسلمین والیهود ، والمشرکین والمنافقین . فأما المسلمین فقالوا : سمعت وأطعنا « وقالوا آمنا به كل من عند ربنا » وهم الذین هدى الله ولم یکن كبيرة عليهم . وأما الیهود فقالوا خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبيا

لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء . أما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما المنافقون فقالوا ما ندرى محمد أين يتوجه ، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء من الناس وكانت كما قال الله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليظهر من يتبع الرسول منهم من ينقلب على عقبيه — وعلى الجملة كان من المسلمين الاغتباط بالتوجه إلى الكعبة وكان من أهل الكتاب التشدد في التوجه إلى بيت المقدس ، وظن كل أنه الغرض الأكبر في الدين فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل عند الله تعالى ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة إلى الكعبة هي كل شيء لأنها قبلة إبراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى — فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين . ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلى بالإعراض عن كل ما سواه تعالى في صلاته والإقبال على مناجاته ودعائه ، فتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركناً من العبادة فليس لكم أن تذهلوا به عن سائر صنوف البر ، ولكن البر الذي يجب صرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال التي بينها الله عز وجل ، أى أن البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره في النفس والعمل فقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » الخ .

وهنا يذكر للناس حكمة تعيين الجهة في الصلاة ، وحكمة التوجه إلى بيت المقدس أولاً ، ثم التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة إن اقتضى الحال ذلك وكان في الوقت سعة كأن يقول : (١) معلوم أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم فإنه لا بد وأن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه وأن يببالغ في الشناء عليه بلسانه . ويبالغ في الخدمة والتضرع له فالقراءة والتسبيحات كالثناء ، والركوع والسجود كالخدمة ، واستقبال القبلة بمنزلة التوجه بالوجه نحو الملك لا معرضاً عنه —

وجملة القول أن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان الله سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيل شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إيام ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى رحمة منه تعالى بعباده . (٢) إن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وحضوره لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعيين ، وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف في الأوهام كان استقبال تلك الجهة أولى لأن شرفها محقق . (٣) إن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين ، ولو توجه كل واحد في صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوم اختلافًا ظاهرًا فتعيين جهة واحدة يتوجه إليها الجميع في الصلاة يدفع ذلك الوم ويحمل المؤمنين على الألفة والاتحاد والتعاون على أنواع البر وأعمال الخير ، وفي ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وأما سر التوجه إلى بيت المقدس والرجوع عنه إلى الكعبة فهو (١) تمييز المؤمنين الصادقين في إيمانهم من غيرهم ليعلم المؤمنين من يوالون ومن يعادون . قال تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » . أى وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي بيت المقدس إلا لذلك ، فالموصول هو المفعول الثاني لجعل (٢) أنه إذا رسيخ في أوهام بعض الناس أن هذه الجهة أشرف من غيرها بسبب ان الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه في قوله « بيتي » وبناء الخليل وولده لما كان الإنسان عند استقبالها أشد تعظيمًا وخشوعًا (٣) أنه لما كان بناء هذا البيت سببًا لظهور دولة العرب وعزهم وفخارهم كانت رغبتهم في تعظيمه أشد (٤) الإسراع في قبول ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي ، لأنه لما كانت الكعبة منشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعظيمها تعظيمًا له . ومن رسيخ في قلبه تعظيمه كان بقبول شريعته أجدر ، وإلى امتثال أوامره ونواهيه أسرع - ومن الحكمة في جعل القبلة في أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت

في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان وكان سلطان أهل الشرك متمكناً فيها ،
والأمل في انكشافه عنها بعيداً ، فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنس بعبادة
الشرك - وإن كان الله أمر إبراهيم بتطهيره للطائفين ، والما كفين والركع
السجود - إلى بيت المقدس قبله اليهود الذين هم أقرب إلى ما جاء به من التوحيد
والتنزيه ، ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها ،
وإزالة سلطة الوثنيين عنه جعله الله قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه ، فيكون ذلك
مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على سنة إبراهيم من التوحيد
والعبادة الصحيحة لله وحده . وفي قوله تعالى : « ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم
تهتدون » ، بشارة بهذا الاستيلاء تبعث فيهم روح الأمل والرجاء ، ثم يبين لهم أن
البراسم جامع للطاعات وأعمال الخير التي تقرب العبد إلى مولاه تعالى ، ومنه
بر الوالدين واسترضائهم بكل ما أمكن ، ويلفت السامعين إلى أن الله عز وجل
اشترط أموراً لا يتحقق البر بدونها .

الأول الإيمان بأمر خمسة (أحدها) الإيمان بالله تعالى أى التصديق بأن
للكون رباً قادراً عليهما ، مدبراً حكماً ، متصفاً بكل كمال منزلها عن كل نقص ،
ولا يكون هذا الإيمان أصلاً للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً
بالخضوع والإذعان . ويظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل . أما التصديق
الذى لا يستتبع الآثار ولا يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل ، أو تكون
له آثار ناقصة فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجيه
من عذاب يوم القيامة - قال حجة الإسلام الغزالي : مثل المؤمن الذى لا يعمل
والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع ، إذ قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت
شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلا حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلك ، ويطير
بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل العواصف ما جف من أوراقى وتبقى الأوراق
الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقياً سليم العرض سليم
العقيدة ، كالأذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقياً لامعاً . أما ضعيف الإيمان فإن النوائب

تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مردولا مثلوم العرض . كسير النفس ذليلا عند الله وعند العباد . وهنا يلتفت السامعين إلى معرفة الله تعالى بالنظر في الكائنات الدالة على أنه تعالى كامل الأوهية من طريق القرآن الحكيم - ويذكر لهم آثار الإيمان الصادق وأوصاف المؤمنين ، وهي في القرآن أيضا كثيرة ومن أجمعها الآية التي معنا وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وعمارزقنهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . وقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » إلى آخر السورة - وقوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . ذلك هو الإيمان الذي يصح أن يكون أساس كل برٍّ ومبدأ كل خير وسعادة (وثانيتها) الإيمان باليوم الآخر - ومعنى الإيمان به التصديق بوجوده وما اشتمل عليه من بعث وجزاء وسمى به لأنه آخر أيام الدنيا أي متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها ، فهو من تسمية الشيء باسم مجاوره - وهنا يبين أن هذا الإيمان فرع ما قبله لأنه إذا آمن العبد بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأنه تعالى تام القدرة على جميع الكائنات آمن بصحة البعث والنشر والحشر ومالا فلا . ويملا قلوب السامعين رهبة من أهوال يوم القيامة بآيات وأحاديث الوعيد الشديد ، ليحملهم بذلك على التزود لسفر طويل ، والاستعداد لحساب عسير . ويبين لهم أن الإيمان باليوم الآخر يهون أمر الحياة الدنيا ويحقر شأنها ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ، ووسيلة إليها ، لا يجب منها إلا ما كان مقربا إلى الله وسبيلا إلى سعادة الآخرة . ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءه ، بل سيان عنده أن يبقى فيها عاملا للصلوات

وأن يفارقها فراراً من شرها وتعجلاً لتعظيم مقبم عند الله تعالى . (وثالثها) الإيمان بالملائكة ، أى التصديق بوجودهم وبأنهم كما وصفهم الله تعالى « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والملائكة خلق روحانى عاقل عالم قائم بنفسه ، وهم من عالم الغيب فلا نبحث عن حقيقتهم ، سخرهم الله تعالى لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة — وهنا يذكر أن الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى ، لأن ملك الوحى روح عاقل عالم كما عرفت ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبى بما شرعه الله تعالى لعباده ولذا قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتب والأنبياء ، فهم الذين ينزلون بالشرائع على المرسلين : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » — فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحى والنبوة وإنكار الأرواح . وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه حظوظ الدنيا وشهواتها ، وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل الآخرة . (ورابعها) الإيمان بالقرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ومعناه التصديق بأنها كلام الله تعالى المنزل على بعض رسله وأن ما تضمنته حق لا ريب فيه . سواء نزل مكتوباً كالتوراة أولاً كالقرآن — وهنا يبين أن الإيمان بالقرآن الحكيم يستلزم العمل به والاهتداء بهديه ، فإن المؤمن الموقن بأن هذا الشئ ضار قبيح لا تتوجه نفسه إلى إتيانه . والمؤمن الموقن بأن هذا الشئ نافع حسن لا بد أن تتوجه إرادته إليه عند عدم المانع — فما بال مدعى الإيمان بالكتاب قد تهاونوا به وأعرضوا عن امتثال أوامره ونواهيه . (وخامسها) الإيمان بالنبیین جميعاً من غير تفرقة بين أحد منهم — وهنا يبين ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز ، ويذكر حكمة إرسالهم والحاجة إلى الرسالة وشيئاً من خصائصهم وأخلاقهم وسيرتهم ، ليعلم الناس بهم ويهتدوا بهديهم ، ويتخلقوا بأخلاقهم . وأن ما جاء فى القرآن من عصيان آدم عليه السلام ومن معاتبة جماعة منهم على أمور فعلوها فإنما هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما يشاء وأن يعاتبه على خلاف الأولى

معاينة غيره على المعصية . أو يقول إن عصيان آدم بالأكل من الشجرة مما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمواخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً في عمارة الأرض بيني آدم . وبين أن الإيمان بهذه الأمور الحسنة قد جمع كل ما يلزم التصديق به ذلك أن المكلف مبدأ ووسطاً ونهاية . ومعرفة المبدأ والنهاية هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر . وأما معرفة المصالح التي في الوسط فلا تتم إلا بالرسالة ، وهي لانتم إلا بثلاثة . الملائكة للوحي ، ونفس ذلك الوحي وهو الكتاب ، والنائب عن الله تعالى في إبلاغه للخلق وهو الرسول .

« الثاني » من الأمور المعتبرة في تحقق مسمى البر إعطاء المال لمستحقه قال الله تعالى « وآتى المال على حبه » أى مع حب المال والشح به — وهنا يذكر أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت . ففي البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا » كناية عن الموصى له والموصى به فيهما « وقد كان لفلان » أى وقد صار ما أوصى به للوارث فيبطله إن شاء إذا زاد على الثلث أو أوصى به لوارث آخر — والمعنى تصدق في حال صحتك واختصاص المال بك وشح نفسك به بأن تقول لا تتلف مالك لثلاث نصير فقيراً لا في سياق موتك لأن المال حينئذ خرج منك وتعلق بغيرك — وعن أبى الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى تصدق عند الموت مثل الذى يهدى بعد ما شبع » — ومعقول أن حال الصحة مظنة الحاجة إلى المال ، وعند الموت يكون الاستغناء ، وبذل الشيء عند الاحتياج أدل على الطاعة من بذله عند الاستغناء عنه — وأن الإعطاء عند الصحة أدل على تيقنه بالوعد والوعيد من إعطائه حال المرض والموت . وأن الهبة عند الموت تشبه الهبة عند الخوف من القوت . ثم يذكر أن ذلك حث على بذل المال في نوافل الصدقات وأنواع البر إلى هذه المصارف الستة الآتية « ذرى القرى » وهم الذين يقرؤون منه بولادة الأبوين

أو الجدين - والقريب إذا كان أحوج فهو بذلك أولى لأنه صدقة وصلة فإن
الإنسان إذا احتاج وفي آثاره غنى فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم والإنسان
بفطرته يألم لفاقة قريبه أشد من ألم لفاقة الأجنبي ، فإنه يقوى بقوته ويضعف
بضعفه - فمن قطع الرحم ورضى أن ينعم وأقاربه بانسون كان بريئاً من الفطرة
والدين الصحيح « واليتامى » الفقراء الذين فقدوا من يعولهم وانقطعت حيلهم
وليس لهم بعد الله إلا عطف الأغنياء - وهنا يحث على العناية بشأن اليتامى لثلاث
أسباب . وتفسد أخلاقهم فيكونون شراً على أنفسهم وعلى الأمة « والمساكين »
من ذوى الحاجة مع العفة والكف عن المسألة ، فإنهم لما عجزوا عن كسب
ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن السؤال ، طلبت مساعدتهم
ومواساتهم من ذوى اليسار « وابن السبيل » المسافر فقد تشتت به الحاجة
للوصول إلى أهله . وفي الأمر بمواساته وإعانتته في سفره ترغيب من الشارع
الحكيم في الضرب في الأرض والسياحة « والسائلين » ضرب من المساكين
الجاتهم الحاجة إلى استئداء الأكف فكانوا لذلك موضع عطف ورحمة ،
والسؤال محرم شرعاً على القادر على الكسب إلا لضرورة شديدة يجب على
السائل أن لا يتمدها - وفي هذه المصارف السالفة يجتهد في تحريك العواطف
وهز القلوب نحو البر بهم بما يحضره من وسائل الترغيب والترهيب « وفي الرقاب »
أى وضعه في فكها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب وإعتاقها .
وفي طلب بذل المال في هذا النوع دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب واعتباره أن
الإنسان خلق ليكون حراً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون
الأسير رقيقاً - وهنا يبين سر مشروعية الرق في الإسلام ، ومعاملته للرقيق بالرأفة
والرحمة ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب في إطلاقه من قيد الرق ، حتى يظهر
الأمر للناس وتنقطع أسنة الطاعنين على الدين الخفيف من أجل الرق في الإسلام
- وجملة الأمر أن الإسلام يعتبر الإنسان حراً بطبعه ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج
الإنسان عن طبع الإنسان فيقف في سبيل الدين الحق والدعوة إليه وفي طريق نشر

الفضيلة بين الناس ، فمعد ذلك يصح أن تهدر آدميته ويعامل معاملة البهيمة ، غير أنه مع ذلك قد شرع الإسلام للتحريم طرقاً كثيرة في الكفارات ، وفي أموال الزكاة المفروضة ، وفي الصدقات غير المحدودة . كما سيأتى ذلك مفصلاً في محاضرة سر مشروعية الرق في الإسلام آخر الكتاب إن شاء الله تعالى . وارجع في ذلك إلى كتب حكمة التشريع في الكلام على الجهاد .

« الأمر الثالث » مما لا بد منه في تحقق البر « إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » وهنا يبين سر مشروعية الصلاة وأنها إذا أدت على الوجه المطلوب كان لها أحسن أثر في جلاء القلوب وتطهير النفوس من أدران الرذائل ، وفي ذلك سعادة المجتمع الإنساني ، وما عم الشقاء وزاد البلاء إلا من إضاعتها بلا خشية — ويبين أيضاً حكمة الزكاة وأنها من أحكم الروابط بين الفقراء والأغنياء . وما انقطعت الصلة وانعدمت الألفة بين المسلمين إلا من منعها . كذا يذكر أنها نظام حكيم عادل معقول لا ما يسعى إليه الأشرار الأغرار دعاة الاشتراكية من قلب النظام الإلهي وهيئات هيئات أن يبلغوه حتى يأتى وعد الله .

« الرابع » مما لا بد منه في تحقيق البر الوفاء بالعهد . والموفون بهمهم الذين إذا وعدوا أنجزوا . وإذا نذروا أو حلقوا وفوا . وإذا قالوا صدقوا . وإذا ائتمنوا أدوا — ثم يشرح لهم أن الوفاء يتناول كل ما يلتزمه العبد اختياراً فيما بينه وبين مولاه من النذور والأيمان . وما يأخذه على نفسه كذلك بينه وبين سائر العباد في عقود المعاوضات من الشرائط . وكذا ما ينبغى الوفاء به من الوعود العامة بين الناس وأنواع المحالفات . ويمتدح الوفاء وأهله ويحث على التخلق به . ويذم الإخلاف ويحذر منه .

« والخامس » مما لا بد منه في تحقق البر الثبات لدى الشدائد ، والصبر عند المكاره . فإن الله تعالى مدح الصابرين « في البأساء » الفقر والشدّة « والضراء » المرض والزمانة « وحين البأس » وقت مجاهدة العدو في مواطن الحرب — وهنا يذكر فضيلة الصبر ومعناه ويسهل على الناس التخلق به في جميع الأحوال بأن الله

تعالى أضاف إليه جميع الخيرات وبلوغ أعلى الدرجات . وأن الذين تحلوا بهذه النعمت الجميلة هم الذين صدقوا في الدين واتباع الحق وتحرى وجوه البر لم تغيرهم الأحوال ولم نزلهم الأهوال « وأولئك هم المتقون » عن الكفر وسائر الرذائل .

ثم يحتم القول ببيان الآية إجمالاً ليكون ذلك أنراً باقياً في نفوس السامعين كأن يقول : إن الله عز وجل بمث الناس على استيفاء أنواع الطاعات ووسائل السعادة ، ونهبهم إلى أنه ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه . إن الخير كثير الوجوه فلا تقفوا موقف الذين قصرت أنظارهم . فالبر كل البر أن تجمل النفس بالمعارف وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ، وأن يستخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأن يكون المرء حسن المعشرة فيبذل المال لذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وأن يكون كريم الأخلاق فلا يخلف إذا وعد . ولا يجزع عند الملمات . كالفقر وشدته . والمرض وحدته . والقتال وصدمته . فالآية الكريمة كما ترى جمعت الكمالات البشرية كلها تصريحاً وتلويحاً في خصال ثلاث . صحة الاعتقاد : وذلك بما بين شعب الإيمان من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين . وحسن المعاشرة بإيتاء المال لمن ذكر ، وتهذيب النفس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء والصبر . وبذلك يتم الجمال والكمال . ويلزم لاستيفاء البيانات المشار إليها استحضار معاني النظم الكريم والرجوع إلى كتاب رياض الصالحين . والأحياء . وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم

على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس فيها خالدون .
إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل
جوارحه فيما يرضيه . والسعيد الموفق إذا جاءت الموعدة انفتح لها قلبه ونشط للعمل
عليها أعضاؤه ، أولئك هم أهل الهداية . وأولوا الأحلام الراجعة وأولئك لهم البشرى
في الحياة الدنيا وفي الآخرة . « فبشر عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . ثم يبين أن الله عز وجل حكم
بالفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع .

(الصفة الأولى) الإيمان بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد صلوات الله
وسلامه عليه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرهما حيث قال تعالى : « قد
أفلق المؤمنون » ، فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن جعلوا بواطنهم بأنوار
المعارف ، وكلوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية ، وتحلوا بمكارم الأخلاق قد فازوا
بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقفاً من حالهم فإن إيمانهم الصادق
وما تفرغ عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب هذا الوعد الكريم
وفي هذا المقام يشبه الإيمان بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان
الصحيح الذي يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن
يقول أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيء القول . فقد روى البخاري في تاريخه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما قرأ في القلب وصدقه
العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن
نحسب الظن بالله تعالى . وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

(الصفة الثانية) الخشوع في الصلاة بالخضوع والتذلل لملك الملوك ورب
الأرباب ، وعدم التفات القلب فيها إلى شيء سوى التعظيم له تعالى ، و بسكون
الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود ، وعدم الالتفات يميناً ويساراً ، وهذه
الثلاثة من لوازم خشوع القلب وتفرغه له تعالى . فقد رأى بعض السلف رجلاً
يعبث بيده في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . روى ذلك

عن حذيفة وسعيد بن المسيب رضى الله عنهما . قال تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » . فهؤلاء الخائفون من هيبه الله عز وجل المتذللون له الخاضعون لجلاله قد أزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين - وفي هذا المقام يبالغ في الخض على الخشوع في الصلاة مبيناً أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد فكما لا عبرة لجسد بلا روح كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلي إنما يناجى ربه والكلام مع الغفلة ليس بمنجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وعود . أما الذكر فإنه منجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبراً عما في القلب من التضرعات . فأى سؤال في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلاً عنه ، ولا ريب أن المقصود من القراءة والذكر الثناء والدعاء . والمخاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب غافلاً عن جلالة وكبريائه ولسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعد عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التمجيم له تعالى ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم . فلم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس في ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلاً بين الكفر والإيمان . من أجل ذلك قال أرباب القلوب بوجوب الخشوع فيها . كذلك يحذّر الناس من العبث والالتفات في الصلاة بأن المصلي مشمول بإحسان الله تعالى ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه فعن أبي ذر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإن التفت أعرض عنه » . رواه أبو داود والترمذى . وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . رواه البخارى - والاختلاس الاختطاف . وعن معاذ بن جبل « من عرف من على يمينه وشماله متمعداً وهو في الصلاة فلا صلاة له » . وإجمالاً يبين أن الأليق والأحوط الخشوع في الصلاة .

(الصفة الثالثة) ترك العبد ما لا يعنيه من كل ما لا يعود عليه منه فائدة في الدين والدنيا قولاً أو عملاً . كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع والاسترسال

في الشهوات إلى غير ذلك من كل ما نهى الله عنه . بل ينبغي للمرء أن يشتغل بما ينفعه من عمل صالح لمأاده أو درهم حلال لمعاشه . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » تاركون له في عامة أوقاتهم وخاصة حال اشتغالهم بالصلاة ، فهؤلاء قد مدحهم الله تعالى بالإعراض عما لا يفيد والتباعد عنه رأساً مباشرة وميلاً وشهوداً . فهم لا يفعلونه ولا يرضون به ولا يخاطبون من يأتيه : قال تعالى في امتداح الكملة من عباده : « وإذا مرو باللغو مروا كراماً » أي معرضين عنه — وفي هذا المقام يحذر السامعين من الكسل في الأعمال الدينية وإهمال الصنائع الدنيوية وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار الصالحين في ذلك .

(الصفة الرابعة) أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب في أموالهم إلى مستحقه فبذلك تملك القلوب ويدوم الوثام والوفاق ويتم الصفاء والهناء بين الناس ، ويعظم الخير وتم الرحمة والبركة في الدارين . قال تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » مؤدبون . وصفهم تعالى بذلك بعد ما وصفهم بالخشوع في الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها والمالية إلى أربابها والتجنب عن المحرمات وكل ما يوجب المروءة اجتنابه ، فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبدلوا ، وفي هذا المقام يرغب الأغنياء في دفع الزكاة ، ويرهبهم من منعها بذكر نصوص الوعد والوعيد في ذلك مع بيان سر مشروعاتها فإنه يدع في نفوس السامعين أحسن أثر .

(الصفة الخامسة) نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا يحل . وقصره على ما أحل الله له من الحرائر أو الإماء بعقد النكاح ، وملك الميمن . ففي ذلك الغنم والسلامة . قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم » الآية . فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم وهي داعية لهم إلى ما لا يخفى فصانوا فروجهم . وغضوا أبصارهم فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلال وبذلك بلغوا كمال العفة . أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن

يكون حيوانا ينزود ذكره على أنثاه من غير قيد ولا شرط ، فذلك الجاني على حرمة الآداب المنتهك للحرمات ، قد أفرط في الاعتداء على الأعراض ، وجاوز الحد في تمزيق ثوب العفاف ، وعرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء في العاجل والآجل .

وفي هذا المقام ينفر الناس من الزنا واللواط والاستمناء باليد وإتيان البهائم ويحذرهم من إرسال النظر إلى النساء والعلمان بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض والنفاس مبيتاً ما في ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد الحياء والزهرى والنهاب المثاني والسل الرثوى والسيلان وضياع الأموال وفساد الأخلاق (الصفة السادسة) رعاية الأمانات والعهود وحفظها فتلك فضيلة عظيمة ومنقبة

جلیلة ، وآية على شرف النفس وعلو الهمة . قال تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم » لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق « راعون » قائمون عليها حافظون لها — وفي هذا المقام يبين أن الأمانة تتناول كل ما يكون تركه خيانة لله أو للعبيد فمن ذلك سائر العبادات فإن المرء مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل أو قول كالودائع والعهود وما يتصل بهما — ومنها الأسرار المأمور بكتانها : فيلزمه المحافظة عليها وعدم إفشائها ، ويبين أن العهد يتناول العهود والإيمان والندور ، وأن مراعاة هذه الأمور والقيام بها لا بد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة ويرغب الناس في الأمانة والوفاء ويحذرهم من الخيانة والنفس في الصنائع والمعاملات ، ومن نكث العهود بما يحضره من الآيات والأحاديث والآثار مبيتاً ما في الخيانة والاختلاف من الأضرار الخلقية والاجتماعية ويضرب لذلك الأمثال ويسوق الحكم .

(الصفة السابعة) المحافظة على الصلوات بالمواظبة عليها وتأديتها في أوقاتها على الوجه الأكمل وتلك فضيلة مستقلة ، كما أن الخشوع فضيلة أخرى ، قال تعالى : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وفي هذا المقام يحض الناس على المحافظة على الصلاة في الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها ، فبذلك تنهذب النفس ويصفو القلب ويمتلئ بحياء وخشية — وبذلك ينال الخير وتسعد الأمة وتقلع النفوس عن غيها . ثم يذكر كل ماله بالمقام صلة . وهنا يرغب السامعين بأن الذين

توفرت فيهم تلك الصفات السبع وامتازوا بها عن غيرهم من عامة المؤمنين موعودون من الله تعالى من أجل هذه النعوت الجليلة بدار النعيم ، وأنهم المستحقون لها بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم قال تعالى : « أولئك هم الوارثون » الجديرون بأن يسموا وراثاً لا من ورث كرائم الأموال وريث الذخائر : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون — وإجمالاً يذكر أن هذه الآية جمعت كثيراً من علامات حسن الخلق وشمائل الأبرار الكاملين ، وهذا كله لا يتيسر للمرشد على الوجه الأكمل إلا بعد استحضاره معاني النظم الكريم وإعداد كل ماله بهذه البيانات صلة حتى تتشرب به مخيلته وتعيه ذاكرته ، ونعم المساعد على هذا رياض الصالحين وبالله التوفيق .

الموعظة الثالثة النهى عن الانهماك في طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون » .

إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشتها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب . وحرامها عقاب ، إن أخذه من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أدلتها ، ومن أبصر إليها أعمته والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام . بل فهموا أنها نعم في طيها تقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هي طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحت قلوبهم وأبدانهم .

وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم وما الذي يبقى معهم منها في قبورهم ، وما الذي يتركون لأعدائهم^(١) في الدنيا ، ومن لا يفنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد للعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم خافوا فآمنوا وأحسنوا فجازوا .

وأخرى جهلاء : عى البصائر لم ينظروا في أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها وما لها ، برزت لهم بزيتها ففتنتهم فإليها أخذوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهتهم عن الله تعالى وشغلتهم عن ذكره وطاعته « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » نعم إنهم نسوا الله : أهملوا حقوقه ، وما قدره حق قدره ولم يراعوا لانهما كهم في الدنيا مواجب أوامره ونواهيته ، حق رعايتها « فأنساهم أنفسهم » ، جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها وسيرون يوم القيامة من الأهوال ما ينسيهم أرواحهم ويحطهم حيارى ذاهلين . « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » - وفي مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله « اجتهادك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطلاس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلتهم ، أكثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله وأنته

(١) من الأزواج والأولاد : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

الدنيا وهى راحة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يسمى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع .

ثم يكشف للسامعين عن حقيقة الدنيا ويبين لهم قصر مدتها . وانقضاء لذتها ، بما يضر به من الأمثال الحسية . كما تقدم فى الفصل الثالث عشر . ويذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصفها والتحذير من الافتتان بها . كقوله تعالى « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » شرح لنا العالم الحكيم فى هذه الآية حال الدنيا التى افتتن بها قصار النظر وبين أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلاً عن الافتتان بها والانهماك فى طلبها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعمب . وهو تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينة لا تنفيذ المقتون بها شرفاً ذاتياً كالملابس الجميلة والمرائب البهية والمنازل الرفيعة . وتفاخر بالأنساب والعظام البالية . ومباهات بكثرة الأموال والأولاد وعظم الجاه — ثم أشار جل شأنه إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال قريبة الاضمحلال كمثل مطر راق الزراع نباته الناشئ . به ثم يهيج يتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له فسرعان ما تراه مصفراً متغيراً ذابلاً بعد ما رأيت أخضر ناضراً . ثم يصير من اليبس هشياً متكسراً . فى تشبيه جميع ما فى الدنيا من السنين الكثيرة عمدة نبات غيث واحد يقنى ويتلاشى فى أقل من سنة إشارة إلى سرعة زوالها وقرب تلاشيها — وبعد ما بين سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها تهيداً فيها وتنفيراً من الانهماك فى طلبها أشار إلى فخامة شأن الآخرة وفضاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيباً من عذابها الأليم . وترغيباً فى تحصيل نعيمها المقيم ، حيث قال « وفى الآخرة عذاب شديد لمن عصاه لأنه نتيجة انهماكهم فيما ذكر مفصلاً من أحوال الحياة الدنيا (ومغفرة)

عظيمة (ورضوان) عظيم لمن أطاعه . وما زينة الحياة المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الغرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها مزرعة للآخرة ومطية لتعيمها .

وفي البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك . ومن حياتك لموتك . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه سر على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هينةً على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها . قال : والذى نفسى بيده للدنيا أهونُ على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » أخرجه الترمذى وهذا أبلغ شيء فى تحقير الدنيا التى استعبدت الناس وأذلتهم وشغلتهم عن خالقهم ومالك أمرهم .

لهذا حذر الله تعالى عباده المؤمنين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والاسترسال فى التمتع بملاذها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر أنواع العبادات المذكورة لجلال المعبود الموصلة إلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة .

والمراد نهيهم عن الانهماك فى جلبها والتلهى بزخارفها عن السعى فى كسب رضا تعالى ونيل إحسانه وإنذار الغافلين عن الله تعالى المفتونين بحبها — وحبها رأس كل خطيئة — بقوله « ومن يفعل ذلك » وألهاه ماله وولده عن ذكر الله وطاعته وأهمل أمر السعادة « فأولئك هم الخاسرون » الكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى . وأمرهم أن يبادروا قبل فوات الفرصة فى تخليص أنفسهم من خطر المسئولية ويبرئوا ذمتهم من الحقوق الواجبة كإعانة المجاهدين والفقراء والمساكين بقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » وهو فى حكمه عادل وبالجميع رءوف رحيم .

فما كلف الأغنياء بما يعسر عليهم ولكن بقليل من كثير صار لديهم من واسع الكرم تفضلاً منه وإحساناً إذخاراً للآخرة وتزوداً إليها ، يحمله لهم الفقراء إلى الدار الآخرة من قبل أن ينزل الموت بساحته ويشاهد دلائله ويماين أماراته لا يسمع له

عذرو ولا تنفمه شفاعة (فيقول) عند تيقنه بجلوله يا « رب لولا آخرتنى » أهلتنى « إلى أجل قريب » أمد قصير متمنيا أن يزداد في أجله حتى يتصدق ويرزكى وهو تعالى لا يمهل من انقضت مدته وحضر أجله « ولن يؤخر الله نفساً » عن الموت « إذا جاء أجلها » انتهى زمنها المقدر لها عنده سبحانه « والله خبير بما تعملون » فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فسارعوا إلى الخيرات واستعدوا لما هو آت .

وعن عبد الله بن الشخيرضى الله عنه أنه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (الهاكم التكاثر) أى السورة المسماة بما ذكر لكونه صدرها » قال النبي بعد إتمامها « يقول بن آدم » أتى بالمضارع إشارة إلى أن هذا القول ديدنه ودأبه بحسب طبعه « مالى مالى » أى مالى هو الذى أعتنى به وأهتم ، فالتكرار لفظاً للتعظيم والاهتمام « وهل لك » أى أتقول ذلك « يا ابن آدم » وتهم بأمره وهل لك « من دنيائك التى » اهتممت بأمرها واحتفلت بشأنها ، والاستفهام للإنكار أى مالك منها على الحقيقة « إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت أو صدقت » على محتاج قاصداً وجه الله تعالى « فأمضيت » أنفذته وفى رواية فأبقيت — والمراد أمضيت التصديق ونجزته فأبقيت ثوابه مدخراً لك عند الله تعالى — رواه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح . وما يخصه مالك من دنيائك إلا ما انتفعت به فى دنيائك بأن أكلت أو لبست ، أو أخراك بأن صدقت ، وما عدا ذلك من باقى المال ، فأنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره — وفيه تحريض على الاقتصاد على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وادخار ما عداه عند مولاه — وما أحسن قول بعضهم اجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله ، واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ويحتم المقال بذكر معنى النظم الكريم إجمالاً كأن يقول : إن الله تعالى ينبه عبده إلى المبادرة بطاعته وشكره من قبل أن يعاين ما يبأس معه من الإهمال ويتعذر عليه تدارك الأمر ويفوت وقت القبول فيتحسر على ما فرط . وبعض على أنامله لفقده ما كان متمكناً منه — ويذكر لهم هنا ما يناسب المقام كأن يقول قال سعيد

ابن جبير : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعوتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

وقال لقمان لابنه : « يا بني إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها » وقال : « يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشرعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً ، وعيسى عليه السلام لم يضع لينة على لينة » . وكان يقول : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل لابن آدم رحمه الله : بم وجدت لزهد في الدنيا ؟ قال : بثلاثة أشياء : رأيت القبر موحشاً وليس معي مؤنس ، ورأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد ، ورأيت الجبار قاضياً وليس معي حجة ولا من يدافع عني .

فعلی الرجل الرشید أن يتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، ويتدارك أمره قبل أن ينزل عليه سلطان الموت ، فلا تقبل منه توبة ولا ينفع له عمل . والله تعالى التوفيق .

الموعظة الرابعة هداية القرآن إلى السعادة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال الله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

إذ الله تعالى قد امتنَّ على عباده برسوله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وكتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والذي هو أكبر نعمة لله عز وجل على المؤمنين « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » انصح به للناس سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم . بما أرشد إليه من صحيح العقائد . وما فصل فيه من الأحكام وبين من أخلاق وآداب . واتسع للعقول طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . فهو الضياء والنور .

والشفاء لما في الصدور . من أعرض عنه هلك ، ومن طلب العلم في غيره ضل . هو جبل الله المتين ، ونوره المبين ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غرائبه ، من آمن به سبق ، ومن نال به صدق ، ومن عمل به نجا ، ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه ، هو ينبوع الملة ، وأساس الإسلام الذي ارتضاه الله عز وجل ديناً لعباده ، وقانون حكيم يرشد الناس إلى سعادتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ذلك هو المقصد الأسمى منه ، وما وراء هذا من أحكام وآداب ونحوها وسيلة للوصول إليه ، وإن فيه من تهذيب النفوس ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها وإخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان . وإرشادها إلى نظام حياتها الاجتماعية ما لا يستغنى عنه أحد من الناس ، وإن له من السلطان على نفوس الذين يفهمونه والتأثير في قلوب الذين يتدبرون آياته ما ليس لكلام سواه .

وهنا يبين للسامعين أنه ينبغي لكل إنسان لا فرق بين عالم وجاهل أن يتدبر آيات القرآن الحكيم وينظر في معانيها بقدر طاقته ، ويكفي العامى من فهم الآيات ما يعطيه ظاهرها كما تقدم لك . ولا شك أن فهم هذا القدر مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ومن الممكن أن يستفيد كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر ، فإن الله عز وجل أنزله لهداية الخلق ، وهو يعلم كل ما هم عليه من الضعف قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . وقال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . كان البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن خر له ساجداً لما فيه من حلاوة ، ولما عليه من حلاوة . وهل خضعت العرب للحق إلا بمجاذبية القرآن — قال الأصمعي سمعت بنتاً أعرابية في السادسة تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلت إنساناً بغير حله

مثل غزال ناعم في دله انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أضحكك . فقالت ويحك أبعده هذا فصاحة مع قول

الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي

ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين
ونهيين وبشارتين - وسمع بعض الأعراب قارئاً يقول : « والله غفور رحيم » بدل
« والله عزيز حكيم » في آية : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا
نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فأنكره وقال : ليس هذا
من كلام الله إذ الحكم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه .
وروى ابن ماجه عن علي رضي الله عنه أنه قال : « أمر الله نبيه أن يعرض نفسه
على قبائل العرب ، فخرج وأنا معه وأبو بكر ، فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال
أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى الشهاداتين وإلى أن ينصروه فإن قریشاً كذبوه . فقال مقرون بن عمرو :
إلام تدعوننا أبا قریش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل
والإحسان » الآية . فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن
الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . ثم بين لهم أن الله عز وجل أنزل
القرآن لمقاصد خمس .

الأول : التوحيد وهو أهم ما جاء لأجله الدين الخفيف فإن الناس بومئذ كانوا
في ظلمات الشرك والوثنية ، ولقد جاء في القرآن الحكيم من آيات التوحيد ومقارعة
المشركين ما يكفي لاقتلاع جذور الوثنية والشرك ، وهدم منار الإلحاد في أي أمة
وفي أي زمان . . . ويتلو على السامعين شيئاً من تلك الآيات التي قضت على الوثنية
التي كانت فاشية في تلك الأمم ، وفتحت أمام العقول أبواب النظر في الكائنات
تهتدى إلى أن لها صانعاً حكيماً قادراً علياً . كقوله تعالى « أيشركون ما لا يخلق شيئاً
وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى
لا يتبعوك سواء عليكم أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إن الذين تدعون من دون الله
عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها
م لهم أيد يبطشون بها - أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل
لادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

وكتوبه : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأسهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يفتى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات ، وحنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الثاني : وعد الطائعين الحافظين لحدود الله بحمائل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة ترغيباً وترهيباً ، وأن الوعد بالخير يتم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما . والوعيد كذلك يشمل نعمهما وشقاءهما ، فقد وعد جل شأنه أهل الأستقامة بالاستخلاف في الأرض والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأرعد المخالفين بالجزى والذل في الدنيا ؛ كما وعد بالنعيم المقيم وأرعد بنار الجحيم في الآخرة — وبالأول ساقى الطائعين إلى الجد في الطاعة ، ، وبالتالي أوقف المعصاة عند حد الأدب ويتلو عليهم شيئاً من آيات الوعد والوعيد التي ذكرناها في الترغيب والترهيب .

الثالث : العبادة التي تجلو القلوب وتهذب النفوس وتنمي فيها شجرة الإيمان وتقوى فيها روح التوحيد . ويتلو شيئاً من آيات العبادة والإخلاص فيها ، كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا — والله على الناس حجج البيت — وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

الرابع : مكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين : وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنساني ويوصل الناس إلى خير الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتعاليم . ويتلو عليهم ما في ذلك من الآيات .
الخامس : العظة والاعتبار : والنظر في الشؤون العامة التي كانت عليها الأمم

الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله في خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالى وخضع لأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم . ويتلو عليهم شيئاً من أخبار الأولين .

هذه هي المقاصد التي اشتمل عليها القرآن الحكيم . وفيها حياة الناس وسعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة . وإن الفاتحة قد اشتملت عليها إجمالاً — فأما التوحيد ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » فإنه تعالى استحق الثناء لأنه على الحقيقة مصدر كل نعمة وإحسان يستوجب الحمد . ومنه نعمة الإيجاد والتربية — وأما الوعد والوعيد ففي قوله تعالى : « مالك يوم الدين » فإن معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء . — وأما العبادة مع الإخلاص فيها ففي قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وأما مكارم الأخلاق ونظام الاجتماع . ففي قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فإنه السبيل القويم الذي اختاره الله عز وجل لعباده . وجعل السعادة في الاستقامة عليه . والشقاء في الانحراف عنه ، ولا ريب أن الاستقامة ثمرة العبادة وسرها . وأنه ما من أمة انحرفت عن هذا الصراط السوي . ولم تراع سنة الله في خلقه إلا وحلّ لها من العدل الإلهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد السلطة وسقوط الهيبة — وأما العظة والاعتبار بالأمم الماضية ففي قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فإنه يفيد أن هناك أقواماً تقدموا أنزل الله عليهم شرائع هدايتهم « ففريق » أطاع الله ورسله ففازوا برضاه وهم الكاملون المخلصون من أهل الحق الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به « وفريق » جحد وعاند الدعاة إليه تعالى فاستحقوا المقت الإلهي والخزى في الحياة الدنيا « وفريق » أدخلوا بالاعتقادات الصحيحة وضلوا عن الصراط السوي فباءوا بالفشل والخيبة — والقرآن الحكيم قد فصل لنا من أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يكفي للعبارة والانعاط ، فشرح لنا حال الذين حافظوا على الحق وصبروا على ما أصابهم في سبيله ، وحال الذين قاوموا الحق عناداً وحال الذين ضلوا فيه ضلالاً بعيداً —

فاتضح بذلك أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على هذه المقاصد التي فصلها القرآن تفصيلاً لا خفاء معه ولذا سميت الفاتحة بأمر الكتاب .

ويحتم القول ببيان فضل القرآن مستشهداً بما ورد في ذلك من السنة ويحتمهم على الاعتناء به تعلماً وحفظاً وترتيلاً^(١) وعلى احترام مجلسه بالسكوت وعدم اللغط وشرب الدخان ويضرب لذلك الأمثال — كأن يقول نزل القرآن كغيمه من الكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون ويهتدى بهديه المهتدون قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » نزل ليكون ترغيباً للطائع وترهيباً للعاصي . نزل لنهذب به نفوسنا ونصلح به شئوننا . فواجبنا أن نقبل عليه لنُفْلِح ونسعد وإليكم شهادة ألد أعداء القرآن للقرآن . روى أن الوليد بن المغيرة سر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة ، فلما وصل إلى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، فعلم أنه مقبول الدعاء صادق اللهجة ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد آناً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له خلوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه . فقالت قريش : صبا والله الوليد والله لتصبأن قريش كلها ، فقال ابن أخيه أبو جهل « أنا أ كفيكموه فقعده عنده حزينا وكله بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخفق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا سحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يأتريه عن أهل بابل ؟ فارتج النادى فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله متمجبين منه .

ولا يخفى أن استعظامه للقرآن أولاً واعترافه بأنه ليس من كلام الإنس والجن يدل على أنه كان في ادعائه السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن وأنه كان يقول

(١) يرجع إلى « الإحياء » و « رياض الصالحين » في فضل القرآن وآداب تلاوته .

خلاف ما يعتقد ترضية لقومه وحرصاً على حياته — من كلامه إن كان محمد صادقاً
فما خلقت الجنة إلا لي . وكان من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب بالوحيد
وزيخانة قريش — وأولاده عشرة كلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة
وهشام والعاصي وقيس وعبد شمس ، أسلم منهم أربعة : الوليد وله قصة — وخالد
وهشام وعمارة .

نماذج في مواعظ السنة النبوية

الموعظة الأولى في الحث على الكسب من طريقه الحلال

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به
عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه » . اعلم أن رب الأرباب وخالق
الأسباب ، جعل الآخرة دار العقاب والثواب ، والدنيا دار التشمير والاكتساب
وليس التشمير في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة إلى المعاد
ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله
الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » . والناس
ثلاثة رجل : شغله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين . ورجل شغله معاده
عن معاشه فهو من الغالين المكروهين . والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي
شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المحبوبين . ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم
قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فأثروا ما يبقى
على ما يبقى » رواه أحمد وغيره أي لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة مولاه
فيخسر الآخرة ، والاتقطاع للآخرة ينمعه عن الكسب فيصير حملاً ثقيلاً على كاهل
الأمة . وفي الحكم المأثورة « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ،
ولم يكن كلا على الناس » فأفضل الأمرين التزام حد الوسط .

وقد جاء الشرع الشريف بفضل الكسب والحث عليه من طريقه الحلال
قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا
الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقال تعالى : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً »
أي وقتاً يلزم السعي فيه لتحصيل المعاش . وقال عز وجل : « فامشوا في مناكبها
وكلوا من رزقه وإليه النشور » والمناكب جوانبها وطرقها وقال عز وجل : « وآخرون
يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » أي يسافرون فيها لطلب ما قدر لهم من
الأرزاق والأرباح في تجارتهم وأسفارهم — وقال بعض السلف : « إن من الذنوب
ذنوباً لا يكفرها إلا الهمة في طلب المييشة » متى صحت النية وكان صابراً محسناً فإن
الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو يعول ذرية
ضعافاً يصونهم عن الضياع . ويكفهم عن النطلع إلى ما في أيدي الناس فهو لاشك
في سبيل الله تعالى . روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ماتصنع ؟ قال :
أتعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ قال : في مزرعته
قال . أخوك أعبد منك — وقال لقمان لابنه : يا بني استغن بالكسب الحلال عن
الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال « زقة في دينه » وهو كناية عن
قلته فإن الفقر قد يحملة على ما يوجب ذلك « وضعف في عقله » وذلك لكثرة
ما يمتريه من الموم والأفكار . وهى لاشك تظلم العقل وتفسد الرأي « وذهاب
مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به .
واحتقارهم له . وازدراؤهم لحاله . وقال حكيم : إن في صلاح الأموال سلامة الدين ،
وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض — وقال أحيحة بن الخلاج : أصاحوا
أموالكم فإنكم لاتزالون ذوى مروءات ما استغفنتم عن عشيرتكم — وقال ابن عباس ،
رضى الله عنهما : اطلبوا الغنى بإصلاح ما في أيديكم ، فإن الفقر يجمع العيوب . وكان
عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم
ارزقنى . فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : ما من موضع
يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشتري . وقال

أبو سليمان الداراني سيد الزهاد : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك بقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزها ثم تعبد .

وعلى الجملة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يتجرون في البر والبحر . ويعملون في بحيلهم ومزارعهم . وكفى بهم قدوة . وأنه لا بد للعبد من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش . ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه وغيره ويعيش عزيزاً كريماً — ثم يشرح للسامعين مزايا التعمب في كسب الحلال من الاستغناء عن الناس وعن إظهار الحاجة إليهم . وإيصال النفع إلى الغير . والقيام بوظائف المدنية وقضاء المصالح التي عليها نظام العمران والسلامة من فساد البطالة واللهو والعبث وكسر النفس ليقبل طغيانها ويأمن من غوائلها . والتعفف عن ذل السؤال فلا يريق به ماء وجهه . وفوق هذا كله نيل الثواب متى كان صادقاً في عمله بعيداً عن الأذى . ويذكر لهم أنه يحرم على المؤمن أن يسأل وهو يستطيع العمل ، روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدى رضى الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة فقلب فيهما البصر ورأهما جليدين فقال لهما : إن شئنا أعطيتكما ولاحظ فيها انى ولا تقوى » وكذا يحرم الإعطاء لأنه تعاون على الإثم لا البر ، وما رواه الإمام مالك في الموطأ من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » ففيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقق مجزه وحاجته ، فالواجب التفرس في حال السائل كما يرشد إليه حديث عبد الله بن عدى — ثم إن العاجز لا يسأل إلا بمقدار حاجته ، روى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من حجر جهنم قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يفيديه ويغشيه » — وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال لست سائلاً

لكنك تاجر . ثم أخذ الخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدررة وقال لا تعد - ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضربه ولا أخذ مخلاته .

ويبين لهم أن أحل أنواع الكسب وأفضلها ما كان من عمل يده إذا نصح وعمل بأتقان وإحسان بعيداً عن الغش . وافية بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار الأجر . فبذلك يحصل الخير والبركة ، وبضده يكون الشر والوبال . ففي صحيح البخاري عن المقدم بن معديكرب الكندي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده في الدروع من الحديد وبيعه لقومه » وخص داود لأن اقتصاره في أكله على ما كان يعمل بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة الله في الأرض ، وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل . ولهذا أورد النبي صلى الله عليه وسلم قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد وأن في ذلك دليلاً على أن الاكتساب لا ينافي التوكل على الله متى كان الاعتماد في حصول الرزق عليه تعالى لا على الأسباب .

ويبين لهم أن هذا كله في من طلب الكفاية لنفسه وعياله ، فأما من كان عنده الكفاية ولكن يطلب الكسب لتحصيل الثروة والزيادة على الكفاية فإن كان مقصوده استكثار المال وادخاره لا ليصرف في وجوه الخير ونافع الأعمال له ولأئمة فذلك مذموم عند الله والناس أجمعين لأنه إقبال على الدنيا التي حجبها رأس كل خطيئة فإن كان مع ذلك ظالماً للناس خانئاً غاشئاً في المعاملات مقصراً في الواجبات فذلك الذي خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكانت دنياه وبالاً عليه ونقمة لا نعمة - وإن كان يطلب الزيادة على الكفاية لإصلاح نفسه وعياله ، وصرفها في أنواع البر والأعمال النافعة مع البعد عن مظالم العباد ، واجتناب الغش والخيانة ، والقيام بما وجب عليه فذلك هو السعيد الموفق المحمود عند الله والناس .

ويبين لهم مزار البطالة ، وأن يعود الرجل فارغاً من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه ؛ من سفه الرأي وسخافة العقل ، واستيلاء الغفلة وجهل بأداب الدين

القويم ، وأن العمل مهما كان حقيراً فهو أفضل من البطالة ، وسؤال أحد من ذوى المال إن أعطاه فقد حمله ثقل المنة مع ذل السؤال . وإن منعه فقد باء بذل الخيبة مع ذل السؤال — حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » ، وقال بعض الحكماء : « لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فالكريم محتال ، والذنىء عيال » حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملاً على كاهل المجتمع ثقيلاً مردولاً . يتكفف الناس فهذا أمر محموت محتقر ، وخير منه أحقر أنواع السعى كالاحتطاب من رءوس الجبال والفلوات فيبيعه ويمون نفسه وعياله منه كما أرشد إلى كل ذلك هذا الحديث الشريف سمع أحد الأدباء رجلاً فى الثلث الأخير من الليل يقول :

وأكرم نفسى أنتى إن أهنتها وحقتك لم تكرم على أحد بعدى
فأعجبه قوله فأتاه حتى وقف على رأسه فإذا به يقم الشارع (زبال) ليبيع القمامة
ويمون نفسه وعياله من ثمنها — فقال له أنت تقول أكرم نفسى ؟ فأى إكرام أنت
فيه مع ما تصنع من جمع القمامة ؟ فقال له : إليك عنى لقد أكرمتها بهذه الحرفة
عن ذل السؤال لثلك . فقال : صدقت وقيله بين عينيه .

ويبين أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة والترفع عن صغير الأعمال النافمة طمعاً فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام ، فتضيع على المرء أوقاته ، ويزداد قموده ، وتخور عزيمته ، وينتهى به الحال إلى الحق والرذيلة كان قس بن ساعدة الأيادى يمد على قيصر الروم ويذوره فقال له القيصر يوماً :
ما أفضل العقل ؟ قال معرفة المرء بنفسه . قال فما أفضل العلم ؟ قال وقوف الرجل عند
علمه . قال فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاه الرجل ماء وجهه . قال فما أفضل المال ؟
قال : ما قضى به الحقوق . وصفوة القول أن العمل على الحياة أس العمران وقوام
حياة الفرد والجماعة ، وضمان الشرف ، وأمان من الذلة والمهانة ، وخير فى الدنيا
والآخرة . لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على العمل ، والتحذير من البطالة والكسل
وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية علامات النفاق

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتهم خان » متفق عليه . زاد في رواية لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم »

النفاق مخالفة الظاهر للباطن . والنفاق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن — وهو نوعان اعتقادي وعملى « فالأول » أن يظهر الإسلام وهو يخفى الكفر . وكان هذا حال المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخبث أنواع الكفر وأشدّها خطراً قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وقال تعالى « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » وفى القرآن الحكيم كثير من فظائع منافق اليهود وفضائحهم — « والثانى » ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً ومراعاتها علناً ، وهذا يسمى فى لسان الشرع نفاقاً ، كما جاء « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . وإنما هو كفر دون كفر وفسوق دون فسوق . ونفاق دون نفاق . ومنه قول عمر لحذيفة رضى الله عنهما « هل تعلم فى شيئاً من النفاق ؟ قال لا^(١) » وتتفاوت مراتبه على قدر تفاوت آثاره فى الاجتماع . ومن البين أن أعمال الجوارح كلها مصدرها القلب . وأنها عنوان عليه ومعيار له صلاحاً وفساداً — لهذا جعل الشارع هذه الخصال الثلاث علامة على ما فى القلب من الخبث والفساد .

« الخصلة الأولى » الكذب فى القول . فإذا حدث غيره بشيء أخبر عنه بخلاف ما هو عليه قاصداً الكذب . ولا ريب أنه من قبائح الذنوب . وفواحش الميوب . معاقب عليه بالسقوط فى الدنيا والخرى فى الآخرة . فمن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر

(١) هذا عمر رضى الله عنه على جلاله قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمة لنفسه رضى الله عنه وكل من كان أوفر عقلاً وأقوى ديناً كان أقل إجماباً وأعظم اتهاماً لنفسه إلا أن هذا قد عز في هذا الزمان وجوده

يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا . متفق عليه . وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اضمنوا لى ستأضمن لكم الجنة . اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم . واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » . رواه أحمد وابن حبان والبيهقي ورجاله ثقات . وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما تنجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله عز وجل منها توبة » . رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات — وورد أن أعرابيا باع النبي صلى الله عليه وسلم على تركه خصلة من الخصال المحرمة كالزنا والسرقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « دع الكذب » فصار كلامهم بسيئة قال كيف أصنع إن سألتني النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فإن صدقته حدثني . وإن كذبتة فقد عاهدني على ترك الكذب . فكان سببا لترك الفواحش كلها وحسن توبته .

وهنا يبين للسامعين أن من أقبح أنواع الكذب والفجور في الخصومات بالميل عن الحق ودعوى الباطل والدفاع عنه — والخالف الكاذب لا سيما فيما يتعلق بالمعاملات وشهادة الزور . ففي البخارى عن أبى نكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالها ثلاثا . قالوا بلى يا رسول الله . قال : أكبر الكبائر . الإشراك بالله وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئا — ثم قال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » — وجملة القول أن من الخيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك فيه مصدق وأنت له به كاذب — وإن اللسان الأخرس خير من لسان ناطق بالكذب .

« الخصلة الثانية » إخلاف الوعد ، فكل من وعد إنسانا بخير في المستقبل ولم يف كان منافقاً . والإخلاف قد يكون فعلاً كما يكون قولاً ، وكله قبيح مذموم . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » هذا إذا وعد غيره وفي عزمه عدم الوفاء ، أما إذا كان عازماً حال الوعد على الوفاء ثم عرض له مانع أو بدا له رأى فلا يعد ذلك من النفاق . ففي حديث الطبراني : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف . وحديث أبي داود وإذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يف له فلم يف فلا إثم عليه — ثم يبين مضار الإخلاف وآثاره السيئة في الدين والدنيا ، ويحث على الوفاء بنحو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فدفعتها إليه فخرج في البحر فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فقربها فأدخل فيها ألف دينار فرمى بها في البحر ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه فإذا بالخشبة فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها وجد المال » . الحديث رواه البخاري بتامه في باب الكفالة وقد تقدم في الفصل الثامن .

(الخصلة الثالثة) الخيانة في الأمانات بالتصرف فيها على خلاف ما يقتضيه الشرع الشريف ، وهي أيضاً قبيحة شرعاً وعقلاً ، ومن شر أنواع الخيانة الغدر في المعاهدات . وكل من تخالف مع إنسان على شيء ثم غدر كان منافقاً « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . فوبال ذلك عليه وحده قال تعالى : « ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تصنعون » . ومن الخيانة أيضاً إنشاء السرقة حرام لما فيه من الإيذاء والتهاون بحقوق الإخوان والأصدقاء وإن خلا من الإيذاء فهو لؤم ودناءة — وهنا ينفر الناس من الغدر بأنه مما يعاقب عليه صاحبه في الدنيا قبل الآخرة ففي الحديث « خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغي والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعرفة لا يشكر » . روى من عدة طرق — ويحث الناس على التخلق بالصدق والوفاء والأمانة بنحو قول الإمام على رضي الله عنه « إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض ، وأداء الفرض

والوفاء بالعهد ، والإنجاز بالوعد . ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى ما يخافه وأبعد مما يرجو » :

وجملة القول أن للنفاق علامات كثيرة وهذه الخصال الثلاث تشمل جميعها . ذلك أن أصل الديانة منحصر في القول . والفعل . والنية . فنبه هذا الحديث الشريف على فساد القول بالكذب : وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فساد النية بالخلف ، وإن هذه الخصال الثلاث أمارات النفاق والخبث في الباطن ، وصاحبها شبيه بالمنافق في هذه الخصال . ومتخلق بأخلاق المنافقين بإظهاره خلاف ما يبطن فكان منافقاً في حق من حدثه ووعدته واثمنه ، وإن لم يكن منافقاً في الاعتقاد ، وأن كل خصلة يمكن أن يطبع عليها المؤمن إلا الكذب والخيانة ، فإنهما بالتطبع والاعتقاد — قال على رضي الله عنه . من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من التساهل في أمر هذه الخصال فتصبح لهم عادة خشية أن تقضى بهم إلى نفاق الكفر والعياذ بالله تعالى إذ كل من غلبت عليه وتهاون بها واستخف بأمرها كان فاسد الاعتقاد غالباً — أما من وقعت منه نادراً من غير اختيار أو اعتياد فلا ، متى تاب عنها وحسنت توبته . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

الموعظة الثالثة الزواج وعادات الناس

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ، ولجمالها ولدينها ، فاقظري بذات الدين تربت يداك » .

النكاح ركن عظيم من أركان الحياة الاجتماعية التي لأجلها خلق الله تعالى هذا النظام الكوني ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها ، فإنه السبب الأعظم في بقاء النوع الإنساني على أحسن وجه وأكمل نظام والوسيلة الشريفة لتكوين الأسر ؛ وسبيل إلى التألف والتعاون بين أفراد الأمم ،

بل صلة الزواج أقوى صلة ، فإنه ينقل المودة بين أهل كل من الزوجين حتى يكون الكل ربطة واحدة وتصير كل عشيرة عوناً وعضداً للأخرى على درء المضار وجلب المنافع ، كما أنه موجب للعفة وحصن للنفس من الوقوع في المناهي وصيانة للمرأة عن الهلاك بالنفقة والسكنى واللباس : فإنها عاجزة عن الكسب لا تقوى على ما يأتيه الرجل من ضروب السعى وتحمل المشاق في سبيل الحصول على الزاد ومرافق الحياة وصيانة للأولاد أيضاً عن الهلاك ؛ فإنه لولا النكاح لاختلطت المياه واشتبهت الأنساب وضاعت الأولاد لعدم من يدعيها وهذا هو الواد الخفي ، بل أشد أنواع القتل — وبالجملة أن في النكاح فوائد جلية ومصالح كثيرة من حفظ الفروج ودفع التباغض والتحاسد ، وقطع النزاع المفضى إلى حدوث الفتن والافتتال ، فبِهِ حفظ النوع البشري عن الهلاك والإقراض وتكثير عدد الموحدين لله تعالى في أرضه على وجه يزيد في عمرانها وصلاحتها ، هذا وقد جرت عادات الناس بأنهم يرغبون في زواج المرأة لواحد من الأغراض الآتية :

(لما لها) ولو كانت وضيفة دميمة فاجرة ؛ لأنها إذا كانت ذات مال فقد نستغنى بما لها عن مطالبة بماها بما يحتاج إليه غيرها من النساء ، وقد يرزق منها بولد فيعود إليه ما لها بالإرث ، (وهنا) يشرح للناس ما في ذلك من المتاعب وكدر العيش ، فإن ذات المال ممنه طاغية ما لم يكن لها دين يمنعهما عن الرذائل وسوء الخلق ، وما في ذلك من عكس الآية الإلهية ، فإنه تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام الولاية على الرعية ، وملاك الرجل ناصية المرأة بأمرين . « أحدهما » وهبى ذكره الله تعالى بقوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » . من رجحان العقل وزيادة الدين والحظ في الميراث والقوة على الأعمال والجهاد وإقامة الشماثر وأهلية الولايات والنبوة والتزوج بأربع من النساء وانتساب الولد إليه « والثاني » كسبى ذكره تعالى بقوله : « وبما أنفقوا من أموالهم » أى بسبب ما أخرجوا لنكاحهن من الأموال في المهور والتنفقات . وبذلك كانت للرجال عليهن درجة ، فأولئك الذين يطلبون المرأة لما لها حتى سفهاء ضعاف الثقة بالله ، رضوا لأنفسهم في سبيل هذا الحطام

الفانى بالذل والإهانة إن تم لهم الانتفاع بما لها - وعلى الجملة : إن كان النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى إليه كان المال هو المنكوح فان اتفق معه أحد الأسباب الباعثة على الانتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وأن تجرد عن غير المال . فأخلق بالمقد أن ينحل وبالألفة أن تزول سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء .

« ولحسبها » أى شرفها والحسب فى الأصل الشرف بالآباء وبالأقارب : مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آباءهم وقومهم وحسبوا ، فيحكم لمن زاد عدده على غيره - وهنا يبين الحسب المدح والمذموم ويرغب فى الأول وينفر من الثانى كما يحذر من طلب الدينثة كنبت الزنا ونبت الفاسق واللقيطه ومن لا يعرف لها أصل ، فانه مكروه . روى الحاكم « تحيروا لنطفكم فان العرق دساس » أى فلا تضعوها إلا فى أصل طاهر ، لأن العرق نزاع ينزع إلى أصل أمه وطبايعها ، وإجمالاً أنها سترى أولادها وتؤدبهم فاذا لم تكن من بيت شريف لم تحسن التأديب والتربية وكانت وبالا على بعلمها وعيالها .

« ولجمالها » لأن الجمال مطلوب فى كل شىء لا سيما فى المرأة التى تكون قرينة وعشيرة . روى الحاكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء من نسر إذا نظرت وتطيع إذ أمرت » فان كان النكاح رغبة فى الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ، فان سلم الجمال من الادلال المفضى إلى الملل دامت الألفة واستحكمت الوصلة ، لكنهم كرهوا الجمال الباهر لما يحدث عنه من الأدلال المؤدى إلى الوقوع فى قبضة الادلال .

« ولدينها » وهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها عن الخسائس وفرجها عن المحارم أزلت بزوجها وسودت وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنقص بذلك عيشه . فإن سلك سبيل الحمية والغيرة بقى فى بلاء ومحنة ، وإن تساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والألفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد وفتنتها عمياء وداهيتها صماء : إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يبصر عنها ولا يبصر عليها ، فهو إذاً فى نارين مبتلى ببلاتين . وإن

كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشامعه : ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين بقوله « فاظفر بذات الدين تربت يداك »

وهنا يذكر أن النساء على قسمين « صالحات » مطيعات لأزواجهن تصون عرضها وتحفظ مال زوجها في غيبته كما قال تعالى « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » . ثم تلا هذه الآية : فالله الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة : فإذا رزق العبد امرأة كذلك فليعلم أنها نعمة من الله سيقت إليه « وفاستات » بليات مائلات بميلات كما قال تعالى « واللاتي يخافون نشوزهن » عصيانهن . وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز للمكان المرتفع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات بميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » « كاسيات » تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه إظهاراً للجألهما ونحوه أو تلبس ثوباً رقيقاً شفافاً يصف لونهن « مائلات » يمشين متبخترات « بميلات » لأكتافهن وقيل مائلات يمشطن المشطة الميلاء وهي مشطة البغايا ومميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة « كأسنمة البخت » أى يعظمها بلف عصابة ونحوها « لم أرهما » أى فى حياته صلى الله عليه وسلم . والحديث من علامات النبوة . فقد وجد الصنفان فى هذا الزمان بالمشاهدة .

وجملة القول أن اللاتى بذوى المروة وأرباب الديانة أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شىء لا سيما فيما يدوم ويعظم خطره ، فلهدا اختاره صلى الله عليه وسلم بأكبر وجه وأبلغه حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية ومنتهى الاختيار ، وبالطلب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة ، فإن ذات الدين تريح الرجل

وتعيينه على حيرى الدنيا والآخرة . روى ابن ماجه عن ابن عمر سرفوعا « لا تتزوجوا النساء لحسنهن ففسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن ففسى أموالهن أن تطفيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » تربت يدك « إن خالفت ما أمرتك به وهى كلمة جارئة على ألسنتهم لا يريدون بها حقيقة الدعاء والمقصود منها هنا الحث على ذات الدين فيوافق قوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » إذ الصالح هو صاحب الدين . وهنا يبين أن المقصود من الحديث النهى عن مراعاة الجمال وغيره مجرداً عن الدين فلا ينافى استحباب ذلك فى المرأة بدليل أنه صلى الله عليه وسلم أمر من يريد التزوج بالنظر إلى المرأة قبل الخطبة ، وهو لا يفيد معرفة الدين وإنما يعرف به الجمال أو القبح ، فمن المعيرة رضى الله عنه « أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الترمذى وحسنه ويؤدم أن تدوم بينكما المودة والألفة — والسرفى كون ذلك قبل الخطبة أنه لو كان بعدها فربما أعرض عنها فيؤذيها — وينظر الخاطب من الحرة الوجه والسكرمين فقط لأن الوجه يدل على الجمال والسكرمين على خصب البدن — وتماهه فى كتاب الأبداع فى مضار الابتداع فى الفصل الحادى عشر فى بدع المعاشرة والعادات .

وينفر الناس من طلب المرأة لغير الدين ومن العلوفى المهر بنحو قوله صلى الله عليه وسلم « من نكح المرأة لمالهها وجهها حرم مالهها وجهها ومن نكحها لدينها رزقه الله مالهها وجهها » وقوله صلى الله عليه وسلم « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالهها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يفض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . وقوله : « أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وقال عروة رضى الله عنه وأنا أقول من عندى : أول شوئها أن يكتر صداقها .

ويبين أن على الولى أن يراعى خصال الزوج قال صلوات الله وسلامه عليه :

• إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» رواه الترمذى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . فلا يزوج كريمته من ساء خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها . فإن النكاح رق فليُنظر الرجل أين يضع كريمته . فلا احتياط في حقها أم لأنها رقيقة ولا مخلص لها منه إلا بسلطان الدين . ومن زوج ابنته فاسقاً أو سيء الخلق فقد جنى عليها . وأساء إليها . وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . قال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتق الله فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وفي الأثر من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وفي الحكم المأثورة لا تزوج كريمتك إلا من عاقل ذى دين إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

وهنا يبين ما لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية كأن يقول له عليها أن لاتمنعه نفسها . وأن تطيع أمره . وأن لا تخرج إلا بإذنه . وإلا لعننا الله والملائكة حتى تتوب أو ترجع ، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه وإلا كان له الأجر وعليها الوزر . وأن لا تدخل فيه من يكره وأن لا تخونه في نفسها أو ماله وأن تكون قائمة منه بما قسم الله قل أو كثر . قائمة بخدمة الأولاد وإصلاح البيت بالمعروف كاتمة لسره قليلة المراجعة له .

ولها عليه النفقة والكسوة بحسب حاله . والسكنى بين قوم صالحين . وأن يتعلم ويعلمها ما تحتاج إليه من أمر دينها .

وهنا أيضاً يذكر أنه ينبغي للوالدين تعليم الأولاد حقوق الزوجية وآداب المعاشرة : فمتى عرف كل من الزوجين ماله وما عليه نحو صاحبه وقام كل منهما بواجبه كان ذلك بلاريب أديم للألفة . وأبقى للهنا والصفاء .

وإليكم وصية أب حكيم لابنته عند زفافها : روى صاحب القوت واليهيقي في الشعب عن أسماء بن خارجة الفزارى - وكان من حكماء العرب - أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها « يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت

باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى فافهمى عنى ما أقول : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت الى فراش لا تعرفينه . وقرين لا تألفينه . فكونى له أرضاً مطيعة أو ذليلة منقادة : أو هينة « يكن لك سماء » يظل عليك برأفته ورفعته أو يطر عليك بإحسانه ونعمه « وكونى له مهاداً » فراشاً « يكن لك عماداً » نستدين إليه « وكونى له أمة يكن لك عبداً ولا تلحقى به » لا تلحقى عليه فى شىء « فيفلاك ولا تباعدى عنه » كناية عن امتناعها عنه فى الفراش « فينساك » يفضل عنك . فان من بعد عن العين بعد عن القلب « إن دنا منك فادنى منه » بالمداعبة والانبساط « وإن نأى عنك » بقبض وهيبة « فابعدى عنه » أى كونى من فلتاته على حذر « واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلاً ، زينا . إشارة إلى حسن الهيئة » وكونى كما قلت لأملك ليلة ابتنائى بها «

خذ العفومنى تستديعى مودتى	ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة	فانك لاتدربن أين المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب باله	وى فيأبأك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى	إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

هكذا تكون الآباء الرحماء والحكماء الأكياس .

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها :

أنى بُنيّة إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال — أنى بُنيّة : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك

رقيقاً ومليحاً - فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتمهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المققود ، والتمهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه . فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ ، وتنغيص النوم مَبْفَضَةٌ ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والأرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفضى له سرا ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان فرحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يَجِيرُ لك . نُحِمِلت فسلمت إليه فعظم موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا اليمن بعده - وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى التوفيق والهداية .

(نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية)

المحاضرة الأولى

سر مشروعية القتال في الإسلام

الحمد لله بين للناس سبل الاستقامة والهداية ، وأزال عن بصائر من أناب إليه غشاوة الضلالة والنعوية ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وداعياً إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأرواحهم صابرين مخلصين ، فكانوا هم السادة الغالبين ، الفائزين المنصورين « أما بعد » فإننا سنتحدث إليك الليلة والليالي بعدها إن شاء الله تعالى في أمر خطير يهم كل غيور على دينه أن يكون منه على بينة . ألا وهو « سر مشروعية القتال » في الدين الحنيف ، وقبل أن نتناوله بالبيان نسمعكم كلمة لا غنى عنها فنقول :

لأريب في أن الدين الإسلامي قام على الحججة والبرهان ، وظهر على كل الأديان بقوة البيان وإيجاز القرآن . ولم يقم بالسيف والقوة ، والتهمر والجهروت « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ولم يسئل دين الإسلام السيوف من غمده إلا بعد اعتداء الأعداء ، وبغى الأشتياء على النبي وأصحابه ، ووقوفهم حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الحق ، وصددهم عن سبيل الله ، وصراطه المستقيم لقد علمت قريش وشاهدت وتشهدت بأن سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين ، والطاهر المعصوم ، والمثل الكامل ، النقي السريرة ، الكريم النقيية ، الحكم الحكيم ، والشجاع الخليم الرحيم ، ولقد رأوا من دلائل نبوته ورسالته ، وآيات صدقه في دعوته مالا يدع مجالاً للريب ولا يترك موضعاً للشك في أمره صلوات الله وسلامه عليه — يعرفون عنه ذلك كما

يعرفون أبناءهم ، وعلموا من كاله ما لم يعلمه سواهم ، فلما جاءهم بالحق من ربه ،
وودعاهم إلى الإسلام كبر عليهم مادعاهم إليه ، وقابلوه بالسخرية والاستهزاء ،
والأنكار والإيذاء له ولمن آمن معه ، ظلما واعتداء ، وتكبرا وعناداً « وجحدوا
بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » وهذا دأب المبطلين ، وديدن المبهوتين ، مع
الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المصلحين في كل أمة « وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم
من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » « ولقد كذبت
رسول من قبلك فصبوا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات
الله ولقد جاءك من نبي المرسلين » رأى منهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه
عليه ما رأى من السخرية والإيذاء ، والتكذيب والإنكار فصبر كما صبر أولو
العزم من الرسل ، ومضى في نشر دعوته ، وتبليغ رسالة ربه غير هيب ولا وجل ،
ولم يبال بأذى ولا ضرر ولا وعد ولا وعيد ، يتلو عليهم القرآن ويقيم لهم الحجج
والبراهين ، وتتوالى عليه الآيات ، ويشاهدون منه المعجزات .

ولما عاب آلهتهم . وسقته عقولهم - فإنهم كانوا إذا احتجوا في تماديهم على
الباطل ، واستمرارهم على عدم اتباع الحق - ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقه -
له . كما قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه
آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وكقوله تعالى : « وإذا قيل لهم
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » وقال لهم : « يا قوم والله لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم
لما عاب آلهتهم ثارت في رءوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كانوا
يعبدونها تقليداً لآبائهم بلا عقل ولا روية ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم
الذي أخذ على نفسه حمايته من أعدائه فطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عن سب
آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آباؤهم ، أو يخلى بينهم وبينه . فردم
أبو طالب رداً جميلاً . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريد لا يصدده عن
سراده شيء . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئاً تذامروا وحض بعضهم بعضاً

عليه ، ثم رجعوا ثانياً إلى أبي طالب قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلوه وإياه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال : يا بن أخي إن قومك جاءوني وقالوا لي كذا وكذا فأبى علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيع . فظن الرسول أن عمه خاذله ومُسَلِّمُهُ ، وأنه ضَعُف عن نصرته والقيام معه « فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ثم استعبر وبكى » فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا بن أخي فلما أقبِل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلك لشيء تكرهه أبداً .

ولما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة له ولأصحابه ، فأما هو فقد أغروا به سفهاءهم - وهم المُدَّة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحاً - فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو ماض في سبيله يصارحهم بما يكرهون : من عيب دينهم وترك أوثانهم ، لا يبالي بما يصنع سفهاءهم معه - وأما أصحابه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام بأنواع التمزيب الذي يفزع من ذكرها قلب الحليم وهم يحملونها بصبر عجيب .

الإيذاء له صلوات الله وسلامه عليه

لقد رأى رسول الله من المشركين كثيراً من الأذى خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أكثرهم أذى له صلى الله عليه وسلم جماعة سُموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين : فأولهم وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي . قال يوماً : يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسيفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر لأطبق حمله ، فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف

ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يندو إلى صلاته وقريش في أنديةهم ينتظرون ما يفعل أبو جهل ، فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قريش قالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لي لخل من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بي أن يأكلني . فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذاك جبريل ولو دنا لأخذه » .

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك القرث فألقاه على النبي وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القرذ فرمته عنه فلما قام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال : اللهم عليك اللأ من قريش وسى أقواما قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر - وما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجمالا من رجل يقال له الأراشي فطله بأثمانها ، فجناء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله ، فدلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبي جهل ، استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول صلوات الله وسلامه عليه - فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد . فخرج منتقع اللون ، فقال له الرسول : أعط هذا حقه - فقال أبو جهل : لا تبرح حتى تأخذه . فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش : ويحك يا أبا الحكم أما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي حتى سمعت صوتاً ملثت منه رعباً وأن فوق رأسي لخل من الإبل ما رأيت مثله .

ومن جملة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ، كان أشد عليه . من الأباعد ، فكان يرمى بالقذر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطرحه ويقول : « يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتكلم فيه بالنسائم ، خصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة اللهب .

ومن جملة المستهزئين عقبة بن أبي معيط كان الجزار الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعمل معه كأبي لهب : صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله وسلامه عليه : « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فتشهد فبلغ ذلك أبي بن خلف الجحى القرشي المشهور - وكان صديقاً له - فقال : ماشيء بلغني عنك ؟ قال : لاشيء ، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبرق في وجهه ، وتلطيم عينه . فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك . فأنزل الله في سورة الفرقان « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال : « بينما النبي صلى في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفنه عن النبي صلى الله عليه وقال : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » ؟

وغيرهم كثيرون ؛ وكل هؤلاء قد انتقم الله منهم كما قال تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يخاولون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعم أنك بضيق .

صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقد وضع جل ثناؤه الوعد في صورة الماضي لتحقق وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هؤلاء كان بعد الهجرة — فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأسراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والمعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة .

وكا أوذى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوذى أصحابه لاتباعهم له ، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد عنه كيد عدوه ، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يقتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين . ولقد أنجز لهم وعده في قوله جل ثناؤه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليسكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؛ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ومن أوذى في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجحى القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يشقله ما هو فيه عن توحيد الله ، وكان أمية يخرج به وقت الظهيرة في الرضاء الشديدة الحرارة ، لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تسكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد . مرة به أبو بكر يوماً فقال : يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين ، حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فاشتراه منه . وأعتقه — ومنهم حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول . ومنهم امرأة تسمى زينة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً . ومنهم أم عيسى كانت أمة لبني زهرة ، وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث فاشترها منهم أبو بكر رضي الله عنه وأعتها .

ومن عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : « صبراً آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » . أما أبو عمار وأمه فأتتا تحت العذاب رحهما الله — وأما هو فتقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فإن أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها — فقال المسلمون : كفر عمار فقال عليه الصلاة والسلام : « عمار ملء بالإيمان من فرقه إلى قدمه » . وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جل ثناؤه : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب ولم عذاب عظيم » . ومن أودى في الله خباب بن الأرت سبي في الجاهلية فاشتريته أم أعمار وكان حداداً وكان النبي يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تمذبه بالنار ؛ فتأتى بالحديدة الحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيد ذلك إلا إيماناً وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ : « فعمد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : إنه كان من قبلك ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحالة الشديدة التي لا يتصور فيها أعتق العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة ، اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه . ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين في قوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذى لحقه ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وقوة إيمانهم ، فإنهم لم يسلموا لغرض دينوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك الإيمان حقيقة فرأوا كل شيء دونه سهلاً .

ولما اشتد الأذى بالمؤمنين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ففعلوا ، وتلك أول هجرة في الإسلام ، وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال وأربع نسوة ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، معهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار .

هل تظنون أنهم تركوا هؤلاء المهاجرين (لا والله) لم يتركوهم ، بل أرسلوا في أثرهم رجلين إلى الحبشة هما عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بالهدايا للنجاشي ملك الحبشة ، ولبطارقتة وطلباً إليه رد هؤلاء إلى بلادهم ، لأنهم خطر عليه وعلى بلاده ، وبعد محاورة بينه وبينهما وبينه وبين المهاجرين لم يسمع لقولهما وأكرم وقادة المهاجرين واقتنع أنهم على الحق وإلى الحق يدعون .

وبعد ثلاثة أشهر رجع المهاجرون إلى مكة حيث لا يتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلوا العدد وفي السكينة بعض الأوس ، وأضف إلى ذلك أنهم من أشرف قريش ومعهم نساؤهم . وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة . ثم هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة هم ومن استطاع الهجرة ممن آمنوا فراراً بدينهم من الفتنة ، لما يلاقونه من بغى المشركين .

وبقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه سائراً في طريق الدعوة صابراً على أذاهم غير مهال بما يصعبونه أمام الدعوة من عقبات ، والله تعالى يعصمه منهم ويحرسه ، وهم يتفنونون معه في ضروب الشر من نوع إلى نوع ، حتى لقد أجمعوا على مقاطعته ومقاطعة من آمن معه . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجهنهم ، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم شيئاً . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك . واستمروا على هذه المقاطعة سنتين لقي فيها النبي وأصحابه صنوف الشدائد وأنواع العذاب .

ويدل على شدة ما أقامه الرسول والمؤمنون ونزل بهم من المشركين ما روتنه أم عبد الله بنت أبي خيثمة — قالت : والله إنا لنرحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على — وهو يومئذ على شركه — فقال : إنه الإنطلاق

يا أم عبد الله . قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا ، وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فخرجا - وبعد ماضقوا بالنبي وأصحابه ذرعا ولم تنجع فيهم هذ الأعمال ، ولم تؤثر فيهم تلك الفظائع ، اجتمع المشركون في دار الندوة بمكة فتشاوروا ماذا يصنعون للخلاص من محمد وأصحابه ، فقرّر الرأي على ما قال أبو جهل عدو الله ورسوله وهو أن يختار من كل قبيلة شاب جلد نسيب وسيط ثم يجتمعون على باب محمد حتى إذا خرج ضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلهم . فعينوا الفتيان والليالة واجتمعوا فأعلم الله رسوله بما بيتوا له وأمره بالهجرة إلى المدينة ، وذلك في السنة الثانية عشر من البعثة وهي السنة الثانية والخمسون من عمره صلى الله عليه وسلم وسنة ٦٢٢ من الميلاد ، وعصمه الله من المشركين أعداء الحق والدين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلوا يُلحقون الأذى بمن بقي من أصحابه بمكة من مستضعفي المؤمنين الذين كانوا يقولون من هول مايلاقون . « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وبالجملة هذا قليل من كثير مما لقيه الرسول وأصحابه من أذى شديد ، ومعاملة قاسية من أهل مكة العتاة الجبابرة ، المردة الشياطين ، بعد مارأو الآيات وشاهدوا المعجزات ، وسمعوا القرآن . فهل مثل هؤلاء يرجى منهم إيمان ، أو يؤمل فيهم خير (كلا) ، فما بعد هذا كله إلا السيف ، هو الذي يكسر شوكة كل شيطان سريد ويقطع دابر كل كفار أثم . لذلك وجب القتال وشرع الجهاد ، لاحقاً في دنيا ولا طمعاً في مال ولا رغبة في سيادة ، بل شرع دفاعاً عن الدين وأهله ، وحماية للدعوة إلى سبيل الله .

وقبل مشروعية القتال أسلم كثيرون من أعلام قريش ونسائها وشبابها ودخلوا في دين الله راضين مختارين موقنين بأنه الدين الحق الذي أراضاه الله لعباده ، واختار لسعادة بنى الإنسان ، فأى داع دعا هؤلاء إلى اعتناقه سوى ما سمعوا من القرآن ،

وشاهدوا من المعجزات ، ولم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ قوة ولا سطوة ، ونذكر لك هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آثروا العقل على الهوى ، ولم يشتروا الضلالة بالهدى . فمنهم السيدة خديجة بنت خويلد وزيد بن حارثة ، أبو بكر الصديق ، علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، بلال بن رباح ، خباب بن الارت ، عثمان بن مظعون ، سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب .

ولا يزال كثير من ذوي الرأي والمفكرين يمتنعون الدين الإسلامي معتقدين أنه الدين الحق لاسواه ، لاخوفا ولا رهبة في زماننا هذا الذي ضعفت فيه الشوكة وفترت فيه الدعوة ، مما يدل على أن هذا الدين يقوم على الحجة والبرهان لا على السيف والاكرام .

وإليكم ماجاء في مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم لتعلموا أن الأسباب التي لها شرع القتال ترجع إلى أمرين :

(الأول) الدفاع عن النفس عند الاعتداء (والثاني) الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة المؤمنين بالأذى والتعذيب ليعودوا في ملة الكفر أو بمنع الداعي من التبليغ ، أو بصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه .

قال الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » دلت هذه الآية الكريمة على أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أذن المؤمنين في القتال

وبينت السبب في الأذن وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير موجب إلا الإيمان بالله وحده . ثم بينت حكمة الأذن بالقتال ، أى أنه لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لقلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا لهم حتى يكون لهم السلطان وتخرب أما كن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . فكان من رحمة الله بالناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين — ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف المصلحين الذين ينصرهم الله ما نصره الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — صوامع للربان ، بيع : كنائس النصراني صلوات : كنائس اليهود — مساجد للمسلمين .

وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلوا حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » بينت هذه الآيات الأذن بالقتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم ، وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن ولا يؤذى فيه . وبينت أن الفتنة في الدين بالتعذيب والإخراج من الوطن أشد قبحا من القتل إذلا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه على اعتقاده الذي تمكن من قلبه ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره . ونهت عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين

وهم الذين يبدءون غيرهم بالشر وبيئت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي الزيادة فيه على ما فعله للبادى به .

وقال تعالى « ومالك لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بيئت هذه الآية سببين للحث على القتال (الأول) سبيل الله وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (الثاني) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وقتتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص . فهولاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم إيذاء الظالمين وتجعلهم أحراراً فيما يدينون وما يعتقدون — وقال تعالى « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً سببلاً مستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث نقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » بيئت هذه الآية حكم الله في المنافقين وهو النهى عن قتالهم متى امتنعوا عن قتال المؤمنين وسالموهم ، والأمر بقتالهم إن اشتركوا مع المشركين في فتنة المؤمنين في دينهم . فالسبب في القتال دفع الفتنة في الدين .

وقال جل وعلا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » بيئت أن السبب في القتال هو فتنة المسلمين في دينهم والوقوف في طريق الدعوة — فأمرهم بالقتال إلى أن تزول الفتنة ، وتسير الدعوة في طريقها آمنة ، فيسلم الناس ويذهب الشرك ويصير الدين خالصاً لله وحده لا أترفيه لخشية أحد ولا دهائه — وقال جل وعلا : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإذا تتفقتهم في الحرب فشردهم من خلفهم لعلمهم بذكرهم » أفادت الآية أن السبب في القتال هو نقضهم العهد مرة بعد أخرى فأمر الله تعالى

نبيه أن يجاهدكم ويوقع بهم أشد النكال ليكونوا عبرة لغيرهم من المشركين فلا ينقضوا له عهداً ولا يملنوا عليه حرباً - وقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » بينت الآية أن السبب في القتال هو ميل المشركين إلى الحرب فإن مالوا إلى المسالمة وجب ألا يقاتلوا ، وإن خيف من خداعهم بإظهار الجنوح إلى السلام ليكف المسلمون عنهم فيأخذوهم على غرة فما النصر إلا من عند الله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله - فترون من هذا أن الكتاب الحكيم يأمر أهله بالسلم ولو خيفت عاقبته .

وقال جل وعلا : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أنتخشونم فأن الله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » بينت هذه الآية أن سبب القتال تلك الجرائم - نقض العهود - الطعن في دين المسلمين - الممء بإخراج الرسول حين تأمروا عليه بدار الندوة - بدؤم بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناقضون عهدهم آخرأ ، وأنتم قد أبيح لكم مجازاة المعتدى بالمثل .

كان اليهود قد مالوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوهم في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بموجبها ، فأمر المسلمون بقتالهم . وفي ذلك جاء قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فالسبب في قتالهم هو نقضهم عهد الرسول بمعاونتهم لأعدائه ، ووقوفهم في سبيل الدعوة ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام - وقال تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » المراد بهم أيضاً اليهود حول المدينة وهم بنو قريظة وبنو النضير ويهود خيبر ، لأنهم نقضوا العهد وحرّضوا العرب وأعانهم على المسلمين في غزوة الأحزاب فالسبب هو نقض العهد .

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يماثلونهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب الحكيم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . متفق عليه فإن المراد بهم المشركون ومن على شاكلتهم كالمجوس — وذلك أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الإسلام مآلاً يقاومها سواهم وكان استقرار الدين من غير دخول مشرك جزيرة العرب في الإسلام ضرباً من المحال — وإذا لم تفد العقاقير فأخر الدواء السكي — .

هذا ما جاء في الكتاب الحكيم خاصاً بأمر الجهاد ، وكله صريح في أنه لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس أو تأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها ، وأعلن أنه لم يجيء معتدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سأله . وما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسخطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وبالله تعالى التوفيق والهداية .

المحاضرة الثانية

الرق في الإسلام

وقبل الكلام عليه نذكر معنى الحرية والمساواة في نظر الإسلام فنقول :
الحرية خلوص الإنسان من ضيق الحجر وتمتعه بكل حق إنساني قضى به الشرع
وسوغه العقل ، وهي حق طبعي للإنسان إذا حرم منه فقد سلب إرادته وفقد
إنسانيته ، لهذا قررها الإسلام ورفع من شأنها ، وصانها من العبث بها وجعل الإنسان
حر النفس ، حر العقل .

حرية النفس

قرر الإسلام للناس حرية نفوسهم وصانهم من ذل العبودية إلا لله تعالى ،
ومن الخضوع إلا لشرعه القويم ، فلا سلطان لأحد من رؤساء الدين والدنيا على روح
المسلم : ولا سيطرة لهم على سريره . ولا واسطة بينه وبين ربه إلا العمل بكتابه ،
وما بينه رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يقدر أحد من هؤلاء على حرمانه من
ثواب الله ورحمته ما دام مستقيماً على طريقته ، ولا يملكون غفران خطيئته إذا خالف
أمر ربه ، بل ذلك كله لله وحده : يقول الله تعالى مبيناً وظيفة الرسل صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين .

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فلا سيطرة لهم على سرائر الناس
وليس لهم حق إجبارهم وإجبارهم ، بل أمرهم إلى الله بعد تبشيرهم وإنذارهم . ويقول
عز وجل لمحمد صلوات الله وسلامه عليه « فذكّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »
وقال له : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقال تعالى : « نحن أعلم بما يقولون
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقران من يخاف وعيد » وقام صلوات الله وسلامه عليه
حين أنزل عليه : « وأنذر عشيرتک الأقربين » فقال : « يا معشر قريش اشتروا
أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله

شيئا، يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمّة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا « متفق عليه .

نعم تجب على المسلمين طاعة الرسول وأولى الأمر ولكن فيما ينفذون من شرع الله تعالى لأنها طاعة له جل وعلا، أما في غير ذلك فقد كان للصحابة حرية الرأي مع الرسول في المصالح العامة التي لم ينزل فيها وحى، وكان صلوات الله وسلامه عليه ينزل على رأى الواحد منهم إذا تبين له صوابه . يدل على هذا مشروعية المشاورة في الأمور الدنيوية فإنه لا تكون مشاورة إلا مع حرية الرأي . وقد كانوا كذلك في عهد الخلفاء الراشدين : عليهم الطاعة فيما أمر الله تعالى ولهم الحرية فيما وراء ذلك ، وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول في أول خطبة له بعد الخلافة : أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، وفيها يقول : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . ومن خطبة لعمر رضى الله عنه : أيها الناس من رأى منكم فى أعوجاجاً فليقومه . فقام إليه رجل فقال : والله لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيفونا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم أعوجاج عمر بسيفه . فانظر إلى أى حد بلغت حرية الضمائر فى المسلمين فى الصدر الأول وبها عزوا وسادوا .

حرية العقل : كما جعل الإسلام الناس أحرار النفوس أطلق لهم حرية العقول ، فأباح التفكير فى ملكوت السموات والأرض بل حث على ذلك وجعل النظر الصحيح أساس الاعتقاد الصحيح وأثنى القرآن الكريم على الذاكرين المتفكرين ونهى على الغافلين الضالين . فقال فى الأولين : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فنعابنا عذاب النار » وقال فى الآخرين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » والقرآن الكريم

كله يناشد العقل يُهيب به إلى التفكير والتأمل ويحفزه إلى البحث ليستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع جل وعلا ، وليتعلم ويتفكر وينتفع بما خلق الله في السموات والأرض وما أودع الكون من أسرار ومنافع - يُهيب يدعو . يحفز يدفع .

المساواة في نظر الدين

احترم الاسلام النفوس والعقول وكفل لها حريتها كما علمت . وبذلك تقر مبدأ المساواة على أكل وجه . فأصبح المسلمون به إخوانا متساوين في الحقوق والواجبات ، كلهم محترم النفس والعرض والمال وكلهم مسئول أمام القانون الإلهي العادل عما قدمت يداه « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً » لافرق في ذلك بين ذكر وأنثى ولا غنى وفقير ولا ملك وسوقة ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أنكر الإسلام التمايز بين الشعوب والتفاخر بالأنساب والتكابر بالأولياء والأنصار ، والتظاول بالجاه أو المال . بل سوى الاسلام بين المسلم وغير المسلم إذا دخل في ذمة المسلمين . فإن له حينئذ ما لهم وعليه ما عليهم . وقد أثبت الكتاب الحكيم مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وتجلى في كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكلام أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وصدق فيه القول العمل قال صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » متفق عليه ، وقال صلوات الله وسلامه عليه حين جاءه أسامة بن زيد يشفع في المرأة الخزومية التي وجب عليها حد السرقة : « أنشع في حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتم بها » متفق عليه . وقال في حجة الوداع : « أيها الناس من أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن ضربته ضربة فليقتص مني قبل يوم القيامة » . متفق عليه . وقال في أهل الذمة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وقال أبو بكر رضى الله عنه من خطبة له : ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه - وكتب

عمر رضى الله عنه إلى عماله بالأمصار يقول : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى - وقد أفاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من نفسه لما أصاب بطن رجل بزج الرمح فجرحه فقال له : « تعال فاقصص » . فعفا عنه - وكذلك فعل أبو بكر وعمر فقد جاء رجل إلى أبي بكر يستحمه فلطمه فأنسكرك ذلك الناس فقال أبو بكر : إنه استحماني فحلمته فبلغني أنه باع . ثم قال للرجل : دونك فاقصص . فعفا عنه - وضرب عمر جارية لسعد بن أبي وقاص بالدرة فساء ذلك سعداً فناوله عمر الدرّة وقال له : استقد . فعفا عنه - هذا شيء يسير من أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه والخليفتين من بعده وأعمالهم . يمثل لك مبلغ احترامهم للمساواة وعنايتهم بتقريرها بين الناس قبل أن يدب ديب الأثرة والاستبداد في النفوس ، وبتقرير الاسلام الحرية والمساواة شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها وظهرت مواهب كثير من المسلمين في العلم والحرب والسياسة واستروح الناس عبير العدل بسطع من ناحية الجزيرة العربية حتى عم الأقطار التي فتحها المسلمون وتمتع أهل تلك الأقطار - من أسلم منهم ومن لم يسلم ودخل في ذمة المسلمين - بحرية لم ينعم الناس بمثلها في عصر من العصور هذا والآن نبين سرّ مشروعية الرق في الاسلام .

قد عرفت معنى الحرية والمساواة في نظر الدين ، وما لها من منزلة : فإن قيل لك إذا كان الاسلام قد رفع من شأنهما وجعل الناس سواء في الحقوق فما باله أباح الرق وأن يكون آدمى عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، فلا يملك ولا يتصرف إلا بإذن سيده ، وهل الرق إلا قتل للحرية ، وأهدار للأدمية وهدم لمبدأ المساواة فنقول إن الاسترقاق كان عادة فاشية في الأمم السابقة على الإسلام ، فالفرس واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والمصريون كل هؤلاء كانوا يسترقون وكان الرق يضرب لأسباب كثيرة في قوانين تلك الأمم (منها) الأسر في الحرب أياً كان الغرض منها ، وكان اليونان والرومان يعدون الأمم المغلوبة عبيداً . وكان القانون الروماني يبيح ضرب الرق على بعض المذنبين ، كما كان الاسترقاق أيضاً يتخطف

النساء والأطفال — وكانت معاملة الرقيق في غاية القسوة والشدة يكلف أشق الأعمال ويعاقب أشد العقاب على الهفوة يهفوها ، ولسيده أن يبقيه أو يقتله لا يسأل عما يفعل — وقد أمرت التوراة بالرق — ولم يجرمه الدين المسيحي ، وسكت عيسى عليه السلام عن الوصية بالأرقاء بل جاء في بعض رسائل الخواريين أمر العبيد بطاعة سادتهم في كل شيء جاء الإسلام والاسترقاق كما بينا عادة متمكنة في النفوس وبناء الجمعية البشرية قائم على سواعد الأرقاء في أكثر الأعمال . فلم يكن من الحكمة في التشريع إبطال الرق دفعة واحدة ولا إلزام من يُسلم وفي ملكه رقيق بإعتاقه ، لما في ذلك من الأضرار بالسادة والعبيد معا ، إذ فيه اختلال مصالح الأولين وتضيق الآخرين (نعم) لم يُبطل الإسلام الرق ولكنه أوجب الرق بالأرقاء والإحسان في معاملتهم مما لم يرد مثله ولا ما يدانيه في قانون ولا شريعة سابقة .

وإليك بعض ما جاء في ذلك من الكتاب الحكيم والسنة الشريفة قال الله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » وعن بعض الصحابة قال : رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الأرقاء وهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبيهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه متفق عليه . وعن ابن مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي يقول : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود ، فألقيت السوط من يدي . فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فقلت لا أضرب مملوكاً بدمه أبداً » . رواه مسلم وغيره وقال صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله في الضميفين المملوك والمرأة » . أخرجه في الجامع الصغير وابن عساكر عن ابن عمر — وقد توفي صلوات الله وسلامه عليه

وهو يقول : « اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم » . أخرجه الخطيب عن أم سلمة .

على أن الإسلام قد رغب في تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق شتى (منها) أنه جعل للأرقاء من الزكاة نصيباً يقتدون به أنفسهم من ساداتهم قال الله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (ومنها) أنه أمر بالاعتاق وجعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة لا يجزى غيره عنه عند القدرة عليه . فقال تعالى في كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » ثم يقول : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » فانظر كيف جعل الاعتاق هو الواجب الأول في تكفير ذنب القتل خطأ - وقال تعالى في كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا » وجعله أيضاً أحد المكفرات للحنث في اليمين بالله حيث قال جل وعلا : (لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » (ومنها) أنه جعل الاعتاق من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه، فقال تعالى ممتناً على الإنسان : « ألم يجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا مقربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة أولئك أصحاب اليمين » فجعل إعتاق الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم المرء بشكر نعم الله المتتالية . بل أمر البداة بإعانة العبيد والإماء بشيء من المال على أداء نجوم الكتابة إذا علموا فيهم أمانة وقدرة على الكسب فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » يستعينون به في أداء ما التزموه لكم وفي معنى الأداء حظ شيء مما التزموه عنهم - والكتاب المكتوبة -

ورسول الله رغب كثيراً في تحرير الرقاب ، قال صلوات الله وسلامه عليه :
« أيما رجل أعتق إمرأً مسلماً استنقذ الله تعالى بكل عضو منه عضواً من النار »
رواه البخاري . استنقذ خلص . وعن أبي نجیح السلمي رضي الله عنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من
النار » رواه أبو داود والنسائي . وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « أيما امرئ مسلم أعتق امرأً مسلماً كان فكاً له من النار ، يجزى
كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاً له
من النار ، يجزى كل عضو منهما عضواً منه » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح -
وكان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يتقربون إلى الله تعالى بعتق مواليتهم
حتى لقد كان بعضهم يخرج عما يملك من العبيد ، وبعضهم يشتري الأرقاء
ليحررهم لا يستخدمهم .

عما تقدم تعلم أن الإسلام شديد العناية بالرقيق . عظيم الرغبة في حريته (نعم)
أباح الاسترقاق والسكن في حالة واحدة لا ثانية لها ، فإذا وقعت حرب شرعية بين
المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعتدون عليهم ويفتنونهم في دينهم ويصدونهم عن
سبيل الله ، وأسّر المسلمون من أعدائهم فإن للإمام أن يضرب الرق عليهم ، وله
أن يمن عليهم ويخلى سبيلهم ، وله أن يفتدي بهم أسرى المسلمين ، يفعل من ذلك
ما يرى فيه المصلحة . وإنما أبيع الرق في هذه الحال حياطة للدين . وكسراً لشوكة
من يريد إبداء المسلمين ، وإطفاء نور الإسلام ، وليستدرج الأرقاء إلى تعاليم الإسلام
بما يكون من حياتهم بين المسلمين حتى إذا ما اعتنقوا الدين الإسلامي كان أحب
شيء إلى الله تعالى ردهم إلى الحرية - ومن تدبر الأمر وجد أن الرق الشرعي قد
بطل من زمان بعيد بزوال سببه وهو الأسر في قتال مشروع يراد به الدفاع عن
الدين وحماية الدعوة إلى الإسلام فإن الإسلام قد توطدت دعائمه وثبتت تعاليمه ،
فلم تقع حرب دينية من قرون مضت وإنما هي حروب سياسية تثيرها الأهواء
والمطامع . وضرب الرق على أسراها لا يجوز بحال - كما لا يجوز استعباد الأحرار

بأى سبب آخر : فما كان يفعله النخاسون من بيع الأطفال والنساء المحطوفات .
قد حرمه الإسلام وتوعد عليه قبل أن تحرمه الحضارة الغربية بثلاثة عشر قرناً —
قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم
القيامة ومن كنتُ خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر . ورجل باع حراً
وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره » . رواه البخارى
وابن ماجه .

وصفة القول أن الإسلام لم يُبطل الرق الذى كان فاشياً فى الأمم وقت ظهوره
رعاية للمصلحة العامة ، ولكنه عطف على الأرقاء وأمر بالإحسان فى معاملتهم ،
ورغب فى الاعتاق وأوجبه فى بعض الأحوال . وهو وإن أجاز الرق فى الحال التى
ذكرناها لم يوجبه بل أباحه إذا كان فيه مصلحة . وحرّم اختطاف الأحرار واستعبادهم
والانحجار بهم . ومن تدبر هذه المبادئ علم أن الإسلام يكره الرق كراهة شديدة
ولذا ضيق دائرته ولم يبيحه إلا بسبب واحد حياطةً للدين ، وأنه يجب الحرية ، ولهذا
رغب فى الاعتاق وأثاب عليه وأوجبه فى أحوال كثيرة وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الثالثة

سر تعدد الزوجات

قد كثر طعن المخالفين فى الدين الإسلامى من أجل ما أباحته الشريعة من
التزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون أسرار الشريعة
النراء وماحوته من الحكم البالغة المعقولة ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام
ما هو براء منه .

كان تعدد الزوجات عادة شائعة فى العوب وسائر الأمم الشرقية وكان شره فيها
مستطيراً ؛ فأنهم لم يكونوا يتقيدون فيه بعدد ، ولا يراعون عدلا بين الزوجات ،
فكان ذلك مما أصلحه الإسلام ، فلم يمنعه منعاً باتاً ، لما فى المنع من الحرج ، ولم

يتركه فوضى كما كان ، بل أباحه إلى أربع وشرط للحل شرطاً وثيقاً وهو العدل بين الزوجات في المعاملة ، قال الله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً في تحريم التعدد ، فمن لم يأمن من نفسه أن يقوم بالتقسط بين زوجاته لا يتاح له التعدد ويجب عليه الإقتصار على واحدة « نعم » إن الأصل في التزاوج التوحد ، فيه يتم سكون كل من الزوجين إلى الآخر ، ويستقيم أمرهما ويهنأ عيشهما وتسعد أولادهما ولكن قد تدعوا الحاجة إلى التعدد وتقتضيه المصلحة . ولا يمكن لأحد أن ينكر كثيراً من الأحوال التي تقتضى ذلك . واللائق بشريعة اجتماعية هي خاتمة الشرائع أن تبيح ما فيه تيسير للناس ومنفعة عظيمة لهم ، مع حياطه بما يمنع ضرره أو يخففه إن كان فيه شيء من المضار .

أما كون التعدد من حاجات الاجتماع في بعض الأحوال فيظهر في أمور كثيرة « منها » أن رجلاً تزوج امرأة فأصابها مرض غير مرجو الشفاء ماتت منه شهوتها وأصبح بعلمها تعاف نفسه أن يواقعها ، وليس لها من بعولها إذا فارقها زوجها ، ولا يرغب غيره في زواجها ، فلا يكون من الوفاء طلاقها ، ولا يكون من المصلحة منع الزوج من التزوج بغيرها مع بقائها لثلاثي يحرم النسل المقصود من الزواج « ومنها » رجل تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً أو استمر بها دم الإستحاضة معظم حياتها « ومنها » رجل تكره امرأته المباشرة أو تتألم منها في كثير من أشهر الحمل — فأمثال هؤلاء إما أن يصبروا مع العنت والمشقة « وقليل الصابرون » وإما أن يأتوا الفاحشة — وأولئك هم العادون الخاطئون — وكل عاقل يرى أن تعدد الزوجات مهما كان فيه من الضرر الذي يظنه المخالف مهما كان فهو أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة التي تؤدي إلى خراب العالم وانتشار الأمراض الخبيثة في الأمة « ومنها » أن عدد النساء قد يزيد على عدد الرجال في الأمم ولا سيما في أعقاب الحروب التي تأتي على كثير من الرجال فإذا لم يباح للرجل أن يتزوج

بأكثر من واحدة أفضى ذلك إلى تعطيل عدد كثير من النساء ومنعهن من النسل ، وقد يصبح كثير منهن بغير كافل يقوم بشئونه ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المضار ، وفي أحوال الأم التي زاد فيها عدد الأناث على الذكور اليوم عبرة للمعتبر . فظهر مما تقدم أن التعدد قد أبيض لما فيه من المصلحة للرجال والنساء ، وأنه مضيق فيه جداً باشتراط العدل لأنه كلما يتحقق ، ومالم يتحقق العدل يكون التعدد حراماً - هذا . وإن كثيراً من المسلمين لم يرع هذا الشرط بل قد يقصد بعضهم إلى الزواج بثانية انتقاماً من الأولى أو ضرراً بها وإغاظة لها ، وبثالثة ورابعة كذلك حتى أدى ذلك إلى مفاسد كثيرة وهذا مادعا بعض من لم يفهم حقيقة الإسلام إلى الطعن فيه وينعى عليه إباحة التعدد مع أن الدين من عمل هؤلاء المضارين بىء . ولكن الحق أبلج يظهر ولو بعد حين ، فقد عرف فضل إباحة التعدد كثير ممن كانوا يعيبونه من الغربيين وقام من رجالهم ونسائهم من يدعوا إليه في صحفهم وغيرها وإليك ما كتبه فاضلة الإنجليزية ملخصاً .

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك وإذا كنت امرأة ترانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحرزناً وماذا عسى أن يفيدهن بنى وحرزنى وتوجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لافائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ، ولله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل للشفاء » وهو إباحة الزواج بأكثر من واحدة) وهذه الوسطة يزول البلاء لاجمالة وتُصبح بناتنا ربوات بيوت ، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يباح للرجل الزواج بأكثر من واحدة . وصدق الله العظيم قال تعالى « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

وصفوة القول أن تعدد الزوجات هو عين الرحمة بل عين الحكمة التى اهتدى بها قوم وضل بها آخرون - وأعجب من إنكار تعدد الزوجات أمر الرهبانية التى

ابتدعوها حتى قضت في الأعصر الخالية على كثير من العقول الزكية وحرمتهم
لذة الحياة من غير ما ذنب ، ولم يعد منها أدنى فائدة على عالم الحياة الدنيا - ومنشأ
تلك الرهبانية كان إما تقليداً للمسيح عليه السلام أو التفرغ المطلق إلى عبادة الحق
تعالى ،^(١) ولا يزال الكاثوليك يتمسكون بالرهبانية ويقبحون الزواج ويزدرون
المتزوج معتقدين أنه دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية ، وقالوا : إن المسيح
عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، وقارنوا بينه وبين محمد
صلوات الله وسلامه عليه القائل : « من رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه .
وبمثل هذا كانت منسوخة في شريعته فلا رهبانية في الإسلام . وانتهى بهم الأمر
إلى النيل من كرامة نبينا الصادق الأمين ثالثين شتان بين من غلب على نفسه
وبين من استرسل مع هواها فأرضاهها - ولا يخفى بطلان هذه الدعوى فإنه لا تنافي
بين الصلاح والزواج ، وقد تزوجت الرسل قبله وهم أولوا النفوس الزكية والهيم العلية
بشهادة قوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » على
أن تقليد السيد المسيح في الرهبانية يفضي إلى خراب البيوت وفناء الأمم وانقراض
النوع الإنساني . ولا يخفى أن هذا يناقض مقتضيات الخلافة والعمران . وهادم لنظام
الأكوان « من يهدى الله فإله من مضل ومن يضال الله فإله من هاد » .

المحاضرة الرابعة

سر تعدد زوجات المصطفى

كثيراً ما يتساءل الناس : لماذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع
نسوة جمعاً ومنع الأمة من الزيادة على الأربع ؟ فإن قلتم : إن الله هو الذي عمل
ذلك بنص الكتاب والسنة وهذه خصوصية للنبي صلوات الله وسلامه عليه . قلنا :
نعم ولكن المخالف لا يصدق الكتاب والسنة ، ويقول المخالف : إن منزلة النبوة

(١) راجع كتاب الابداع في مبحث تفهيم البدعة إلى حقيقة وإضافة .

التي ادعاها محمد كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات . فنقول له :
إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم يكن فيما فعله بدعا من الرسل فذاتك داود
وسليمان عليهما السلام قد تزوجا كثيراً من النساء وهما ذاتك الرسولان اللذان
لا يسع عقلا إنكار نبوتهما أو احتقار شريعتهما وما أتيا به من الصحف السماوية .
ونذكر لك في زوجات المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ما لو تدبره عاقل منصف
لرجع عن غيه واهتدى إلى الصواب فنقول :

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص ما ليس لأمته ،
وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه كما تقدم ،
وغير خاف أن هذا لا يكفي لافتناع المخالف الذي ندد بالنبي صلى الله عليه وسلم ،
فنذكر لك من أسباب ذلك خلاصة عادلة من الكتب الصحيحة والتاريخ الصادق
توافق الواقع ويرضاها العقل السليم .

فاعلم أن أول أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه خديجة تزوجها قبل
البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان سنها أربعين سنة ، وكان صداقها
عشرين بكرة من الإبل . ولم يتزوج عليها النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفيت
رضى الله عنها ، وكانت متزوجة قبله برجل اسمه (هند) وولدت منه ولداً اسمه (هالة)
فكان ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وسبب زواجها به أنه لما قدم غلامها
(ميسرة) إلى سيدته خديجة اللببية الحازمة وأخبرها بما شاهدته من بركات النبي
صلوات الله وسلامه عليه بعثت هي إليه فقالت له : يا بن عمي إني قد رغبت فيك
لقرايتك وأمانتك وصدق حديثك — وكانت خديجة مرغوباً فيها لشرف نسبها
ورفعة قدرها بين قومها — فعرض النبي صلوات الله وسلامه عليه الأمر على أعمامه
فوافقوه على زواجه بها وتوجهوا معه إليها وأنموا عقد الزواج بينهما على ما هو معروف
في كتب السير .

وقد قضى النبي صلوات الله وسلامه عليه شيبته وطائفة من كهولته ولا زوج
له إلا خديجة . ماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت معه

خمساً وعشرين سنة ، ولدت له فيها جميع أولاده سوى إبراهيم . فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو في أول عنفوان شبابه ، وقد كانت العرب يكثرون من الزوجات ، حتى إن مهم من كان تحته العشر والعشرون امرأة في وقت واحد فلو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لاتخذ من الزوجات من شاء خصوصاً من الأبيكار ، وهو في أول شبابه واستكمال قواه ، لاشرع يحول بينه وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه من قضاء مآربه وتمتعه بلذة الحياة — ولا سبياً وقد كان مرغوباً فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم الأخلاق وحميد الخصال والجمال الذي فاق به يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(الثانية) بعد أن ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن تجاوزت الخامسة والخمسين ، وقد كانت من السابقين إلى الإيمان وهاجرت مع زوجها السكران بن عمرو الأنصاري إلى الحبشة في المرة الثانية . مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة وقد كانت أسلمت قبل ذلك وخالفت قومها وأقاربها وبنى عمها ، فإجل ما فعله النبي صلوات الله وسلامه عليه من الرحمة بها وتمويضا خيرا مما ضاع منها ، بل هو عين الحكمة ومنتهى الشفقة والحنان ، فقد مات عنها زوجها وأصبحت لا حامى لها ولا مدافع عنها سوى أقاربها الذين خالفت دينهم وأسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه بها حماية لها أن تصل إليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد بعلمها ، ولولا ذلك لارتدت على أعقابها خاسرة لتوالى الحن وكثرة الفتن التي كانت تحيط بها كما يشهد بذلك التاريخ العادل .

(الثالثة عائشة رضى الله عنها) مات أبو طالب لشهر من موت خديجة رضى الله عنها وبموته فقد النبي صلوات الله وسلامه عليه رجلاً كان يناضل عنه ويصد عنه هجمات الأعداء ما استطاع ، فبعد موته أخذ الأمر يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى أن يجعل بينه وبين قريش رابطة قوية . فعمد على السيدة عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنه ، وهى بكر صغيرة بين السادسة والسابعة من عمرها — ذلك أن

أباها الصديق رضى الله تعالى عنه كان صدرا وجيها معظما في قريش ، واسع المال عزيز الجانب . يرشدك إلى ذلك مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم بال عقد عليها مع أنها قاصر ، وأنه لم يدخل بها إلا وهي بنت تسع سنين ، فلم تكن بال عقد عليها محلا لقضاء شئ . من المآرب الشهوية حتى يميل إليها نظر النبي صلوات الله وسلامه عليه أو غيره — ولكنه نظر الحكمة والسداد الذى أيد الله به رسوله الأكرم وحبيبه الأمين الأعظم .

(الرابعة حفصة) وهذا الاعتبار هو الذى دعاه إلى التزوج بحفصة بنت عمر ، ومكانة عمر في العرب معروفة ، فلم يتزوج النبي من حفصة لحب أو لرغبة وإنما لم يكن أواصر هذه الجماعة الإسلامية ، ولأنه قد استشهد زوجها الأنصارى خنيث ابن حذافة في واقعة بدر ، وحفصة كانت مواسية للجرحى في الميدان . فكان ذلك الزواج مرضاة للشهيد وزوجته ووالدها أجمعين .

(الخامسة أم حبيبة) — ومن هذا القبيل تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب الأموى وتسمى « هنداً . أورملة » وهى التى نبذت دين أمها هند وأبيها أبي سفيان فخل قريش . زعيم القوم وكبير المشيرة . أبى معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها تسمى ، فتنصر زوجها هناك وثبتت هى على الإسلام ثم مات زوجها هناك أيضا ، فكتب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النجاشى ليزوجه إياها ، فأبلغها النجاشى ذلك فسر خاطرها سرورا لا يعرف مقدارَه إلا مولاها الذى يعلم السر وأخفى ، فأكرمها ولطف بها . والذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة . وكل من اطلع على التاريخ واهتدى منه إلى الصواب يعلم مقدار ما كان بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين بنى أمية من العداوة ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان والد معاوية أحد بنى أمية عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فإنه لم يعتنق الدين الإسلامى إلا بعد أن فعل بالمسلمين كل ما قدر عليه من أنواع الإيذاء الشديد ،

فتزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه أم حبيبة ليكون بينه وبين الله أعدائه نسب ورابطة « تكون له في الجملة » وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه وعن المسلمين ، كما أنه اختارها لنفسه لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها حبا فيه وخوفا عليه ففي عدم حمايتها ووقايتها « وقد مات زوجها » تمريض إلى مقاساة الشدائد والأهوال . واختارها لنفسه أيضاً لشرفها في قومها ، فلو أنها زوجت من غير كفاء لا يتخذ بنو أمية ذلك سبيلا إلى إثارة الفتن بين القبائل وإيقاد نار الحرب بأغراء قومهم وحلفائهم بالمسلمين على قلة عددهم وضعف عددهم — فما أجلها من هداية ، وما أكرمها من حكمة .

(السادسة جويرية) كانت الأسرى من النساء يتخذن إماء إما للبيع وإما للخدمة ، لا يسوى بينهن وبين الحرائر في شيء ، ولما قرن بنعمة العتق فأراد النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يعلم المسلمين بالعمل بنفسه ما ينبغي أن يصنعوا بما في أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يصون سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بجويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق واسمها (بُرّة) فقد كانت من سبايا بني المصطلق فتزوجها بعد أن أعتقها ليقتدى به المسلمون فأعتقوا من كان بأيديهم من نساء بني المصطلق إكراماً لمصاهرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لهم . فأسلم بنو المصطلق جميعاً فكانت (جويرية) رضى الله عنها أيمن امرأة على قومها — فمن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بني المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهماً ، فوَقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس ، فجاءت إلى الرسول فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت ، وقد كاتبني ثابت على تسع أواق فأعنى على فكاكي . فقال : أو خير من ذلك ؟ فقالت : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله : قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون ؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق ، فبلغ عتقهم

مائة بيت بتزوجه عليه الصلاة والسلام إياها « متفق عليه — فانظر إلى ما قصد الرسول من تزوجه بها فياله من صنيع مليء رحمة وحكمة .

(السابعة صفية) ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ومن أشرف بيوت اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت ممن اصطفاها صلى الله عليه وسلم من الغنائم . فمن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : « لما دخلت صفية على النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله إن الله يقول في كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لها رسول : اختارى فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى وإن اخترت اليهودية فمسي أن أعتقك فتلحقى بقومك . فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أربب ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إلى من العتق وأن أرجع إلى قومي . قال : فأمسكها رسول الله لنفسه « رواه غير واحد . وقد رضيته بعلا مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق .

(الثامنة أم سلمة) المسماة (هنداً) زوج أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وهى (بُرّة) بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع مات أبو سلمة ومعهما أربع بنات : بُرّة وسلمة وعمرة ودرة . فأواها النبي صلوات الله وسلامه وعليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت : إني امرأة مسنة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة ، فأجابها على لسان رسوله يقول : الأيتام أضهم إلى ، وأدعو الله أن يُذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهديات والعتبات من أقوى الدواعى للاسراع فى طلبها وعطفها عليها ورحمة بيناتها وصلة لرحمها ، ووفاء بحق أخيه من الرضاع ، وإيواء لصغاره من بعده — ولا ريب أن هذا الصنيع عين الحكمة ونهاية الكرم .

(التاسعة زينب ابنة جحش) ومما حوى من الحكم أعلاه ومن المصالح أغلاه تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزینب ابنة جحش امرأة مولاة زيد بن حارثة الذى

نبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد - ذلك أن زينب كانت بنت عمه النبي أميمة بنت عبد المطلب ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر ، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إياها وإبائها أحبها عبد الله بن جحش ، وعدّ هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها آية « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » فكانه أرغها على زواجه بما ألهه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك - ولو كان للرجال سلطان على قلبه لسكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روايته وجدته مع نقاء رحمها وطيب فمها ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه ، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية - لم يعرف فيما يطلب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقرب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصاً إذا كان معاشرراً له من صغره بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض متى تعاشرُوا فكيف يظن أو يتوهم أن النبي صلوات الله وسلامه عليه الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وخطبه بقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ، أم كيف يخطر بالبال أن من عصمه الله ظاهراً وباطناً وحفظ قلبه من كل دنيسة يقبل عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ، ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو الرؤوف الرحيم لم يبالي بإبائها زينب ونفورها من زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة ، فما كان يصح له وهو سيد المصلحين أن يكره امرأة على التزوج برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبي صلوات الله وسلامه عليه يجد من نفسه أن هذا التزوج مقدمة لثبوت شرع وتنفيذ حكم إلهي فيه رحمة للأمة ، وذلك أن

التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه بالشرف والحسب فكانوا يعطون الدعوى جميع حقوق الابن ويخبرون عليه وله جميع الأحكام التي يمتبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب ، وهي عادة جاهلية رديئة ، أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الحق الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح ، لهذا أنزل الله « وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل » . ثم قال : « ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » فهذا هو المدل الالهي ألا ينال حق الابن إلا من يكون ابناً . أما المتبني فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين . فخرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعوى لمن تبناه وأن يجعلوا له شيئاً من حقوق الابن ، وشدد الأمر حتى قال : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو عن الكلمة تصدر من غير قصد كأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني لا عن قصد التبني ، ولكنه لا يعفو عن الذي يقصد منه الالتصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفاً من قبل ، وكان من عادة المظطفي صلوات الله وسلامه عليه أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالاً صالحاً تتأسى به النفوس وتقتدى به الأمم ، وحتى يمحى أثر تلك المادة السخيفة التي كانت شر وبال على أهلها ، من ذلك مسألة الخلق في الحديدية وكيف خالفه جميع الصحابة حتى خلقوا فاقنودوا به . وعلى هذه السنة كان تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزینب إذ ألهه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط تلك العادة السيئة كما أنى حكمها بالقول الفصل — لهذا أرغم النبي صلوات الله وسلامه عليه — زینب أن تتزوج بزید وهو مولاه ومتبناه . وبعد أن صارت زینب إلى زید لم يذهب إياؤها الأول وجفوتها له ولم تحسن أخلاقها معه بل شمخت بأنفها خيلاء وكبراً إذ كانت من صميم قريش وهو مولاها ، وصارت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه أصلاً وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها راق كما جرى عليه . فاشتكى منها إلى النبي المرة بعد المرة

وهو عليه الصلاة والسلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتمهل ويتأني في تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

ولامه الله على ما كتم في نفسه من أسر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال تعالى « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه » فكان عليك أن تبادر بتنفيذ كلمته وتقرر شرعه ، إلا أن زيدا لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة المرذولة ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقا دون مخالفتها كما قال « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناهما لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » لترفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لأدعيائهم ، وأكد ذلك بالتصريح في نفس الشبهة بقوله « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » وقد قالت العرب إذ ذاك : تزوج محمد حليمة ابنة . وأما قولهم إن النبي صلوات الله وسلامه عليه رأى زينب بعد أن تزوجت بزيد فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها . إلى آخر ما حكوه : فقد قال الإمام أبو بكر بن العربي : إنه باطل لا يصح النظر إليه فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن هناك حجاب يمنعها منه فكيف تنشأ معه وينشأ معها وينظرها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد الهوى بعد العدم ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » والنساء أفنن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات
ا. باختصار .

(العاشرة) - وتزوج صلوات الله وسلامه عليه وهو بمكة لعمره القضاء ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ولا يخفى ما فى ذلك من البر وحسن الصلة . وقصارى القول هكذا كانت سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه فى جميع تزوجاته فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أملاك لشهوته منه وقت كان فتياً لم يكف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن الله تعالى جملة سيد الصابرين أولى العزم وأن زواجه بهن لم يكن عن شهوة ، بل كان ذلك مواساة لهن وحفظاً لشرفهن وشرف أزواجهن الذين تركوهن وهم صرعى فى ميادين الجهاد - وكيف يظن عاقل أنه صلوات الله وسلامه عليه - وقد بلغ من السمو والعلو الغاية - يتزوج مثل سودة بنت زمعة التى تفوقه سناً إلا ليحفظ للمجاهدين والمجاهدات فضاهم وفضلهم ، فليت شعرى أى شهوة وأى غرام وإنما هو السكال والأباء والشرف وحسن الخلق والمكافأة بحسن الصنيع .

هذا كله على فرض أن النبي صلوات الله وسلامه عليه تزوج هؤلاء السيدات وهن سودة بنت زمعة . عائشة . أم حبيبة . حفصة . جويرية . صفية . أم سلمة . زينب . ميمونة . بعده تحريم ما زاد على الأربع بقوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما إذا كان قبل ذلك كما قال بعض المحققين فلا حاجة بنا إلى التماس شيء من تلك الأسباب . على أن ميمونة بنت الحارث الهلالية كانت آخر من تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد .

ولك أن تقول إن الله تعالى بعد ذلك كله حرم عليه أن يتزوج غيرهن ، وأن يستبدل بهن أزواجا فكان للمسلم بكل من الأربع غيرها بحيث يطلقها ويتزوج غيرها والرسول محرم عليه ذلك . قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مَلَكَت يمينك وكان الله على كل شيء

رقيباً « أى لا يجوز لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له زواج أخرى ولا أن تبدل بهن من أزواج فتطلق واحدة وتزوج أخرى مكانها — وقال بن عباس : إن النبي لما خبرهن فاخترن الله ورسوله شكرهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطلقهن وعن الاستبدال بهن — فتبين من هذا أن القانون قد عامله بالشدة فجعل لمن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقاً ولا استبدالاً فكثرة العدد تقابل الحصر والمنع — وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالاً وطلاقاً فلئن ضيق عليهم في الكم فقد ضيق عليه في الكيف . ولئن وسع عليه في الكم فقد وسع عليهم في الكيف فالساواة متعادلة ضيقاً وسعة — والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المحاضرة الخامسة

الحث على الوفاء والتنفيذ من الأخلاق

الوفاء والإيفاء الأتيان بالشيء وافياً تاماً غير منقوص ، ومنه قوله تعالى « وأوفوا الكيل إذا كتمتم وزنوا بالتقسطاس المستقيم » وقوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ويقال لمن لم يوف الكيل والميزان : أخسر الكيل والميزان . ولم يف بالعهد : غدر ونقض . فلكل كلمة موضع يليق بها — والعهد الذى أمرنا بالوفاء به عبارة عما يلتزم به الإنسان لغيره وهو بعمومه يتناول ما عاهد الله عليه العبد بمقتضى الأيمان من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به الدين الخفيف من الأوامر والنواهي ويتناول أيضاً كل ما يلتزمه العبد باختياره فيما بينه وبين العباد في عقود المعاوضات من الشروط ، وكذا الوعود العامة بين الأفراد ، وأنواع المحالفات التى تبرم بين الأمم والشعوب ، وإجمالاً هو كل ما يعهد إليه لأجل احترامه والحفاظة عليه ويطلب منه القيام به ، ويراد به فى الغالب ما يعاهد الناس بعضهم عليه — وعهد الله كل ما عهد إلى عباده رعايته وحفظه والقيام به والتلبس به من جميع التكاليف

الشرعية ، اعتقادات ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاق فاضلة ، فهو مرادف لمطلق العهد — والعقد في الأصل ضد الحل وهو الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض — ويستعمل في الأجسام كعقد الحبل وعقد البناء ، ثم يستعار للمعاني كعقد البيع والعهد وغيرها ، ومنه عقدة النكاح — ويقال عقد العيمين وعقد النكاح أبرمه ، وعقد البيع أو الشركة مع فلان — ويقال عاقده وعاهدته ، وتماقدنا وتماهدنا أبرمنا ذلك وأمضيناه فهو على هذا مرادف للعهد ، وبعضهم يفرق بينهما بأن في العقد معنى الاستيثاق والشدة ولا يكون إلا بين اثنين — وأما العهد فقد ينفرد به الواحد ، والوعد في الأصل الخبر بالخير في المستقبل . وشاع استعماله في العهد —

فضله وأثره في الأفراد والأمم — ثم إن الوفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض وألزم الواجبات التي فرضها العليم الخبير حفظاً لنظام المعيشة وبقاء للعمران بدوام الثقة ورواج الصناعات والتجارات ، وتبادل المنافع الحيوية التي لاغنى عنها بين الأفراد والأمم ، وإن الفدر والأخلاق لمن الذنوب المادمة للنظام المقوضه لدعائم العمران ، القاتلة للأمم والشعوب ، وما فقدت أمة الوفاء بالعهد الذي هو ركن الأمانة ، وقوام الصدق في المعاملات إلا وحل بها من أنواع العقاب الإلهي ما نستحق : ولا يعجل الله الانتقام من الأمم لسيئة من السيئات تفشو فيها مثل سيئة الأخلال بالعهد ، والأخلاف بالوعد ، الذي هو شر أنواع الكذب ، وأفحش ضروب الخيانة .

أنظر حال أمة استهانت بالإيفاء بالعهود ولم تبال بالتزام العقود ، تركيف حل بها عذاب الله بالأذلال والاهانة ، وفقد الاستقلال وضياع الثقة بينها حتى في الأهل والعيال ، فهم يعيشون عيشة الأفراد متفرقين ضعفاء ، لاعيشة الأمم مجتمعين أقوياء ، وحوش مفترسة في صورة بني الانسان ، كل يخاف الآخر أن يغتاله ، ويأكل ماله ، ولذا يضطر كل واحد منهم إذا تعاقد مع أي إنسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر عليه ، ويحترس من غدرة بكل ما أمكن ، حتى قل فيهم التحاب والتعاقد والتعاون ، والتناصر والتأزر في المشاريع النافعة التي تعود عليهم

بالنفع العميم ، والخير العظيم ، بل استبدلوا هذه الفضائل السامية أضدادها الوضيعة كالتحاسد والتباغض ، والتخاذل والتخاصم ، بأسمهم بينهم شديد ، ولسكنهم أذلاء كالعميد ، ولو كان في الناس وقاء لسلوا من كل هذه البلايا والمصائب وكانوا أسعد الناس وأرقى الأمم .

من أجل هذا جاء الحث عليه في الكتاب والسنة فقال تعالى ترغيباً في التحلى بفضيلة الوفاء ، وتنفيراً من الأخلاف « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » وقال جل شأنه « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كميلاً إن الله يعلم ما تعملون » وقال جل ثناؤه « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فأوجب على المؤمن أن يحترم الوفاء بما تعاقده عليه مع غيره وارتبط به ، وقال جل ذكره في صفات البررة السكاملين « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وهم الذين إذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا أجزوا وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة إلى أهلها ، وإذا نذروا وفوا ، وإذا حلفوا لم يخشوا ، وإذا تعاقدوا لم يهدروا . وبما جاء في التنفير من خالف الوعد ونقض العهد قول العليم الحكيم « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تعملون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تعملون » والمقت أشد البغض . وهذا يتناول نقض العهد كما يتناول الكذب في القول . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتى خان » متفق عليه . فجعل خلف الوعد من أمارات النفاق العملى وهو التظاهر بالتدين مع تركه باطناً — وهذا إذا وعد غيره وفي نيته عدم الوفاء ، أما إذا كان حال الوعد عازماً على الوفاء ولكن عرض له مانع منه أو بدا له رأى فلا يذم ، فقد روى الطبرانى أنه صلوات الله وسلامه عليه قال : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف » . لأنه حينئذ يظهر خلاف ما يبطن وهذا كذب وغش وخيانة .

وحسبنا أن الله جل ثناؤه أننى على إسماعيل عليه السلام بقوله « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » قدم صدق الوعد على

الرسالة والنبوة لأنه لا يمكن أن ينال الرسالة والنبوة من لم يتحل بهذه الصفة الجليلة — صدق الوعد — فهي كالمقدمة لها ، فقد وعد إسماعيل أباه الخليل عليهما السلام أن يصبر على الذبح فوفى بوعده — ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى في الوفاء . روى « أنه وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى وبقي واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحي بيدي . فذكر الرسول وعده لأبي الهيثم فجعل يقول : كيف بوعدى لأبي الهيثم ؟ فأثره بالخادم على ابنته فاطمة وفاء للوعد مع شدة حاجتها إليه إذ كانت تدير الرحي بيدها الكريمة » — وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع في قبضته الهرمزان فأمر بقتله ، فطلب إليه شربة ماء فأتى له بها فطلب الأمان حتى يشرب ، فلما : أعطاه أمير المؤمنين الأمان أراق الماء على الأرض وامتنع عن الشرب وقال : الوفاء نور أبلج . فلم يسمع عمر رضى الله عنه إلا أن يخلى سبيله . وبعد ذلك أسلم الهرمزان فقال له عمر : ويحك أسلمت خير إسلام فما أخرجك ؟ قال خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي كان جزعا — والأنصار رضى الله عنهم مثل أعلى في الوفاء أيضاً ، فقد بايعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على نصرته ، فلم ينكثوا وضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل نصرته — قال زيد بن ثابت : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال : إن رأيته فأقرته منى السلام وقل له : كيف نجدك ؟ قال : فأتيته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم . فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : إنى في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام وقل : إن سعد بن الربيع يقول جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل إنى أجد ربح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه وفيكم عين تطرف . ثم لم يبرح أن مات ، نجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره » .

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أعرابياً نصيبه وقال : قسمته لك . فقال ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرى ها هنا — وأشار إلى حلقة — فأموت وأدخل الجنة . ثم أتى بالرجل قد أصابه سهم حيث أشار وكفن في جبة النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه « — رواه البخارى ومسلم .

والوفاء في ذاته معقول الفائدة وحسن لدى العقول السليمة ، لذا كانت العرب في الجاهلية يقدرونه قدره ويرفعون من شأن من اشتهر به . حتى كانوا يضربون بهم الأمثال ويلهجون بذكرهم في الأندية والمجتمعات ، ويترعون بمدحهم وحسن الثناء عليهم ، ويتقادون لأوامر الأوفياء اتقياء العبيد للسادة . ومن اشتهر بينهم بالوفاء السموءل بن عدياء . وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر الرومان استودع السموءل دروعا له . فلما مات امرؤ القيس طلبها منه ملك من ملوك الشام وهو الحارث بن المنذر فأبى ، فعزاه من أجلها فتحرز منه السموءل فأخذ ذلك الملك ابنا له خارج الحصن وصاح قائلاً : يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إلى الدروع وإلا ذبحت ابنك . فقال السموءل : أجننى . فأجله فجمع أهل بيته وشاورهم في الأمر فكل أشاروا بدفع الدروع إليه وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح أشرف عليه وقال : ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه — وكان يهوديا — وانصرف الملك ووافى السموءل الموسم بالدروع فدفعها إلى ورثة امرئ القيس — فانظر كيف فرط ونهاون في فلذة كبده ومهجة قلبه وتركه لذلك الملك الجائر القاسى حتى لجمه فيه وذبحه أمامه ، ولم يفرط في تلك الدروع — فلا غرابة إذا طار صيته في الآفاق ، ولا حجب إذا كانوا يضربون به المثل فيقولون — أوفى من السموءل بن عدياء —

ومنهم الطائى صاحب النعمان بن المنذر وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم يؤسه — وكان له يومان يوم يؤس ويوم نعيم ، لم يلقه أحد في يوم يؤسه إلا قتله وأرداه ، ولا في يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه — فلقبه يوم يؤسه

أعرابي من طيء فقال : حيا الله للملك إن لي صبية صفراء لم أوص بهم أحداً ، وقد تركتهم على شفا تلف من الجوع ، وقد خرجت مبكراً في طلب صيد لهم ، ففتح الله على بهذا الأرنب آخر اليوم ، فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم وله على عهد الله أن أرجع إليه إذا أطعمتهم وأوصيت بهم حتى أضع يدي في يده . فرق له النعمان وقال له : لا إلا أن يضمّنك رجل ممن معنا ، فإن لم تأت قتلناه بدلا منك . وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن سراحيل ، فنظر إليه الطائي وقال له : يا شريك بن عمرو وهل من الموت محالة . يا أخا كل مضاف . يا أخا من لا أخا له ، يا أخا النعمان . فك اليوم عن شيخ غلاله . ابن شيبان قبيل أصلح الله فعاله . فقال شريك : هو على أصلح الله الملك ، فضى الطائي وأجل له أجلا يأتي فيه ، فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكا وجعل يقول له إن صدر النهار قد ولى ، وشريك يقول : ليس لك على سبيل حتى تسمى . فلما جاء المساء ظهر شبح من بعد والنعمان ينظر إلى شريك فقال شريك : ليس لك على سبيل حتى يدنوا ذلك الشخص فعله صاحبي ، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان للطائي . أما أنت يا أعرابي لم تدع لأحد في الوفاء سبيلا ، وأما أنت يا شريك فلم تترك لأحد في الجود سبيلا — وفي رواية : والله ما رأيت أكرم منك وما أدرى أيكما أكرم . أهذا الذي ضمّنك وهو الموت ؟ أم أنت وقد رجعت إلى القتل ؟ والله لا أكون أنا الأم الثلاثة . ثم أطلقه وأمر برفع يوم يؤسه وأنشد الطائي :

ولقد دعيتي للخلاف عشيرتي فأبيتُ عند تجهم الأقوال

إني امرؤ منى الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضل

قال النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف مهجتك ؟ قال : ديني .

وقال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب لما أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ إلى أن تصير مع عدوى وتظهر العدر بي فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعي في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد مماتي . فقال عبد الحميد : إن الذي أمرت به أنفع

الأشياء لك ، وأقبحها بي ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فهذا من حسن الوفاء وصدق الايمان ، فإن عبد الحميد قد أبت عليه مروءته ومنه أدبه أن يتظاهر بانغدر لأميته حتى لا يوصم بعار الغدر ، وإن كان فى ذلك وفاء لمولاه ، ولكنه رآه وفاء لا يصل إليه إلا من طريق الصدر المشين ، فأباه وعاهد أميره على أن يظل معه حتى يأتى الفرج أو يموت معه — فما أحسن هذا الأباء ، وما أجمل هذا الأدب والوفاء .

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد أن صالحه وكتب له بذلك كتاباً وأشهد عليه قال لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : ما رأيك فى الذى كان منى ؟ قال : أمر قد فات دركه . قال : لتقولن . قال حزم لو قتلته وحييت : قال أو لست بحى ؟ قال ليس بحى من وقف نفسه موقفاً لا يوثق له فيه بهمد ولا بعقد . قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت وهذا أيضاً مثل أعلى فى الوفاء — وفيه ثلاثة أمور (الأول) أن المستشار كان شجاعاً فى الحق ؛ مخلصاً للخليفة ، فقد جهر بالحق ولم يكتمه . (الثانى) أن الذى لا يوثق له بهمد ولا بعقد ميت ، وإن كان حياً ، لأن الحياة الصحيحة حياة النفس حياة الضمير لا حياة الجسم ، وناكث العهد لا ضمير له (الثالث) أن الخليفة خضع لسلطان الحق حين ظهر له ، وندم على ما كان منه ، ولم ير النصيح مراً على نفسه والفضل فى ذلك كله يرجع إل الدين الخفيف وسلطانه على نفوس الأمراء والفضلاء وإن تقوم للأمم الإسلامية قائمة إلا إذا رجعت إلى الدين ، وتمسكت به وعملت بأحكامه وتحلت بأدابه . اللهم وفق الأمة إلى طريق الهدى والرشد يارحم يارحيم .

المحاضرة السادسة

إعداد النشاء ليكونوا رجالاً

الحمد لله خلقنا وسوانا ، وعلى موائد بره وكرمه ربانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه : « وإنك

لعلى خلق عظيم» وعلى آله وصحبه الذين صلحت قلوبهم وتهذبت أخلاقهم فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وكانوا هم الفائزين الغالبين .

(و بعد) فإننا سنتحدث إليكم في موضوع له شأنه وخطره في حياتنا الاجتماعية

ألا وهو « إعداد النشء ليكونوا رجالاً كاملين ناهضين » فنقول : مقدمات :

١ - لا ريب في أن الإنسان مجبول على حب البقاء ، بل البقاء أحب شيء إليه ، وأشهى شيء لديه ، ولكنه يعلم أنه لا محالة هالك ، وأنه لا بد لوجوده من نهاية . من أجل هذا اقتضت إرادة الله عزت قدرته وجلت حكمته ، أن يجعل له في نسله بعض العوض عن ذلك ، فإنه يرى بقاءه مستمراً في نسله ، وذكره لم تنقطع بذريته ، فلا يندم على جهاده في معترك الحياة ، ولا يأسف على مفارقة ما جمعه من مال وعقار ، لعلمه أنه تركه لخلفه الذي هو جزء منه ، فكأنه هو الذي يستمتع به ، وكأنه باق لم يلحقه فناء ، وهذا كله مسلم لدى جميع العقلاء ، فالشكل يجب الولد لأنه يرى فيه بقاء لذكراه ، ويوقن أنه خليفته في هذه الحياة .

٢ - كل إنسان يشعر بالحاجة إلى معين مخلص ، ومساعد أمين يحمل عنه بعضاً من متاعب الحياة ، ويكون عُدته عند النوائب ، وورداً له في الشدائد ، ولا أحد أجدر من الولد بثقة الوالدين في هذا المعنى . لهذا كان حب الذرية غريزة قوية في الإنسان « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » .

٣ - محبة الذرية كغيرها من المشتبهات تارة تكون ممدوحة ، وتارة تكون مذمومة . والأشياء بما لها وآثارها ، فالممدوحة ما تزول إلى الخير ، وتفضى إلى نفع المجتمع وبناء العمران ، ولهذا رغب صلوات الله وسلامه عليه في نكاح الولود ، وحذر من زواج العقيم ، روى أبو داود وغيره من حديث معقل بن بشار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لاتلد أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الولود الودود فإنى مكاتر بكم الأمم .

والمذمومة ما تزول إلى الشر ، وتفرض إلى ضرر الاجتماع وفساد العمران : بارتكاب
المظالم ؛ وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات لأجلهم ، ومن سوء تربيتهم .
هذا وإن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض ، وألزم الواجبات
التي لا يصح أصلاً التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها ، قال تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . أخرج
عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وغيرهم من حديث علي رضي الله
عنه في معنى الآية قال : « علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأدبواهم » . وأخرج
ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « اعملوا
بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، ومرؤا أولادكم بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ،
فذلك وقاية لكم ولهم من النار » . وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله
عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم »
فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم
أحسن الأدب . فعلى الأبوين أن يقوموا بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه :
يجبان إليه النافع من الأعمال ، والطيب من الأخلاق ، وينفرائه من الضار منهما ،
بقدر ما يسعه إدراكه . وروى البيهقي عن أبي رافع « حق الولد على الوالد أن يعلمه
الكتابة والسباحة والرماية وأن لا يرزقه إلا طيباً » والصبي أمانة في عنق والديه
يسألان عنها في عرصات القيامة ، وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش
وصورة ، فهو قابل لكل ما ينقش فيه ويغرس ، قبول العجينة في يد الخباز ،
ومستعد لتوجه به إلى أي جهة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل مولود يولد
على الفطرة ، وإما أبواه يهودانه وينصرانه ، ويمجسانه » متفق عليه من حديث
أبي هريرة . ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المنتهي لقبول الدين ، فلو ترك
عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإما يعدل عنها من يعدل لآفة
من آفات البشر والتقليد بحكم البيثة — ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم في اتباعهم
لآبائهم وللليل إلى أديانهم انحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة — فإن عود الخير

وعلمه نشأ عليه ، وكان سعيداً في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهل إهمال البهائم شقى وهلك في نفسه ، وكان شقياً وبلاء على أمته ، وكان الوزر في رقبة ولي أمره والقيم عليه .

وأول ما يجب العناية به من أمر الطفل أن يختار له حاضنة مهذبة ومرضعاً صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا خير فيه ولا بركة ، فإذا نشأ منه الطفل أنجنت طبيئته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث ، وهذا سر تحريم لحوم السباع والوحوش من الطير والبهائم ، فإذا فصل من الرضاع لوحظ في تربيته ما يأتي (١) من واجب الوالدين أن يعودوا الطفل على القليل من الغذاء . ويجول بينه وبين تناول كل ما يميل إليه من ألوان الأطعمة ، فإن أول ما يفتن على الصبي شهوة الطعام والشره في الأكل وذا مضرته به . (٢) أن يمنعاه من النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل . (٣) يمنعاه من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بطريق الخيلة ، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء ، والدناءة في الأخذ إن كان الأخذ من أولاد الأغنياء ، وإلا فهو لثوم وخسة . كما يمنع من الخلف رأساً صادقاً أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك من الصغر . (٤) يعلمانه آداب المجالس وإذا ظهر منه فعل حميد أو خلق جميل كالصدق والعفة والشجاعة مدح به وجوزى عليه بما يشجعه على المثابرة عليه ، وإن ظهر منه فعل ذمير أو خلق قبيح كالكذب والخيانة والجبن ، ذمه أمامه ، وأتبه عليه (٥) عندما يبلغ حد التمييز يحولان بينه وبين مخالطة الأشرار وقاسدى الأخلاق وغشيان الملامى وأما كن الخلاعة والفسوق ، ويحجبان إليه الاشتغال بما يفيد وينفعه في دينه ودنياه . من صناعة أو تجارة أو زراعة ، مع تعويده على القيام بالفرائض الدينية بعد تعليمه واجباتها وآدابها^(١) (٦) أن يترك له فرصة للرياضة حتى لا يسأم العمل وأن يتغاضى عما فرط منه من المنهات الهينة التي لا تؤدي إلى فساد نفسه وخلقها إذا فعلها خفية

(١) فقد روى الترمذى من حديث عمر وابن شعيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » .

وكان ينجل من إظهارها ، وإلا وجب تأنيبه عليها كى لا ينشأ على الوقاحة ، وعدم
المبالاة بارتكاب المحازى . (٧) أن يضرب له الأمثال بالأولاد العاملين المجدين ،
والشجعان المهذبين وما وصلوا إليه من رقى وسعادة بفضل جدم واستقامتهم ،
وبالأولاد المهملين الكسالى ، والجبناء الأشرار ، مبيئاً له سبب تأخرهم وشقايتهم .
(٨) اجتناب الضرب والتهديد ، فقد ينتجان عكس المطلوب . ويتركان أترأ شيئاً
فى نفس الولد ، فضلاً عما يحدثان فيها من الجبن والكذب ، والخيالات الفاسدة .
نعم ! إذا رأى المربي أنه لا يفيد فى الدلام إلا الزجر ولا يصلحه إلا التخويف
فلا بأس به لكن بقدر الحاجة من غير إفراط . وعلى الجملة فالمرى كالطبيب الحاذق
الذى يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها من الدواء . ولكن لا بد من المراقبة الفعلية
والملازمة العملية ؛ التى يفيدها الحديث الآتى على أى حال . (٩) مما يجب التنبه له
قيام الأبوين بتنفيذ الخطة التى رسمها للولد عملياً بملازمتهم له ملازمة تامة فى تنفيذها
كما يشير إليه هذا الحديث الشريف : « الزموا أولادكم » . فلا يكنى مجرد الترغيب
والترهيب بالقول وضرب الأمثال . (١٠) إذا بلغ الصبى حد الشهوة اشتدت المراقبة
حرصاً على سلامة دينه وصحته وعقله ، ومحافظة على أخلاقه وحياته ومستقبله . وأم
ما تعالج به هذه الحالة هو شغله بعمل من أعمال الحياة ، وصرفه عن كل ما يثير الشهوة
ويبعثها من مرقدها ، فإذا درج على ذلك وتعود سهل عليه قطع هذه المرحلة آمناً
على نفسه ودينه وصحته ومستقبله ، والقول الجامع لكل ما ذكرنا قوله جل ثناؤه :
« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » . أى ناراً
شديدة تنوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالخطب .

نعم احفظوا أنفسكم منها بأعمالكم الطيبة ، واحفظوا أزواجكم وأولادكم من شرها
بوصيتكم وإرشادكم ، وإذا كان الأب يصون ولده من نار الدنيا ؛ فلأن يصونه عن
نار الآخرة أحق وأولى بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق وجلال
الأعمال ، ويحفظه من القراء السوء .

ومن حق الولد على أبيه أن يحسن أذنه على ما وصفنا ، ويحسن اسمه ويختار أمه ، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر الابن وأنبه على عقوقه لأبيه ، فقال هذا الابن : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال بلى ، قال : فاهى يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سماني جُعلاً [جعرانا] ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً . فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له أجنث إلى تشكو عقوق ابنك وقد عفته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسئ إليك ؟ (أى الشر بالشر والبادى أظلم) . وتلك عاقبة من فرط في الحقوق والواجبات ، ورحم الله والدأ أعان ولده على بره بتوفيقه ما له عليه من الحقوق ولم يحمله على العقوق بسوء صنيعه ، لأن الوالد إذا كان عادياً جافياً جبر الولد إلى العقوق . وقد قيل : ولدك ريمانتك تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ؛ وقريب من هذا قول بعض الحكماء : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه . وقال يزيد بن معاوية رضى الله عنه : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بجر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودم ، ويحبوك جهدم ، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت على وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد فلما خرج الأحنف ، رضى عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومثتى ثوب . فأرسل إلى الأحنف نصف ذلك ، مائة ألف درهم ومائة ثوب .

هذا . والسعيد من كان أنسه بالله لا بالولد : لما خرج موسى فاراً من فرعون وقومه انتهى إلى مدين على الحال التى ذكر الله تعالى ، وهو وحيد غريب خائف

جائع ، قال يا رب : وحيد مريض غريب ! فقيل له : يا موسى الوحيد من ليس له مثلى أنيس ، والمريض من ليس له مثلى طيب ، والغريب من ليس بينى وبينه معاملة ، نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بهدايته ، وأن يستعمل جوارحنا فيما يرضيه ، إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

المحاضرة السابعة

الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى وسلم على رسول الله :
الاستقامة جميلة المبني ، جليلة المعنى ، قليلة العبارة ، كثيرة الإشارة ، من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فذلك الشقي الخذول المحروم . من عرف بها عظمت بين الناس حرمة ، وعلت فيهم درجته ، وحسنت سيرته ، ووجبت محبته ودامت بينهم مودته ، وتبوأ من قلوبهم منزلة يغبط عليها ، ورجح من نفوسهم مكانة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل في كل أمة ، وكان مقبولا لدى الله والناس أجمعين « ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتماها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن خلا منها وتجرد من ثيابها ضل سميها وخاب جده .

« ماهى الاستقامة » الاستقامة فى وضعها ضد الاعوجاج والاستواء فى جهة الانتصاب . يقال استقام العود أو العود إذا اعتدل . أما فى العرف فلكل قوم فيها ذوق خاص كلٌّ قال فيها بقدر استعداده وبحسب ما حباه الكرم منها من حظ على قدر جده وسعيه « وكل ميسر لما خلق له » .

قال بعض العارفين : الاستقامة توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد ، وتفويض بلا تدبير . وهذا العمر الحق مقام عزيز لا يحكمه إلا من تصفى كالذهب الأبريز — وقال آخر : الاستقامة اتباع الحق والقياد .

بالعدل ، ولزوم المنهج القويم وهذا أيضاً خطب جسيم ، ومقام عظيم لا يكون إلا لمن أشرق قلبه بالأنوار القدسية ، وطهرت نفسه من الأدران البشرية والظلمات الطبيعية وأيده الله تعالى بروح من عنده — وقليل مأم — وقال ثالث : الاستقامة ك مقام الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكل — وهي على هذا المشرب عزيمة المنال لا يطيقها إلا الأكابر الواصلون . والسابقون السابقون أولئك المقربون .

ومن أجل ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى . « فاستقم كما أمرت » ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية — ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له : قد أسرع إليك الشيب يا رسول الله : « شيبتنى هود وأخواتها » وهي الواقعة والحاقة . وسأل سائل وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة . روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتاهاهن مع قصرهن على حكاية أحوال الآخرة وأهوالها وفظائنها وبيان أحوال المهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى له : « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهييه فإذا سمع « كما أمرت » علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه .

والقول الجامع لهذه الأقوال كلها أن الاستقامة هي المتابعة للطريقة الحمدية مع بالتخلق بالأخلاق المرضية . لاسير مع الهوى والابتداع فان السير مع الهوى يعنى فبين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ولا يفرق بين الخير والشر بل ينكسه ويعكسه هيرى البدعة سنة والسنة بدعة والضلالة هداية والهداية ضلالة « ومن أضل ممن اتبع واه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

مدارج الاستقامة

لها ثلاث مدارج أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة . فالتقويم يكون من حيث تأديب النفس باصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى اعتاد الخير ونستقيم على عمل البر والطاعة . والإقامة تكون من جهة تهذيب النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة ، كالخقد والحسد ، والكبر والعجب والنفاق والرياء . والاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار الإلهية والأنوار القدسية من القلوب ، وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة . فالأول تمحيص والثاني تحقيق والثالث توفيق .

علامة المستقيم في الناس

أن يكون مثل الجبل لا يذويه الحر ولا يضره البرد ، ولا يحركه الريح ، ولا يذهب به السيل العظيم . كذلك المستقيم في الناس لا يؤثر فيه مر المصائب ولا يحوله عن ثباته صدمة البلايا ، — وهذا الوصف الأول — والثاني إذا أساء إليه إنسان يبارد القول وقارص الشتم لا يتشوش منه بل يتجاوز عنه ويعدمه عدماً ويهمله ، بل يقابل الإساءة بالإحسان « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » والثالث : هو نفسه الأمانة بالسوء لا يحوله عن أوامر سيده وطاعة مولاه . والرابع : أن متاع الدنيا وسيل زخارفها لا يشغله عن ربه ولا يلهيه عن طاعته . وصفوا الكلام أن علامة المستقيم الصبر في الشدائد ، والثبات عند البلايا ، والاعراض عن الجاهلین والصفح عن أساء إليه ، وأن لا يكون للهوى والشهوة سلطان على نفسه ، وأن زخارف الدنيا لا تأخذه من مولاه ولا تشغله عن سيده .

آثارها في صلاح الفرد والمجتمع

إذا كان المستقيم راعياً لاشك صلحت رعيته . وإذا كان مربيًا سعدت على

يديه تلاميذه . وإذا كان صانعاً تقدمت صناعته . وإذا كان تاجراً ربحت تجارته .
وإذا كان زارعاً كثر خيره ، وبورك له في عمل يديه . وإذا كان رب منزل استقام
أهله وصالحت ذريته ، ولا ريب أنه متى استقامت الأفراد وصلح حالها استقامت
الأسر ، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمة بأجمعها . فإن من لا بيت له لا أمة له
وغنى عن البيان أن كل أمة يكون حظها من الرقي والسعادة على قدر حظ أفرادها
من الاستقامة وسلوك المنهج القويم والسير على الصراط المستقيم .

حث الشارع على لزوم الاستقامة في كل حال

من رحمة الله تعالى بعباده أن أرشدهم إلى مافيه الخير والسعادة وما يضمن لهم
القوز والفلاح في الآخرة والأولى . وقد عرفت مافى الاستقامة والتحلل بها من الآثار
الحسنة والمزايا الجليلة ، وبقى لك أن تعرف شيئاً مما جاء عن الشرع في الترغيب
فيها والحث على التجمل بها في عموم الأحوال . من ذلك قوله تعالى « إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون » فانه جل شأنه قد وعدهم على
توحيدهم له تعالى ومعرفتهم بجلاله واستقامتهم على الطريقة المرضية « وعدهم »
الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكاره في الدنيا وضمن لهم النعيم الدائم
في الآخرة ، ذلك بأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى الذي هو على الحقيقة خلاصة
العلم ورأس العلوم ورئيسها ، وبين الاستقامة على أمور الدين كلهما من صحيح العقائد
وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق التي هي ثمرة الأعمال وأثرها
وعليها مدار المعاملات وانتظامها . لهذا كانوا لاخوف عليهم من لحوق مكروه ولاهم
يحزنون لفوات مطلوب وضياع محبوب . هذا ما لهم في الدنيا بمقتضى هذا الوعد
الكريم من الغنى الرحيم . وما لهم في الآخرة أغلى وأعلى « أولئك أصحاب الجنة
خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » أى من صنوف البر وأنواع الحسنات العملية
والعملية والمآثر النافعة لهم ولأمتهم التي خلدت لهم حسن الذكرى وجميل الأحدثنة
ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي عمر سفیان بن عبد الله رضى الله

عنه . قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » سأله رضى الله عنه أن يبين له في دين الإسلام وشريعته قولاً جامعاً لأمره يكفيه بحيث لا يحتاج إلى أن يسأل عنه أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه واضحاً في نفسه مبيناً لغيره ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بالاقرار بالتوحيد لله تعالى ومعرفة ربه أولاً . ثم الاستقامة على طريقة الدين أوامره ونواهيه ، عقائده وعباداته ، معاملاته وآدابه . وهذا من بديع جوامع الكلم التي اختص بها صلى الله عليه وسلم فإنه جمع للسائل في هاتين الجملتين جميع معانى الإسلام لأنه إجمالاً أمور أربعة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة .

فالعقائد مستفادة من الجملة الأولى وما عداها من الطاعات والمعاملات والأخلاق الحسنة فهو في ضمن الجملة الثانية . إذ الاستقامة امتثال كل مأمور واجتناب كل منهي

طريق الوصول إلى الاستقامة

إن الحصول على الاستقامة بوجه عام ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها بل من السهل الميسر والقريب ، فإن المرء إذا عود نفسه أن يراقب الله تعالى عند كل عمل يعمله موقناً أن الله تعالى مطلع على جميع أعمال العباد ومعتقداً أنه تعالى يجازى من أطاعه برضوانه وإحسانه ، وأنه ينزل غضبه ومقته على من خالفه وعصاه — إذا عود نفسه ذلك سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه الله عنه . فإذا سولت له نفسه أن يأتي معصية من معاصي الله ردها وزجرها وذكّر لها بمرّة الله تعالى وجلاله ، وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم » متى لاحظ المرء ذلك وعود نفسه عليه لا يقدم

على منكر ولا يقصر في مطلوب منه ، فتصير الاستقامة له عادة ينتقل بها من وهدة الشتاء إلى ذروة العز والسعادة ، ويخرج بها من الظلمات إلى النور بإذنه سبحانه ، فنه التوفيق ومنه الهداية .

المحاضرة الثامنة

الإنسان في الشدة والرخاء

من نظر إلى الإنسان وفكر في أحواله وطبائمه وجدته كثير المعجز قليل الصبر عند نزول الشدائد والبلاء ، كثير العرور قليل الشكر عند حصول الرخاء والنعاء . فإذا أصابه نوع مكروه كضيق وعسر ومرض وفقر وغيرها من بلايا الدنيا وشدائدها استولى عليه اليأس وملسكه الجزع وظهر ذلك على وجهه وجوارحه بالتغير والاضطراب . ثم إذا تاب إلى رشده وعاد إليه صوابه أقبل على مولاه وأكثر من التضرع والدعاء له تعالى في جميع أحواله نائماً أو مضطجعاً ، قاعداً أو قائماً ، ساكناً أو متحركاً ، مجتهداً في التذلل والخضوع . طالباً منه تعالى لإزالة تلك الشدة والحنة وتمديدها بالنعمة والمنحة . فإذا استجاب له ربه وكشف عنه ما نزل به من سدة وبلية مضى في سبيله وعاد إلى سيرته الأولى واستمر على طريقته التي كان ينتهجها قبل مساس الضر وإصابة المكروه . ونسي حالة الشدة والبلاء وأعرض عن شكر مولاه ولم يعرف نعمته عليه ، وصار بمنزلة من لم يشعر بمكروه ولم يدع مولاه تعالى لكشف ضره كان قد نزل به . وهذا بلا ريب يدل على ضعف طبيعة الإنسان وقلة وقائه لمولاه وشدّة استيلاء الغفلة والشهوة عليه . وفي ذلك يقول الله تعالى « وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضره مسّه كذلك زين المسرفين ما كانوا يعملون » والمسرف هو الذي ينفق المال الكثير في الغرض الخسيس . وإسراف هؤلاء لأن الله تعالى إنعنا منحهم القوى والحواس الظاهرة والباطنة ليستعملوها فيما خلقت له من التفكير والعمل النافع ، وأغدى عليهم صنوف

الخيرات أعطاهم نفائس الأموال ليصرفوها في مصارفها المعروفة ، ووجوهها المشروعة . وما إلى ذلك من كل ما يعود على المرء وأمه بالخير والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة . فلما استعملوها فيما لا فائدة منه وصرفوها إلى مالاخير فيه — وهي رأس مالهم — فقد أساؤا التصرف فيها وأتلفوها وأضاعوها وأسرفوا إسرافاً ذمياً ، وكانوا من حزب الشيطان الرجيم الذي زين لهم ذلك بالتسويل وحسنه بالوسوسة .

ويقول أيضاً : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . فأفاد سبحانه أنه إذا تفضل على عبده بنعمة كعافية ورخاء أعرض عن شكره وطاعته وشغل بنعمته عنه واستطال بنعم الله على خلقه وثنى عطفه متبخرتاً كبرياء وعظمة . وإذا عرض له نوع مكروه كمرض وعسراً أكثر من التضرع والدعاء إليه تعالى لكشف ما عرض له من المكروه .

فهذا شأن الإنسان وهذا حاله في الشدة والرخاء كما بينه الله تعالى لنا في كتابه الحكيم تنبيهاً على أن هذه طريقة ممقوتة وأخلاق مذمومة . وأن واجب الإنسان العاقل المفكر أن يكون شجاعاً في الشدائد ثابتاً عند نزول البلايا ، شاكراً عند الفوز بالنعاء ، وحقه أن يكون كثير الدعاء والتضرع إليه تعالى في أوقات الراحة والرفاهية ، ليكون مجاب الدعوة في وقت الألم والحاجة . ففي الحديث الصحيح أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » . رواه عبد بن حميد والإمام أحمد . وعنه صلوات الله وسلامه عليه « من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء » . رواه غير واحد .

وصفة القول أن الإنسان جبل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر ، كما جبل على الفرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو . فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والافتقار . وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان وغفل عن إحسان الله تعالى إليه ، ووقع

في النفي والعدوان والجحود والتكران . وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته ومبادئ خلقته ، ولسكنه معذور ولا عذره ، ومخلوق عاجز ضعيف في صورة جبار عنيد ، لا يبصر على اللأواء ولا يشكر عند النعماء ، إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنيا والتفانص - وقليل ما هم . وهم الذين يرجعون إليه تعالى في جميع الأحوال موقنين بأنه وحده هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرف لها وفق مشيئته وإرادته . فلا جرم إذا أصابتهم السراء شكروا ، وإن أصابتهم الضراء صبروا ، وأفنوا إرادتهم في إرادته ، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه . وفي أمثال هؤلاء يقول الله تعالى « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » فقد وصف الصابرين بأنهم عند المصيبة يقرون له تعالى بالعبودية ، وفي ذلك تفويض الأمور إليه والرضا بقضائه . وأخبر تعالى أن جزاءهم عنده ثناء ومغفرة ورفع شأنهم عند الله والناس وإحسان عظيم - ومنه ما يجدونه في نفوسهم من برد الرضا وحسن العزاء - وأنهم مختصون بالاهتداء لكل حق وصواب . ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى .

ولقد أرشد الخلاق العليم عباده في كتابه الكريم إلى التغلب على هذه الطبائع والسلامة من تلك الأدواء بقوله تعالى « إن الإنسان خلق هلوعا » إذا أصابه المكروه لم يبصر ، وإذا جاءه الخير لم يشكر . وقد فسرنا أحسن تفسير وبينه أجمال بيان ، قوله تعالى « إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا » فانه تعالى كشف لنا عن خبيثة الإنسان وأظهر ما فيه من علة وجبلة ، وأنه كثير الجزع وقت الشدة . كثير الأسماك والبخل وقت الرخاء . ثم عقبه بقوله : « إلا المسلمين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مُشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم بشهادتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون » فاستنتى هذه الأصناف الثمانية المتصفين بهذه النعوت الحميدة من

المؤمنين بتلك القبائح الذميمة . لأن نعوتهم الجليلة تنم عن اهتمامهم بطاعة الخالق . والرأفة بالخلق بايتاء الحقوق المالية والعطف على البائسين والمحرومين ، وتنبه عن إيمانهم بيوم الجزاء وما فيه من هول وحساب . وخوفهم من عذاب الله — مع ما لهم من عمل صالح — وقمع شهوتهم واقتصارهم على ما أحل لهم من النساء ، وإيثار الآجل على العاجل بالاخلاص والصدق والوفاء في المعاملة ، وإقام الصلاة على أكمل وجه على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب العاجل والركون إليه والاعتراض به وقصر النظر عليه . فيمثل هذه الأدوية النافعة ينجو الإنسان من الشر ، وتسلم القلوب من الجرع عند عروض البلايا ورذيلة البخل في وقت الرخاء . واعلم أن من واجب المؤمن إذا ابتلى ببليّة وتزلت به محنة أن يراعى أموراً :

(منها) أن يكون راضياً بقضاء الله عز وجل غير معترض عليه بالقلب واللسان لأنه تعالى مالك على الاطلاق . وملك بالاستحقاق . ومن كان كذلك فله أن يفعل في ملكه وملكه ما شاء كما يشاء . ولأنه أيضاً حكيم على الاطلاق منزّه عن الباطل والعبث ، فكل ما فعله صواب وحكمة ، إن أبقى على عبده المحنة فهو عدل . وإن أزالها عنه فهو فضل . ومن آمن بهذا وجب عليه الصبر والسكون والرضا والتسليم وعدم القلق والاضطراب .

(ومنها) أن يصلح نفسه بالتوبة إلى الله تعالى والانابة إليه مما فرط منه فقد تكون البليّة عقوبة معجلة لبعض ما اقترف من السيئات لعله يشوب إلى رشده ويرجع عن غيه . قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » وقال « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فالجذب وقلة الأمطار وتزول الأزمات والعاهات بالناس والدواب والزروع وبحق البركة من كل شيء ، كلها من شؤم المعاصي .

(ومنها) أن يشتغل في ذلك الوقت بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا من الدعاء له . لأن الاشتغال بالذكر والثناء اشتغال بالخلق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطالب . ولا ريب أن الأول أحسن وأفضل . ومتى صدقت في ذلك نيته .

وصحت عزيمته . أصلح الله باله وأجزل له في العطاء . ففي الحديث القدسي « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

(ومنها) أن يبذل وسعه في شكره تعالى إذ أزال عنه تلك الخيبة وأن لا ينقطع عن ذلك الشكر في عموم الأحوال من السراء والضراء والشدة والرخاء فإن أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل . ومما ينفع في تخفيف وطأة الشدائد وتهوين البلايا والكروب ملاحظة أمور سبعة :

(١) مقام التوحيد وأن الله تعالى هو الذى شاء ذلك وقدره ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (٢) العدل وأنه تعالى ماض فيه حكمه عدلٌ فيه قضاؤه (٣) الرحمة وأن رحمة تعالى في هذا المكروه غالبية غضبه وانتقامه (٤) الحكمة وأن حكمته تعالى البالغة اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاء عبثاً (٥) الحمد وأن له تعالى الحمد التام والثناء الحسن الجميل على ذلك من جميع الوجوه (٦) العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده بحكم كونه مالكة يتصرف فيه بما يشاء كما يشاء (٧) أن الأمور لها انقضاء وأن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً . وأن كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا البلايا فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر . وهذا من رحمة الله بعباده — وكل هذا لا يمنع العبد أن يستخدم مواهبه في تلمس الخلاص من بعض ما نزل به بالوسائل المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذى يسلكه المرء عند نزول البلايا وعروض الشدائد .

ولأرباب البصائر النافذة هنا مقام أقوم وطريق أسلم مما سمعت . قالوا : إن من كان وقت إصابته النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالنعم كان عند نزول البلية مشغولاً بالبلاء لا بالعبئى . ومثل هذا المرء يكون دائماً في نكد وبلاء . أما في وقت البلاء فواضح وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها بلاء عظيم ، وكلما كانت النعمة ألد وأكمل كان تألمه لزوالها أشد وأعظم . فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبدأ في هم وبلية . وأما من كان وقت النعمة مشغولاً بالنعم ، كان في وقت البلية مشغولاً

بالمبلى . ومتى كان المنعم والمبلى واحداً كان نظره أبداً على مطلوب واحد لا يتغير ، ولا يتبدل . ومن كان كذلك كان وقت الشدة والبلاء وفي وقت الرخاء والنعاء مطمئن النفس هادئ البال واصلاً إلى أقصى درج الكمال ، فائزاً إن شاء الله بغاية السعادة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة التاسعة

الاقتصاد - أثره في الفرد والجماعة

الحمد لله مستوجب الحمد ، خلق بنى الإنسان وسوام ، وعلى موأند كرمه وجوده رباهم ، ورزقهم من الطيبات ، وابتلاهم بتقلب الأحوال ، ورددهم بين اليسر والعسر والغنى والفقر ، والتبذير والتقتير ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وينظر أيهم آثر العاجلة على الآجلة وقدم الدنيا على الآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة ومرشد الأمة الذى كانت حياته المثل الأعلى فى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله واهتدوا بهداه . (أما بعد) فانا سنتحدث إليكم الآن فى موضع له خطره وشأنه فى بناء قومية الأمة ، وحياتها عزيزه قوية ألا وهو « الاقتصاد » والبيان فيه يكون بأمر : (١) الكشف عن حقيقته وبيان معناه ليقوم البناء على مفهوم ويكون الحكم على معلوم ، ويتبع ذلك أو يتصل به اتصالاً وثيقاً الكشف عما يحيط به من طرفيه الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير . (٢) بيان أثر الاقتصاد فى سعادة الفرد والجموع . (٣) عناية الشارع به لما له من الأثر الحسن الحميد ، فى حياة الأمم والشعوب . (٤) الكلمة الختامية للموضوع . فنقول وبالله للتوفيق ، ومنه تعالى الهداية :

الاقتصاد والقصد : التوسط والاعتدال : من قصد فى الأمر قصداً توسط وطلب الأسد ولم يجاوز الحد ، ومنه حديث : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من لا يسرف فى الانفاق ولا يفتقر ، وحديث : « القصد القصد تبلغوا » أى عليكم

بالتوسط في الأمور تصلوا إلى غاياتكم — والاقتصاد في عرف الناس إدخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة إليه . وهو وسط بين طرفين كلاهما ذميم وقبيح عند الله والملائكة والناس أجمعين : إسراف وتبذير ، وشح وتقتير — فالإسراف كالسرف مجاوزة الحد ، وهو نتيجة الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، فهو نتيجة الجهل بمواقع الحقوق ، أى أنه ينفق المال ولا يعرف أين ينفق ولا أن يحسن التصرف فيه بإصابة مواضعه — والإسراف والتبذير في نظر الدين معناهما واحد ، لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال في غير مواضعه ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « التبذير إنفاق المال في غير حقه » ومعناه أن المبذير يجهل بمواقع الحقوق التي تستحق إنفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ، ولكن تدفعه شهوته الخبيثة إلى مجاوزتها .

وروى عن ابن عباس وغيره ، أن الإسراف كالتبذير إنفاق المال في مساخط الله تعالى — فهو ذميم وقبيح شرعاً وعقلاً لمجاوزته الحد الذي حده الحكيم العليم لعباده في إنفاق المال بوضعه في غير ما رسم له ، ولذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : التبذير إنفاق المال في غير حقه ولا تبذير في عمل الخير — أما الشح والتقتير أو الاقتار فهو إمساك المال والرضن به عن الواجبات التي لا بد منها ، والبخل به على نفسه وعياله ، وهو أيضاً ذميم وقبيح ، وتفريط مهين ومشين — فتحصل من هذا البيان أن الاقتصاد الحسن الجميل وقع وسطاً بين جارين كلاهما قبيح وذميم عند الله والملائكة والناس أجمعين . قال بعض الأدباء :

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم
وقال : —

تسامح ولا تستوف حقلك كله وأبق فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصاد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

أثره في سعادة الفرد والجماعة

وأما أثره في ذلك فظاهر جلي وواضح لا يخفاء فيه — فقد دل البحث الصحيح على أن المدنية الحاضرة قامت على أربعة أركان : العلم ، والمال والنظام والأخلاق الفاضلة . وإن كل أمة تجردت من العلم والمال والنظام والأخلاق السكرية كان الشقاء حليفها والتأخر نصيبها — والمشاهدة أصدق شاهد . وليس بعد العيان بيان — وهل يكون مع الجهل والفقر والفوضى وسوء الأخلاق في الناس خير ؟ اللهم لا . فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم ونهوض الشعوب . وبه تكون الأمة عزيزة قوية ؛ جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم ، وبفقد المال تصبح الأمة ذليلة ضعيفة ، فاقدة الهيبة ساقطة الحرمة والكرامة ، مستعدة لأن تصير فريسة للأقوياء وغنيمة للمستعمرين واقعة في أفواه الظالمين .

لهذا وأمثاله عنى الشارع الحكيم الرحيم بأمر الاقتصاد . وحمل الناس عليه ، ونهى على الإسراف والتبذير . وسقاه أحلام المسرفين والمبذرين ، كما نعى على الشح والتقتير ، وقبح من شأن المقتيرين وأهل الشح ، قال تعالى في وصف أولى الخزم والكال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وسطاً . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ، ولا يقترون فيما نفقوا حقوق الله — ومعناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام — فالآية كما ترى حث على الاقتصاد وسلوك حد الاعتدال في صرف المال وهو الوسط الممدوح .

وقال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » في الآية إرشاد إلى مواضع الانفاق وهو أن يكون في مواضع البر والخير وأداء الواجبات التي فرضها الله على الأغنياء ، فتجب صلة الأقارب بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال ،

ومساعدة المساكين وأبناء السبيل بالتصدق عليهم ، أو مما لهم من صدقة الفرض .
لأنهم من الأصناف الثمانية ، وفيها نهي على التبذير وأهله بجمعهم من إخوان الشياطين
والمراد المماثلة التامة في عمل الشر ، أو أنهم قرناؤهم في كفران أنعم الله التي أنعمها
الله عليهم . فبدلاً من أن يشكروه عليها بامتثال أمره في شأنها وضعوها في غير
مواضعها ، فانقلبت عليهم نقماً ، وكانوا في العذاب مع الشياطين « وكان الشيطان
لربه كفوراً » كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق لأنه مع كفره لا يفعل إلا
الشر ولا يدعو إلا إليه . ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه .

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
والمراد نهى الإنسان أن يمسك إمساكاً يصير به مضيئاً على نفسه وعلى أهله وعباله ،
وأن يتوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يجاوز الحد المعقول فيه ، فهو
نهى عن جانبي الإفراط والتفريط ، وينتج منه مشروعية التوسط ، وهو العدل
الذي ندب الله إليه عباده : وقد مثل الله تعالى في هذه الآية حالة الشحيح بحال من
ربطت يده إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها — ومثل حال من يجاوز الحد
في الإنفاق بمن يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض عليه الأيدي ،
وهو تمثيل بليغ وتصوير شنيع . ثم بين عاقبة الطرفين المنهى عنهما فقال : « فتقدم
ملوماً » عند الله والناس بما أنت عليه من الشح والتقتير « محسوراً » بسبب ما كان
منك من الإسراف والتبذير منقطعاً عن المقاصد بسبب ما جلبته على نفسك من
الفقر والفاقة ، حتى أصبحت صفر اليدين ، والمحسور في الأصل المنقطع عن السير ،
من حسره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته ، فلا انبعاث به
ومنه « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أي كليل منقطع .

وجملة القول : فالمال عماد الحياة الأولى ، وقد يكون سعادة في الآخرة ، فإذا
جمعه العبد من طريق شريف حلال وحافظ عليه على حال ترضاه الشريعة القراء ،
وأنفقه كما جمعه في طريق حلال ، فهو ممدوح وصاحبه مأجور ومحبوب لدى الله

والناس أجمعين . وإن جمعه من طريق وضيم وحرام وأضاعه في لذاته وشهواته ، أو حرم منه نفسه وعياله فهو مذموم وصاحبه مكروه لدى الله والناس ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

المحاضرة العاشرة

الحسد وآثاره السيئة في المجتمع

قال حفظه الله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى وسلم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

الكلام على الحسد من وجوه : (١) بيان حقيقته والكشف عن معناه ليكون الحكم على معلوم ، والبناء على أساس واضح مفهوم (٢) بيان ما جاء في التحذير منه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) الأسباب التي ينشأ عنها والآثار السيئة التي تعود على بني الإنسان منه .

وقبل الكلام عليه من هذه الوجوه نذكر مقدمات لها بالموضوع صلة :

الأولى - كلنا يعلم ويؤمن بأن الله جلت حكمته وعزت قدرته قد أنزل الكتاب المبين هدى للناس ورحمة . نعم إنه يهدي من تمسك به ، ويوصل من لم ينحرف عنه إلى السعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وفي ذلك رحمة منه تعالى بخلقه وإحسان عظيم منه إليهم « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » أي شأنه الهداية إلى ذلك . وأقوم الطرق وأعد لها ملة الإسلام والدين القويم .

جاء هذا الدين بالأوامر والنواهي ، ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن الحال والمآل ، وتوعد المخالفين لها والمتمردين عليها بوخامة العاقبة في العاجل والآجل « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون» وقال تعالى: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» كل هذا ليسوق الناس من طريق الترغيب إلى الخير فيغنموا فيرجحوا، ويمنعهم بطريق الترهيب عن الشر فيسلموا من مخاطر الشقاء وتكد العيش، وهو في كل ذلك حكيم عليم، وغنى عادل.

الثانية — لا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى وبرئت من الأمراض الاجتماعية كالكبر والحقد والحسد، وحل محالها التواضع والمحبة والرحمة.

الثالثة — لا يجتمع في قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل. ولا شك أن المعجون المركب من الصبر والعسل نكرة مجهولة وحقيقة غير معروفة لأحد، وذلك لأن الرضاء عن الله جل وعلا في قضائه وفعله جزء من الأجزاء التي لا يتم الإيمان بدونها، ولا تكون حقيقة الإيمان إذا لم يوجد أي واحد منها، كما جاء في حديث الإيمان. إذا عرفت هذا فنقول:

الوجه الأول في بيان حقيقة الحسد ومعناه

قال العلماء: الحسد كراهة نعمة الغير وتبغى زوالها عنه، سواء أتمى انتقالها إليه أم لا، وهو قبيح بنوعيه إلا أن الثاني أقبح وأشد حرمة من الأول. وهو ألم في نفس الحاسد لا يسكن إلا إذا زالت نعمة المحسود. قال سيدنا معاوية رضي الله عنه: «كل أحد أقدر على رضاه إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها» وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم، من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع».

وأما الحسد في عرف العامة فهو عبارة عن نظرة العين إلى الشيء نظرة إعجاب واستحسان، وقد يكون ذلك عن حسد في النفس وكراهة للنعمة. وستكلم عليه إن شاء الله تعالى واتسع الوقت.

هذا الحسد المذموم وذلك المرض المشثوم هو الداء المضال الذي ابتلى به كثير

من الناس اليوم ، فأوغر صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق وحدتهم ، ففشلوا .
وذهبت ريجهم وتلاشت قوتهم حتى ذلوا واستكاثوا وطمعت فيهم أعداؤهم . وهو
أول ذنب عُصي الله تعالى به ، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه
السلام إلا الحسد ، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هايل سوى الحسد . وأى
معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة أو ينالك
منه سوء .

الوجه الثانى فى تحذير الشارع منه

لمثل ما ذكرنا نعر الشارع منه وجعله الله تعالى من أوصاف المنافقين إذ قال
تعالى : « وإذا تقولكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا
بغيطكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكتم حسنة نسوّم وإن تصبكم سيئة
يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » الحسنة
النسمة ، كالرخاء والخصب والنصرة والغنيمة . والسيئة المصيبة ، كالضيق والجذب
والهزيمة ، والأول الحسد والثانى الشامة . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهما
لا يضران المحسود ولا المشموت به إذا اتقى ما حرم الله عليه وابتعد عما عنه نهاه ،
وصبر على مشاق التكاليف وعبادة المنافقين ، ولم ينتقم منهم لنفسه بل فوض الأمر
فيهم إلى الله تعالى . وقال أيضاً فى المنافقين وبيان ما تكبته نفوسهم القذرة وتحويه
ضمائرهم الخبيثة من الكيد والمكر وأنواع الأذى لجماعة المسلمين « ودّوا ما عتم قد
بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » أى تمنوا عنكم أى مشقتكم
وشدة ضرركم قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم كانوا لا يتبالكون مع مبالقتهم
فى ضبط أنفسهم أن ينقلات من ألسنتهم ما يفضح أمرهم ويعلم به نفضهم للمسلمين .
فالحاسد مهما بالغ فى إخفاء ما انطوت عليه نفسه للمحسود من الكراهة فهو لا محالة
مفضوح ، ونار الحسد تتقلب عليه ويظهر حسده على وجهه وفى عينيه ولسانه .

وقال تعالى فى وصف الأنصار المحاضين لله والرسول والناس أجمعين :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » أى لا تضيق صدورهم من رؤية النعمة عند إخوانهم ولا يفتنون لها ، فأننى عليهم بسلامة قلوبهم من الأذى وصفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم من أدران الحسد .

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو دارود من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه وليست بثابتة في صحيفة عمله الصالح . ذلك أن الحسد في المعنى اعتراض على الله تعالى فيما لا عذر للعبد فيه ، لأنه لا تضره نعمة الله على أخيه والله تعالى حكيم في قسمة الحظوظ بين عبده ولا يضع الشيء في غير محله ، فكأن الحاسد يمترض عليه تعالى في قسمة المعيشة بين خلقه ، وينسب ربه للجهل والسفه ، ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردت حسناته ولم تبق في ديوان عمله ، ومن ثم قال بعض العارفين « الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد » وقال صلى الله عليه وسلم « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » .

وقال في النهى عن الحسد وأسبابه وآثاره : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » . فإن التباغض من أسباب الحسد والمقاطعة والغيبة من آثاره السيئة ونتائج المؤلمة . رواه البخارى ومسلم . وقال أنس رضى الله عنه : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم لأن من هذا الفج (الطريق في الجبل) رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تَطَلَّفُ (تنظر) لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال . فلما كان من الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل . وقال في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عمرو بن لعماس فقال له إنى لاحت أبى (خاصته في أمر) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ،

فإن أردت أن تؤدبني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم . فبات عنده ثلاث ليال - يرقب أحواله في حركاته وسكناته - فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يغم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال : غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هُجْرَةٌ ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عمالك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً ، يوجب تلك البشارة العظيمة فما الذي بلغ بك ذلك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق . رواه أحمد بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم : ولا حرج على فضل الله تعالى أن يمنح الخير الكثير على مثل طهارة القلب من درن النفس والحسد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه سيصيب أمتي داء الأمم . قالوا : وما داء الأمم ؟ قال الأثر » محرمة كسر النعمة « والبطر » محرمة الطغيان عند توفر النعمة « والتكابر » من جمع المال « والتنافس في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البني » مجاوزة الحد والاعتداء على خلق الله « ثم يكون الهرج » بفتح فسكون القتل . رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . وفيه تحذير شديد من التشاحن في الدنيا ، والتحاسد عليها ، فإن ذلك أصل الفتن ، وعنه تنشأ الشرور والبلايا .

وحسبكم في ذم الحسد وقبحه أنه يفسد الطاعات ، ويأكل الحسنات ويبعث على الخطايا والبلايا ، وأن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا يقال من الناس إلا بغضاً ودمناً . ومن الملائكة إلا لعنة . ولا يقال من الدنيا إلا جزعاً وغماً ، وعند النزاع إلا شدة وهولاً وفي الموقف إلا فضيحة ونكالا .

الأسباب الداعية إلى الحسد

من أهمها العداوة والبغضاء . فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمته فيه ، وظنّها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساءه ذلك لأنها ضد مراده ومرغوبه ، وهذا مما وصف الله تعالى به المنافقين كما سبق . والحسد يسبب البغض ، وكثيراً ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى في إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة . وهو بغي شديد وظلم فاحش (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . تجد بعض العاطلين من الناس إذا وُصف عنده حال إنسان وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤلمه ، وإذا وُصف له بسوء وشرف فرح به ، فهو أبدأ يكره الخير للناس ويتألم منه ، ويجب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وخزائنه ، وهو من فضل الله وجوده « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ويقول العلماء الباحثون : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس . والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس وردالة في الطبع ، ومعالجة هذا شديدة عمرة ، لأن الحسد بسائر الأسباب أسبابه عارضة يمكن زوالها فيزول ، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فلذا تعسر إزالته .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم وإن سميت باسمه في لسان الشرع بل هي مباحة في الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة في الأمور الدينية قال تعالى في مقام الحث على أسباب الوصول إلى النعيم : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » أى وفي أحوال هؤلاء الأبرار وما صاروا إليه من أنواع النعم المقيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى . وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس الذى تحرص

عليه نفوس الناس ويجب كل واحد أن يستأثر به ويضن به على غيره . وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلا أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعم العظيم الدائم لافى النعم الحقيقى الفانى — وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الفيط والمافين عن الناس والله يحب المحسنين » . أى بادروا إلى ما يوصلكم إلى المغفرة والجنة من أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المنهيات والتحلل بالمضائل والتخلل عن الرذائل . وإنما تكون المسابقة عند خوف الفوت كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاها إذ يجزع كل واحد ويؤلمه أن يسبقه صاحبه إلى مولاها فيحظى بمنزلة لا يحظى هو بها . والمنافسة أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يجب زواله عنه ، فهى فضيلة محمودة منشؤها علو الهمة .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة المعيون على ما صح فى السنة ، روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أو أمر — أن نسترقى من العين » . أى بسببها . وذلك أن المعيان (الحسود) إذا نظر إلى شىء أو إنسان أو حيوان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجزاها الله تعالى — وهل هناك جواهر خفية تنبعث من عينه تصل إلى المعيون كإصابة السم من نظر الأفعى أولاً ؟ . ذلك أمر لا يقطع بإثباته ولا بنفيه .

والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به ، إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة لا بالمزائم المحترمة والطلاسم المجهولة المعنى — وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصبغ إنكارها . وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سقمة فقال : « استرقوا لها فإن

بها النظرة » رواه البخارى — والسفمة بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين مهملة سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة . والمراد أن السفمة أدركتها بسبب النظرة وإصابة العين . و « استرقوا لها » اطلبوا من يرقبها . هذا هو الذى يصح اعتقاده والعمل به وغيره لا خير فيه . ومما ينفع لدفع شر العائن أن يقول المرء صباحا ومساء هذا الدعاء : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . كما صح به الحديث . أو يقول : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . رواه أصحاب السنن . ومن رأى شيئاً فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره راجع الإبداع فى الفصل الثانى عشر صفحة ٤٢٣ من الطبعة الرابعة .

المحاضرة الحادية عشرة

الغضب وسوء عاقبته

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراحون . يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى يسير تحت لوائه النبيون . وعلى آله وأصحابه الهداة الراشدين . وبعد . فإننا سنتحدث إليكم الآن فى موضوع خطير لما له من الصلة بالحياة الاجتماعية ، ألا وهو كيف يملك الإنسان نفسه عند الغضب .

حقيقة الغضب

إن الله عزت قدرته لما خلق الإنسان معرضاً للفساد والهلاك بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجية عنه ، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل مسمى — أما السبب الداخلى فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتبخرها حتى تصبح أجزاءها بخاراً يتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لهلك الحيوان . فخلق الله الغذاء وخلق

فيه قوة تبعثه على تناول الغذاء لجبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب - وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسنان وما إلى ذلك من وسائل الهلاك التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحماية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وبجته بطينة الإنسان ، فإذا توزع في غرض من أغراضه وصد عنه اشتملت نار الغضب فيه وفارت فوراً ينقل منه دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعلى البدن ارتفاع الماء في القدر ، ثم ينصب في الوجه والعينين حتى يجمرا منه ، إذ البشرة لصفائها كالزجاجة تحكي لون ما فيها . هذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن كان على من فوقه وأيس من الانتقام منه انقبض الدم إلى جوف القلب ، وكمن فيه وصار حزناً فأصفر اللون . فإن كان على من يساويه الذي يشك في القدرة عليه تردد الدم بين انبساط وانقباض ، فيحمر لونه تارة ويصفر أخرى . والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارجه إلى داخله . ولذلك يقتل الحزن ولا يقتل الغضب لبروز الغضب وكون الحزن . فصار أثر الغضب السطوة والانتقام ، وأثر الحزن المرض والأسقام وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومنها وبها غليان دم القلب ، لدفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو الانتقام والتشفي بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها . وفيه لذتها ولا تسكن إلا به .

درجات الغضب وحكمة خلقه في الإنسان

للغضب ثلاث درجات « الأولى » درجة الاعتدال بأن يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم ، وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الغضب ، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران ، وطلبها نظام المجتمع الإنساني ، فإن التنافس في هذه الحياة والتراحم على مراقفها يستدعي دفاعاً قوياً عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة .

ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض نظام الاجتماع ، لأن من لا يفيض لنفسه كان معرضاً للزوال من هذا الوجود ، أو معرضاً لأن يسخره غيره تسخير الدواب التي لا تفيض لنفسها — ومن لا يفيض لدينه فإنه يكون عرضة لتقليد القوى في كل ما يراه ويستحسنه ، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى ، ومن لا يفيض لعرضه لا يفار على نساته وتختلط الأنساب وتشيح الفاحشة في طبقات الأمة ، ويصبح الإنسان كالحیوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيرة ولا حية — ومن لا يفيض لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيراً معدماً — وإذا فسأ سلب المال تعطل نظام العمل ، بل بطلت الأعمال التجارية والصناعية والزراعية ، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضاً ، وذلك شر ووبال في العاجل والآجل — ومن لا يغار للحقوق العامة وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، وفي مثله يقول الإمام الشافعي رحمه الله « من استغضب قلم يفيض فهو حمار » أي بليد الطبع فاقد الحمية . وإلى ذلك يشير نوله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » « الثانية » درجة التفريط ، وهي أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف في الإنسان أو يفقد منه رأساً . وتلك الحالة مذمومة شرعاً وعقلاً ، لأن من لا يفيض لنفسه أو لدينه أو لعرضه أو لماله أو لمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله في خلقه . وفي ذلك خطر عظيم على الاجتماع لأنه مشار الفوضى في جميع مرافق الحياة كما علمت « الثالثة » درجة الإفراط وهي أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال ويطغى على العقل والدين ويندفع في سبيل الشر اندفاعاً قد يؤدي إلى الهلاك من حيث لا يدري ، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم وشر الموبقات . ومعلوم أن الغضب في تلك الحالة مذموم شرعاً وعقلاً . وتفاوت درجات الدم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً . فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر جرماً وأكثر ذمّاً .

أسباب الغضب

للفضب أسباب كثيرة : منها الجدال والمزاح والسخرية بالناس ، والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان : فلا يبالي بسب الغير أو غيبته أو النم عليه ، وما إلى ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والمعجب ، فإن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستحق عظمته ومنزلاته في الناس ، فإذا طلبه أحد بحق اشتاط غضبه ، وكذا إذا نهاه عن رذيلة أو عارضه في أى أمر كان ، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات ، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهيه أو يقف في سبيله . وهو في الواقع ناقص من كل وجه ، يحاول أن يمجّر نفسه بكبريائه — ومنها مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة ، وطغيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك ، وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعاراً .

تلك أهم الأسباب التي تثير الغضب وتهيجه . والغضب المترتب عايبها كلها قبيح شرعاً وعقلاً ، بخلاف ما كان متعلقاً بالدفاع عن النفس والدين والعرض والمال أو الحقوق العامة وإنصاف المظلومين فإنه فضيله لا يكون إلا بمن قويت عقولهم واعتدلت طباعهم ، فأصبحوا خاضعين لسلطان الدين والعقل . ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم حيث إنه وصفهم بالشدة واللين — ولكل موضعٌ يليق به — فقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب ، وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم ، وكانوا المثل الأعلى لمن يناضل في سبيل الحقوق العامة .

ما جاء في التنفير من الغضب

قال الله تعالى « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة والثبات والوقار — وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم

أوصني قال : لا تغضب فردد سراراً قال : لا تغضب « رواه البخارى فى الأدب . وهو من جوامع كله التى حُصّ بها — وعن عبد الله بن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يبعدنى من غضب الله ؟ قال لا تغضب » أخرجه أحمد فى المسند — وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الضَّرْعَةَ فىكم ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » رواه مسلم بلفظ ولكنه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالضَّرْعَةَ ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه — وقال سليمان بن داود عليهما السلام « يا بنى إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف قواد الرجل الحليم » رواه ابن أبى الدنيا . وقال أبو الدرداء : « قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال : لا تغضب » بزواه الطبرانى وغيره باسناد حسن — وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال مجاهد قال إبليس : ما أعجزنى بنوا آدم فلن يُعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزائمه فقدناه حيث شدنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، والثالثة نبخله بما فى يده ونمنّيه بما لا يقدر اعليه » رواه ابن أبى الدنيا . وقيل لحكيم « ما أملك فلانا لنفسه !! قال إذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ، ولا يقلبه الغضب » رواه ابن أبى الدنيا . أى فهذه خواص من ملك نفسه — وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار — وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لبن ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم وكيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتجمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وصبر فى شدة . لا يقلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تقلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . لا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر . يقهر إذا ظلم ويمفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء .

علاج الغضب

هو إما أن يكون طبيعة في المرء وإما أن يكون مكتسباً بالخالطة ، فمن كان الغضب له طبعاً فعلاجه باجتناب الأسباب المثيرة له كالتكبر والافتخار والتعبير والمزاج والجدل ، فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروض نفسه دائماً على التواضع والحلم ، ويذكرها بعظمة الله وحده وأنه مخلوق من ماء مهين ، وأنه صائر إلى الفناء وسيكون عظماً نحرة وتراباً تطؤه الأقدام ، وأرجل الدواب ، ومن كان هذا شأنه لا يليق به أن يكون متكبراً فخوراً . كما قال الإمام على رضى الله عنه : مال ابن آدم والفخر ! وإنما أوله نطفة وآخره جيفة — ومن كان غضبه مكتسباً بالعادة والاختلاط فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب المذكورة آنفاً ، واجتناب مصاحبة الأشرار والابتعاد عنهم ، وأن يعلم أن ليس للإنسان أن يغضب إلا لدينه أو نفسه أو عرضه أو ماله ، وما وراء هذا فالغضب فيه رذيلة يجب الاحتراس منها . وهذا طريق الوقاية من الوقوع في ثورة الغضب ، فإذاثار غضبه كان العلاج شاقاً لأنه يذهل النفوس ويخرجها عن حد الصواب والرشد ، وينسيها ما لها وما عليها من الواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأعمال ما لا يصدر عن العقلاء — فإذا هاج غضبه وجب عليه أن يذكر على الفور قوله تعالى « والكاذمين الغيظ والمافين عن الناس والله يحب المحسنين » ذكر ذلك في معرض للدخ للمتعين — والكظم هو الكف ، وذلك إما بضبط النفس ومنعها عن التشفي ، أو بالصفح عن المسيء . والمعنى والتحليلين الغيظ وهو الغضب الكامن في القلب . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » رواه ابن ماجه باسناد جيد من حديث ابن عمر . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رموس الخلائق ويخير

عن أي الحور شاء » رواه أبو داود والترمذي وغيرها . وقول عمر رضي الله عنه :
« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة
لكان غير ماترون » . أخرجه ابن أبي الدنيا . وقول محمد بن كعب القرظي :
ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله . إذا رضى لم يدخله رضاء في باطل ، وإذا
غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا قدير لم يتناول ما ليس له . رواه ابن أبي الدنيا .
وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك .
واعرف قدرك تنفعك معيشتك (٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول : قدرة الله
على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو نفذت غضبي عليه فما آمن أن يُمضي
الله غضبه عليّ يوم القيامة ، أحوج ما أكون إلى العفو (٣) يحذر نفسه عاقبة
العداوة والانتقام وتشر العدو لمقابله والسمي في إيذائه (٤) أن يتفكر في قبح
صورته عند الغضب ، بأن يتمثل بصورة غيره في حالة غضبه ومشابهة الغضبان
للكلب الضاري والسبع العادي ، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء
والعلماء والحكماء ، ويخبر نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع ، وبين أن يتشبه
بالأنبياء والعلماء في عاداتهم ، كي تميل نفسه إلى الاقتداء بهؤلاء . هذا هو العلاج
العلمي - وأما العملي فيقول : أعوذ بالله من الشيطان . هكذا « أمر رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه أن يقال عند الغضب » متفق عليه . فإن لم يزل بذلك
فليجلس إن كان قائماً ، ويضطجع إن كان جالساً . قال صلوات الله وسلامه عليه :
« إن الغضب جرة توقد في القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرمة عينيه ، فإذا
وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجاس وإن كان جالساً فليتم » رواه
الترمذي - والأوداج عروق العنق - فإن لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل .
قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود .
والمقصود من هذا أن ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة ليتفكر في قبح الغضب
وجمال الحلم ، ومتى أتجه عقله إلى هذه الناحية سكن غضبه . روى أن أبا ذر

قال لرجل : يا ابن الحمراء - في خصومة بينهما - فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال « يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عبرت أخاك بأمه . فقال : نعم فانطلق أبو ذر يرضى صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقصد ، وإن كنت قاعداً فاتكئ . وإن كنت متكئاً فاضطجع » . أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح والله الهادي إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثانية عشرة

الإِنسان هو المقصود من العالم - إيجاد كل ما عده لأجله - الحكمة التي من أجلها خلق .

اعلم أن الله تعالى جعل الإنسان سلالة العالم وزيدته . واختصه بأنواع التكريم من اعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق وتناول الطعام بيده لا بقفه . والممكن من الصناعات . قال تعالى : « واتخذ لكم منافع في البر والبحر » على الدواب والسفن ونحوها من المخترعات الحديثة « ورزقناهم من الطيبات المستلذات » وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً « بالغابة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة . والمستثنى جنس الملائكة أو خواصهم - فليس فضله على غيره بقوة الجسم ، فالفيل والبعير أقوى جسماً منه . ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول منه عمراً . ولا بشدة البطش فالأسد والتمر أشد منه بشطاً . ولا بحسن اللباس فالطاووس والدرّاج أحسن منه لباساً . ولا بالقوة على الوقاع فالتمار والصفور أقوى منه وقاعاً . ولا بكثرة الذهب والفضة . فالمدان والجبال أكثر منه ذهباً وفضة . ولا بعنصره الذي تكون منه كما وهم إبليس لعنه الله حيث قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وإنما فضله على غيره بما خصه الله عز وجل من السر الذي أودعه فيه ، والمعنى الذي رشحه له ، وأشار إليه تعالى بقوله : « فإذا سويته ونفختُ

فيه من روحى ففعلوا له ساجدين » أى إذا عدلت خلقتة وهياته لنفخ الروح فيه .
وأصل النفخ إجراء الريح فى تجويف جسم آخر . والمراد منه إجراء الروح فيه
وتعليقها به . وما أحسن قول بعضهم :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

ولما تفاضلت العقول ودبرت

أيدى الحكمة عوالى المرآن

المران بالضم الرماح واحده مرانة كرمانة - فهذا الجسم الطينى غلاف لسرمكتون
إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره ذلك السر هو معنى الإنسانية ، وبسكنى
هذا المعنى الغريب فى ذلك الجسم المادى كان ملكا لجميع الكائنات الأرضية
يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه - والملائكة عليهم السلام لما
نهبهم الله عز وجل لفضل آدم عليه السلام تنبهوا فأذعنوا وسجدوا كما أمر -
وإبليس اللعين لما وقف عند ظاهر آدم وبدنه وتعالى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل
المعنى الذى ضمنه الله آدم والعاقبة التى جعلها له ، أبى واستكبر وكان من الكافرين -
وقد اقتدى به الكفار فى إنكار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حيث
قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » وقالوا مال هذا الرسول
يا أكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وقد نبه الله تعالى على أن فضلهم ليس بظاهر
أبدانهم وإنما ذلك لمعان فى نفوسهم عمى عنها الكفار فقال تعالى : « أنظر كيف
ضربوا لك الأمثال » . وقالوا فىك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة ،
إذ مثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون « فضلوا » بذلك عن الطريق الموصل
إلى معرفة خواص النبى والمميز بينه وبين غيره « فلا يستطيعون سبيلا » إلى الهدى
والرشد - وهنا ينبه السامعين إلى أن الإنسان بنفسه لا يجسمه ، ويحذرهم من
الاعتقار بالمظاهر الكاذبة ، لما تقدم ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم
ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

وقد أوجد الله تعالى ما سوى الإنسان معونة له كما نبه عليه بقوله عز وجل :
« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » أى أوجده لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم
باستخدامكم له فى مصالح أبدانكم ودينكم ، بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمه
من لذات الآخرة وآلامها ، فالآية تصور لنا قدرته التامة ونعمه الشاملة . أى قدرة
أكبر من قدرة الخالق ، وأى نعمة أعظم من جعل كل مافى الأرض مهياً لنا ومعداً
الانتفاع به فى الحياة الجسدية ، والاعتبار به فى الحياة العقلية . فسبحانه من إله جواد
كريم عليم حكيم — وقوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » صيرها
متوسطة بين الصلابة والرخاوة ، حتى صارت مهياً لأن يقعدوا ويناموا عليها
كالفرش المبسوط « والسماء بناءً » قبة مضروبة عليكم « وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقال تعالى : « وسخر لكم مافى السموات ومافى
الأرض جميعاً منه » . وقال تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب
ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
الثمار إن فى ذلك لآية لقوم يفكرون » وقال تعالى : « الله الذى خلق السموات
والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك
لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر
لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتوه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
الإنسان ظلوم كفار » كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكفر لنعمة ربه بإغفال شكرها
خلق كل ذلك للإنسان وأباح جميعه له ، فله أن ينتفع بكل هذا على وجهه : إما
فى غذائه أو فى دوائه أو فى ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته . والتلذذ بصوته
وصورته والاعتبار برؤيته . وباستفادة علم منه والافتداء بفعله ، فيما يستحسن منه ،
والاجتناب عنه فيما يستقبح منه . فمثلاً نتعلم التعاون من النمل والنحل ، والوفاء من
الكلب ، والنشاط من الغرباب . فقد نبه الله عز وجل على منافع الموجودات وأطلع
المخلائق عليها تارة على السنة الأنبياء وتارة بالوحى والإلهام .

وهنا يذكر لهم أنه كما أن حق الإنسان أن يعرف منافع الحيوانات فى ذواتها

فينتفع بها في اللطاعم والملابس والأدوية مثلا ، فحقه أن يعرف أخلاقها وأفعالها كي ينتفع بها في اجتناء الحسن واجتناب القبيح ، فقد أحسن من قال : تعلمت من كل شيء أحسن ما فيه . حتى من الكلب حمايته على أهله . ومن الغراب بكوره في حاجته — وقد أشار تعالى إلى ذلك في وصف النحل فقال : وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا « فنيه سبحانه على أن من حق الإنسان أن يقتدى بالنحل في مراعاته لوصي الله وإلهامه ، فكما أنها لا تخطئ وحي الله في تحرى المصالح طبعاً ، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختياراً .

ولا ريب أن الله تعالى أوجد الإنسان « وهو الغنى » ليعرف له تعالى كمال الألوهية . ويعبده . وينصره . ويعمر أرضه ، كما نبه جل شأنه على ذلك بآيات في مواضع مختلفة حسبما اقتضت الحكمة ذكره ، قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ^(١) » أي أنه تعالى خلقهم مستعدين لها أتم استعداد ومتكئين منها أكل تمكن ، مع كونها مطلوبة منهم . واللام للغاية والثمره . ولا نزاع أن أفعاله تعالى نستتبع غايات جليلة وثمرات عظيمة ، كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وهو عنهم غنى « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أي أن شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم . وقال تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » وهو من يخلف غيره وينوب منابه . والمراد آدم عليه السلام ، لأنه كأن خليفة الله في أرضه . وكذلك كل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكبير نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجته تعالى إلى من ينيبه ، بل لقصور المستخلف

(١) جوز كثير من أهل السنة تعطيل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى اليباد وعلى رأى المانحين (المتزلة) يزل ترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له — فإن استنباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هي علة غائية لها بحيث لولاها لم أقدم عليها مما لا نزاع فيه .

عليه عن قبول فيضه وتلق أمره بغير وسيط ، ولذا لم يستنبي ملكا ، وقال تعالى :
« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى يعلم علم مشاهدة من يجاهد لنصر دينه
وإعلاء كلمته وتأييد دعوة الرسل . وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار
الله » وقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » أفدركم على عمارتها وأمركم
بها — وكل ذلك إشارة إلى تولية النوع البشرى أموراً لم يستصلح لها سواء كان
عليه تعالى بقوله للملائكة « إني أعلم ما لا تعلمون » .

وفي هذا المقام يذكر أن الناس فيما أمروا به أقسام ثلاثة « قسم » أحل بالأمر
وانسلخ عما خلق لأجله واتبع خطوات الشيطان وسلك سبيله واتم به واقفنى أمره
وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن
يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً . إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن
يدعون إلا شيطاناً مريداً » إلى غروراً « وقسم » أذعن للأمر وجد في وظائف
العبودية حتى وقف بغاية جهده حيثما وقف كالموصوفين بقوله تعالى « وعباد الرحمن
الذين يمشون على الأرض هوناً » الآيات « وقسم » تردد بين الطريقين كما قال
تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فمن رجحت
حسناته على سيئاته فهو موعود بالإحسان إليه — وعلى الأقسام الثلاثة دل قوله تعالى
« وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب
المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » ثم ذكر مآل كل
فريق إجمالاً فى آخر السورة فقال : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان »
استراحة ورزق طيب « وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من
أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم » .
وجملة القول أن من وفق لفضل ما وهبه الله تعالى وهدى لما أعده له وعرف
نفسه وربه ثم استقام فقد أوتى خيراً كثيراً . والله الهادى إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثالثة عشرة

من الإنسان ؟ — ضرورة الشرع لسعادة البشر — فضيلة الشرع — من لم يتقيد به فليس بإنسان .

مقدمات

١ — لا ريب أن الإنسان إنما صار إنساناً بالعقل ، الذي لو فرضناه خلواً منه لخرج عن كونه إنساناً ، ولم يكن — إذا قطعنا النظر عن الشبح المائل — إلا بهيمة مبهمة أو صورة إنسان وليس به ، والعقل لا يكمل بل لا يكون عقلاً حقيقة إلا بعد تقييده بالشرع واهتدائه به — ذلك أن العقل البشري كثيراً ما يخطئ في تقدير الأشياء والحكم عليها كما تخطئ الحواس والشاعر . فالعين مثلاً ترى الكبير على البعد صغيراً ، واللسان حالة المرض يذوق الحلو مرراً ، وقد يهمل الإنسان استخدام جوارحه وعقله فيما فيه سعادته وفلاحه ، ويسلك بهذه المواهب العظيمة مسالك النى والضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته ، منقاداً لشیطانه وهواه ، حتى يورده موارد الهلاك والخسران ، ومنشأ ذلك الخطأ وهذا الإهمال ، وقوع العقل في قبضة الهوى والشهوة وخضوعه لسلطانها ، ولا سلامة له من خطرهما إلا بتسليم نفسه لقيادة الشرع وتحصنه منهما بحصنه المنيع ، ووقوفه عند حدوده واهتدائه بهديه ولذا نفي العقل عن الكفار لما تجردوا عن الاهتداء بالشرع في مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم .

٢ — الإنسان مهما أوتي من قوة فليس في استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج ؛ ومسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم لتبادل المنافع التي لا بد منها ، إذن فاجتماع بنى الإنسان ضرورى لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم في هذه الحياة ، ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينتظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل يردع الظالم عن ظلمه وينصف المظلوم من ظلمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال في جميع مرافق الحياة ،

وإلا فكيف يتسنى للإنسان أن يعيش سعيداً هادئ البال إذا خلى وعقله وهو عرضة للخطأ ومنازعة الهوى والشهوة وحظوظ النفس التي لا حدها ، وكثيراً ما تتناول به تلك الحظوظ إلى ما في يد غيره ، وذا يفضى إلى أن يبغى بعض الناس على بعض فيتنازعوا ويتدافعوا ، ويتواثبوا ويتناهبوا حتى ينفى بعضهم بعضاً . فكان من رحمة الله تعالى يبنى الإنسان أن حكام بنور الشرع من السقوط في ظلمات الأهواء والشهوات ، وأتقدم منها إذا هم رجعوا إليه ، وبين لهم بالدين حدود الأعمال ليقفوا عندها ويكفوا عما وراءها .

٣ - إن مما جعل في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية ، لها السلطان الأعلى على سائر الأكوان ، وإليها وحدها يرجع كل ما لا يعرف له سبباً ، وإن لهم حياة وراء هذه الحياة المحدودة يلتقي فيها كل إنسان جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهل يستطيع العقل وحده أن يصل إلى تحديد ما يجب عليه من أنواع العبادة والخضوع لصاحب تلك السلطة الذي خلقه في أحسن تقويم ، ووجهه من القوى والمشاعر ما يكفي لسعادته في العاجل والآجل ؟ وهل يستطيع العقل وحده - بدون هداية الشرع - أن يعرف أحوال هذه الحياة الثانية وما أعد للإنسان فيها من سعادة أو شقاء ؟ كلا ! إنه في أشد الحاجة إلى هداية الدين في ذلك ، كما أنه في أشد الحاجة إليه في بيان ما ينبغى له أن يعمل ، وما ينبغى له أن يتركه . فالعقل وحده قليل الفناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كلييات الأشياء دون جزئياتها ، كأن يعلم إجمالاً حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، واستعمال العدل ، والتزام العفة ، وقبح أضدادها من غير أن يعلم ذلك في كل شيء . تفصيلاً - والشرع يعرف كلييات الأشياء ، ويبين ما الذي يجب أن يعتقد ، وما الذي ينبغى أن يفعل ، وما الذي ينبغى أن يترك تفصيلاً في كل شيء - فالعقل لا يعرفنا مثلاً أن لحم الخنزير والدم والخمر والميسر محرّمات لمضارها ، وأن لا تنكح المحارم لإفضائه إلى الامتهان وانقراض النسل ، وأن لا تتجامع النساء في حال الحيض لما في ذلك من الأذى بالرجل والمرأة معاً . فهذه الأشياء وأشباهها لا سبيل إليها إلا بالشرع - فالشرع نظام الأعمال القويمة والأخلاق

السكرينة . والدال على مصالح الدنيا والآخرة . من تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن انحرف عنه وركب هواه فقد ضل سواء السبيل : « ومن أضل ممن اتبع هواه بنير هدى من الله . إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . ومن أجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك وحده قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقال : « ولو أننا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

واعلم أن الشرع من وجه هو دواء مفروغ منه تولى عمله الحكيم العليم الذى له الخلق والأمر . « حقاً » إنه لدواء مفيد لحفظ الحياة الأبدية ، والسلامة الدائمة كما قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى ضالاً فهديناه . وقال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة السرمدية وقال تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . دواء لهم من الشكوك ، وسوء الاعتقاد — ومن وجه هو سراج مزيل لظلمة الخيرة والجهالة كما قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ومن وجه هو الصراط القويم : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » — ومن وجه هو النعمة التى لا تقاس بها نعمة . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أى جمع بين قلوبكم بالإسلام فصرتم بنعمة الإسلام إخواناً متحابين .

وبعد : فلسنا نريد من الإنسان ذلك الحيوان الناطق ، إذ كثيراً ما تحسبه إنساناً — بنى آدم — يؤنس به أو يركن إليه ويعول عليه ، فإذا عاملته أو عاشرتة وجدته ذئباً أو ثعلباً أو عقرباً أو حرباء ، بل قرداً وشيطاناً رجياً تزيى بزي إنسان وظهر لك فى صورة بنى آدم — وإنما نريد الإنسان الكامل وهو الذى عرف الله جل وعلا معرفة صحيحة فأمن به إيماناً صادقاً . ظهرت آثاره فى استقامة العمل

وتهذيب النفس . كما روى البخارى من حديث أنس مرفوعاً . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في النفس وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . فالإنسان في الحقيقة هو ذلك الطاهر المهذب الذى عبده وقام بالمعنى الذى لأجله خلق . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . خلقه ليعرفه ويخضع لجلاله ويحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين .

الإنسان الكامل هو الذى يتقى الله فى سره وعلايته وفى شدته وورثاته ، هو ذو الشفقة والرحمة إن زاده سعة فى الرزق عرف الله تعالى فضله وشكر له نعمته ، فى عطف على مسكين ، وإغاثة ملهوف وإعانة مكروب — الإنسان الكامل هو المخلص فى المعاملة إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أوتى أدى وإذا ولى عدل هو الذى يوقن أن الدنيا مزرعة الآخرة يفرس فيها أصول الخير ليحظى ثماره فى الدار الباقية جنة ونعيمًا وملكا كبيرا كريماً .

ومعلوم أن كل شيء أوجد لغاية فلم تحصل عنه تلك الغاية كان فى حكم المدوم ولذا كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد نفعه أو فعله ناقصاً ، كقولهم للفرس الردى . هذا ليس بفرس ، وللإنسان البذى . هذا ليس بإنسان ، ويقال : فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل نفع عينه وأذنه ، وإن كان شبيهما باقياً . وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عمى » . فبمن لم ينتفع بهذه الأعضاء . فالإنسان يحصل من الإنسانية بقدر ما يكون منه من المعانى التى لأجلها خلق ، فمن قام بها حق القيام فقد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ منها وصار حيواناً أو دون الحيوان كما قال تعالى فى وصف الكفار : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » وقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . فلم يرض عز وعلا أن يجعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل من الأنعام وأشر من الدواب . وإنما كانوا أضل سبيلاً من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدا وتحميه ، وتميز من يحسن إليها من يسئ إليها ، وتطلب ما ينفعها . وتفتر مما يضرها . وهؤلاء لا ينقادون لهم ، ولا يعرفون إحسانه

من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون رضاه وهو أعظم المنافع . ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار . ولأن الأنعام إن لم تعتقد حقاً ، ولم تكسب خيراً لم تعتقد باطلاً ، ولم تكسب شراً . بخلاف هؤلاء . ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذنب لها ، وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم . ولأن جهالتها لا تضر بأحد ، وجهالة هؤلاء تفضي إلى إثارة الفتن ، وصد الناس عن الحق وكانوا شر الدواب لا يظلم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من نعمة العقل والتمييز .

لا يقال : فعلى هذا لا يصح أن يقال للكافر إنسان مع أن الله تعالى سماهم بذلك في عامة القرآن — لأننا لم نقل لا يسمى به عرفاً ، بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضى أن لا يسمى به إلا مجازاً ما لم يكن فيه العقل المختص به — أما إذا سمي به في عرف العامة ؛ فليس ذلك بمنكر — فكثير من الأسماء يستعمل على وجه مفيين الشرع أن ليس على ما استعملوه ، كالغنى فإنهم استعملوه في كثرة المال ، وبين الشرع أنه ليس به ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس » . رواه البخارى من حديث أبي هريرة ، ولكن مشدداً ومخففاً — وإنما كان الغنى الحقيقي غنى النفس لأن من ملكه الطمع ، واستولى عليه الجشع بعيد أن يكون في راحة ؛ فهو في كل وقت مفتقر المزيد ، كلما حصل على مرغوب تطاعت نفسه لسواه ، فلا يهنأ بما جمع ، ولا يكف عن طلب المزيد مما فيه عناؤه وبلاؤه — وجملة الأمر أن الحكيم إذا أطلق اسماً على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » . وقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » . وإن كان الذكر يقال للمدوح والمذموم .

وما أحسن قول بعضهم في هذا المقام : الإنسان هو الناطق الخى الميت . فإنه كلام صحيح وليس معناه ما يبدو منه من أنه من الحياة الحيوانية ؛ والموت الحيوانى والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ؛ وإنما المراد بالخى من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » . وبالنطق البيان المذكور فى قوله : « علمه البيان » وباليت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مهورتين لسلطان الشرع ،

كما قال الإمام على رضى الله عنه : « من أemat نفسه فى الدنيا فقد أحياءها فى الآخرة »
فمضى الآية الكريمة : « لينذر » القرآن أو الرسول من كان مؤمناً مهذباً ، فإن
الحياة الحقيقية إنما هى بالإيمان الصادق الذى وقر فى النفس وصدقه العمل الصالح
الذى تقوم به أخلاقه وتهذب به نفسه « ويحق القول » وتجب كلمة العذاب :
« على الكافرين » . وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وعد
تأملهم أموات بالحقيقة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الرابعة عشرة

عبرة خلقية من سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه

وهى المحاضرة الحكيمية القيمة الناطقة بالحق التى ألقاها بدار جمعية مكارم
الأخلاق حضرة صاحب الفضيلة والأدب الأستاذ العظيم الشيخ عبد الوهاب خلاف
بك مدير عموم المساجد بوزارة الأوقاف سابقاً ، فاسترعت الأسماع وأخذت بجماع
القلوب — جعلناها ختام المحاضرات لنفسها وعظيم نفعها فى الدعوة إلى الله تعالى
وحث الأمة على التعلق بهذه الرحمة المهداة والتأسى به فى أفعاله وأخلاقه — وإن
الناظر إليها يرى منها مبلغ رقة شعوره ، وسلامة ذوقه . فى جزالة معانيها . وورصف
مبانيها ، ومقدار توخيها الحق فى ذكر سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتجربته
فى نشر شمائله ما أقره الشرع وصدقه الحس . قال أحياء الله حياة طيبة للعلم والفضيلة
بهذا العنوان السابق .

أحمد الله الذى أتاح لى هذه الفرصة ، ووفقنى أن أقوم فى اليوم التالى ليوم
ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم أذكر مثلاً من مكارم أخلاقه ، ومحاسن شمائله وما
أحوجنا — وقد أصبحت حالنا الخلقية من أشد أمراضنا الاجتماعية — أن نرجع إلى
إلى سيرة العطاء من الرجال نتعرف أخلاقهم التى كونت عظمتهم ، وشمائلهم التى
يرجع إليها نجاحهم ، أولئك الذين هدام الله وهدى بهم ، وأولئك الذين يجب أن
يكون لنا فيهم أسوة حسنة وعبرة بالغة — وإن فى سيرة الصادق الأمين صلى الله

عليه وسلم من آيات الأخلاق الكريمة والفضائل النفسية ما فيه عظة وذكرى - ونحن موجزون القول في أمثلة من هذه الخلال الحميدة ليكون لنا في رسول الله أحسن أسوة . وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة : قضى منها أربعين قبل أن يُبعث رسولا ، وقضى الباقيات نبياً ورسولا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وهذا العمر المبارك لم يبلغ سن المعمرين ولكنه كان أطول الأعمار أثراً باقياً وحركة مباركة ، وأعمار الرجال لا تقاس بعدد السنين . وإنما تقاس بما تنثر من جليل الأعمال وحميد الآثار . ورب ابن أربعين كان في نظر التاريخ أطول عمراً من كثير من المعمرين . وقد كانت هذه الحياة في كل أطوارها عامرة بالخير والهدى . وكان الرسول في كل سنه مثلاً حسناً للفضائل والسيئات . وكان في حربه وسلمه وفي دعوته وعبادته وفي أسرته وبين صحابته . وفي فصله الخصومات وقسمته الغنائم وفي كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله فيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » وقوله : « أدبى ربي فأحسن تأديبي » .

رحمة كله حزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
لأنحل البأساء منه عرى الصبر ر ولا تستخفه السراء
كرمت نفسه فما يحظر السوء على قلبه ولا الفحشاء

مثل من أخلاقه قبل البعثة : ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشائثل الطيبة ، وكذلك كل ناشئ . كتب الله أن يترقبه المستقبل السعيد تلوح في نشأته دلائل سعادته وتقرأ في مقدمة حياته ما ينم عن نتائجه . وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة ثلاث خصال تحلت بها نفسه الكريمة وجعلته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه ، ورسولاً بينه وبين خلقه « فأولى » تلك الخصال تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرابينها وحفلاتها ، وكل ملاهى

السوء التي كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : « لما نشأت
بفَضَّت إلى الأوثان وبنَفَض إلى الشعر ، وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية
يعملون به غير مرتين . كل ذلك بحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت
بسوء حتى أكرمني الله برسائه . قلت ليلة لفلان كان يرعى معي : « لو أبصرت
لي غنسى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى إذا
جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجاست أنظر ،
فضرب على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني
مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أهدم بعد ذلك بسوء . وكما بفَضَّت إلى الأوثان والشعر
وملاهي أهل الجاهلية حبب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير » وكذلك الإنسان
الكامل ، إذا نشأ في بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبله لا يرضاهم ولا سبيل له
إلى تحويلهم يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم ويؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كمال النفس
ينأى بها عن مظان السوء وجلسائه .

ألف النسك والعبادة والخلاوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

الخصلة الثانية : صدقه صلى الله عليه وسلم : شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه .
ففي البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه أبا-فبيان
ابن حرب قبل أن يسلم أبو سفيان : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول
ما قال ؟ قال لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،
ولقي رجل أبا جهل ألد أعداء الرسول فسأله : يا أبا الحكم أليس هنا غيرى وغيرك
يسمع كلامنا . فخيرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق
وما كذب محمد قط . وفي هذا يقول الله تعالى لرسوله : « فإيهام لا يكذبونك ولسكن
الظالمين بآيات الله يجحدون » ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم
غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم
في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به . قلتم ساحر والله ما هو بساحر .

الخصلة الثالثة : أمانته صلى الله عليه وسلم . كان لقبه في الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه أماناتهم ويودعونه ودائعهم . قال ابن إسحاق : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته . ولما اختلفت قريش في الجاهلية عند بناء الكعبة في من يضع الحجر الأسود اتفقت كلمتهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا محمد أول داخل ، فقالوا : هذا محمد هذا الأمين . قد رضيناه حكماً . وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته ، يتحاشون أن يكون إليه في الجاهلية يفصل في خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ، ويرضون بحكمه وعدله ، ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته . وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل ، أفضل منبث طيب لنمو الفضائل والكمالات . ولذلك صادف منه التأديب الإلهي نقساً كريماً تكلمت بما أدبها الله به من الأدب الحسن . فقال صلى الله عليه وسلم من كمال الخلق وشرف الفضيلة ، حتى رأى الناس من حلمه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله ، واستحق ثناء الله عليه في كتابه الكريم : « وإنك لعلی خلق عظیم » .

مثل من أخلاقه في الدعوة : لما بعث صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو الناس إلى التوحيد ، تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الغاضلة فيما احتمله في سبيل الدعوة من الشدائد ، وما عامل به المدعوين من صبر على أذام وإحسان في مقابلة إساءاتهم مما كان طريقاً لمداهم وعلاجاً لقوتهم . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام في مكة — وهي حصن الأصنام ومهد الوثنيين — يدعو إلى عبادة الله وحده وتكيس الأوثان . قام وهو يتيم لا يعتمد في دعوته على جاه أو عصبية ، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة ، وهو وحيد يخذله أدنى الأفرسين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين . قام يدعو قوماً أشداء أخذتهم العزة بالإثم ، وألقوا ما وجدوا عليه آباءهم واستعزوا بما لهم من حول وسلطان . فوضعوا في سبيله كل عقبة ، وسدوا في وجه دعوته كل طريق ، وآذوه ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هذا ورسول الله

لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكاً بدعوته ولا يتسرب اليأس إلى قلبه ، ولا الفتور إلى عزيمته . حتى غلب الحقُّ الباطل وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وأبدل وحدته أمة قوية ، وبقمه أفضل عصية .

قام هذا النبي يدعو إلى الله ه وفي الكفر بحجة وإباء
أما أشربت قلوبهم الكفة ر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا وإذا الحق جاء زال المراء
رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاء

ولنا في هذا النجاح عبرتان (الأولى) أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتمل في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد ، وصنوفاً من الأذى . وما كان شئ من ذلك يضعف من عزيمته ، أو يبسطه عن دعوته . وكذلك الداعي إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ، ويواصل السير في سبيله ، مهما لاقى من صعاب ونال من أذى : استهزؤوا بالرسول فكان إذا مر عليهم يقولون — سخريه منه — هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء وكان عمه أبو لهب جاراً له ويتممدرى القدر على يابه ، فكان رسول الله يلقى القدر ويقول يا بني عبد مناف أى جوار هذا ؟ وعقبه بن أبي معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله وهو فى صلته ساجداً ، ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت بنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره . وبينما كان يصلى فى الكعبة إذ أقبل عقبه بن أبي معيط ووضع ثوبه فى عنقه واشتد فى خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ وما زالوا يبتلونهم ومن تبعه بضروب الكيد والخن حتى ائتمروا على قتله ، واضطُرُّ فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده . ولم تزل هذه الشدائد من إيمانه ولم ترده إلا ثباتاً على دعوته . وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصده عن سبيله ، ويحاول إطفاء نور الحق الذى يدعو إليه . ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحبب إلى النفس المكاره . والعوزُ للحق والعاقبة

للمحقين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

العبارة الثانية : من نجاح رسول الله في دعوته أن الفضل الأكبر في هذا النجاح يرجع إلى أخلاقه وشمائله لأنه أقام من صفاته براهين عدة على صدقه وأن ما يدعوا إليه حق ، وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفي طعنهم ويرد كيدهم * ولما اجتمعوا في دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمداً في موسم الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة ، وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه ، كانوا كلما افتروا كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من خلال الرسول التي تفضح مقترياته وتنتج نقيض قصده . وهذا هرقل لما قال له أبوسفيان : إنا لم نتهم محمداً بالكذب قط . قال : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وكثيراً ما كان حمله عند الغضب وعفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسيء سبباً في الإيمان به ، وإجابة دعوته ، واجتماع القلوب حوله : جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله يتقاضاه ديناً فغضب الرسول من ثوبه وأغلظ في القول وقال : يا بنى عبد المطلب أتم قوم مطل . فهم عمر بالانتقام منه ومقابلة الغلظة بالغلظة ، فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر « إنا وهو كنا أحوج منك إلى خير من هذا يا عمر : تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء » . ثم قضى للدائن دينه وطيب خاطره على ما روعه عمر . وكان هذا سبباً في إسلام اليهودى . ولما جاء نصر الله والفتح ودخل رسول الله المسجد الحرام جاءه أشرف قريش وسادتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم فقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قولوا : خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم . قال أقول لكم ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

جهلت قومه فأغضى عليهم وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وكان عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »

ولو دعوت علينا لمكنا ، ولقد وُطئ ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك فما زدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وهكذا كان رسول الله داعياً بأخلاقه وأعماله ، كما كان داعياً بأقواله . وكذلك فليكن الدعاة فإن القول لن يبلغ في تأثيره مبلغ العمل ، والداعى إذا لم يكن عمله برهاناً على قوله لا يستجيب الناس لدعوته ، ويرتابون في صدق مقالته . وكانوا قديماً يقولون :

اعمل بعلى ولا تنظر إلى عملى ينفعك على ولا يضررك تقصيرى
ولكن أثبتت التجارب أن هذا سبيل للإرشاد غير قويم ، وأن المدعو لا يمكنه أن ينفذ النظر عما عليه الداعى ، والمريض إذا وجد الطيب عليلاً بذات مرضه يشك في نفع علاجه . ولهذا ترى القدوة الحسنة أبلغ في التذكير من أى مقال . قال شعيب لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

عبرة من الهجرة

لما أسرفت قريش في محاربة الدعوة إلى الإسلام . والسيكيد للداعى ، واستحجرت قلوبهم وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » أراد صلى الله عليه وسلم أن يولى وجهه بلدأ غير مكة وقوماً غير قريش ، علّه يجد أرضاً خصبة صالحة لنمو دعوته ، وقلوباً سليمة تتقبل الحق وتعمل على نصرته ، فأخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ، يكلم كبارهم ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، وإنما أريد أن تمنعوا عنى من يؤذنى حتى أبلغ رسالات ربى ، وما كان يحاب من هؤلاء إلا بالرفض ، وأقبح أنواع الرد ، ولكن الله جعل من العسر يسراً ، ومن الشدة فرجاً : فعرض نفسه على نفر من الخزرج أتوا من يثرب لزيارة البيت الحرام فاسمعهم كلام الله ودعاهم إلى عبادته وحده ، فاستجابوا دعوته ، واستشارهم في أن يهاجر إليهم حتى يفتح طريقاً

للدعوة ويؤدى رسالة ربه . فقالوا : يا رسول الله دعنا حتى نرجع إلى عشارنا ندعوم
إلى ما دعوتنا إليه ، فسمى الله أن يجمعهم عليك ، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك ،
واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعدك للموسم القابل . وأراد الله أن يظهر دين الحق
على الدين كله ، فبايعه في الموسم من العام التالى نفر من أهل المدينة ، وخرج من
أهله وداره ، ومن بين عشيرته وأهله . فخرج خفية يسير في طريق وعر نخوف ليس
معه إلا صاحبه أبو بكر والله ثالثهما ، ينتابه الحزن على فراق وطنه ؛ والخوف من
هؤلاء الأعداء المجدين في طلبه ، وما هو إلا أن فرج الله كربه ، وشد بالأنصار
والمهاجرين أزره . وأشرق نور الحق على القلوب ، وفتحت السبل للدعوة « يريدون
أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .
والعبارة من هذه الهجرة في مظاهر عديدة أبلغها أن الدعوة إذا كانت للحق
وبالحق فإن اضطهادها يكون في الغالب من وسائل نشرها وإعلاء شأنها ، لأن
الداعى ما دام موقفاً أنه على الحق لا يرجع عن دعوته ، واضطهاده يحمله على إمعان
النظر وتقليب وجهه في كل جهة ، وهذا قد يوجد لنجاح الدعوة أسباباً ووسائل
ما كانت تيسر لولا الشدة في محاربتة والإسراف في إيذائه . (وثانيها) : أن
الداعى كالغارس يتخير أطيب الأرض لنمو غرسه وإذا صادفته صخرة لا يمنعه ذلك
أن يتطلب الأرض الخصبة ، لأنه موقن بجودة غرسه وطيب بذره ، وأنه إذا وجد
المنبت الطيب نما وآتى أكله كل حين بإذن ربه . فالدعوة إلى الحق إذا صادفت
قلوباً غلفاً وآذاناً صملاً لا يمنع ذلك الداعى أن يتلمس قلوباً غير هذه القلوب ، وآذاناً
غير هذه الآذان . والحق لا بد أن يظهر والخير لا يعدم نصيراً . وجملة القول أن الرسول
قبل مبينه وفي دعوته وفي هجرته أظهر آيات بينات من كرم النفس وأسمى الفضائل
وكان من أظهر شمائله صلى الله عليه وسلم اليسر والقصد والاعتدال في كل شيء .
فالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من
مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء ، فإذا انتهك من محارم الله شيء
كان أشده في ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً »

« ودخل على عائشة فوجد عندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تقوم الليل ما تنام . فقال عليه السلام : عليكم من العمل بما تطيقون » . وقال لمن قام الليل حتى غارت عيناه : « فأوغل فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله وصحابه متواضعاً لين الجانب يقدر آراءهم ولا يستبد بالأمر دونهم ، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم . وبهذا لانت له القلوب . ونوه الله بشأنه فقال عز من قائل : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وإن في سيرة الرسول لعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نماذج من أشهر مواعظ السلف

وفاء بما وعدناك أول الكتاب نسمعك شيئاً من مواعظ السلف الصالح فاستمع لما قالوا فإن فيه الخير الكثير فاغتنمه فقد قال الفضيل : نعمت الهداية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقيها إلى أخيه . وقال حكيم : اجعل ما في الكتب بيت مال وما في قلبك للنفقة . وقال آخر : يكتب الرجل أحسن ما سمع ويحفظ أحسن ما كتب .

فمن المأثور أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ، ياليتني كنت مثلك ، والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فر على بعير فأخذني فلا كنى ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً ولم أك بشراً * وقدم عليه وفد من أهل اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال أبو بكر : هكذا كنا حتى قست القلوب . ثم قال : طوبى لمن مات في نأنة الإسلام — أى في بدته حين كان ضعيفاً قبل أن تكثر أنصاره والداخلون فيه ، تقول نأنة عن الأمر نأنة إذا ضعفت عنه وعجزت . وقال الخالد بن الوليد حين وجه لقتال أهل الردة : احرص على الموت توهب لك الحياة . وهى من بدائع الحكم وجوامع الكلم . عمل عليها المجاهدون في سبيل الله فظفروا بحياة سعيدة ليس وراها حياة . وقال : إياكم والعمل بالمعاصي

وكفر النعمة ، قلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزم وسلط عليهم عدوم — وروى الحسن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فرفضوها في محرمه ، فأنه ربما أدرك الذى طلب منها فهلك بما أصاب منها ، وربما قاته الذى طلب منها فهلك بما قاته منها . وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه . وعنه أيضاً أنه قال : أيها الناس إنه أنى على حين وأما أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا لله بقرءانكم وأريدوه بأعمالكم ، فإننا كنا نعرفكم إذا الوحي ينزل وإذا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرّفكم بما أقول لكم ، ألا فن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأنتينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه . اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبنى ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً . اقدعوا : امنعوا . يقال قدع نفسه إذا قمعها وقهرها . وطلعة . كهمة كثيرة التطلع إلى الأمور . ومرىء محمود العاقبة . والربىء المهلك . وعالج الشيء حاوله — وقال يوماً لرجل : لا يهلك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يصير إليك دونهم ، ولا تقطع النهار سادراً فإنه محفوظ عليك ما عملت ، وإذا أسأت فأحسن فإنى لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة حديثة لذنب قديم — سادراً لاهياً ، والسادر أيضاً المتحير ، والذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع — وقال ابن عمر : لما حضرت الوفاة عمر غشى عليه فأخذت رأسه فوضعتها فى حجرى فقال : ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى . فسح خديه بالتراب وقال : ويل لعمر إن لم يضره . فقلت : وهل نخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ، فقال : ضع رأسى بالأرض لأمر لك كما أمرك ، فإذا قضيت فأسرعوا بى فى حفرتى ، وإنما هو خير تقدمونى إليه أو شر تضعونه عن رقابكم . ثم بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال خير

السماء لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار - وكتب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص : يا سعد سعد بنى وهيب إن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل الذى لله عندك . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : إن لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله - يعنى المصحف - وكان رضى الله عنه حافظاً وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف فقبل له فى ذلك ، فقال : إنه مبارك جاء به مبارك ودخل على بن أبي طالب رضى الله عنه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت . فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى - ومن كلامه : ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم ، وتزول عنهم النعم فزعوا إلى زهيم بصدق من نياتهم وؤلف من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد - والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد - ولما ضربه ابن ملجم دخل منزله فاعترتة غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقال : أوصيكا بتقوى الله ، والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما والمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال بلى . قال فإني أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرها ومعرفة فضلها ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكا به خيراً فإنه أخوكا وابن أبيكما ، وأتما تاملان أن أباكما كان يحبه فأحياه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى العنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعدو ، والعدل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء : يا بنى ماشر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية : يا بنى من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاتة ، ومن سل سيف البنى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيه ، ومن هتك

حجاب أخيه انكشفت عورات بفيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئته غيره ،
ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن
خالط الأندال احتقر ، ومن جالس العلماء وقّر ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم
ومن يصحب صاحباً صالحاً يغنم ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن لا يملك
نفسه ندم ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن أكثر
كلامه أكثر خطؤه ، ومن أكثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن
قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . — يا بني الأدب خير ميراث ،
وحسن الخلق خير قرين . يا بني العافية عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت إلا عن
ذكر الله تعالى ، والواحدة في ترك مجالسة السفهاء . يا بني لا شرف أعلى من الإسلام
ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ؛ ولا شفيع أنجع من التوبة
لا لباس أجمل من العافية — الحرص مفتاح التعب ، ومطية النصب . التدبير قبل
العمل يؤمنك من الندم . بئس الزاد للعقاد المدوان على العباد ، فطوبى لمن أخلص
له عمله وعمله ، وحببه وبغضه ، وأخذه وتركه ، وكلامه وصمته ، وقوله وفعله .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم بع دنياك بأخرتك ترجعها جميعاً ، ولا تبع
أخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم
فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغتبطهم فيه . الثراء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ،
أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فإذا تنظرون ؟ ألمعينة
فكان قد ، هيئات هيئات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق
بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة — أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم
ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم .
وإنما ينتظر بأولسكم أن يلاحقه آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً
ورائحاً لم يضع لينة على لينة ، ولا قصبه على قصبه . رفع له علم فشمم إليه ، فالوحاء الوحاء
والنجاء النجاء . علام تعرجون ؟ أنيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل
يوم تنظرون . إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه ، اختاره

لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتاً وبلغة . ثم قال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه فأبعدهم الله وسحقهم — يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر ففكر ، وتفكر فاعتبر فأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام ولم يبصروا فذهب الجزع بفلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم اذكر قوله : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا وادروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرأ ، ولا الكدر ما عاد صفواً . دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الخفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور . ولقد رأيت أقواماً كانوا الحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهدي منكم فيما حرم الله عليكم منها . مالي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً ؟ ذهب الناس ، وبقي النسناس . لو تكاشفتهم ما تدافنتهم ، تهاديتهم الأطباق ولم تهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : « رحم الله امرءاً أهدى إلينا مساوينا » . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن أبيه ولكنه أخذه عن ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله وحال بينهم وبين شهوراتهم وما يبصر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل . وكان إذا قرأ : « ألهاكم التكاثر » قال : عم ألهاكم ؟ عن دار الخلود وجنة لا تبديد ؟ هذا والله فضح القوم وهتك الستر وأبدى العوار ، تنفق دينارك في شهوراتك سرفاً ، وتمتع في حق الله درهما ، ستعلم بالكم أن الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجه الخوف وقومه ذكر

لمرض . وأما الكافر فقد قومه السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح
الضريبة . وأما المنافق ففي الحجرات والطرفات يسرون غير ما يعلنون ، ويضرون
غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة . ويملك قتلت وليه ثم تمتنى
عليه جنته . وكان يقول : رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فإن
واقفه حد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأتاب ورجع من قريب
رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال : يا أهلي صلواتكم صلواتكم ، زكاتكم زكاتكم
جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ،
فإن الله تبارك وتعالى أننى على عبد من عباده فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة
والزكاة وكان عند ربه مرضيا » يا ابن آدم كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك
وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس . وكان يقول : لا يستحق أحد حقيقة الإيمان
حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح
ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغى
له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإنك ناظر إلى
عمالك يوزن خيره وشره فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر ، فإنك إن رأيت
سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إن رأيت سارك مكانه —
وكان يقول : رحم الله عبداً كسب طيباً وأنفق قصداً ، وقدم فضلا . وجهوا هذه
الفضول حيث وجهها الله ، وضموها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا
يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا
ففضحها فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا . فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها
الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل
فقيام على أطرافهم يفتشون خدودهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم
في فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا
سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يعفوها لهم — يا ابن آدم ان كان لا يغنيك ما يكفيك
فليس ههنا شيء يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك .
يا ابن آدم لا تعمل شيئا من الحق رياء ولا تتركه حياء .

وكان يقول : إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلومهم عن أهل الدنيا وكانوا يقضون بعلومهم على أهل الدنيا ما لا يقضى أهل الدنيا بدنيام فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دينيهم لأهل العلم رغبة في علمهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دينيهم ، فرغب أهل الدنيا بدنيام عنهم وزهدوا في علمهم لما رأوه من سوء موضعه عندهم - وكان يقول : لا أذهب إلى من يوارى عنى غناه ويبدى لى فقره ويفلق دونى بابه ، ويعتنى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويبدى لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده . وكان يقول : يا ابن آدم لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أقر ، مؤمن مهمم وعلج أغتم ، وأعرابي لافقه له ، ومناقق مكذب ، ودنياوى مترف . نطق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار وذباب طمع . والذي نفس الحسن بيده ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزينا ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله . الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمناقق إلى نفاقه - أى قوم إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت الحاسبة من همه . وقال فى يوم فطر - وقد رأى الناس وهياتهم - إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضياراً خلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون فخرسوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبتلون . أما والله أن لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته عن ترجيل شعر أو تجديد ثوب - وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه - ودخل يوماً على رجل يعود فقَالَ : كيف تجدك ؟ قال : أفرق من الموت . قال : فمن أصبت الخير كله ؟ قال من الله . قال : فلم تفرق بمن لم تصب الخير كله إلا منه ؟ - وكان يقول : أبغض الناس إلى أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا بالله - وكان يقول : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها

وعظ العلماء للأمرء

لا ينبغي للمرشد أن يتهاون مع ذوى السلطان فيما يخالف الدين ويضاد الحق ،
موافقة لرأيهم ومتابعة لهوهم ، فربما زلت أقدام المتزلفين في ذلك رغبة أو رهبة فضلوا
وأضلوا مع سوء العاقبة ، وقبح الأحدثة . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفي كنفه
، ما لم يمال قراؤها أمرأها ، ولم يترك صلحاؤها فجأرها ، ولم يمار أختيارها أشرارها ،
فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبارتهم فساموهم سوء العذاب ،
وضربهم بالقر والعاقة ، وملاً قلوبهم رعبا » . علم هذا علماء السلف وأردفوا العلم
بالعمل ، فكان لهم مع الأمرء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن
الذكرى وأجل الآثار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع
ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمرء وذوى السلطان . وإليك شيئا من
آثارهم في ذلك ينفعك في حياتك ومهمتك

قال الزهرى : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن
عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين اسمع منى أربع كلمات فيهن صلاح دينك وملوكك
وأخرتك ودينك . قال لا تعد أحدا عبداً وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يفترنك مرتقى
سهل إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر
تارات فكن على حذر - وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن
البصرى والشعبي ، وجعل يحادثهم فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال منه ،
وجاراه من معه تقر بآله ، وأمننا من شره ، إلا الحسن البصرى فصمت على مضض
وعض على إبهامه إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد مالى
أراك ساكتاً ؟ قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب .
قال : سمعت الله جل ذكره يقول : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم
من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى

الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول : إن كانت لعلى هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتمير وقام عن السرير مضطرباً فدخل بيتاً خلفه ، وخرج الجمع . فقال عامر الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره . فقال : إليك عنى يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت أو سكت فسلمت . قال الشعبي : يا أبا سعيد قد قتلها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التبعة . وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم . قال : ما حلك على هذا ؟ قال : ما أخذته الله على العلماء من الموائيق « لِيَبْدِيَنَّهُ » للناس ولا يكتمونونه » ، قال : يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك - هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا تكون الثقة بالله وهكذا تكون الشجاعة في نصرته الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلاً . فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فيكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اشرب هناك الله ، فلما شرب قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فيكم كنت تشتريها ؟ قال بملكى كله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن ملكا تربو عليه شربة ماء خلّيق ألا يتنافس فيه ، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته . فقال الفضل ابن الربيع - وكان واقفاً بين يدي الأمير - مهلاً يا ابن السماك فأمر المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله بعدله في ملكه وحسن قيامه بحق ربه . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين والله إن هذا ليس معك في قبرك غداً ، فانظر لنفسك فأنت بها أخير .

وعليها أبصر ، وأما أنت يا فضل فمن حق أمير المؤمنين عليك في تقريبه إليك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفأ ما تؤدي به حقه عليك والسلام — وقدم هشام بن عبد الملك حاجا أيام خلافته فقال : إيتوني برجل من الصحابة . فقيل قد تفأثوا . قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم يسل عليه بإمرة المؤمنين ، بل قال : السلام عليك . ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضباً وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطي ، ولم تسل على بإمرة المؤمنين ، ولم تكني وجلست بإزائي . فقال طاووس : أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلفها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب علي لذلك ، وأما قولك لم تسل على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فسكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكني فإن الله تعالى سمى أوليائه فقال : يا داود يا يحيى ، يا عيسى . وكنى أعداءه فقال : « تبت يدا أبي لهب وتب » . وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظني . فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن في جهنم حيات كالللال وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ، ثم قام عنه وانصرف .

حلم أمير وثبات امرأة

في القعد الفريد عن سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال : حج معاوية رضي الله عنه فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجيء بها قال : ما جاء بك يا بنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتني ، أنا امرأة من

كناية . قال : صدقت ، أندرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني ، وواليتي وعاديتيني ؟ قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا . قالت : أما وقد آويت فإني أحببت علياً على عدله ، في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه للمساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضاء ؛ وحكمتك بالهوى . قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ، قلت . بهند أمك والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي . قال معاوية . يا هذه أربعي على نفسك ، فإننا لا نعني إلا خيراً ، أنه إذا انتفخ بطن المرأة فقد تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها . فسكتت وسكت . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله قال فكيف رأيت ؟ قالت . رأيت والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدا الطسوت . قال : صدقت . فهل لك حاجة ؟ قالت : أفأنت قاضيا ؟ قال : نعم قالت : أريد منك مائة ناقة حمراء ، فيها فحلها وراعيا . قال : ماذا تصفمين بها ؟ قلت : أشدوا بأبابها الصفار ، وأستحي بها الكبار وأكنسب بها المكارم ، وأصلحها بين العشائر . قل فإن أعطيتك إياها فهل أحل عندك محل علي ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ؟ فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً . قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من بيت مال المسلمين . فقال اعطوها ما سألت ، وردوها إلى أهالها مكرمة . وقال القطبي في تاريخ مكة المكرمة : إنه لما حيج المنصور كان يخرج من

دار الندوة — وكانت خلف المكان الذي أعد لصلاة الإمام الحنفى ، وكان ينزل فيها الخلفاء والملوك — إلى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلى ، ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ، ويسلمون عليه ويؤذنون للفجر وقيمون الصلاة ، فيخرج يصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة في السَّحَر ، وشرع يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور الفساد والبغى في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيته حتى ملأ سامعيه من كلامه ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه ، فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور ، فقال له المنصور : ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور الفساد والبغى في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقننى وأشغل خاطرى . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن آمنتى على نفسى وأصغيت إلى بأذن واعية أنبأتك بالأمور بأصلها ، والا احتجبت بقدره الله تعالى فلا تصل إلى ، واقتصرت على نفسى ففيها لى شغلٌ شاغل عن غيرى . فقال : أنت آمن على نفسك فقل فإنى ألقى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب . فقال : إن الذى داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت . فقال : أيها الرجل ، كيف يداخلنى الطمع والصفراء والبيضاء بيدي ، والخلو والحامض فى قبضتى ؟ ومن يحول بينى وما أريد من ذلك ؟ فقال : هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك ؟ يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استراكَ أمور المسلمين وأنفسهم وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الحجر والطين ، وأبواباً من الخشب والحديد ، وحجاباً معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعواناً ظلمة ، إذا نسيت لا يذكرونك ، وإذا أحسنت لا يعينونك ، وقويتهم على ظلم الناس بالسلاح والأموال والرجال ، وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الفقير والجائع وال محتاج عنك ، وما أحد منهم

إلا وله حق في هذا المال ، فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأترتهم على رعيتك وأمرتهم أن لا يُحجّبوا عنك يقولون في أنفسهم : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه فانفقوا ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوه ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعده ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهاجروهم وأكرمهم وهاجروهم ، وكان أول من داراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشا ، فتعمقوا بها على ظلم رعيتك ، وتبهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيتك ليظلموا من دونهم ، فامتألت بلاد الله تعالى بالظلم والغشيم ، وزاد بهم وطعمهم ، وكثر فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين يديك ضُرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لنفسه وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك ، فإن سألتهم عنه قالوا : أساء الأدب فأدبناه ، أو جهل مقامك فضربناه ، فما بقاء الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ، وإنى سافرت إلى أرض الصين فقد متُّها ، وقد أصابت ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : مالك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : إني لا أبكي على فقد سمعي ، ولكن أبكي على المظلوم بصرخ يباني يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته ، وحيث ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، فتادوا في الناس أن لا يلبس أحمر إلا مظلوم لأميزه بالنظر فأعينته ، وكان يركب كل يوم ليرى المظلومين ، ويستدنيهم ويرفع ظلمهم . أنظر يامسكين ، هذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين . أنت مؤمن بالله وابن عم نبيه صلى الله عليه وسلم وإن الأموال لا تجمع إلا لواحد من ثلاثة أمور : فإن قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبراً في الطفل يخرج من بطن أمه عرياناً ما له على وجه الأرض مال ولا مال إلا دونه يدشحيحة به تحويه وتصونه عن كل أحد ، فما يزال الله تعالى يلفظ بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدره له من المال ، فسيمسكه ويحويه كما حواه غيره ، ولست الذي يعطى ، بل الله يعطى من يشاء ؛ لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع — وإن قلت أجمع المال

ليشدد به سلطاني فقد أراك الله عبراً فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وما أعبدوا من السلاح والكرع ، وما شرك ما كنت فيه أنت وولد أبيك من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أعلى مما أنت فيه ؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك إلا بالعمل الصالح — واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيتك إذا عصاك بأعظم من القتل ، وإن الله يعاقب بالخلود في العذاب الأليم : « والله يعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور » . فكيف يكون وقوفك غداً بين يدي الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، فهل بغنى عنك ما كنت فيه شيئاً ؟ قال : فبكي المنصور بكاء شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال : كيف إحساني فيما خولت ولم أر من الناس إلا خائناً ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الراشدين قل : ومن هم قال العلماء العاملون . قال : فإنهم فروا مني . قال : نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقك ، فإذا فتحت الأبواب وسهلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ، ومنعت الظالم ، وظهرت بالعدل ، ونشرت الفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك . وجاء المؤذنون وسلموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا المنصور وصلى بالناس ، وإذا بالرجل غاب من بين أيديهم .

وروي أن الخليفة المنصور العباسي كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعاً ، وأن الأوزاعي دخل عليه يوماً فقال له : عظني . فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله . يا أمير المؤمنين إن الله لا يدوم لخلق ، وإنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك . يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه دعا للقصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً وهو غير متمعد ؛ فقال لأعرابي : بأبي وأمي قد أحللتك ، وما كنت لأفضل ذلك أبداً . يا أمير المؤمنين إن خير الكرم عند الله التقوى ، ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمصية الله وضعه وأذله . فلما انتهى من عظته أمره المنصور إل فاعتذر واستغنى من قبوله وقال يا مولاي ما كنت لأبيع نصيحتي بمرض الدنيا

فأحرم نوابها ، وأقلل من نفعها ، وما دام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل فنحن في خير
الله ثم في خيره . — هكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم ، ويرون أن الدنيا
مرزعة الآخرة وسبيل إليها ، فلم يجعلوها أكبر همهم ، وجل مقصودهم ، فقالوا
الحق ولو كان مرثاً ، فقبله منهم الكبير والصغير ، والأمير والخفير ، وكيفما تكونوا
يول عليكم .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : اعلم يا أمير المؤمنين
أن الله جميل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ،
وقوة كل ضعيف ، ونصفه كل مظلوم ، ومنزع كل ملهوف . والإمام العادل
يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ،
ويذودها عن مراتع الملكة ، ويحميها من السباع ، ويحميها من أذى البرد والحر .
والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسمى لهم صفاراً وبملهم كباراً
يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم
الشفيقة البرة الرقيقة بولدها حملته كرهاً ووضعتة كرهاً ، وربته طفلاً تسهر بسهره ،
وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام
العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده .
والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله
ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين
فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرذ العيال ،
فأفقر أهله وبدد ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخطيئات
والفواحش ، فكيف إذا أتاهما من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف
إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكري يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده
وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك
منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه . يطول فيه ثوابك ، ويفارقك عنده أحيائك ،
يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه

وصاحبته وبنيه . واذكروا يا أمير المؤمنين إذا بعث مافي القبور وحُصِّل ما في الصدور فالأشرار ظاهرة ، والكتائب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لا تحمك يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فتنبؤ بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذباب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في جمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم . إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعضتي ما بلغه أولوا النهى من قبلي فلم آلك شفقة ونصحا ، فأزل كتابي إليك كداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجوه في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليكم ورحمة الله .

وعظ الفضيل بن عياض لهارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أبتيتك . فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم ، انظر لي رجلا أسأله . فقلت : ها هنا الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناها وإذا هو قائم يصلي في غرفته ، يتلو آية من كتاب الله ويردها ، ففرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : مالي ولأمير المؤمنين . فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟ فقال : أوليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذبل نفسه » . ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى العرفة فأطفا السراج ، ثم التجأ إلى زوايا من زوايا العرفة فجعلنا نحول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كني

إليه . فقال : أوّاه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى . قال : فقلت في نفسي : ليس كلمته الليلة بكلام تقي من قلب تقي . فقال : جدّ لنا ما جئنا له ، يرحمك الله . قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف العطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا ، ولكن أشدّهم حباً لك أشدّهم هرباً منك . ثم قال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي . فعدّ الخلافة بلاء وعدّتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولداً . فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأسرك بمنزل هذا ! . فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه . فقلت أرفق بأمر المؤمنين . فقال : يا ابن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق فقال : زدني . فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله أمرني على إماراة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عباس عم النبي نفس تحييها خير من إماراة لا تحييها ، إن الإماراة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال : زدني يرحمك الله . قال : يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتسمى وفي قلبك غش لرعيّتك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لم يرحم غاشماً لم يرحم رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي لم يحاسبني

عليه ، قالويل لي إن سألتني ، والويل لي إن ناقشتني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتى
إنما أعتى دين العباد قال : إن ربى لم يأسرنى بهذا وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع
أمره فقال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من
رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . فقال له : هذه
ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقربها على عبادة ربك . فقال : سبحان الله أنا
أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلك الله ووفقك ثم صمت . فلم يكلمنا
فخرجانم عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم
ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس في مجلس
وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هودج هارون فكف الصبيان عن العبث
به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين . فكشف هارون السجاف
— الستر — بيده وقال : لييك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن
نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمضى
على جبل وتحتة رحل رث » فلم يكن ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك . وتواضعك
في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك . فبكى هارون حتى سقطت دموعه
على الأرض وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله . فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طراً وأن لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبر ويحنو التراب هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين
رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف في جماله كُتب في خالص ديوان
الله من الأبرار . فقال هارون له : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة فقال بهلول :
أرُدُّ الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك
دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله ؛
واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يا بهلول فنَجْرى عليك مايكفيك

فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فحبال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى إلى شأنه — والمقصود من هذا بيان استماع هارون لعظة العلماء وقبوله الحق ، لطهارة قلبه وعلو همته ؛ وقلب كهذا لا يخرج منه إلا الأخلاق السكرية ؛ شأن القلوب الحية والنفوس الطيبة وقال سفيان الثوري : لما حج المهدي قال : لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال : لأى شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا ، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت في سفرك هذا ؟ قال : لأدرى ، لى أمناء ووكلاء قلت : فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ اسكن عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما حج قال لعلامه : كم أنفقت في سفرنا هذا ؟ قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً . قال : ويحك أجهننا بيت مال المسلمين — ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال له : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لخلافته في عباده غيرك ، فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ، فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقاً أن يمُتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقه الدنيا حلاوتها يركون منه إليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجانسه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك وإنك لا تُقدم إلا على نادم مشغول ، ولا تخلف إلا مفتوناً مغروراً ، وإنك وإيانا في دار سفر وجيران ظعن .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في الخروج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا في أهلها قال : ومن

يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من الأمر ما قلده . قال : عظمى يا أبا حازم .
قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو
خارج عنك بمنزل ما صار إليك . ثم قال : يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن
أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . قال : يا أبا حازم أشر على . قال :
يا أمير المؤمنين إمام أنت سوق فما نَقَّ عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاعتبر
لنفسك أيهما شئت . قال : فإلك لا تأتينا ؟ قال . وما أصنع بأتيانك ؟ إن أدنيتني
فتنتني ، وإن أقصيتني أحزنتني ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك
له . قال : فارفع إلينا حوائجك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فأعطاني منها قبلت ، وما معنى منها رضيت . يقول الله تعالى : « نحن قسمنا
بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله
ويزيد في قليل ما قسم الله ؟ . فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه :
أسأت إلى أمير المؤمنين قال أبو حازم : أسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء
« لَيبَيِّنَنَّ للناس ولا يَكْتُمُونَهُ » ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال
فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى ؟ .
ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ « والفجر وليال عشر » حتى بلغ « إن ربك
لبالمرصاد » لمن فعل مثل فعلهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فإن يبابك نيراناً تَأْجِجُ ، لا يُعْمَلُ
فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مستول عما اجترحوا ، وليسوا مستولين
عما اجترحت ، فلا تصلح دينهم إلا بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عمالك أنه
لا يرضيك منهم إلا العدل لتتقرب به إليك من لا يريده ، فقال له سلمان بن مجاهد :
أسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : ويحك يا ابن مجاهد ! أما كفالك أنك
خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه ؟
اتق الله أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سُلماً إلى شهواتهم ، فأنت كالمسك
القرون وغيرك يملب وإن هؤلاء لن يُغْنُوا عنك من الله شيئاً . ويروى أن الحسن
بن محمد بن الحسين رضى الله عنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا عمر ثلاث

من كن فيه فقد استكمل الإيمان . فقال له عمر : إيه أهل بيت النبوة ومعادن الرسالة ، وجنا على ركبتيه ، فقال الحسن : من إذا رضى لم يدخله رضاء في باطل ، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له . ولما ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام — وكان حديث السن — فقال له عمر : لينطق من هو أسن منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام . وعرف فضله من سمع خطابه . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال : صدقت قل ما بدالك . فقال الغلام : أصلح الله الأمير نحن وفد تهنئة لا وفد مرزأة ، وقد أتيناك لمن الله الذي من علينا بك ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمننا جورك بذلك . فقال له عمر عظمي يا غلام . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار ، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلتحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحى هذه الأمة . ثم سكت . فسأل عمر الغلام عن سنه فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم . فتمثل عمر عند ذلك فقال :
تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المخافل
وفي مثل هذا قيل للمتابى — وكان لا يبالي ما لبس — مالك لا تجيد الملبوس ؟
فقال : إنما يرفع الرجل أدبه وعقله لا حليته وحلته ، لحنى الله أمراً يرضى أن ترفعه
هيئته وجاله . لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ، ويعلو به أكبراه همته
ولبه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : أما بعد ، فلو كان لك
عمر نوح وملك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، فإن أمامك هول الموت

ومن ورائه داران إن أخطأتك هذه صرت إلى هذه — ودخل عليه محمد بن كعب القرظي وهو مكتئب حزين ، فأقبل عليه وقال : عظمي . فقال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ، واجعل الناس أصنافاً ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب ، والأوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد ، فبر أباك وصل أخاك واعطف على ولدك ، واعلم أنك أول خليفة يموت — ومن شجاعة عمر بن عبد العزيز في قول الحق عند الخلفاء قبله : أن الوليد بن عبد الملك راوده على أن يخلع سليمان فقال : يا أمير المؤمنين إنا بآبائنا كما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ — ودخل على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : يا غلام اذهب فأنني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك . فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلى المصحف ؟ قال أيوب والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه . فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك أشد بما خشيت أن يصيبهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه ، لأبي حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حملنا عنه — ومن كلامه : ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه — ولما حج هارون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رضى الله عنه بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه ودخل المدينة بعث إلى مالك : إن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام . فقال للرسول : قل له إن الكيس بخاتم . وقال : الرسول عليه الصلاة والسلام والمدينة خير لم لو كانوا يعلمون — ودخل محمد بن صبيح بن السماك البغدادي الواعظ على هارون الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن امرأ

أناه الله جلالاً في خلقته وموضعاً في حسبه ، وبسط له في ذات يده نفع في جماله ،
وواسى في ماله ، وتواضع في حسبه ، كتب في ديوان الله من خالص عباد الله . فدعا
هارون بدواة وقرطاس وكتب له بيده - وروى صاحب الحلية قصة أخرى لابن
السماك مع الرشيد تشبهها . قال : بعث هارون الرشيد إلى ابن السمك فدخل وعنده
يحيى بن خالد البرمكي فقال يحيى : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح
عنتك في نفسك ، وكثرة ذكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للامة . فقال بن
السمك : أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عنا في أنفسنا ، فذلك بستر الله علينا ،
فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة ، ولا جرى لسان
لنا بمدحة ، وإني لأخاف أن أكون بالستر معروفاً ، وبمدح الناس مفتوناً وإني
لأخاف أن أهلك بها وبقلة الشكر عليها . فدعا بدواة وقرطاس فكتبه الرشيد
- ولما دخل محمد بن واسع سيد العبّاد في زمانه على بلال بن أبي بردة أمير
البصرة - وكان ثوبه إلى نصف ساقه - فقال بلال : ما هذه الشهرة يا بن
واسع ؟ فقال له بن واسع : أتم شهرتمونا . هكذا كان لباس من مضى ، وأتم
طولتم ذبولكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة ، وأما أنا فلما دخلت على ملك
مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد
السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه
وأمرني بالجلوس فيه . فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً
شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكتك طائفة من ملكه ، وأشركت في
حكاه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى
بالشكر منك . وإن الله تعالى قد أزم الوري طاعتك ، فلا يكون أحد أطوع لله
منك ، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل
والإحسان . قال الله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) واعلم أن هذا الملك الذي
أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار
إليك . فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن التقير والتقطير

والقتيل . قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بمخذا فيراها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الأنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها . ولا حسبها كرامة كما حسبتموها : بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر » فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا للمهوف وأمانا للخائف .

ما يجب أن يراعى في وضع خطب المنابر

لما كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق وإحياء الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد القلوب وتطهيرها من الأمراض ، كانت الخطب الجملة لانتقاد الجمهور شيئا ، لأنها لم تلمس مواضع الداء ولم تهتد إلى الدواء — فمثل من يقول إن المعاصي تزيل النعم ، وإن التعلق بالدنيا مبعث من الله تعالى وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد في البر والبحر ، ولو استقمنا ما انتقمنا ، مال المساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت . مال القلوب قست . مال العيون لا تبكي ، مال النفوس لا تتألم . قد انتهكتم الحرمات وتمديتم الحدود ، وأغضبتم الجبار ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما إلى ذلك من مجمل القول ، يمثل الطيب الذي يخطب الجمهور في قواعد الصحة العامة وفيهم المسلول والحُموم والمجنون والمبطون ، وذو الرمد الصديدي والبول الدموي ، والمصاب بالسيلان أو الزهري ، وما شاكل ذلك من الأمراض الخبيثة المعدية ، التي تحتاج إلى دواء خاص وعلاج خاص ، وحمية خاصة ، ويقول : نظفوا غرف النوم ، قللوا من الغذاء . احترسوا من الرطوبة ، لاتأكلوا المخلطات . لا تبصقوا في أماكن الاجتماع . وما أشبه ذلك أيضا من السكليات العامة التي تصلح للسليم كما تصلح

للمريض . فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت لديهم في حكم المعلوم بالضرورة ، لا تؤثر فيهم أدنى تأثير ، لأنها لم تلمس موضع الألم فيحس المريض ، ولم تصف دواء فيعلق عليه الأمل وينشط في العمل - لذلك يجب على الخطيب الديني أن يتكلم على الموضوع الخاص ويحلله تحليلًا دينيًا خلقياً اجتماعياً ، فيتكلم مثلاً على قتل النفس ظلماً ، مبيناً مافيه من الأضرار المادية والاجتماعية كتولد الأحقاد والضغائن ، وبقائها بين الأسر ، وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى ، وانتقال ذلك الشر من الأصول إلى الفروع . وكالاتلال بالأمن والراحة : هذا إلى مافى هذه الجناية الشنيعة الأثيمة من تعريض النفس للاعدام ، والأموال للاتلاف ، والأولاد للضياع ، فضلاً عن غضب الله ومقته . ذا كراً الآيات والأحاديث الواردة في التحذير من جنابة القتل . ويقبح أيضاً جريمة الانتحار مبيناً أنه نتيجة السفه وقلة الإيمان ، وعدم الثقة بالله تعالى والرضا عنه في قضائه وقدره . وأن المنتحر قد باء بآئمه ولقى الله وهو عليه غضبان ، تاركاً وراه الخزي والعار وسوء الذكرى وقبيح الأحدوثه - ثم يأتي بما يناسب المقام محذراً من هذه البدعة السيئة غاية التحذير .

ومن يخطب في الزنا يذكر أضراره البدنية والخلقية والمالية والاجتماعية ، من اختلاط الأنساب وتمزيق الوحدة ، وأن زوج الزانية يضع ماله على أولاد الأجانب . وأن الزانية والزاني قد هتكا حرمة الزوج ، واعتديا على حقه الشرعي وهتكا حرمة الأسرة ، وسجلا عليها عاراً لا يمحي ، وخزياً لا يزول ، وتشبهاً بالحيوان الأعجم الذى ينزو ذكره على أنثاه بلا قيد ولا شرط ، وأن من اجترأ على الله بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء يجترى . في سبيل شهوته على ضرر العباد ، والسعى فى الأرض بالفساد ، فضلاً عما فى الزنا من التعرض لغضب الله ومقته . ثم يأتي بآيات وأحاديث الزنا وفضاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلاً - وينفر الناس من الزانى والزانية بأنهما وباء على المجتمع لأن من استحك فيه مرض بود أن يكون الناس مثله ، والتنفير باب عام ينبغى دخوله فى كل المهلكات . ومثل

الزنا اللواطية ، وقريب من الزنا السفور وتبرج النساء في الأسواق والطرق ، واختلاط الجنسين - ومن يخطب في التحذير من الربا يذكر ما فيه من الأضرار المالية والاقتصادية والأدبية ، وأنه ما انتشر في أمة إلا ذلت بعد عزها ، وافترقت بعد غناها ، وفقدت قوتها واستقلالها ، ووقعت في قبضة الاستعباد . هذا إلى ما في الربا من الحق وذهاب البركة ، ومحاربة الله والتعرض لعنقه وعقوبته في العاجل والآجل . ويستدل على هذا كله بالأدلة النقلية والمشاهدات الحسية - وإذا خُطب في التحذير من تناول المسكرات وتماطى المخدرات ذكر ما فيها من الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية ، وأردف ذلك بما جاء فيها من الوعيد الشديد - وبالجملة إذا تكلم في المنكرات يحللها على هذا النحو مبتدئاً بأشدّها خطراً وأكثرها وقوعاً في الأمة التي يخطب فيها . وإذا خُطب في باب الأوامر الآلهية والفضائل النفسية عمد إلى شعب الإيمان شعبة شعبة ، وتكلم على كل شعبة منها على حدة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء والأمانة والحياء ، مبيناً حكمة مشروعيتها وآثارها التي تعود على صاحبها وعلى الجمعية البشرية ، وما في تركها والانصاف بأضدادها من الخسارة عليه وعلى الحياة الاجتماعية ، مشفوعاً بذلك بالأدلة النقلية والعاقبة والحسية ، مراعيّاً أيضاً أكبرها خطراً وأكثرها شيوعاً في الناس . ويخُطب في المواسم الشرعية بما يناسب الحال فيتكلّم في رمضان مثلاً على وجوب الصوم حتى على الأمّ السابقة ، مبيناً سر مشروعيتها من ضبط النفس وإضعاف شهوتها ، وكونه وسيلة إلى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها على الإرادة ، فإنها إذا اتقادت للامتناع عما لاغنى لها عنه من الغذاء ، فأولى أن تنقاد للامتناع عما لا حاجة لها فيه من الحرام . فكان سبباً في قوة المزميمة واتقاء المحارم ، وأنه يبعث في الإنسان فضيلة الرحمة بالضعفاء والمطف على البائسين ، وأنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ، وما إلى ذلك من المزايا الصحية والخلقية والاجتماعية . ثم يبين ما للصائم عند الله من عظيم الثوبة على هذا الجهاد العظيم ، ذاكرًا ما ورد في الصوم من أحاديث الترغيب . ويتكلم في الميدان على الأعمال المطلوبة شرعاً من صدقة

وأضحية وتهليل وتكبير وصلة رحم . وعطف على بانس وأرملة وإكرام يتيم ،
مرغبا في العفو عن المفوات والصفح عن الزلات ، وترك الخصومات ، وإصلاح
ذات البين — ويحذر الناس من العادات المحرمة والبدع السيئة التي تقع في العيدين —
وينبغي أن يتكلم على صدقة الفطر في الجمعة التي قبل العيد ليحسن الناس أداءها
في الوقت الأفضل على الوجه المطلوب . ويتكلم في ربيع الأول على سيرة رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه بذكر نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته ، وأخبار
مولده وتربيته وصفة معيشته في نفسه ، وزواجه وسيرته في أهله ، تمهيداً لبيان
المقصد الأعظم وهو نبأ بعثته التي كانت رحمة للعالمين ، مبينا ما كان عليه من
الأخلاق الكريمة ، والآداب العالية ، وما تم على يديه من الإصلاح وجلائل
الأعمال ، وما قاساه من الأهوال والمتاعب الشديدة في سبيل الدعوة إلى الله
تعالى ، مستمداً ذلك كله من الكتاب المبين ، وصحيح السنة ، وما تمس الحاجة
إليه مما أثبتته ثقات المؤرخين ، محتنباً كل ما لم تثبت صحته مما يتعلق بسيرته
الشريفة ، مبينا أن الفائدة المقصودة من ذلك هي تذكير الناس بخلاصة تاريخ
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ليتذكر المسلمون منة الله تعالى عليهم
ببعثته ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به وكال محبته ، ويزداد تعلقهم بهذا
الرسول العظيم ، ويحرصوا على اتباعه والافتداء به وإحياء سنته والتحلل بأدابه
— ولا يكفي ذكر نسبه الشريف مجرداً عن ذكر مآثر آبائه ، ولا ذكر أوصافه
الجسمية كما يفعله بعض خطباء اليوم فذلك لا يفي بالغاية المقصودة من ذكر حياته
الشريفة . وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة عن بيان ما فيها من العبر ،
وإنما يتكلم عما لاقاه من الشدائد في مرض الموت وسكراته مع الصبر والرضا ،
وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذا كان قد لقي مثل تلك الأهوال وهو
المفطور له والمصوم ، فكيف بنا ونحن المذنبون المقصرون ؟ ولا ندري ما يفعل
بنا — ثم ينبه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته وتمظيمه ومحبته ، والعمل على إحياء
سنته ، وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى ، ويحث الناس على

الإكثار من الصلاة والسلام عليه ، لتكون قلوبهم دائماً معمورة بمحبته . ويبين لهم أن المحبة دائماً تقتضى الجري على ما يهوى المحبوب ، وأن العاصي كاذب في دعواه حب الله ورسوله . ويبين أيضاً حقه على أمته ، وأن هذا الخير العظيم وتلك السعادة التي فيها العالم كانت كلها على يديه صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك شرعت الصلاة والسلام عليه قياماً له ببعض حقه على الناس . وهكذا يتكلم في كل وقت بما يناسبه مراعيًا حال السامعين وأمراضهم واستعدادهم ، ويتكلم على القرآن الحكيم مبيّناً شيئاً من هدايته وفضائله . وأنه رحمة وشفاء ، وما يجب على التالى والسامع له ، وأن القارىء نائب عن الله تعالى في إسماع الناس ما شرع لهم فيه ، وأن من أعرض عن القارىء فقد أعرض عن الله ، وأن من أخل بالأدب عند سماعه فقد أخل بالأدب بين يدي ملك الملوك ورب الأرباب . وإجمالاً يذكر للناس ما في القرآن من المقاصد وأنواع الهداية التي تكفل لمن سلكها سعادة الدين والدنيا ، وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة ، عندها تنزل الرحمات ، وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله وجلاله ، وآية الفلاح والهداية . ويحض الناس على احترام مجلس القرآن ^(١) وتدبره لتتسع عقولهم وتستنير بصائرهم ، فإن من فتح قلبه لهدايته وكان على استعداد تام للتأثر به كفاه في الرجوع إلى الله تعالى استماعه له بسلامة ذوقه وفطرته ، فسليم الفطرة والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة ، شأن الإنسان الحى فكيف بأعظم هاد وأكبر مؤثر « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وصفوة القول أن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ، ملائماً لما تدعو إليه حاجة السامعين . وقد جرت عادة الخطباء بالتزام صورة واحدة في الخطبة الثانية للجمعة سموها « خطبة النعت » وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح ، فهي محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعي ، بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى ، وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح ، وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه شتى ، فلا يصعب

(١) راجع كتاب الابداع ص ٢٤٠ من الطبعة الرابعة .

على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات أو الأحاديث أو الآثار أو الحكم البالغة ما يناسب موضوع الخطبة الأولى كما سترى ذلك في أكثر النماذج الآتية إن شاء الله تعالى . هذا ما يجب أن يراعى في وضع الخطب المنبرية ، وقد سبقت الإشارة إليه إجمالاً أول الفصل الثاني عشر ، وهذا داؤها ودواؤها ، كما هدتنا إليه التجربة وكثرة المران والممارسة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — وإليك نماذج تطبيقية من الخطب العصرية لتكون لك نبراساً تهتدى به ، ومثالاً حسناً تنسج على منواله . والله الهادي إلى سواء السبيل .

نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية

في أهم حوادث الوقت الحاضر

أدى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله فريضة الجمعة في الجامع الأزهر يومى ١١ شوال سنة ١٣٥٥ و ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ فخطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيها خطبة الجمعة فكانت خطبته الأولى في ورائة الأرض بالعمل الصالح ، وخطبته الأخرى في الحكم الصالح . ولما تضمنته الخطبتان من عظات قيمة وإرشاد حكيم ، رأينا تسجيلهما في هذا الكتاب ليكونا نبراساً تهتدى به الطلبة فيما يضمنونه من الخطب المنبرية .

خطبة يوم ١١ شوال سنة ١٣٥٥ بالجامع الأزهر الشريف

أحمد اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك ، وابتغى رضوانك العميم . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله رحمة للإنسان . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار ، وصحبه الطيبين الأخيار . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . هذا وعد الله الصادق ، ولن يخلف الله وعده . أمور ثلاثة أيها المؤمنون هى أسمى ما يتصوره الإنسان ، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الإيمان : استخلاف العاملين فى الأرض ، وتمكين دينهم الذى ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف أمنا وطمأنينة — والاستخلاف فى الأرض خلافة عن الله فى عمارة الكون ، وتوزيع العدل والإحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة ، وهو مطلب تتفانى الأمم فى سبيله ، وتضحى بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه . وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان ، ولا وُجد مجد وسؤدد ، ولا شَعرت أمة بالعزة إلا إذا حتمتها القوة وبسطت عليها أجنحتها ، وهذه المثل قائمة ، وشواهد الماضى حاضرة فى الذهن ماثلة . وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصود رفيع ، يتبعه استقرار النفوس ، وراحة الضائز ، والشعور بالعزة والكرامة ، ليس أسمى إلى النفس ، ولا أمتع للقلب ، ولا أهنأ للروح ، من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ فى نفوس الناس أجمعين . والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة ، وللخوف آثار تفسد العقل ، وتذهب بالتفكير ، وتجعل العيش مريراً ، والحياة مضطربة . وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذبه يتدفق بعد القلق ! عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافى القلب متجهاً إلى الله ملتصقاً بالخير والنفع للعباد . وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجري عباراتها على اللسان ، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » . ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس ، والاستهانة فى سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدى بالحركات ، أو صيام يؤدى بالحرمان من اللذات ، أو ذكر يجرى على اللسان أفاظاً ميتة خالية من الخشية والرهبة . إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الإسعاد : من إخلاص لله ، ومحبة لخير الفرد

والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله . « وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهود ، والصدق في القول ، والشجاعة في الحق ، والصبر على احتمال المكروه ، والعدل مع الأفراد ، بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم ، وإرشادهم إلى الخير ومعاونتهم فيه ، ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة ، وما يفرضه الحاكم ، مما ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية ، والدأب والسهر على مصالحها وحياطتها من الانزلاق في الشرور والتهاون في الدين ، وإن قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب من الحكام ، ومطلوب من الرعية ، والعدل هو اتباع السنن الإلهية ، والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التي لا تتناقى والدين إن الأمة الصالحة التي تستحق الخلافة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العدل يجب أيضاً أن تؤدي للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج ما فيها وما حولها من قوى ومنافع ، لتحقق الإرادة الإلهية من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . عباد الله : لا تسعد أمة تتفرق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزاباً ، رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة ، لا تسعد أمة لا تعتصم بمجبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الذاهبين الأولين ، لا تسعد أمة تتحكم إلى الشهوات ، وتتهامى عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعمى عن العبر ، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهرياً ، وتزدري بالأخلاق الفاضلة حباً في الاستمتاع بالشهوات ، وما في الحياة من لذات ، لا تسعد أمة ينفس أمراؤها وأغنياؤها في الترف ، ويستعذبون الراحة ، ويأنفون العمل ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أيها المؤمنون ، نحن بين أمرين . إما أن نستضيء بنور

العقل ونهتدى بهدى الشرع فنصير في الدنيا إلى عزة نعلوبها في أجواز القضاء ،
وتحترق بها أطباق الأرض ، ثم في الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إلى
مغفرة الله ورضوانه ، وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونعمض عما حل بالأمم السابقة
أعيننا ، ونغلى مراحل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير في
الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم في الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة إلى خزي من
الله وخذلان . « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له
جهنم يصلها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ؛ وقادنا إلى الخير
وحسن العاقبة ، وهدانا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته . روى البخارى
عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه
وجد حلوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء
لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

خطبة يوم ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ بالجامع الأزهر الشريف

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى
لا ينسى ، سبحانه هو الكبير المتعال ، نحمده حمداً به نستأهل غفرانه ؛ ونستمح
عطفه ورضوانه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله توحد بالربوبية المطابقة ، وتفرد بالجلال
والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدم بإحسانه ورعايته ؛ ونصلى أفضل الصلوات
وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله
حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه
عليه وعلى آله وأصحابه ؛ الذين حملوا من بعده علم الهداية ، فذانت لهم الأمم ،
وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيماً ؛ أما بعد فيقول الله تعالى
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون ». على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل كريماً لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة ، رفعوا لواء عزه وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به في الآفاق نافذ السلطان ، رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغنم تقسم ، وأسلاًبا توزع ، ودنيا مملوءة باللذات فيها دعة وسكون ، وترف ومجون وطال عليهم الأمد في ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهي ، فسأت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه . تحلوا من أصول الإسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسهلها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يتمسك بها الرجل المتمدن الذي عرف معنى الحياة وما فيها من لذة ومتمعة سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الخمر والميسر والاسترسال في الشهوات والانفاس في الإباحية نوع من الحرية ، خاصة من خواص المدنية . سول لهم أن التدين عار فتركوا دينهم ، ونبذوا كتبهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح والخلق الفاضل فصاروا نهياً للأهم ومثلاً للذلة ، توالت عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابعت أمامهم العبر فلم يعتبروا فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . بهذا أصبح الإسلام في ناحية والمسلمون في ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : « إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرديلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله في ذلك قوانين تنظمها ، وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى في النظام ، والجور في الأحكام . دين يتفنى

في الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والإلحاد .
بهذا ونحوه من الآثام والرزائل التي صارت بين المسلمين معروفة مألوقة — وهي عند
العقلاء وفي دين الإسلام منكرة ممقوتة — بصور الإسلام أخذاً من حالة جمهور
يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام . أليس هذا أيها المسلمون
جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضاً لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ؟
ولا يحسن بأمة تريد الحياة سرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟ « إن هي إلا فتنتك
نضل بها من نشاء وتهدى من نشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين » . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق ،
ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم
وكثير منهم فاسقون » أيها المسلمون ، اسمعوا في دينكم قول الله الحق وقول رسوله
الكريم . يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم
ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ويقول : « وإذا قيل
لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »
يقرر القرآن نفي الإيمان عن من لم يرض بأحكام الله ، رضا يزيل الحرج عن صدره ،
ويملاً قلبه استسلاماً وطمأنينة ، ويصف بالنفاق من يصد عن الداعي إلى الله
ورسول الله . ويقول في آية أخرى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده
والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة .
كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها
وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون » . إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه ،
وتأول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه
الإباحية الجاححة ، ولا هذه الشهوات التي لا تقف عند حد ، وإنما يحتمل مدينة
فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة
الله وما هيأ لعباده من طيبات : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات

ويحرم عليهم الخبائث . هذا هو الإسلام أيها المؤمنون ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وأقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة ، واعلموا أن الله أهلك الأمم الفائرة لأقل من هذه الشرور والآثام . خطوا للفضيلة طريقاً واضحاً ، وضعوا لها نهجاً مستقيماً ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . أيها المسلمون إن الله وضع قواعد الحكم الصالح في هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » والأمانة ما تجب المحافظة عليه فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ، وقول الحق في الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة والعدل في الأحكام والأفعال والأقوال أمانة . كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصاً في الكتاب ولا في السنة قانون ، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون ، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم في محكم كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . أيها المسلمون ؛ اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمنته « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع » ، — الهالع : الحزن ، والخالع الذي يخلع القلب من الخوف — « لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ومن كتم شهادة دعى إليها كان كمن شهد الزور ، الدين النصيحة ، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا » — يشير إلى صدره — « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمس عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى لا يدخله النار . اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم . وإياكم والخيانة فإنها بثت البطانة . من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وقفنى الله وإياكم إلى التمسك بدينه والعمل على مرضاته والتخلق بأخلاق نبيه الكريم .

الدين وأثره في تهذيب النفس

الحمد لله شرع الدين هداية للمؤمنين ، ووفق من شاء للتمسك به والتحلي بأدابه ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله كتب رحمته للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحفاظين لحدود الله — أما بعد فقد قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » أيها الناس — الدين يأمرنا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أن واجب الوجود إله واحد قادر مريد عليم حكيم ، سميع بصير ، متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص أبدع الكائنات بقدرته ، ودبرها بحكته وعلمه ، فهو الذى يحيى ويميت ، والذى يعطى ويمنع ، والذى يضر وينفع ؛ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . هذا هو الاعتقاد الحق الذى يُخرج النفس من ظلمة الجهل ، ويرفعها من وهدة الشرك ، ويُظهرها من دنس الخرافات والأوهام ، فلا تنحط إلى عبادة جماد أو إنسان أو حيوان ، ولا تخضع إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام : الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين : والدين بعد ذلك قد فرض على الناس عبادات كلها ذو أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب

النفوس : فرض الصلاة خساً في اليوم واللييلة ، وجعل مفتاحها طهارة البدن والثوب
والمسكان فيقف العبدُ فيها فارغاً من الشواغل ، موجّهاً قلبه إلى مولاه نظيفَ
الظاهر طاهرَ الباطن ، يُناجى ربّه ويُنثني عليه بما هو أهله ، خائفاً من عذابه
طامعاً في رحمته ، طالباً منه العون والهداية ، فيؤثّر في نفسه ، ويعودّه مراقبةَ الله
وخشيته ، فيجتنب ما يُغضب مولاه ، ويمتنع عما حرم الله عليه : إن الصلاة تنهى
عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ، وفرض الزكاة
في أموال الأغنياء سداً لحاجة الفقراء ، وتفريجاً لكربة الغارمين وتيسيراً لأبناء
السبيل ، وعوناً على المصالح العامة ، كذلك تفرّس في المؤمن فضيلة السخاء ، وتطهر
نفسه من رذيلة الشح ، وتخرج الأضغان من قلوب البائسين ، وحقّدهم على الأغنياء
المترفين ، وتملأ قلوبهم بمحبتهم ، وتمنعهم من الإساءة إليهم ، وبذلك يسود الأمن ،
وبذلك تكون الألفة والأخاء . قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتزكّهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » وفرض الصيام
ليُرَبّي في الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والصبر عند الشدائد وقوة الإرادة وضبط
النفس عندهيجان الشهوة والعفة والقناعة والأمانة والعطف على الجائعين ، ويعرّفه
مقدار النعمة ليشكر مولاه على التفضل بها « وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . وأما الحج فالتناس فيه أشبه بالموثق يفارقون
أموالهم وعيالهم ، وينتقلون إلى غير ديارهم مُتجردين عن زينة الحياة الدنيا ،
ليس على الواحد منهم إلا إزارٌ ورداء ، والسكل خاضع لمظاة الله ، خاشعٌ لجلاله ،
لا فرق بين صغير وكبير ، وغنى وفقير ، هنالك تتطامن النفوس وتعلم أن زخرف
الحياة باطل ، وهناك تشعرُ بالتواضع والمساواة ، وأنه لا يليق الاستعلاء والاستكبار
بجاه ولا مال ، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب « إن أكرمكم عند الله أتقاكم
إن الله عليم خبير » . كذلك الدين حرم ما يُفرض بالناس إلى الفناء ، ويوقع بينهم
العداوة والبغضاء ، أو يفسد العقل ويحط من كرامة المرء ويذهب بحياته وماله :
كالقتل والزنا والقذف ، وشرب الخمر والمقامرة ، والربا والرشا وأكل أموال الناس

بالباطل ، والغبية والخيمية والحيانة والقدر ، والضعيفة والحسد ، وكل ما فيه إيذاء للناس . قال صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه » أيها الناس — الاعتصام بالدين يهذب النفس ويطهرها من الرذيلة وسوء الخلق ، ويظهر أثر ذلك في المعاشرة والمعاملة ، فمن كان متمسكاً بدينه واقفاً عند حدوده حسنت معاشرته ، واعتدلت معاملته ، فببرّ بوالديه وأقاربه ، ويواسي إخوانه ، ويقوم بحقوق أهله ، ويربي أولاده ، يتقف عقولهم ، ويهذب أخلاقهم ، لا يؤذي جاراً ولا أحداً في نفس أو عرض أو مال ، ولا يكون لعاناً ولا سبباً ، ولا نماماً ولا مفتاباً ، ولا حقوداً ولا حسوداً — والمسلم المتدين لا يقش إذا باع أو اشترى ، ولا ينقص مكيالاً ولا ميزاناً ، ولا يكذب إذا حدث ، ولا يخلف إذا وعد ، ولا يخون إذا أومن ، ولا يكون مختالاً ولا فخوراً ، ولا جباراً ولا عنيداً ، ولا يماطل في حقوق الناس — والمسلم المتدين إذا وكل إليه عمل أتقنه وأداه على الوجه الأكمل من غير تسويف ولا تأخير ، وإذا ولي على الناس عدل فيهم ونظر في مصالحهم ، ليس لغير الحق سلطان على نفسه فلا يجابى قوياً ، ولا يضيع حق ضعيف ، فهو ملك كريم في صورة إنسان رحيم « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » . روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمرى ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » .

ويقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس اعلموا أنه لا يتفنعنا في دنيانا وآخرتنا إلا الاستقامة ومخالع العمل مع صدق الإيمان . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وفي الحديث القدسي عن رب العزة : ما أقلّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي « فالذين يهملون طاعة الله تعالى انكسلاً على كرمه وسعة رحمته قد لعب الشيطان بعقولهم

وغيرهم بالله . نعم إنه كريم واسع الرحمة ، ولكنه حكيم جعل كرمه ورحمته لمن امتثل الأوامر واجتنب النواهي . قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » الآية .

أهملنا ديننا فساءت حالنا

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » فهدب بالكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهدانا إلى وسائل الرقي والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، والداعي إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، ووقفوا عند حدوده فخفضت لهم رقاب الجبابرة ، وأسقطوا عروش الأكاسرة ، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين . أما بعد : فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أيها الناس : لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها ، صحيحة في عقائدها ، سالحة في أعمالها ، حسنة في معاملاتها وعاداتها ، كريمة في أخلاقها ، بصيرة في دينها ودنياها ، راقية في آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة مهيبية ، صاحبة السلطان والصلوة على من عداها . واليوم تغير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تدهورت أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت في علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الكرامة ، فاقدة الهيبية ، مغلوبة على أمرها ، متأخرة في مرافق حياتها ،

تنخبط في ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها ، وانحرفت عن طريق الهدى نبيها ، وسارت وراء هواها ، وفُتنت بزخارف الحضارة المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظلت الإباحية حرية ، والخلاعة رقياً ، فتمتدت حدود العقل والدين ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فساءت حالها ، وسَلَطَ عليها عدوها « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » أيها الناس : لقد ذاقَت الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذلّة والهوان ، والتفرقت والانحلال . كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نُفِيق من سكرتنا ، ولا ننتبه من غفلتنا ، ولا ننزجر بالحن والبلايا ، ولا نعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لنا نفوس حية وقلوب يقظة . لو كان لنا شعور حي وإحساس قوي ، لنبهتنا البلايا ، وأيقظتنا المؤلمات . أيها المسلم : الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويمة ، ومعاملات حسنة عادلة ، وأخلاق كريمة . فهل أنت صحيح العقيدة ، قويم العبادة ، حسن المعاملة ، كريم الأخلاق ؟ هل أنت سائر في كل أعمالك وأحوالك في طريق الدين ؟ أم أنت تسير منحرفاً عن الطريق القويم ؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتمتلك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالاً ، أو مرآئياً مختالاً ، أو مداهناً منافقاً ؟ هل من الدين أن يكون المرء تماماً أو مفتاباً ؟ أو اماناً أو سباباً ، أو غاشياً أو خائناً ؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقصاً للعهد ، مخلقاً للوعد ، متكبراً جباراً عنيداً ، مماطلاً في حقوق الناس ؟ هل من الدين أن يكون مهملاً لأولاده ، عاقاً لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئاً لزوجه ، مؤذياً لجيرانه ، هل من الدين أن يكون قاسى القلب : لا يرحم مسكيناً ، ولا يكرم يتيماً ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآية . كلا ! أين هذا من قول رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أيها الناس : ما هذا الفساد في أمة شعارها الإسلام ، وأساس دينها القرآن ؟ ما هذا التدهور الخلقى في أمة رسولها سيد ولد عدنان ؟ أمحكمت الشهوات في النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » أرأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرق والسعادة . فاتبعتم ديننا غيره ينهض بكم ويُسعدكم ؟ كلا والله ، لا رقى إلا به ، ولا سماعة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء في الدنيا والآخرة إلا به « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » قال صلوات الله وسلامه عليه : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » رواه أبو داود — واشرح في الخطبة الثانية قوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشاه » ثم تختمها بقولك : أيها الناس لا خلاص للأمة من هذا الشقاء ، ولا نجاة لها من هذه البلايا ، إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال ، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ، كتاب الله وسنة رسوله »

بدعة خروج النساء إلى المقابر في المواسم

الحمد لله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الطريق القويم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ومن تمسك بالدين ووقف عند حدوده . (أما بعد) فيأيها المسلمون إن الله تعالى قد جعل علامة محبة العبد له اتباع نبيه الكريم ، وطاعة رسوله الصادق الأمين حيث قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم

ذنوبكم والله غفور رحيم» . فمن لم يتبع الرسول فيما جاء به وادعى أنه يحب الله تعالى فهو كذاب ، وكتاب الله يكذبه ، إذ له كان صادقاً في دعوى محبته لأطاع رسوله ، فإن طاعة الرسول طاعة لمولاه ، وعصيانه عصيان لله : « من بطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . وإن الله تعالى جعل محبته ورضاه ورحمته وإحسانه في اتباع نبيه والاهتداء بهديه . فالخير كله والهدى في الاتباع ، والشر والضلالة في المخالفة والابتداع ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وإن من البدع القبيحة والعادات السيئة زيارة النساء للقبور في المواسم والأعياد على الحال المعروفة : من تهتك النساء واختلاطن بالرجال ، مع فساد الأخلاق وانتشار الفساد في هذا الزمان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل — وأى بدعة أكبر قبحاً وأعظم وزراً من بدعة جمعت مفساداً وشروراً كثيرة ؛ من انتهاك الحرمات وابتدال الأعراض ، وإضاعة الأموال ، وإيذاء الموتى ، وغضب الله المنتقم الجبار . أيها الناس : لقد أصبحت نساء اليوم من أشد الأمراض الاجتماعية التي أعيت الأطباء الناصحين ، وكلت منها أسنة الخطباء المرشدين ، وصرن أكبر عون للشيطان على تنفيذ كل ما يأمرهن به من عادات الجاهلية ؛ في التدب والنياحة وشق الجيوب واطم الخدود وصنع الوجوه والأيدى بالسواد ، ورسول الله صلوات الله عليه يقول : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . يجيء رجب أو عيد الفطر أو الأضحى فتصبح النساء ولا همّ لهن إلا ما يُبدونه للقراقة من ألوان الأطعمة والفواكه المتنوعة ، فالغنى ينفق عن سعة والفقير يضع ما فيه حاجة عياله ، وقد يقترض لذلك أو يرهن متاع بيته لدى المرابين . ويكثر النزاع ويشتد الخلاف بين المرء وزجه ، وقد يؤدي الأمر إلى الفراق ، أو دوام التكسد والشقاق ، وإذا جاءوا إلى المقابر رفعت النساء أصواتهن بالبكاء ، وأظهرن الحزن والجزع ، ووقعن في كلمات الكفر بالتسخط على القدر ، والاعتراض على الله تعالى في حكمه وقضائه ، وهو الفاعل

المختار ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . هذا : وبعد قليل توضع المواثيق فوق المقابر ، وعلى رؤوس الموتى ، ومنها يأكلون وبها يتنعمون ، ناسين الموت وسكراته غافلين عن الموتى وما هم فيه من ظلمة ووحشة وكروب وأهوال . فإذا طعموا اقتشروا في الصحراء يتبادلون الزيارات كأنهم في منازل الأحياء لا في مقابر الأموات أما كن الخشية والاعتبار : « ذلك هو الضلال البعيد » . أيها الناس ! أعن هذا يرضى الرب أبهذا ترحم الموتى ؟ أبهذا تؤدى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ هل جاء في كتاب الله أو في سنة رسول الله أن أول جمعة من رجب أو أيام الفطر والأضحى جعلت لزيارة المقابر ؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة أو الأئمة الأربعة كان يخرج هو أو نساؤه في هذه المواسم لزيارة الموتى ؟ نعم إكان السلف الصالح يتقلدون ويتطيبون يوم الجمعة ويطعمون الطعام في رمضان ، ويكثرزون من الصدقات في أيام الأعياد . أما زيارة الموتى فلم يكن لها في عهدهم جمعة أولى من جمعة ، ولا يوم أفضل من يوم — ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخرج مع الصحابة إلى الصحراء لصلاة العيد ، وكان يذهب من طريق ويرجع من طريق أخرى ، ولم يثبت أنه زار قبراً في ذهابه أو إيايه ، مع وقوع المقابر في طريقه ، بل قال في عيد الأضحى : « أول ما تبدأ به في يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، من فعل ذلك فقد أصاب سنتنا » . أما حمل الأظعمة إلى المقابر فلم يعرف عن رسول الله ، ولا عن أحد من الصحابة ، بل هو شاغل عن العبادة والاعتناظ ، يبطل اثواب الصدقة ، لما فيه من الرياء وإيذاء الفقراء ، وإهانة القرآن . ولو تصدقتم بها في البيوت على العجزة والمصابين والأرامل واليتامى لكان أرجى للقبول ، وأقرب إلى الوصول ، ولكه يتم حملها وحمل أوزارها معها : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما فعلوا من خير فإن الله به عليم » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والشُرُج » . رواه أبو داود والترمذى وحسنه . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس »

على قبر . رواه مسلم - وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس إن رفع الصوت بالكلام والنياحة يضر بالأحياء ويؤذي الأموات ، روى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : أغمى على عبد الله بن رواحة فجملت أخته عمرة تبكي وتقول : واجبله واجبله واكذا واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لي : كنت كذا ؟ فلما مات لم تبك عليه . وهذا توبيخ شديد ، وإيذاء عظيم ، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم في قبورهم ، توبوا إليه وسلوه لهم الرحمة والعافية عسى ربكم أن يتقبل منكم ويرحمهم : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

سبب الشقاء مخالفة الدين

الحمد لله الذي جعل السعادة للسالكين سبل الهداية ، وقضى بالذلة والشقاء على من مال عن طريق الرشد إلى العوایة . لا إله إلا هو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين وأشهد ألا إله إلا الله نبه بالقرآن كل غافل ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أظهر الحق من الباطل . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أي لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية ، إلى نقمة وبلاء ، حتى يغيروا ما بأنفسهم : من طاعة وشكران ، إلى عصيان وكفران . تلك سنة الله في خلقه ، وإن تجد لسنة الله تبديلاً . أيها المسلم ، تراكت عليك الكروب من الذنوب ، وأنت في غيبك تسرح وتمرح . أحاطت بك البلايا من كل جانب . ولست لإصلاح نفسك تجنح ، كلما أوضح لك المرشدون طرق الهداية تعاميت وفي جسم الإسلام بالحجازي تجرح . فلا أنت بالكروب معتبر ، ولا من البلايا منزجر . أما سمعت قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين » قلب نظرك في نفسك هل تجدها عاملة بمقتضى الدين ؟ . فتنس قلبك هل تجد فيه حياة من الله ييقين ؟ تأمل في الناس هل تجد إخلاصاً بين اثنين من إخوانك المسلمين . إذا قلت أن رابطة الإسلام لا تجدد إلا متفرقين مختلفين ، وهل تصلح حال الأمة

والعالمُ بيهم عن غير الطلاق ورؤيا المنام لا يُسأل ؟ وهل ترقى الأمة والشريـر عن
شروبه لا يتحول . والتاجرُ والصانعُ عن غير جمع المال لا يسأل ، والغيور على
الدين مُتألمٌ مسكين ؟ نحن في مستقبل أمرنا لا نتدبر . نحن في تأخرنا وتقدم أسلافنا
لا نتفكر . نحن من ضياع حاصلاتنا وسوء أحوالنا لا نتأثر . نحن في اللذات
والشهوات أصبحنا هامين . نحن من غيبة مسلم إلى احتقار فقير ، إلى ظلم أجير ،
إلى مخالفة القرآن . نحن من موضع لهو إلى حانة خمر إلى بيت فاحشة إلى إهمال دين
الديان . نحن من تهتك نساء إلى تطرف شبان إلى فساد أخلاق إلى ضياع حق
الإيمان . نحن من نقص ميزان ومكيال إلى نصب واحتتيال . إلى مكر وخداع .
إلى تجسس على عورات المسلمين . نحن نتفكك في المجالس بحسد زيدٍ وانتقادٍ على
عمرو . ونسعى بين بعضنا بالأذى والفساد وتعامل بالفسخ والحيانة والقدر . الغنى فينا
جبار شحيح . والفقير منا متكبر قبيح . حتى عم البلاء وزاد الشقاء وفسد الأمر .
نحن إذا اتفقنا افرقتنا في أقرب حين . شهدنا الزور بلا خجل . أكلنا الربا بلا مبالاة .
في الأسراف والتبذير أضعنا الأموال * الحق أضعفناه ، الباطل قويناه ، الصدق
تركناه ، الكذب روجناه ، لا يخطر لنا الحساب على بال . خاصمنا القريب ،
وهجرنا البعيد ، كل منا على الآخر شديد ، قلوبنا أصلب من الحديد ، ولسنا بعيوبنا
عن عيوب غيرنا مشتغلين . أضعنا الصلاة بلا خشية ، منعنا الزكاة بلا راحة ،
أسأنا الجوار بلا حياء ، لساننا بطش الجبار خائفين . وإذا نهى عن المنكر غيور
سمعناه وخالفناه ، وإذا عاهدنا عهداً نبذناه ، وإذا جاء المسلم خير حسدناه ، وإذا
حلفنا يميناً كنا كاذبين . أهكذا تكون أمة يتلى بينها القرآن ، أهكذا تكون أمة
رسولها المصطفى سيد ولد عدنان ، أهكذا تفعل أمة سيحاسبها الملك الديان ، أهكذا
الدين ، أهكذا العقل ، أهكذا المروءة ، أهكذا يكون عمل المسلمين ؟ فيأبها الناس
انقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ،
انقوا الله وتمسكوا بالكتاب والسنة ، فلا حياة لكم إلا بالرجوع إلى كتاب الله ،
ولا سعادة إلا بإحياء سنة رسول الله ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ

المبين * عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه » — ومعناه ينتقم من عصاه — متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » رواه البخارى .

التحذير من الربا

الحمد لله أعز من أطاعه ، وأذل من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله شديد البطش بالظالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه فعاشوا أعزة أقوياء (أما بعد) : فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أيها الناس ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم بين لهم النافع والضار ، والحلال والحرام ، فأحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث ، وأباح لهم التوسع في كسب المال من طريق حلال ، وحرّم عليهم الربا لأنه من أكبر أسباب الفقر والدمار ، وأقوى عوامل الذل والاستعباد للأمم والشعوب ، لهذا شدّد الله الوعيد عليه ، وجعله من أخس الخبائث ، وأكبر الكبائر ، ونفّر الناس من تعاطيه بأبلغ الزواجر . فقال تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وأى زاجر أبلغ من جعل المرابي محاربا من الله ورسوله ، لأنه شوه وجه المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله بغير حق ، وقطع يد التعاون الذى أمر الله به في قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فوا محبباً كيف يُقدّم المرء على معاملة من يُصيرُه عرضة للفقر والخراب والذل والهوان ، حيث يسلب ماله شيئاً فشيئاً حتى ينتزع منه جميع أملاكه ، ويُصبح

ذليلاً محزوناً ، ملوماً محسوراً . فيأيها المقرض بالربا ! أما تدري أنك أوقعت نفسك في يد ذلك الكفار الأثيم ، الظالم الذي لا يرحم ، الذي يأكل مالك وهو مادة حياتك ، وقوام عيشك ، فإن كنت تظن أنه بالإعطاء قضى حاجتك ، وفرج كربتك ، فقد أوقعتك في ضيق شديد تسوء مقبته ولا تحمد عقباه ، قل لى بربك أى ضرورة تدعوك إلى الاقتراض بهذه الزيادة المشثومة ، والرزق عند الله مضمون ، وأبوابه كثيرة ؛ وما دام الإنسان حياً لا يمدم قوته — أيها الناس : إن ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا . فذل الربا أشنع عند تعذر القضاء ومحىء الدائن مطالباً أيها المقرض بالربا ، إن كنت ممن يرضى بما قسم الله له كففاً في دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة ، وإن كنت تحب المظاهر الكاذبة والتفاخر بكثير المال ، فاعلم أن الربا يوقعتك في دين ثقيل ، وهم دائم ، وذل مهين ، وعذاب عظيم ، وقر أليم . قال لقمان لابنه : يا بنى إياك والدين فإنه ثم بالليل وذل بالنهار . أرضى لنفسك أن تشقى في جمع مالك ، وتنصبَ في تحصيل ثمرات أرضك وعقارك ، ويفوز به المرابى وهو هادىء البال مستريح الضمير ، بين أهله وعشيرته ، وتعينه هلى أكل الربا فتشاركه في اللعنة وتعرض نفسك لمقت الله وغضبه . « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فينة أو يصيبهم عذاب أليم » . يا هذا : السعيد من اعظ بغيره واعتبر بحوادث الأيام ، وإن كثيراً من أمثالك تعاملوا بالربا فعاد عليهم بالضرر والوبال ، وعماً قليل قد أحاط بهم الخطر وصاروا فقراء أذلاء ساقطين ، لا يعطف عليهم قريب ؛ ولا يواسيهم بعيد ، وتقطعت بهم الأسباب ، وأصبحوا حملاً ثقيلاً على كاهل الأمة ، هذا يحتقرهم ، وذاك يتألم منهم ، وآخر يشمت فيهم ، ويرميهم بالسفه وسوء التصرف « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فاتقوا الله أيها المسلمون في أنفسكم وأولادكم وأموالكم وأمتكم ، خافوا الله وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكتبه وشاهديه وقال هم سواء »

رواه مسلم وغيره - وآكله هو الآخذ للزيادة ؛ وموكله هو الدافع لها ، وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس - إن المال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم والشعوب ؛ به تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبية ، محترمة في نظر الأمم فإذا خالطه الربا ذهب من يدها فصارت ضعيفة ذليلة فاقدة الهيبة ، ساقطة السكرامة وأصبحت فريسة للأقوياء ، وعرضة لطمع الطامعين وجشع المستعمرين . وذلك جزاء الظالمين ، ومآل المسرفين الذين يتعرضون لحرب الله ورسوله . يا قوم يكفي لقبح الربا والتنفير منه أن الله تعالى يجعل من علامات المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون من قبورهم على هيئة المصروعين المجانين ، الذين تسلط عليهم الشيطان فضرهم في عقولهم . قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . المس الجنون . نسأله تعالى السلامة من جميع المكاره والعافية من كل بلية ، إن ربي لسميع الدعاء ، قريب مجيب .

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها

الحمد لله الذي أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة . وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين . والشكر له تعالى هدانا للإسلام وفضلنا على جميع الأمم . وأشهد ألا إله إلا الله أعز الطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين وإمام الخاشعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » . عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام . من حافظ عليها فهو السعيد الراجح ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقي . وإن الخشوع فيها مع الإخلاص لله آية الإيمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فإن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدي مولاه في اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله . انغرس في نفسه خشية مولاه في جميع أعماله ، وحضرته هيبه خالقه في عموم أحواله . فإذا سولت له نفسه أمراً ، أو زين

له الشيطان سوءاً تبرأ منهما قائلاً : إني أخاف الله رب العالمين . فسكن في صلاتك خاشعاً ، وفي مناجاة ربك صادقاً . فلا تقل الله أكبر وأنت تظن أن هناك من يساويه أو يدانيه في عظمته . لا تقل الحمد لله رب العالمين وأنت بالحلل لا تقنع . ومن الحرام لا تشبع . لا تقل الرحمن الرحيم وأنت شديد البطش قاسي القلب على الضعفاء والمساكين . لا تقل مالك يوم الدين وأنت لا تذكر الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين . لا تقل إياك نعبد وأنت تعبد هواك ودينك . لا تقل وإياك نستعين . وأنت تلتجئ في الشدائد إلى المخلوق وتترك باب مولاك . لا تقل اهدنا الصراط المستقيم وأنت منحرف عن طريق المهتدين . لا تقل صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وأنت سيء الأخلاق حقودٌ حسودٌ ، تمامٌ مغتابٌ ، غشاشٌ كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين . لا تقل ولا الضالين . وأنت فاسد الاعتقاد شر في الأعمال ، تدبر الأذى وتكيد لإخوانك المسلمين — يا هذا — إن من حافظ على الصلوات في الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بمخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته ، وحيل بينه وبين المحرمات ، وكان على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحيماً ، أفلح في دينه ودينه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليضل المرء عن سواء السبيل ، ويقذف به في مهاوى الشقاء والخسران . والسيف القاطع ، والدواء النافع ، الذي جعله الله تعالى لوقاية الإنسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » . أيها الناس الله تعالى يقول : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يسرعون في أدائها وهم عنها غافلون . لا يعرفون لها معنى ، ولا يعقلون لها سراً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوسواس ، وامتلات قلوبهم بشواغل الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له

شيطاناً فهو له قرين » . ومن الناس من عميت بصائرهم وتنجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته ، ولا سوء الحساب ، ولا نار العذاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . فأيها المسلمون اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله بإحسانه ، وغمرهم في بحار رحمته . « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » في الحديث القدسي عن رب العزة - « ما أقلّ حياءَ من يطعم في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من يخل بطاعتي » . وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحسن الرجل الصلاة فأتّم ركوعها وسجودها قالت الصلاة حفظك الله كما حفظني فترفع ، وإذا أساء الرجل الصلاة فلم يُتِم ركوعها وسجودها قالت الصلاة ضيعك الله كما ضيعتني . فقلف كالف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه » .

الحث على تأليف الجمعيات التعاونية والزراعية

الحمد لله الذي أمر بالتضامن والتعاون ، ونهى عن التفرق والتخاذل ، وهو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا إلى سبل السعادة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله بين لنا وسائل الرقي والسيادة . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين صفت نفوسهم ، واتحدت كلمتهم . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » أيها المسلمون إن التعاون على طرق الخير ، والتآزر في الأعمال النافعة ، أساس الرقي ، وأصل القلاح والنجاح . فما من أمة جعلت التعاون شعارها ، والتآزر عنوانها ، إلا عمها الخصب والرخاء ، وشملها اليسر والهناء . ففي التعاون والتضامن التقدم والرقي ، وفي التخاذل والتفرق الاخطاط والتأخر . لهذا أمر جل وعلا عباده المؤمنين

بالتعاون والتضامن ، وحذرهم أن يكونوا كالذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فأذاتهم في الدنيا ذلاً وهواناً ، وفي الآخرة أنكالا وجحماً ذا غصة وعذاباً أليماً . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وها هي مضار التفرق بيننا حتى أصبحت جلية ، وآثاره السيئة فينا صارت بيّنة واضحة . فما تأخرنا بعد تقدمنا ، وضعفنا بعد قوتنا ، وذلنا بعد عزنا إلا من تفرقنا وتخاذلنا — حتى تحك الأجنبي في موارد حياتنا ، وأساس ثروتنا . فاشترى محصولاتنا بأبخس الأثمان ، وباع لنا بضاعة بلاده بأغش الأسعار — فأصبحنا كما تعلمون لا مالاً جمعنا ، ولا ديناً اتبعنا : التاجر منا مهتد بالإفلاس ، والصانع فينا خائف من بوارصناعته ، والزارع أمسى في ضيق مُستحکم ، ونكد مستمر — وصرنا إلى حال سيئة تذوب منها الأفئدة ، وتنفطر لها القلوب : كل ذلك من سوء تصرفنا ، وعدم التعاون والتضامن في أعمالنا ، فجلبنا على أنفسنا البلاء ، وأغضبنا بتفرقنا ربّ الأرض والسماء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أيها الناس — إن الأجانب قد أدركوا مزايا التعاون الذي أمر به ديننا فتمسكوا به ، واتخذوه أساساً لهم في سائر الأعمال الحيوية النافعة ، فسعدوا وسعدت بهم بلادهم — ونحن أهملنا نصائح ديننا ، وتخاذلنا في شئون حياتنا ، فشقينا وشقيت بنا بلادنا ، وأصبحنا وراء الأمم قوة ومدنية — عباد الله أتظنون أن تنالوا السعادة والرفق بغير التعاون والتضامن في الأعمال النافعة للأمة ؟ إن كنتم تظنون ذلك فاعلموا أنكم تبغون بحالاً ، وتطلبون بعيداً — انظروا إلى ذلك الزارع المسكين وما يعانيه في حياته من ضروب الشقاء ، وما يقاسيه من أنواع الشدائد والمتاعب ، حتى يظهر زرعه . انظروا إليه وهو يمد يده إلى المرابين للإفناق على أرضه وعياله ، فلا يُقرضونه إلا بالربا الفاحش ، فإذا ظهرت الثمرة أتاه الدائنون من كل مكان ، واستولوا على محصول تعب فيه طول العام ، وكأنه لم يشق إلا لسعادة هؤلاء المرابين ، ولم يتعب إلا لراحة أولئك الفجرة الآمين . وباليتمهم يتركونه يبيع حاصلاته عند تحسين الأسعار . بل يأخذونه أخذ القوى الجبار . وإذا لم يف

المحصولُ بالمطلوب باعوا منقولاته ، وحيواناته ، وعقاره ، فيُصبِح في ضيق شديد وذل أليم . وعند ذلك ينظر إلى الأغنياء نظر الحقود الحسود ، وبصير وبالآ على نفسه وبلاء على أمته . فياقوم أرايتم لو أن كبار الزارعين رحموا ذلك الزارع الصغير فألقوا جمعيات تعاونية وزراعية تضمه وتضم أمثاله ، ويكون مقصود تلك الجمعيات مدد يد المساعدة للمحتاج من الزارعين — أرايتم لو تم هذا أما كان يستطيع الزارع حفظ محصوله إلى الوقت المناسب فيبيعه ويسدد ما عليه من ديون ، وينفق ما فضل له بقية عامه ، ويُتقدّمن همّ الدين وذل المرابين ، ويعيش في سَمَةٍ ورخاء ، بعد أن كان في ضنك وبلاء . فيأيتها المسلمون اتقوا الله في أمتكم ، وبادروا إلى ما فيه عزكم ورقبكم ، وألقوا الجمعيات التعاونية والزراعية تسعدوا وترتقوا ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

مواثاة اليؤساء

الحمد لله الذى أمر بالإحسان ونهى عن الامتنان ، الكريم الذى جازى الإحسان بالإحسان ، لا إله إلا هو أرحم الراحمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ذو فضل على العالمين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام المحسنين وملجأ البائسين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الرحماء المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . أيها الأغنياء . إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقكم من الطيبات ، وأغناكم عن الحاجة ، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال ، فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم ، وأعزكم وأغناكم ، وبذلك يحفظ عليكم نعمتكم ، ويتفضل عليكم بالمزيد منها ، والبركة فيها « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم

إن عذابي شديد » وليس الشكر قولاً باللسان ، وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة والإحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة ، والفقراء المحتاجين من أرباب العيال . ومن القسوة أن تمنعوا المعونة ، وتقبضوا أيديكم شحاً وبخلًا ، (والشدائد) تمت البائسين ، والضيق يقتل إخوانكم المحتاجين . أمن الرحمة أن تكونوا في رغد من العيش ، وسعة من الرزق ، ومن أخى عليهم الزمان في شدة من الضيق ، وألم من الإعسار ؟ أمن المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع في الصباح والمساء ؟ أمن المروءة أن تتمتعوا بملابس الزينة وأخوكم في الإنسانية يُحرقه الصيف ، ويقرّضه برد الشتاء ؟ اللهم إن الغني الذي لا يُحس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقاً وواجبات ، تقاسى القلب ، خال من الشفقة ، بعيد من رحمة الله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أيها الناس ! إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، قد وعد من أنفق شيئاً في سبيل الله أن يخلفه عوضاً ، إما عاجلاً وإما آجلاً ، فقال جل شأنه « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » فليس البخل والإمساك بعد هذا الوعد الكريم إلا من ضعف الإيمان ، أو سوء الظن بالله الغني الحميد . إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، ولو كانوا هم في أشد الحاجة ، حيث قال عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم ، فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم ، وإن هذا الهين على من عنده أدنى رأفة ورحمة منكم ، إن هذا الهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » أيها الناس . صنائع المعروف من علامة الإيمان وعلو الهمة ، وعنوان الشهامة والمروءة ، وإنها تقي صاحبها مصارع السوء ، وتحفظه من المحن والبلايا ، وتجلب رضا الله وإحسانه . لا تكلفكم الإنسانية من الإحسان إلا اليسير ، ولا تطالبكم المروءة إلا بالشيء القليل ، فاصنعوا المعروف في أهله ما استطتم ، وافعلوا الخير لعلكم

تفلحون ، وإن ما يُضِيعه الواحد منكم في الكاليات لكثير ، ولقد يُنفق الغنى منكم في جلسة قصيرة ما يكفي البائسَ الفقيرَ زمنا طويلا ، فأدخِلوا السرور على المساكين بالبر والإحسان ، لعل الله يرحمنا ويكشف عنا ما نحن فيه من ضيق وشدة وذل وبلاء . اسألوا عن المحتاجين في بيوتهم ، وعن المصابين في أماكنهم ادخِلوا عليهم وهونوا عليهم الشدائد والآلام ، وخففوا عنهم ما هم فيه من الأسقام والأحزان ، وتصوروا أنكم مثلهم فإذا كنتم تحبون أن يُصنع بكم ؟ اتقوا الله وأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم وجعلكم نوابا عنه ، ووكلاء فيه ، يعطكم أجراً عظيما ، ونوابا جزيلا « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » أعطوهم بعض ما يفضل عنكم ، فبذلك تملكون قلوبهم ، وتكتسبون محبتهم ، وبذلك تتحد القلوب ، وتكون الألفة والإخاء ، فتتصرون على أعدائكم ، وتبلغون غايتكم ، وتمشون في بلادكم آمنين مطمئنين ، وبِعَمَلِكُم اللهُ رَحْمَتَهُ ، ويشملكم بإحسانه « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » في الحديث القدسي عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « انفق يا ابن آدم يُنفَقَ عليك » متفق عليه من حديث أبي هريرة - وروى مسلم عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » . وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس - فينا من لا يثن لم تألم ، ولا يتوجع لمستصرخ ، ولا يمن لبائس . فتجردوا من العاطفة الانسانية ، وحنان الأخاء الإسلامي ، وفقدوا الرابطة الدينية . وقد قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله » رواه مسلم . فينا من يقع أمامه من الحوادث ما يؤلم القلب ويديم العيون ، فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجده كالصخرة الصماء : كالحجارة أو أشدَّ

قسوة . . . والذي نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم ، وخبث أرواحهم . المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومالك الملك وخالق الخلق قادر على أن ينزع عن الفنى لباس غناه ، ويعطى البائس الفقير كل ما يرضيه من متاع الحياة « قل اللهم مالك الملك . . . » الآية . فاللهم أصلح أحوالنا . وهبنا قلوبا رحيمة ونفوساً عالية وأرواحا طاهرة يارحمن .

المحافظة على الصلاة وآثارها في الفرد والمجتمع

الحمد لله الذى جعل رضاه ورحمته لمن أطاعه ، وغضبه وعذابه لمن عصاه ، وهو الفنى القوى الكبير المتعال . وأشهد ألا إله إلا الله فرض على المؤمنين خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وجعلها فى خمسة أوقات رافةً بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل العابدين ، وإمام المخلصين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الراكعين الساجدين . الخاشعين الصادقين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » أيها الناس : أمرنا الله تعالى بالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها ، والقيام فيها خاشعين لجلاله ، خاضعين لعظمته ، وجعلها طريق الفوز والسعادة فى العاجل والآجل بقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ذلك أن الصلاة الكاملة تنير القلب ، وتهذب النفس ، وتعلم العبد آداب العبودية ، وواجبات الربوبية ، بما تفرسه فى قلبه من جلال الله وعظمته ، والتحلى بمكارم الأخلاق : كالصدق والأمانة ، والقناعة والوفاء والحلم والتواضع ، والعدل والإحسان ، وتوجهه إلى مولاه : فتكثر له مراقبته وخشيته ، حتى تعملوا بذلك همته ، وتزكو نفسه ، فيبتعد عن الكذب والخيانة ، والشره والغدر ، والغضب والكبر ، ويترفع عن البغى والعدوان ، ودناءة الفسوق والعصيان « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » بالمحافظة على الصلاة تقوى النفس على احتمال الشدائد ، وتنبت عند نزول البلايا

والحن ، ويسهل عليها البذل حالة الغنى واليسار « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (أيها الناس) ماذا كان من آثار ترك الصلاة في المدن والقرى ؟ كان من آثاره في المدن انتشار الفواحش والمنكرات : ترى حانات الخمر والميسر ، وبيوت الدعارة والبناء ، ودور الملاهي والخلاعة ، مملوءة بمخاضة الناس وعامتهم ، حتى في ليالي رمضان ، شهر الطاعة والقرآن . عبد الناسُ المال فلا يباليون من حلال أكلوا ، أم من حرام أكلوا ، وشغلوا بنعم الله عن الله . وهو تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » قل فيهم الصدقُ والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، فقلَّت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض ، فلا يكاد المسلم يثق إلا بالأجنبي ، وانحلت الروابط الدينية ، والوحدة الاسلامية ، فزال منهم التضامن في المصالح الاجتماعية ، والتعاون على المشروعات الاقتصادية التي تحفظ وحدة الأمة واستقلالها ، وتضمن رقيتها وعزتها « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وأما آثار ترك الصلاة في القرى فاستباحة أهلها لإتلاف المزروعات والآلات ، وسرقة الحاصلات والبهائم ، ونقل الحدود ، وإساءة الجوار ، بل انتهاك الأعراض وإزهاق الأرواح . حتى كثرت بينهم القضايا والنزاعات . ولوأن المسلمين حافظوا على الصلوات في الأوقات ، وأقاموها على وجهها كما أمر الله ، لانتَهَوْا عن الفحشاء والمنكر ، واستراحوا من هذا البلاء والشقاء ، وعاشوا آمنين مطمئنين « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » المحافظ على الصلاة لا يكون زانياً ولا صرايباً ، ولا حقوداً ولا حسوداً ، ولا ماطلاً في حقوق الناس . المحافظ على الصلاة لا يُضيع حقوق أهله وعياله ، وأقاربه وجيرانه ، ولا يقهرُ اليتيمَ ، ولا يقسو على المسكين . ولا يمنع الماعون عن إخوانه ، الذي يقية الصلاة علم ، وجهها يجب الحق وأهله ، ويكره الباطل وحزبه . ولا يرضى بالذل

والمهوان لنفسه وأمنه ، ولا يركن لأهل البغي والمعدوان ، ولا يطفى عند النعمة ، ولا يبأس عند النقمة ، ولا تعبت به الخرافات والأوهام ، فهذا هو الإنسان الكامل الذى يؤمن شره ، ويرجى فى الناس خيره . فاتقوا الله أيها المسلمون واشكروا نعمه عليكم بالطاعة والاستقامة . حافظوا على الصلاة فى الأوقات تحفظوا من بلايا الدنيا ، وتأمنا من فزع الآخرة . وأحسنوا أداءها يحسن الله حالكم ، ويفقر لكم ذنوبكم . قال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « يابن آدم خلقتك بيدي ، وربيتك بنعمتي ، وأنت تخالفني وتعصيني ، وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجمد لك ربا مثلي ، وأنا الغفور الرحيم » ؟ وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم . وتقول فى الثانية : أيها الناس . الصلاة رياضة بدنية ، وصلة بين العبد وربّه ، وإقامتها من أكبر علامات الإيمان ، وأعظم شعائر الدين ، وأجلى مظاهر العبودية لله ، وأظهر آيات الشكر له على نعمه التى لا تحصى . فأضاعها انقطاع عن الله تعالى وحرمان من رحمته ، وإهمالها من ضعف الإيمان وهدم الدين ، وتكبر على الله وكفران بنعمته . وقد قال تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الصلاة الصحيحة هى الدواء الشافى من أمراض القلوب ، وفساد النفوس ، والنور المزيل لظلمات الذنوب والآثام . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بهن الخطايا » . متفق عليه — اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا أرحم الراحمين .

الاعتبار بالموت والاستعداد له

الحمد لله المبدىء المعيد . المحيي المميت . الفعال لما يريد . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وأشهد ألا إله إلا الله سبق بالآجال علمه ، ونفذت فيها إرادته ، « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كانت حياته المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق ، وجلائل الأعمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين أيقنوا بالموت فعملوا ، وخافوا الحسابَ فأمنوا العذاب (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » أيها الناس — إن أكبر واعظ هو الموت الذى قدره الله على خلقه : وكتبه على عباده ، وانفرد جل شأنه بالبقاء والدوام ، فما من مخلوق مهما امتد أجله ، وطال عمره ، إلا وهو نازل به ، وخاضع لسلطانه . « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » ولو جعل الله الخلود لأحد من خلقه لكان ذلك لأنبيائه المطهرين ، ورسوله المقربين ، وكان أولاهم بذلك صفوة أصفياه . وخيرته من خلقه ، سيدُ ولد آدم على الإطلاق ، محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه — كيف وقد نجاه إلى نفسه ، وأخبره بأنه سيموت كسائر الناس ، فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فالموت حتم لا محيص عنه ، ولا مفر منه ، يصل إلينا فى بطون الأودية ، وعلى رؤوس الجبال ، وفوق الهواء ، وتحت الماء ، وبين القلاع المنيمة . والحصون المتينة « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ولو نجا أحد من الموت لبسطة فى جسده ، وقوة فى بدنه ، أو وفرة فى ماله ، أو سعة فى سلطانه وملكه . لنجا من الموت كثير من الناس . وإلا فأين عاد وثمود وفرعون ذوالأوتاد؟ أين الأكاسرة والقيصرة ، أين الجبابرة والصناديدُ الأبطال .. فالموت لا يخشى أحداً

ولا يُبقي على أحد : ينتزع الطفل من حضن أمه . ويهجم على الشاب الفتي ،
والفارس القوى ، ويأخذ الشيخ الهرم ، والشيخة الفانية . أيها الناس : الموت على
وضوح شأنه ، وظهور آثاره ، سر من الأسرار التي حيرت الألباب ، وأذهلت
العقول ، وتركت الفلاسفة مهوتين ، والأطباء مدهوشين ، فهو يتعاق بالروح التي
قد استأثر الله بعلمه « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً » ترى الشاب الممتلىء ، صحة وعافية ، والشجاع الذي بصرع الأبطال ،
في لحظة يسيرة قد استحال جثة هامدة ، وصار جسماً لا حراك به . فذهب ذلك
الشباب ، وتلاشت تلك القوة ، وتعطلت حواسه : تعطل سمعه وبصره وشمه ،
وخرس لسانه . وقد يكون عالماً ضليعاً . أو أديباً بليغاً ، أو طبيباً ماهراً ، أو مخترعاً
بارعاً . ولكن هيهات أن يمنع ذلك قبض ارواحنا ، إذا انقضت الأعمار وحضرت
الآجال : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ما أقرب الموت !
ما أقرب الموت . . كل يوم يدنو منا ونحن ندنومنه ، وليس بيننا وبينه إلا أن يبلغ
الكتاب أجله ، فإذا نحن في عداد الموتى . فما الأعمار في الحقيقة إلا أزهار تتفتح
ثم تذبل . أو مصباح ينير ثم يطفأ . أو شهاب يضيء ثم يصير رماداً . . . أيها
الناس . الموت كلمة ترجح لها القلوب ، وتقشعر منها الجلود ، ما ذكر في قوم إلا
ملكهم الخشية ، وأخذتهم العبرة ، وأحسوا بالتفريط ، وشعروا بالتقصير .
فندموا على ما مضى ، وأنابوا إلى ربهم : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم
يستغفر الله يجده الله غفوراً رحيماً » . فسيان الموت ضلال مبین ، وبلاء عظيم ،
مانسيه أحد إلا طغى . وما غفل عنه إنسان إلا غوى . وإن لنا في السلف الصالح
أسوة حسنة ، وقدوة طيبة . فقد كانوا يُكثرون من ذكر الموت حتى في أوقات
الصفاء ، وأيام السرور . وكان ذلك يبعثهم دائماً على الجد في طاعة الله ، والبعد عن
مساخط الله ، استعداداً للموت وما بعد الموت . وإذا كنت موقناً بأنك ستموت
وتلقى مولاك . فكن على تمام الاستعداد له ، فإنك لا تدري متى ينزل بك ، ولا
تعلم في أي ساعة تُقبض ، حتى تنفرغ للعمل قبله ولو مدة قصيرة : « ولو كنت أعلم

الغيب لاستكثر من الخير وما سنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»
ولكن الغفلة قد استحوذت علينا، واشتغلنا بحطام الدنيا، حتى نسينا الموت
وأهوال يوم القيامة، وغرنا بالله الغرور. والله تعالى يقول: «يا أيها الناس اتقوا
ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً؛
إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» وليس أدلَّ
على الغفلة وقصر النظر من أن الانسان يحدُّ وينهمك في جمع المال، من حلال
أو حرام، ليتمتع به أياماً معدودة، لاهياً بذلك عن الحياة الباقية، والنعيم الأبدى:
« في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء
والضراء والكظامين الغيظ والمغفين عن الناس والله يحب المحسنين » ولو أنا إذا
متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي، ولكننا إذا متنا بعثنا. ونسأل بعد ذلك عن
كل شيء، لم يخلق الناس في هذه الدنيا هملاً، ولم تنزل الشرائع وتبعث الرسل إلا
لحكمة: «أخسبتم أمأ خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» وجدنا في هذه
الحياة لتزود منها، ثم تموت لتستأنف حياة ثانية هي أعلى من هذه الحياة: « وإن
الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »؛ فاتقوا الله ربكم واعلموا أن الدنيا
غرارة غرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ ما عليها، كما حكم عليها ربها بقوله: « كل من
عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »؛ اعلموا للحياة الباقية، ولللود
الأبد. واعلموا أنكم ميتون، وأنكم على رب العزة ستعرضون: « ليجزى الذين
أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى »؛ في الحديث القدسي عن رب
العزة يقول الله تبارك وتعالى. « وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين
ولا أجمع له أمنين. إن أمننى في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى في الدنيا
أمنته يوم القيامة ». رواه الحاكم وغيره. وروى الطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما
قال: « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار
من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت
وأشدهم استعداداً له.. أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة ».

وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس ، إن السعادة والشقاء في الآخرة منوطان بأعمال المرء في الحياة الدنيا — وإن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وكل ما عمل المرء مسطور في صحيفته . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومئذ تحدث أخبارها ، ثم قال : أتدرون ما أخبارها ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

التحذير من التبرج

الحمد لله جعل السعادة لمن أطاعه ، والنزلة والشقاء على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا بالإسلام إلى طرق الأدب والكمال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من ظلمات البدع والضلالات ، وينقذهم من سيء الأخلاق ، وقبائح العادات . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطمن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاستقرار في البيوت ، ونهاهن عن التبرج وإظهار الزينة للرجال الأجانب ، كتبرج النساء في جاهلية الكفر قبل الإسلام — أمرهن بلزوم البيوت ، ونهاهن عن ذلك التبرج ، ليزيل عنهن ما يدنس العرض ، ويطهرهن من أدران الخزي والعار ، صوتاً للشرف ، ومحافظة على العفاف والكرامة . وإذا كان ذلك في أمهات المؤمنين — وهنَّ على ما تعلمون من العفاف والصيانة والتقوى والاستقامة — فمساء المسلمين بهذا أحق وأولى . أيها الناس : من أقبح المنكرات وأكبر البلايا تبرج المرأة وإظهار زينتها للرجال الأجانب ، في الطرقات والأسواق ، وبيوت التجارة وأما كن اللهو والفسوق . فبراها الكبير والصغير ،

والفقير والغنى ، والمسلم والنصراني ، لا دين يردعها ، ولا حياء يمنعها ، ولا قانون يقفها عند حدها . . فهي كل يوم تزداد في تبرجها ، تنفذ في أشكال ملابسها ، حتى خشي أهل الدين سوء المغيبة ، وخاف العقلاء وخامة العاقبة . إن تهتك المرأة وإظهارها مواضع الزينة منها واختلاط الشبان بالفتيات لمن السيئات المقوتة ، والبدع القبيحة . التي لا يصح التفاضى عنها ، ولا يجوز السكوت عليها ، بعد ما بين رجال الدين سوء عاقبتها ، وأدرك ذور العقول السليمة خطر التهاون فيها ، وضرر التساهل في مقاومتها . فإن الساكت على الجريمة شريك الجاني . وإذا نزل العقاب أصاب الصالح والطالح ، وعم البريء والسيء ، قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » أيها الناس : إن صفائر المعاصي تجر إلى كبائرهما ، كما أن معظم النار من مستصفر الشر ، فمعضية التبرج والاختلاط تؤدي إلى افتتان الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وتجرح إلى الزنا والأذى واختلاط الأنساب ، وانتشار الفاحشة في أفراد الأمة ، وكل هذا وبال علينا وشر في العاجل والآجل « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فلا يليق بمسلم يغار على الآداب والأعراض أن يستصفر هذه المعصية ، ويتهاون بتلك البدعة ، فيترك النهى عنها ، وينام عن القضاء عليها ، وزجر المفتونين والمفتونات بها ، بعد أن علم ما فيها من المفسد الجمة ، ورأى ما يترتب عليها من الشرور الكثيرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونني فلا أستجاب لكم » بهذا التبرج الدميم قد خرجت المرأة المسلمة من الذنن الإسلامية ، والآداب الدينية ، ودخلت في عادات الكافرين ، وبدع المنفرنجين ، وأتت بنفسها في وهدة التهتك والخلاعة ، وطرحت عنها ثياب الحشمة والصيانة ، وخلعت عن وجهها برقع الحياء ، وصارت لا تراعى حرمة الآداب ولا تبالى بهتك الحجاب ، وأصبحت حال المرأة اليوم أسوأ من حالها أيام الجاهلية ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل . أيها الناس : كل هذا كان من تقليد المرأة الشرفية للمرأة الغربية ، واستحسان عاداتها ، والافتتان بزيتها ، والتشبه بالأجانب في عاداتهم القبيحة ، من غير عقل ولا روية . وبذلك ضاعت الأموال ، وبذلك فسدت الأخلاق ، وبذلك ساءت الظنون ، وبذلك انعدمت ثقة الشبان بعفاف الفتيات ، فأعرضوا عن الزواج الشرعي ، وأقبلوا على بيوت البغاء والدعارة ، وأوقعوا أنفسهم في الأذى وغضب الله المنتقم الجبار . نعم قلدت المرأة المسلمة المرأة الكافرة في تلك العادات القبيحة ، والبدع السيئة ، فحسرت نفسها ، وأضاعت كرامتها ، ولوثت سمعتها ، وأزالت الثقة منها ، وصارت حملاً ثقيلاً ، وعاراً على أهلها وذويها ، وكانت من أقوى العاملين على رواج البضائع الأجنبية ، وإماتة المصنوعات الوطنية وبذلك صارت شراً على البلاد ، ووبالاً على العباد . وأنتم يا معشر الرجال المسئولون أمام الله عز وجل عن فساد المرأة ، وأن العذاب واقع على من قدّر على منعها ، وتهاون في زجرها وردعها ، أو قصر في تربيتها وتهذيبها « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما تركت بعدى فتنة أضرت على الرجال من النساء) وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رهوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يدخلن ریحها ، وإن ریحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) ، وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس . كأن القوم في هذا الزمان فقدوا الآباء والشعم ، والحمية والغيرة . ترى الرجل على ما به من الوجاهة وجمال المظهر يتقهقر ضعفاً وجبناً في مثل هذه المواقف التي تتطلب رجولة وثباتاً ، فليس فينا من يغار على الآداب والأعراض ، ليس فينا من يتألم لسير النساء والفتيات في الشوارع والطرقات : كاسيات عاريات متبرجات مهتكات ، فلا أب تحركة نحوه الرجولة

فيهذب زوجته أو ابنته ويراقبها ، ولا أخ يهتم لصون عفاف أخته ، وحفظ شرف أسرته ، ولا زوج تدفعه الغيرة فيكيح جراح أسرته . حتى عم الفساد وساء الحال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

التحذير من تقليد الأجانب في عاداتهم السيئة

الحمد لله أمر بالتحلى بالفضائل ، ونهى عن الوقوع في مهاوى النقائص والردائل لا إله إلا هو الحكيم العليم . نشكره تعالى ميز لنا القبيح من الحسن . وولجأ إليه سبحانه مما نزل بنا من البلايا والفتن . ونعوذ بالله من التقليد في سيء الأخلاق وقبائح البدع والعادات . وأشهد ألا إله إلا الله هدانا بالإسلام إلى خير وسائل السعادة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله فتح لنا بسنته أبواب الرقي والسعادة ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين تأدبوا بآداب الدين فبلغوا ذروة العزة والكمال (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيماً اتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » المعنى : دين الإسلام هو طريقى الذى أسلكه فأسلكوه .مبلى ، ولا تسلكوا الطرق المخالفة له ، وهى طرق البدع والضلالات ، فإنها تبعدمكم عن الدين القيم الذى اختاره الله طريقاً لسعادة الدنيا والآخرة أيها الناس : أماننا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أماننا سبيل الرقي والفلاح واضح ، فلماذا نعدل عنه ونتركه ، ونسلك طريق التأخر والشقاء والخسران . أرايتم أن دينكم قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح فمدلتم عنه ؟ أم قرأتم فى تعاليمه ما يصدكم عن جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق فهجرتموه ؟ كلا ! إنه دين الله الذى يبقى طريقاً للسعادة والرقي إلى يوم تبعثون : إذا ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا حذر من قبها وبين سوء عاقبتها . فما لنا نسير على غير هدى ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ولا يتفق مع آداب المسلمين . أيها المسلمون . لقد جلب علينا تقليدنا للأجانب شرّاً وبيلا ، فقد أهمل كثير من كبرائنا أمر الدين ، واستهانوا بحقوقه ، وعصّبوا بواجباته ، بل صار الكثير من الشبان إباحياً لا دين له ، جريئاً

على انتهاك حرمات الله ، لا يُبالي بارتكاب ما لا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبائح : سائراً كل واحد منهم وراء شهوته وهواه « ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . وبإلتقنا قلدا الأجنب فيما يفيد وينفع من الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة . كالصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والاقتصاد وعدم الإسراف ، وكل ما يرقى شئوننا من الفنون والصنائع ، ولكننا قلدناهم فيما يضر ولا ينفع : قلدناهم في الربا ولعب القمار ، ولم نبال بما يلحقنا من المضار المالية . قلدناهم في تناول المسكرات والمخدرات ، ولم نبال بمضارها البدنية والعقلية ، قلدناهم في التبرج والتهتك وقلنا حرية . أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا إننا بذلك نكون متمدنين : ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل . جاهلات بأمور الدين . طرحن ثياب الحشمة ، وخلعن برقع الحياء ، وبرزن في الشوارع بالأزياء الأفرنجية . فإذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأة أفرنجية في ملابسها وحركاتها وسكناتها ، وهي ابنة أو زوجة من يعدّ نفسه من جماعة المسلمين وأقبح من هذا أن يذهب المسلم بأهله وأولاده إلى أماكن اللهو ، وبيوت الخلاعة والفجور ، وبدل أن ينفق أمواله في الأعمال النافعة يضيعها في النقائص والردائل . والله يعلم أن هذه الأماكن ما أقيمت إلا لسلب ماله ، وإفساد أخلاقه ، والقضاء على البقية الباقية من دينه . وبذلك ينجى على نفسه ، وعلى أولاده وعلى أمته . ويكون لبناء الدين والفضيلة من الهادمين . أيها الناس : إن لكل أمة محاسن وقبائح يعرفها الأعمى والبصير ، وإن لنا ديننا قوياً كله آداب وفضائل . فمن العار بل من الحرام أن نتزك محاسن ديننا ، ونقلد الأجنب فيما يهين عنه الدين . وينضب علينا الله رب العالمين . أتدرون ما عاقبة تقليدنا الأجنب في بدعهم السيئة ، وعاداتهم القبيحة ؟ تالله إنها لعاقبة وخيمة : فإننا بهذا التقليد ندمج في غيرنا ، ونهدم بناء ديننا . إننا بهذا التقليد نقضى على آدابنا وقوميتنا وعاداتنا ، ونمحو معالم حياتنا ، ونصبح بين الأمم ضائعين أذلاء مستضعفين . كفى هذا التقليد قبحاً أنه يسلب صاحبه فضيلة الإنسان ، كفاه ذمماً أنه يقطع الصلة بيننا وبين الخلفاء الراشدين ،

يقطع الصلة بيننا وبين الأئمة الأربعة المجتهدين . أولئك الذين سادوا العالم ونشروا لواء العلم والدين . أيها المسلمون : إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم كالخمر والميسر والزمار ، فنبهوا شعوبهم وأممهم فأقلعوا عنها . وإن دينكم والحمد لله ما ترك التنبيه على ضررها . ولطالما حذر من شرها وخطرها ، فارجعوا إلى دينكم وكونوا بهديه متمسكين . اتقوا الله يا قوم واحذروا هذا التقليد الأعمى ، فإنه يضر ولا ينفع ، وأمامكم كتاب الله وسنة رسوله ففيهما كل خير وسعادة « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أننا على رسولنا البلاغ المبين » . في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جِعْرَ ضَبِّ لَتَبِعْتَهُمْ » . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فن غيرهم ؟ . وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس : مما ابتلى به المسلمون وفشا بين الخاصة والعامة في هذا الزمان تقليد الأجانب في كثير من عاداتهم ، من غير تمييز بين النافع منها والضار . وسبب هذا ما يرونه من قوة الأجنبي وضعفهم ، وتلك سنة الله تعالى في أمة أممات أمر دينها ، واتبعت أهواءها حتى ذهبت ريحها وضعفت قوتها ، فذلت واستكانت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره موافقة الأجانب في كل أحوالهم حتى قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه وكان يقول : « من تشبه بقوم فهو منهم » رواه أبو داود من حديث ابن عمر . وكان أيضاً يقول : « ليس منا من تشبه بغيرنا » رواه الترمذي . ويا ويل من تبرأ منه الحبيب المصطفى وذلك لا شك يفيد حرمة تقليد المسلمين للأجانب فيما هو من خصائصهم . ولذا كان عمر رضي الله عنه يؤصّي قواده القامحين ببلاد الأعاجم وعماله فيها بالحفاظة على عادات العرب وزبيا ، وبنهاهم عن التشبه بالأعاجم في عاداتهم وملابسهم ، لتبقى الأمة العربية متميزة عن الأجانب بعاداتها وأزيائها ، وكل ما يحفظ قوميتها . وفق الله الأمة الإسلامية إلى ما فيه الخير والسعادة إنه الجواد الكريم الرحيم الرحمن .

أثر الدين في سعادة الفرد والمجموع

الحمد لله شرع الدين هدى للناس ورحمة . وجعل العزة والسعادة لمن تمسك به وتحلى بأدابه . وأشهد ألا إله إلا الله العزيز الحكيم ، الديان الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه . أولئك هم المفلحون . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجيئنه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أيها الناس — إن لدين الإسلام أثراً عظيماً في حياة الفرد وحياة الأمم ، بما يأمر به من صالح الأعمال والفضائل ، وما ينهى عنه من الآثام والردائل . فإذا تمسك كل فرد بدينه ، وتحلى بأدابه ، فإنه يحيا حياة طيبة ، حياة سعادة وهناءة . فيعيش صحيح الجسم ، سليم العقل ، مصون العرض ، موفور الكرامة ، غير كليل على الناس . يسعى في طلب الرزق من طريقه الحلال « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » يعيش المتمسك بدينه صادقاً في قوله وعمله ، وفياً بعهده ووعده ، أميناً فيما يؤتمن عليه من الأسرار والأموال ، وما يوكلُ إليه من الوظائف والأعمال . متوسطاً في الانفاق على نفسه وعباله . فلا يُسرف ولا يقتر شاكراً عند الرخاء ، صابراً على البلاء ، راضياً بالقضاء ، شريف النفس ، على الهمة ، شجاعاً في الحق ، لا يبالي ما يصيبه في سبيله ، ولا يخاف إلا الله . قال أبوذر الغفاري صاحب رسول الله : « أوصاني خليلي بخصال من الخير : أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرأاً » يعيش المتدين براً بوالديه وأقاربه ، قائماً بحقوق زوجته وأولاده ، حسن الجوار ، عطوفاً على المرضى ، رحياً بالضعفاء لا جباراً ولا عنيداً ، ولا مختلاً ولا فخوراً ، ولا حقوداً ولا حسوداً ، ولا مامطلاً في حقوق الناس . يرضى الله ويفضبه الله ، وينفق ماله فيما ينفع نفسه وعباله ويفيد أمته . — هكذا يكون أثر

الدين في نفوس المتمسكين به ، وهكذا تكون حياة المؤمنين المخلصين - أيها الناس : هذا أثر الدين في سعادة الفرد وجعله إنساناً كاملاً مهذباً . وإن أثره في سعادة المجموع لظاهرٌ جليّ إذ من الفرد تكون الأسرة . وقد أوجب الدين على كل فرد منها حقوقاً للآخر : أوجب على الزوج احترام الزوجة والرفق بها . والاتفاق عليها بحسب حاله غنى وفقراً . وجماعتها من الاعتداء عليها ، وإجمالاً معاشرتها بالمعروف كما قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فمسي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وأوجب عليها أن تحترمه ، وأن تطيعه إذا أمر ، وأن تصون عرضها ، وتحفظ ماله في غيبته ، وأن تقوم بتدبير المنزل . وعليهما أن يعتنيا بتربية الأولاد تربية حسنة لينشوا على الصحة والكمال . وعلى الأولاد أن يحسنوا بالوالدين . فإذا أدى كل فرد من الأسرة ما عليه للآخر اجتمع شملها ، وانتظم أمرها ، وحسن حالها ، وعاشت عيشة راضية . والدين كما أوجب على فرد حقوقاً لأهله وعشيرته ، أوجب عليه أن يحترم أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم : فلا ينتهك حرمة عرض ، ولا ينال أحداً بأذى في نفسه ، ولا يتعدى على ماله . كذلك الدين أمر بالتعاطف والتراحم : فجعل للفقراء والضعفاء ، حقاً في مال الأغنياء ، وجاه الأقوياء . قال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ولا ريب أنه إذا قام كل إنسان بواجبه نحو أخيه وكانت الأفراد والأسر مستقيمة مهذبة تكون من ذلك مجموعٌ صالحٌ راقٍ مهذبٌ هو الأمة . وكان الفضل في تهذيبها ورفقها لهذا الدين القويم . فلا يكون بين أبنائها تباغضٌ ولا تحاسد ، ولا تفرق ، ولا تنازع ، وحل بينهم الوثام محل الخصاص ، والاتحاد . وكان التفرق ، والتعاون على الخير محل التخاذل . فارتقت وقويت ، وعزت وسادت ، وكانت أمةً جديرة بالبقاء . فيأيها المسلمون اتقوا الله في دينكم : تمسكوا به ، واعتصموا بحبله ، وتحلو بأدابه . ليعود للإسلام عزه والمسلمين مجدهم . « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله . ثم استقم »

رواه مسلم . وتقول في الخطبة الثانية . أيها الناس : إن حال العرب قبل الإسلام وما وصلوا إليه بعده أصدق شاهد على ما قلنا من تهذيب الدين للنفوس ، وإصلاحه حال الفرد والجماعات ، فقد كانوا قبائل تعبد الأصنام ، وكانوا في خصام دائم وتنازع مستمر ، فلما جاء الإسلام وجه قلوبهم إلى عبادة الله خالق الخلق ومدبر الكائنات ونزع مافي صدورهم من العداوة والبغضاء ، وصاروا بفضل الإسلام إخواناً متحابين متحدين . قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » — اللهم وفق الأمة للتمسك بالدين ، والتحلى بأدابه يا رحمن يا رحيم .

التحذير من المسكرات والمخدرات

الحمد لله حبيب الإيمان إلى نفوس المؤمنين ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفرَ والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله جعل السعادة في الطاعة ، والذل والشقاء في العصيان وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين خافوا فأمنوا ، وأحسنوا فجازوا — أما بعد — فقد قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » — أيها الناس : إن الدين الإسلامي لم يدع سبيلاً إلى الخير إلا أرشد إليه ، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركت شيئاً يُقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه » ؛ وبذلك قد وضع الأمر ، وتبين الرشد من النقي ، والهدى من الضلال ، ولم يبق بعد ذلك حاجة لطالب الرشد ؛ ولا عذر لمن وقع في الغواية ، ولكن فريقاً من الناس قد أعرضوا عن هدى الدين ، واتخذوه وراءهم ظهرياً ؛ ووضعوا عقولهم تحت أقدامهم ؛ واتبعوا الشهوات فعميت بصائرهم وأسقطوا أنفسهم من درجة الكمال الذي أعدهم الله له وأنزلوا أرواحهم إلى مرتبة الحيوان ،

فكانوا بذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، ذلك بأنهم رضوا بأن يكونوا معاول في هدم بنيان الفضيلة ، وبدأ عاملة في إقامة الشر والرديلة ، وهؤلاء التعساء قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . نعم ! قد لعب الشيطان بعقولهم : زين لهم تناول المسكرات ، وتعاطى الخدرات ، وأوقعهم في وهدة الذل والدمار ، ولبس ما كانوا يصنعون فقد أضمت هذه الخدرات أبدانهم ، وأفسدت تلك السموم عقولهم ، وأضاعت عليهم أموالهم ، وعيالمهم في أشد الحاجة إليها ، وأقعدتهم عن العمل في مرافق الحياة والسعى في وسائل العيش . وبذلك قضوا على حياتهم وعقولهم ، وجنوا على أولادهم وأهلهم ، وبذلك أوقعوا أنفسهم في الذلة والمهانة ، وعار التسول وجريمة السرقة . وبذلك كانوا وبالاً على أنفسهم ، وشرراً على ذريتهم ؛ وعالة على كاهل الأمة « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » . أيها الناس : عجبا أن يبيع الإنسان حياته وماله ، ويضيع شرفه وكرامته ، ليربح موته وفقره ، واحتقاره وإهائه . عجبا لعاقل يسعى في جنونه ، وقوى يعمل على إضعاف جسمه ، والقضاء على حياته . وذى مال يعمل على إضاعته وموت عياله . كل ذلك بمحض اختياره ورضاه ، بلا فكر ولا روية ، ولاشفقة ولارحمة . عجبا لمن يضع الأغلال في عنقه يده ، وينقل ثروة بلاده إلى جيوب الأعداء ، فيستعبد أمته التي يغنى بغناها ، ويقوى بقوتها ، ويسعد بسعادتها . ولكن « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » أما يدري ذلك السفیه الأحمق أنه بعمله هذا قد جنى على ذريته ، وأساء إلى نفسه وإلى أمته ، فهو يضعف جسمه وفساد عقله وأخلاقه لايعقب إلا ذرية ضعافا ، جنباء فاسدى العقول سبى الأخلاق ، عالة على المجتمع ، وعارا على الأمة . « قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » الأفليخس الله هؤلاء في أنفسهم وذريتهم ، وأزواجهم وأمتهم ، وليقارنوا بين حالهم قبل تناول هذه السموم وحالمهم بعد الوقوع في خطرها ، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عزهم . فقد كانوا

في قوة وعافية ، ويسار ورخاء ، وشرف وكرامة ، وهناء وسعادة . فأصبحوا في ضعف وبلية ، وضيق وشدة ، وضعة وإهانة ، وكدر وشقاء « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أيها الناس — إن الأمة هي جماعة تتكون من الأفراد ، فإذا تكونت أمة من الأقوياء الأصحاء ، سليمي العقول ، مهذبى الأخلاق كانوا خيراً لأنفسهم ، وسعادة لأمتهم . كانوا أساس عزها ومجدها ، وأركان رقيها ونهوضها — أما إذا تكونت أمة من أمثال هؤلاء السفهاء المرضى ، ضعاف العقول ، فاسدى الأخلاق ، كانوا شراً على أنفسهم ، وشقاء على أمتهم . كانوا سبب ذلها ومهانتها وعلّة تأخرها وانحطاطها « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » روى أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مُسَكَّرٍ ومُقْتَرٍ : والمفتقر كل شراب يورث الفتور والضعف في الأعضاء — وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الظالم لنفسه ، المسىء إلى عشيرته وأمته ، إن كانت بلايا الدنيا وعقوباتها هيئةً في نظرك لا تَرَدُّكَ عن ضلالك وغيك . فاعلم أن الله تعالى محاسبك على عملك ، وسائلك عن حُرْمِك فيم أفئيتة ، وعن شبابك فيم أضعته ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أفنقته . فإذا يكون الجواب وأنت في كل ذلك قد أسأت ، وفي كل ذلك قد أسرفت ، ماذا يكون الحال والحساب عسير ، واللسان معقود ، والموقف رهيب ، يوم يعرض الظالم على يديه نادماً على ما جنّاه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

التحذير من خروج النساء إلى المقابر وخلف الجنائز

الحمد لله الذى جعل لحفظ الشريعة أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ووفق أوليائه للتمسك بالدين ، وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، فكانوا يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى طريق الصواب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أمر بالتمسك بالسنة

والكتاب . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بأداب الدين ، فكانوا هم الفائزين الغالبين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أيها الناس : إن الخلال بين وإن الحرام بين ، وإن من أطاع نفسه في شهواتها ذل ، ومن اتبع هواه في أعماله ضل « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » فمن لم يزن عمله بميزان الشرع وسار فيه على مقتضى العادات ، وجعلها عذراً لهفواته وزلاته ، فقد خدع نفسه ، وتقرب إلى الله بما يبغده عن الله ، وحاول أن يتخلص من سخط مولاه بالباطل ، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » أيها الناس : ما عذرکم في التماذى على عادات سيئة ، وبدع ممقوتة بأبائها العقل السليم ، ويحرمها الدين الحنيف . أنسيتم أن من راقب الله صانه الله وهابته العيون ، ومن ارتكب البدع وترك السنن سُلط عليه من لا يعرف الله ، ووقع في الذل وعذاب المهون ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه لابن عمه العباس : « احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك » خلق الله لكم العقول لتمييزوا بين النافع والضار ، وتكونوا على بصيرة من أعمالكم ، وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة ، فمطلتم العقل ، وخالفتم أمر الدين ، ونبتذتم الفضيلة ، وتمسكتم بالذليلة ، حتى ساءت الحال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم — ألم تعلموا أن الشارع الحكيم قد حرم على النساء زيارة القبور والخروج خلف الجنائز ؟ إذ قال صلوات الله وسلامه عليه : « لمن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وقال لئسا خرجن في جنازة « أحمِلنَّه فيمن يحمُله ؟ قلن : لا . قال : أفْتُزَّرنَّه قبره فيمن يُزركه ؟ قلن : لا . قال : أفْتَحِثِينَ عليه التراب فيمن يَحِثِي ؟ قلن : لا . قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات » وهذا منع لئسا الصحابة فما ظنكم بزيارة نساء اليوم التي اشتملت على التبرج والتهتك وأنواع المفاسد والمنكرات ؟ ! ألم تعلموا أن دينكم ينهى عن اختلاط النساء بالرجال ، فكيف استبحتم من دينكم

وأعراضكم أن تُحشَر النساء مع الرجال الأجانب في صعيد واحد ، وقد أُرْخِيَ عليهم الليل سُدُوْلَهُ ، وسترهم بظلامه ، وليس بين النساء والفساق من الحوائل ما يمنعُ من الوقوع في الفحشاء . « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : إن الشرع لم يُبيح زيارة القبور إلا للعظة والاعتبار به ، رتدَ كَرُّ الموتِ وشِدَّتُهُ ، والقبر ووحشَتُهُ ، فتخشعُ القلوب ، وترجعُ عن غيرها النفوس ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » فكيف جعلتم مواضع العبرة والخشية مكانا للهو واللعب ، وارتكاب البدع والمنكرات . فاتقوا الله أيها المسلمون وارجعوا عما أنتم عليه ، واعلموا أن الشارع الحكيم أجاز للرجال فقط زيارة القبور ، وحرمها على النساء . وأن السنة في زيارة الموتى أن يقول الزائر : « السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا سلفٌ ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ويستغفر لهم ، ويسأل الله تعالى أن يرحمهم ويفرج كربَ المكروبين منهم ، ويُسعِرَ قلبه بأنه عما قريب يكون في عدادهم ، ويذهبُ عنه أهله وماله وولده ، ويبقى وحيداً فريداً ليس معه سوى عمله ، وهو الآن يُسألُ فماذا يجيب ، وماذا يكون حاله ، ويملا قلبه بهذا الاعتبار ، ويتعلق بمولاه في الخلاص من هذه الأمور الخطيرة ، التي لا يُخلصُ منها إلا الاستقامة مع إحسان الله ورحمته . هذه سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في زيارة الموتى وما عداها فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار — في الحديث القدسي عن رب العزة : « من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر لنعمائي فليطلب له ربا سواي » — وعن رسول صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث : « اعلم . قال أعلمُ يا رسول الله . قال اعلم يا بلال : قال أعلمُ يا رسول الله . قال : من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل من عمل بها لا ينقص ذلك من آثام

الناس شيئاً» رواه الترمذى وحسنه . وتقول في الثانية : أيها الناس : الله تعالى يقول « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ومحبة العبد لمولاه رغبته في طاعته ، واختصاصه بالمباداة دون سواه ، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ، ويحسن إليهم . فعنى الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للناس : إن كنتم تريدون طاعة الله تعالى وعبادته حقا ، فاتبعوني فيما جئتُ به ، حتى يصح ما تدعونه من محبتكم له تعالى ؛ وحينئذ يرضى عنكم ويحسن إليكم ويتجاوز لكم عما فرط منكم ، والله كثير الغفران ، واسع الرحمة لمن يتحجب إليه بطاعته ، ويتقرب إليه باتباع نبيه ، نسأله سبحانه التوفيق والهداية بتمه وكرمه .

ذم الكبر والتحذير منه

الحمد لله الذى خضع لعظمته كل شيء ، وهو الكبير المتعال . أحجده حمد من عرف نفسه فتواضع لله فرفعه . وأشهد ألا إله إلا الله تفرد بالكبرياء والعظمة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كان فى تواضعه خير مثال . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، فجازوا بحجيل العقبى وحسن المآل . أما بعد : فقد قال الله تعالى : ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا « . عباد الله . إن الكبر داء منشؤه جهل المرء بنفسه ، وحكمة الله فى أمره ، والكفرُ بنعمة ربه — فما عرف فرعون حينما قال : أنا ربكم الأعلى قدر نفسه . وما عقل إبليس اللعين حينما قال : أنا خير منه سرّاً حكيمته ، وما أدى قارون حينما قال : إنما أوتيته على علم عندى ، شكر نعمته . فيامن ينتقلب فى ظلماته ، ويرتع فى شهواته ؛ إن الكبرياء لمن فطر السموات والسلطانُ الأعظمُ لمُدبر الكائنات ، من شاركه فيه غلبه ، ومن نازعه فيه قصمه ، فإن كنت ملسكاً فسلطانك لا يعاوساطان ربك ، وإن كنت ذا مال فإنما هو من مواهب مولاك ، أغرّك من ربك أيها المتكبر أن خوّلك ملسكاً تجولُ فيه ؟

أو غرّك منه أن منحك مالاّ تصول به ؟ أو الذي حملك على بغيك هذا نبأ
المستكبرين . تالله ما جاء نبؤهم إلاّ بسلطان الله ، فطرد إبليس من رحمته ،
وأهلك فرعون على جرأته ، وحسّف الأرض بقارون لكفره بنعمته ، فباءوا
بالنكال وبئس مثوى المتكبرين — ابن آدم . مالك والكبر وأنى يكون لك .
ألم تقم بك مراسم العبودية ؟ ألم تقم بك مبادئ الطفولية ؟ أم أنت في غشيتك
وسكرتك لا تفتيق . انظر بقلبك قبل بصرك ، إذ أنت لم تدرك حكمة خلقك ،
فها أبصرت عيوب نفسك التي بين جنبيك ، وهلاّ شممت نهنّ إبطيك .
أولاّ تزيل بيدل خبث فرجيك ، فما أجهلك بنفسك وما أظلمك . والله لا يجب
كل كفار أئيم ، اتّضع أيها المتكبر ولا ترتفع ، فما أنت إلاّ عبد أخرجك ربك
من العدم ، ورعاك في ظلمات الأرحام وقومك في أحسن الصور ، والنطفة المذرة
بدايتك ، والجيفة القذرة نهايتك ، وأنت بينهما مورد الأدران ، وجمع الأقدار ،
يجاورك الطيب فيستحيل خبثا ، فما أقدر من أحكمك ، والله على كل شيء قدير .
عجباّ لك أيها المتكبر ، ما أنت بنافع الحكم اهتديت ، ولا بمراسم العبودية
اقتديت ، وفي جهلك وظلمك تماديت ، فما أفلح الظالمون وخاب كل جبار عنيد —
فيما من يجر ذيل الكبرياء والخيلاء ، ويكفر بنعمة الله ويزدرى الضعفاء ،
قد وضع أمرك ، وتمّ نُصْحَكَ ، فمالك لا تبالي بما هوى الوبال ، ولا ترجع
عن سيئات الأعمال وأنت على نفسك بصير . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
لا يريدون علواّ في الأرض ولا فساداّ والعاقبة للمتقين » — روى مسلم عن ابن مسعود
رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه
منقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله
حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبرُ بَطْرُ الحقِّ وغمطُ الناس » .
بطرُ الحقِّ رده على قائله ، وغمطُ الناس احتقارهم — وروى أيضاّ عن أبي هريرة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزّ وجل : العزّ إزاري ، والكبرياء
ردائي ، فمن ينازعني في واحدٍ منهما فقد عذّبته » .

مضار شهادة الزور

الحمد لله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، السميع البصير الذي يطلع على ماتكته النفوس وتخفى الصدور : لا إله إلا هو أعز الصادقين ، وأذل الكاذبين . وأشهد ألا إله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الصديق والاخلاص في الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد المهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه القويم (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « والذين لا يشهدون الزور وإذا سروا باللغو سروا كراماً » أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد اختار لكم الاسلام ديناً ، ووعدهم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين ، واهتديتم بنوره المبين . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائحها الغالية ، وإرشاداتها الحكيمة ، واتبعتم أهواءكم ، ولم تراقبوا الله تعالى في أقوالكم وأعمالكم ، ولم تخافوا شدة غضبه ، وأليم عذابه ، منع عنكم معونته ، وسأط عليكم من لا يرحمكم وخسرتم الدنيا والآخرة : « وما ربك بظلام للعبيد » وإن الله تعالى جل شأنه قد حرم في هذا الدين قول الكذب وشهادة الزور ، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان ، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدة قبحه . قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » والرجس : النجس القذر . والأوثان : الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله سبحانه . وعبادة الأصنام شرك ، وقول الزور معه من أكبر الكبائر — أيها الناس : أيدرى شاهد الزور إلى من أساء ، أساء إلى نفسه ، أسقط مروءته ، أضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عاراً لا يزول ، وخزياً لا يمحي ، وألقى بنفسه في نار حرها شديد ، وعذابها أليم : « ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله

يفعل ما يشاء . « وأساء ؛ إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه . وقطع صلة الإخاء التي تجب بين المسلم والمسلم . وظلمه وخذله ، وخالف فيه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وأساء إلى من شهد له وأضر به ، حيث يريد أن ينفعه : أعانه على الظلم ، وأوقعه في الحرام ، وعرضه لقت الله وغضبه ، وصيره ذليلاً بين يدي المنتقم الجبار ، الحكيم العادل ، الذي يأخذ من القوى للضعيف ، وينصر المظلوم من ظالمه ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، يوم الفرع الأكبر والهول الأعظم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « يوم ترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » وأساء إلى القاضى : أتعبه وأضاع عليه وقته ، وطمس عليه معالم الحق ، ولو صدقه لأراحه وأراح الناس أجمعين . بل أساء إلى الأمة كلها : لوث سمعتها ، وأضاع الثقة بها . وكل أمة فشا فيها الزور والكذب سقطت من عيون الأمم ، وأصبحت في عداد المهالكين . أيها الناس : ما الذى يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميمة ، وذلك الموقف الخجل المعييب . إن كان مالا يأخذه ممن شهد له فهو سحت لا بركة فيه ، بل هو وبال عليه في الدنيا ، وعذاب له في الآخرة ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به — وإن كان الحامل له على الزور صحبته للمشهود له أو طالب رضاه ، فبئست هذه الصحة التي تؤدي إلى سقوطه وخسرانه ، وتوقعه في سخط الله وغضبه . قالت عائشة رضى الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس » وشاهد الزور قد أرضى صاحبه وأغضب مولاه ، فخذله وقطع عنه رحمته وإحسانه — وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق ، فالصدق ينجيها ، وتقوى الله تحميها : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . قالت عائشة رضى الله عنها لما ذ : « اتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً . فاتق الله أيها المسلم في نفسك وفي أمتك .

اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق ، وانصر الحق ، واشهد بما رأيت ، بلا فرق بين القريب والبعيد والصديق والمدعو : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » - عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ! قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول وقول الزور ألا وقول الزور فإزال يكررها حتى قلنا ليته سكت » - متفق عليه .

وتقول في الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل في كل شيء ، وأن ينصر الحق أينما كان . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » الآية . أي كونوا مواظبين على العدل في جميع الأمور ، مجتهدين في إقامته ، لا يصرفكم عنه صارف ، شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوي ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، إن يكن كل من المشهود له أو عليه غنياً يرجى خيره ويخشى ضرره ، أو فقيراً يترحم ويحني عليه ، فلا تحمورا فيها ميلاً أو ترهماً ، ولا تشهدوا للغير طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفاً منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغير والفقير والنظر لها منكم ، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لما شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

التحذير من إيذاء المسلمين

الحمد لله العليم بما كان وما يكون ؛ المدبر الحكيم فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . واشهد ألا إله إلا الله الكبير المتعال ؛ واشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صفوة الخلق وعين الكمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيل الهدى إلى يوم يبعث الله فيه الخلائق ليجزي الذين أساءوا بما عملوا

ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « واتقوا كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » أيها الناس . اقتضت حكمة الله عز وجل أن يخلق هذا العالم على أكمل نظام وأبدع إحكام ، واختار من بينه هذا النوع الإنساني للخلافة في الأرض ، والقيام بالعدل ، ليكمل العمران ويتم النظام — خلق الإنسان فسواه وعدله وأبدع خلقه ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين . — أودع فيه العقل ليميز بين النافع والضار ، ويفرق بين الحق والباطل ، والقيح والحسن ، وركب فيه من القوى والحواس ما يستعين به على أمور دينه ودنياه ، ونصب له من دلائل وحدانيته ، وآيات علمه وقدرته ما يخضعه لعظيم سلطانه وجلال ربوبيته ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ليقوم بشكر نعمته ، ويمتليء قلبه بمحبته ، وسخر العوالم كلها لمنافعه وخدمته « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتوه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فمن امتاز بهذا التكريم العظيم يجد ربه أن يكون مصدر الخير ، ومثال الكمال ، وعنوان الرحمة . من خص بهذا الفضل العظيم يجب عليه أن يكون كالملائكة في طهارة النفس ، والوقوف عند حدود الله ، والبعد عن مساخط الله . والتجلى بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق ، يجب عليه أن يتباعد عن مظاهر الجبروت والكبرياء ، والانتقام والاعتداء ، والشر والفساد ، والأضرار بالناس . اللائق بمن عامله الله بعدله ورحمته ، ووسعه بكرمه وحلمه ، أن يكون في معاملة الناس عادلاً رحيماً ، وحكيماً حليماً ، ومتسامحاً كريماً : فبعدله يكبح جماح الظالمين ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وبرحمته وشفقته تقل ويلات الأرامل واليتامى ، وتخف آلام البؤساء والمساكين . وبحكمته وحزمه يدبر أمر نفسه ونظام عشيرته وأمته . وبجله وتسامحه يملك القلوب وتخضع له النفوس ، وبه

وبأمثاله يعيش الناس آمنين مطمئنين . أيها الناس : إن من تخلق بهذه الأخلاق الكريمة وتجمل بهذه السمائل السامية ، وسلك سبيل الهدى والاستقامة ، وسلمت الناس من يده ولسانه ، كان عند الله وجيهاً ، وصار ملكاً كريماً في صورة إنسان رحيم — أما من خبت نفسه ، وتجرد من الأخلاق الفاضلة وعثا في الأرض فساداً وكان مصدرراً للأذى والشر ، وداعية للتفرق والتنازع ، فهو لاشك شيطان رجيم ، وبلاء عظيم . فما أنعمه في الدنيا وما أشقاه في الآخرة : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » فيا خبيث النفس أى حظ لك في أن تكون كالأفعى لا تنفث إلا السموم ، ويا مؤذياً لعباد الله ماذا تجنى من الإيذاء لخلق الله ، وما حظك في أن تكون شيطاناً رجماً ، وقد خُلقت إنساناً كريماً . ويا من لا يخاف الله ولا يخشى غضبه وانتقامه ما أشق الناس بك ، إنك على الأمة بلاء وأذى بلاء ، ويا من اغتر بالدنيا وزينتها واعتمد على قوته وعشيرته ، اتق الله واجعل حظك من الدنيا نيل مرضاة الله ، وقدم لنفسك خيراً تجده عند الله ، فإنك إن عشت تعيش عزيزاً سعيداً ، وإذا مت لم يمت ذكرك وكنتم عند الله والناس محموداً ، ولقيت من الله خير الجزاء بما قدمت من صالح الأعمال : « إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » — أيها الإنسان — سبيل الهدى واضح فاسلكه ، وطريق الفلاح بين فلا تعدل عنه ، فإنك إن سلكت سبيل الهدى فأنت الراجح السعيد ، وإن عدلت عن طريق الفلاح كنت الخاسر الشقي ، فما أسعد الموفقين الفائزين ، وما أشق الخذوليين المحرومين : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون » . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه الترمذي وقال حسن صحيح — وروى مسلم من حديث النعمان بن بشير أنه صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى

رأسه أشتكى كله . وتقول في الخطبة الثانية الحديث الآتى : روى الإمام المقدسى عن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى بأربع كلمات هن إلى أحب من الدنيا وما فيها . قال لى : يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير . »

الدين والاجتماع

الحمد لله الذى رضى الإسلام ديناً لعباده وجعل السعادة فى التمسك به ، والتحلل بآدابه . وأشهد ألا إله إلا الله الملك الديان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة . وعلى آله وصحبه ومن تمسك بالدين ، واهتدى بهديه (أما بعد) ؛ فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . عباد الله : إن لدين الإسلام محاسن كثيرة ، وفضائل جمة ، تحمل ذوى القلوب السليمة ، والعقول الصحيحة ، على التمسك به ، والتحلل بآدابه . وكلما كان المرء سليم العقل نير البصيرة اشتد تعلقه به ، لما فيه من جميل المحاسن ، وجميل الفضائل . فإنه دين قرر من عقائد التوحيد ما اتفقت العقول على صحته ، واستمدت الفطر السليمة لقبوله . فأثبت خالق العالم أنه إله واحد ، قادر عليم ، عزيز حكيم ، جواد كريم : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وشرع من العبادات ما يهذب النفوس ، ويبعث فيها روح الألفة والأخاء . ففرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وطلب منا أن نؤديها فى جماعة ليكثر تلاقينا ، فتأكد بيننا روابط المحبة ، وأوجب الزكاة لتطهر النفوس من رذيلة الشح ، وتتحلى بفضيلة السخاء ، وتكون المحبة بين الأغنياء والفقراء ، وسمى الصدقة قرصاً يردّه بأضعاف كثيرة : « وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . كتب الصيام ليذوق المرء ألم الجوع فيمطف على الضعفاء والجائعين ، وتعمود النفوس قوة الإرادة ، وتحمل الشدائد وكبح

جأحها ، إذا هاجت عليها شهوة من شهواتها الرديئة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . أوجب الحج ليجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في صعيد واحد ، فيتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا على إصلاح شئونهم ، وتديير أمورهم ، ويظهر خضوعُ العبد لأوامر مولاه ، وشكره لنعمائه . قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . وشرع من المعاملات ما يضمن سعادة المجتمع الإنساني ، ويحفظ نظام العالم من القوضى والاضطراب . فأحل البيع والشراء ، والشركة والإجارة ، والقرض والحوالة ، والرهن والعارية . تيسيراً لتبادل المنافع ، وتسهيلاً لقضاء الحاجات على أحسن وجه وأكمله . كتب القصاص ، وفرض العقوبات على الجنايات والاعتداءات ، لزجر النفوس عن ارتكاب الجرائم ، وردعها عن الشرور والآثام . فحكم بقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، محافظة على الأرواح والأموال ، ليعيش الناس آمنين مطمئنين : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الأبواب لعلكم تتقون . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله والله عزيز حكيم » . أحل النكاح وحرّم الزنا ومقدماته كالخلوة بالأجنبية والنظر إليها ، وحكم بجلد العزب مائة جلدة ونفيه سنة عن وطنه الذي فسق فيه . وقضى برجم الزاني المتزوج بالحجارة حتى يموت ميتة الكلاب ، حفظاً للنساب وصوناً للأمة عن الفناء « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . حافظاً على العقول والأعراض فحرّم الخمر والقذف ، وحكم على من يتناول جرعة من المسكر أو يطمئن في عرض أخيه بثمانين جلدة وسقوطه عن درجة الإنسان . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » « أيها الناس - ذلكم هو دين الإسلام الذي أخرج من العرب الأميين المتوحشين

أمة شديدة البأس ، عظيمة القوة ، واسعة السلطان ، فأبدلهم بالخوف أمناً ،
وبالجهل علماً ، وبالعداوة محبة ، وبالتفرق وحدة وبالضعف قوة ، وبالذل عزا ،
وبجفاء الطباع وغلظ الأكياد رأفة ورحمة ، وبالتوحش والهمجية مدنية وحضارة
« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخواناً » دين أنجَبَ من العلماء والعظماء ما لم ينجبه دين من الأديان . أنجب مثل
أبي بكر في وقاره وحلمه ، وعمر في عدله وغيرته ، وعثمان في نسكه وإخلاصه ،
وعلى في شجاعته وحكمته ، دين يَكِيدُ له حسادُه من يوم ظهر وهو كما ترى
لم يطفأ له نور ولم يَضْمُفْ له برهان « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . محاسن الدين كثيرة ، وما سمعته قطرة
من بحر ، وقليل من كثير — وكفاه فضلاً أنه ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ،
وما من رذيلة إلا نقر من قبها وبين سوء عاقبتها . فاتق الله أيها المسلم واعتصم
بجبله المتين ، واحرص على العمل بأحكامه والتحلي بأدابه ، تصل إلى ما وصل إليه
السلف الصالح ، من عزة وقوة ، ونصر وفلاح ، ورفق وسعادة . روى البخاري
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة » .

حقوق الأبناء على الآباء

الحمد لله الذي خلق فسوى ، وفدر فهدى ، وهو الخلاق العليم ، القادر العظيم .
وأشهد ألا إله إلا الله المدبر الحكيم ، الخنان المنان الرحمن الرحيم . وأشهد أن
سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي أدبه ربه
فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، وأثنى عليه بقوله : « وإنك لعلى خلق
عظيم » وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله
تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة
عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » قال
ابن عباس رضي الله عنهما ما تفسيراها : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله ،

ومرؤاً أولادكم بامثال الأوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار ، وقال سيدنا علي رضي الله عنه : علموا أنفسكم وأهلكم الخير وأدبرهم . أيها الناس : من شبَّ على شيء شاب عليه ، ومن أدب ولده صغيراً سرَّ به كبيراً ، ومن لم يتدبر العواقب كان لاشك من النادمين ينشأ الإنسان في أول أمره وأيام طفولته ، على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة . فإذا وجد في هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والكمال . شبَّ حسن الأخلاق ، طيب النفس ، متعلقاً بأهداب الفضيلة ، متمسكاً بمجبل الهدى والرشد . فيحيا حياة طيبة ، يكون بها سعيداً في نفسه وناهماً في أمته . أما إذا أهمل أمره فلم ينل حظه من التربية والتأديب ، ولم يأخذ نصيبه من الإرشاد والتهديب . نشأ سيئ الأخلاق ، خبيث النفس ، قاعد الممة ، ساقط المروءة ، محباً للشر ، كارهاً للخير ، كلاً على أهله وعشيرته . وكان شقاءً على نفسه وبلاء على الناس أجمعين — وكان على ولي أمره كفل عظيم من تبعات شروره وجرائمه . لإهماله في تربيته وتأديبه ، وتهاونه في إرشاده وتهديبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضييع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . أيها الناس : إن تربية الأولاد في صغرهم على مبادئ الدين الحنيف ، وتمويدهم على مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التي يجب على الآباء أن يتنبهوا لها ، والمصلحين أن يُعتمُوا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة في مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها في مدارج الرفعة والكمال . فما الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، وإنكم لو تأملتم في جميع ما نشكوا منه اليوم من فساد الأخلاق ، وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وزيف في العقائد ، وتهاون في تنفيذ أوامر الدين ، وتهتك النساء في الطرقات والأسواق — لو تأملتم لوجدتم أن السبب في هذا كله هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب في وقته . الولد قطعة من أبيه ، وأمانة في عنقه ، فاتقوا

الله يا قوم في ثمرات قلوبكم ، وأفلاذ أ كبادكم . ولا تُلَقُوا بأيديكم في نار جهنم التي
وقودها الناس والحجارة . يا قوم اتقوا الله في أبنائكم وذريتكم ، والأطفال الذين
ألقيت إليكم مقاليد أمورهم ، وصارت رعاية شؤونهم في أيديكم . هذبوا أخلاقهم .
تقفوا عقولهم . علمهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم . اغرسوا في قلوبهم حب
الدين وآدابه ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، مُرُوم بأداء الصلوات في الأوقات ،
وشهود الجمعة والجماعات ، وعودهم الأخلاق الحسنة ، وجنبوهم الأخلاق السيئة ،
وباعدوا بينهم وبين قرناء السوء وفاسدى الأخلاق . قال صلوات الله وسلامه عليه :
« مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »
أدبهم بالرفق واللين ، وإياكم والعنف والشدة . ففي صحيح البخارى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء
إلا شانه » . أيها الناس : إنكم إن فعلتم ذلك بأولادكم والأولاد اليتامى منكم . فقد
قمتم بما وجب عليكم من الحق لهم ، فإن أحسنوا بعد ذلك أحسنوا لأنفسهم . وإن
أساءوا أساءوا على أنفسهم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ركب
بظلام للعبيد » : روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع
ومستول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومستول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت
زوجها ومستولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومستول عن رعيته .
فكلكم راع ومستول عن رعيته » — وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله
عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وشرح
في الخطبة الثانية قول الإمام على رضى الله عنه : ثلاثة هي أفضل ما يورثه الآباء
الأبناء : الثناء الحسن ، والأدب الصالح ، والأخوانُ الثقات ، وحديث الزموا
أولادكم وأحسنوا أدبهم .

حقوق الآباء على الأبناء

الحمد لله على حلمه وكرمه ، والشكر له تعالى على فضله وإنعامه . وأشهد ألا إله إلا الله أمر بالاحسان إلى الوالدين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله حذر من العقوف وجعله من أكبر الكبائر ، وأعظم الآثام . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، الرجاء البررة . الهداة الراشدين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . أى أمر أمراً مبرماً ، وحكم حكماً لا مرد له ، بأن تخصوه بالعبادة ، لأن العبادة غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام . وذلك هو الله وحده « وبالوالدين إحساناً » أى وبأن تحسنوا إليهما إحساناً جميلاً ، لما لهما من فضل وإحسان على الولد . (أيها المسلم) كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدين ، فمن يزرع المعروف يحصد الشكر ، ومن يزرع الشر يحصد الندامة ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهل عاقبة الاساءة إلا الخسران ؟ . أيها الإنسان : إن والدك أحق الناس بحسن معاشرتك وجميل برك وإحسانك ، لعظيم فضلها عليك ، وكثرة إحسانها إليك ، وشدة عنايتهما بك في الصغر ، وحرصهما دائماً على راحتك وسعادتك في جميع أطوار حياتك بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود ، وبفضل رعايتهما قوى عضدك ، واشتد ساعدك ، حتى صرت إنساناً كاملاً ، ورجلاً نافعاً ، قوياً على الجهاد في معترك الحياة جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ (أى صحبتي) قال . « أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال . أمك . قال : ثم من ؟ قال . أبوك » . فمن أولى بالبر والطاعة والمعروف والإحسان ، من أمك الشفيقة البرة الرقيقة ؟ هي التي ذاقت أنواع الآلام مدة حملك . وقاست من الشدائد ما قاست وقت معالجة وضعك ، ثم أضعفت قوتها بإرضاعك حولين كاملين ، وأضعت راحتها بجملك تارة تلى الصدر وأخرى على اليدين ، كم لوئتها بالأوساخ والأقذار ، وكم أزلتهما عنك بلا ملل منها ولا ضجر —

وإذا مرضت باتت ليلها ساهرة جائعة ، حزينة باكية ، متألمة لألمك ، خائفة عليك مما ألم بك ، تسأل الله الكريم أن يمن عليها بشقائك ، ويكشف عنك ما نزل بك ، ويسرها بتيام صحتك ، ودوام عافيتك ، ويمتعها بطول عمرك في هناء وصفاء — فكيف بعد هذا تؤثر غيرها عليها في البر ، وتقدم عليها سواها في الخير ، والإحسان ؟ وهي التي نعتت كثيراً في تربيتك . وباخلاص خدمتك زمناً طويلاً ولم تطلب على الخدمة جزاء ولا أجراً ، سوى أن تقر عينها بك ، وينشرح صدرها لرؤيتك ، هذا شأن الأم ، وهذا حالها مع الولد . ثم من أحق بالحنان والمطف ، والرحمة والإحسان ، من أبيك العطوف الرحيم ، الذي أحسن إليك في ضعفك ، ومن نفائس أمواله أنفق عليك ورباك ، وأرشدك إلى ما ينفعك في دينك ودنياك أيها الناس — إن عقوق الوالدين من أخس السيئات . وأكبر الذنوب التي يعجل الله عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة ؛ ومقابلة الإحسان بالإساءة . قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل المات » . وإن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات وطاعتهما من أفضل الطاعات . لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنأ على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » . فمن حقوقهما عليك أن تكرمهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك في سبيل مصلحتهما ، وتسعى جهدك في كسب رضاهما ، وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما ، ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما في حال الضعف والكبر ، كما أحسنا إليك في حال العجز ، والضعف ، وكن بهما رءوفاً رحيماً ، وعليهما عطوفاً حلماً ، قال تعالى : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » واعلم أنك مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما ، فلست قائماً بواجبهما ولا موفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بواسع الرحمة ، وجزيل

الرضوان . قال تعالى : « واخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » . فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة في العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء في الدنيا ووبال في الآخرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « رضا الله في رضا الوالد ، وسخط الله في سخط الوالد » أخرجه الترمذي . والمراد بالوالد : الأب والأم . وروى الطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما بأستاد حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبارككم أبناءكم . وعفوا تمف نساؤكم » . وتقول في الخطبة الثانية : روى أن ولدأ اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنى ، ويبخل علىّ بماله . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما من حجر ولا مدر بسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك » مرتين . وشكى إليه آخر سوء خلق لمة ، فقال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت ليها وأظلمات نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججتُ بها على عاتق — قال : ما جزيتها ولو طلقتُ » .

إرشاد الصائم

الحمد لله الذى أذاق الطائعين حلاوة الطاعة ، وعلّق قلوب الموقنين بالمساجد والجماعة . لا إله إلا الله جعل السعادة للصائمين القانتين الخاشعين — وأشهد ألا إله إلا الله وفق من شاء للتجارة معه فكانوا هم الراجحين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله

وأصحابه الذين صابوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين . أما بعد :
فقد قال الله تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيتهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور
شكور » أيها الصائمون : إن التجار ينتظرون المواسم لعظيم الرواج فيها ،
فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن ساعد الجد في أعمال التجارة ، واستحضروا
من الأصناف أجودها وأعلاها ، واختاروا من الألوان أجملها وأحسنها ، يسوقهم
إلى هذا رجاء الريح ، وقد تحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ، ومفارقة
أهليهم وأوطانهم ، ويركبون البحار ويتعرضون للأخطار والخواف ، ويقطعون
وعر الفواز ، وليس فيها إلا سبع مفترس ، أو قاطع طريق أو لصٌ محتمل ،
يرتكبون ذلك غير مباليين بما ينالهم من مشقة وعناء ، بل يستسهلون في سبيل الريح
جميع الصعاب ، مواصلين في ذلك الأيام والليالي . ولا عجب في تحمل التجار هذه
المشاق ، فإن من ذاق لذة الريح هانت لديه جميع الشدائد ، وسهلت عليه
كل المتاعب . هذه يا قوم حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون .
فقد يكون ، وقد لا يكون — وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلهم ،
والزوال مصير ما يربحون ، وكأن للدنيا تجاراً محجدين منهمكين ، فإن الآخرة تجاراً
أمناء صادقين ، أوفياء رحماء مخلصين « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله
أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .
فلا تُهم بتجارة الدنيا يفتنون ، ولا هم عليها وحدها يعولون ، وإنما عولوا
على التجارة بخالص الأعمال مع الغنى الكريم ، الجواد الرحيم الذي لا غش
في التجارة معه ولا خسارة ولا كساد . بل هي تجارة مأمونة رابحة رابحة
لن تبور . أيها الناس : هل سمعتم أو رأيتم أن المشتري يعطى التاجر أكثر من الثمن ؟
لا ، ولكن الله الغنى الكريم البر الرحيم يأخذ عمل العبد ويعطيه على الحسنة
عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا يحصيه عدّاد « والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ

عليهم . ومن واسع كرمه أنه يكافئ من اتقاه في التجارة معه ، وأحسن المعاملة مع خلقه ، بدار لا يقنى نعيمها ، ولا ينقص عيشها ، بجنة « عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ومن رحمته أن حفظ أهل الاستقامة في التجارة معه من خطر السقوط والخسارة . وكتب لهم الأمن من كل الخواف ، والسلامة من جميع المكاره ، في هذه الحياة وفي تلك الحياة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فابق الله أيها الصائم ولا تنهك في تجارة الدنيا وتقتصر في تجارة الآخرة فاعندكم ينفذ وما عند الله باق . اتق الله ولا تضيع العظيم الباقي بالحقير الفاني « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . واعلم أيها الصائم أنك الآن في موسم ربح عظيم ، لا يقيسر لتجار الآخرة في العام إلا مرة واحدة . موسم من أتجر فيه مع مولاه الكريم كان ربحه أن يُعتق رقبته من النار ، ويفقر له ما تقدم من ذنبه — موسم من تقرب فيه من ربه بالبر والطاعات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، فاز بعظيم الخير وعميم الرحمة . موسم من صدقت فيه نيته ، وطابت فيه سريرته ، وصان عن اللغو والفحش صيامه ، وكف عن الحرام عينيه وأذنيه ولسانه ، وتهذبت بالصيام نفسه فكان صابراً متواضعاً تقياً ، صادقاً أميناً وانياً ، على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحماً ، نال من الله جزيل الاحسان وجميل الرضوان ، وكان من المحبوبين لدى الله والملائكة والناس أجمعين . فشمّر في هذا الموسم عن ساعد الجد واجعل صالح الأعمال بضاعتك ، والتواضع شعارك ، والحلم واللين شيمتك ، والرأفة والرحمة حليتك فالسعيد المرحوم من أتجر فيه بمرضاة المنان والشقى المحروم من خرج منه بالخيبة والخسران . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » متفق عليه أي أن الصيام سر بين العبد

وربه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . رواه البخارى - أى فلا ثواب له .

سر مشروعية الصوم

الحمد لله أعظم المنة على عباده بما دفع عنهم من غوائل النفس والشيطان .
جمل الصيام حصناً للمخلصين وجنة . وفتح للمتواضعين فيه أبواب الجنة . وأشهد
ألا إله إلا الله عرف الطائعين أن الشهوات وسيلة الشيطان إلى القلوب . وبقومها
تطمئن النفس وتقوى على قهر الشيطان الرجيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله
قائد الخلق إلى الحق ، والمهادى إلى طريق السعادة . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله
وأصحابه ذرى البصائر الثابتة ، والعقول الراجحة (أما بعد) فقد قال الله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم
تتقون . أياماً معدودات » أيها الناس : إن الله تعالى فرض الصيام في شهر رمضان
الذى أنزل فيه القرآن ، لماله من آثار حسنة ، ومنافع جمة ، وفوائد عظيمة في
الدنيا والآخرة . فهو يضبط النفس ويطفىء شهواتها ، فإنها إذا شبت تمردت
وسعت وراء شهواتها ، وإذا جاءت خضعت وامتنعت عما تهوى . قال صلوات الله
وسلامه عليه : « يامعشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج ، فإنه أغض
للبصر وأحسن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ذلك أنه يكثر
من شهوة الشباب حتى لا تطفى عليه الشهوة ، فيضير إلى الفتنة والفاحشة .
فسكان الصوم ذريعة إلى كف النفس عن المعاصى ، فسبحانه من إله عليم حكيم ،
وإن الصيام وسيلة إلى إصلاح النفوس وتهذيبها : يربى في الإنسان فضيلة
الصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والصبر عند الشدائد ، لأنها إذا
انقادت للامتناع عن الحلال من الغذاء الذى لا غنى لها عنه طلباً لمرضاة الله
تعالى ، وخوفاً من أليم عذابه ، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام الغنيمة عنه .
فلا يكذب الصائم ولا يفتدِر ، ولا ينفق عهداً ولا يُخيفُ عهداً ، ولا يكون

صرائياً ولا خانئاً . فكان الصومُ سبباً في اتقاء المحارم ، وقوة العزيمة ، والتحلّي بالفضائل ، والتخلّي عن الرذائل ، وإلى هذا كله أشار جل وعلا بقوله : « لعلمكم بتقون » أيها الصائم : الصوم يدعو العبد إلى شكر النعمة : إذ هو كف النفس عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، وكل هذا من جلائل نعم الله على خلقه . والامتناع عن هذه النعم من أول اليوم إلى آخره يُعرّف الإنسان قدرها ، إذ لا يُعرف فضلُ النعمة إلا بعد فقدها . فَيُبِعْثُهُ ذلك على القيام بشكرها ، وشكر النعمة واجب . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « ولتكفلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعالمكم تشكرون » وإن الصيام يبعثُ في الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء ، والعطف على البائسين . فإن الإنسان إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ، تذكر من هو جائع في جميع الأوقات . فيسارعُ إلى رحمته والإحسان إليه . قيل ليوסף عليه السلام — وكان كثير الجوع — لم تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ فقال : « إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » أيها الصائم : الصوم ينقى الجسم من الفضلات الرديئة ورطوبات الأمعاء ، ويشفي كثيراً من الأمراض ، وفيه من المزايا الصحية ما شهد به العدو قبل الصديق . فسبحانه من إله عليم حكيم ، وبخلقه رءوف رحيم . وعلى الجلة فإن إمساك الإنسان عن الطعام والشراب ، وكف نفسه عن شهواتها ، ومخالفتها لمعاداته في ذلك يوماً كاملاً مع صون الجوارح عن اللغو ومساخط الله ، فيه كسرٌ لعائلة شهواته النفسية ، وتذليلٌ جاححها عن ميلها إلى غاياتها البهيمية ، والقربُ بها إلى أقدارها الأعلى ، والأخذ بزمامها إلى سُموها ورفعها ، والبعْدُ بها عن طبيعتها الأرضية إلى عالم الملائكة . وإن جسم الإنسان عُرْضَةٌ للنمو والزيادة ، فكان في حاجة إلى تخفيف شيء منه في كل سنة حتى يقوى وينشط ويسلم من الأذى ، ولا يكون ذلك إلا بمنع الغذاء عنه جزءاً من الزمن . والصومُ بإجماع الأطباء حِمِيَّةٌ منظمَةٌ ، والطبيبُ الحاذقُ يأمرُ المريضَ بالاحتماء لتصقّي عروقه ، وتنفع فيه الأدوية . كذلك الصومُ نُصِّفِي فيه عروقُ الإنسان من المعصية فننفع فيها الرحمة .

فسبحانه من إله عليم بخلقه ، حكيم في شرعه وصنمه . قال صلوات الله وسلامه عليه عن رب العزة : يقول الله تعالى : « كلُّ حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس : إن الله تعالى قد رفع منزلة الصيام وميّزه على سائر العبادات بالانتساب إليه . وعدم تحديد ثواب الصائمين حيث قال : « إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وحسبك في الإيمان بفضل قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده نُخْلُوفُ مِنَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لِأَجْلِ قَالِصُومِ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ » . فأيها المسلمون هذا شهر الإخلاص والصبر ، والصبر ثوابه الجنة . شهر التوبة والإنابة ورجوع العبد الآبق إلى مولاه . فتوبوا إلى الله وكفوا جوارحكم عن المعاصي تفوزوا برضوان الله « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » .

سر مشروعية الصلاة والجماعة فيها

الحمد لله فرض الصلاة وجعلها أفضل الطاعات وأعظم القربات ، وأشهد ألا إله إلا الله العلي الكبير ، اللطيف الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمام الطائعين وأفضل الخاشعين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والذين هم على صلواتهم يحافظون (أما بعد) فقد قال الله تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » أيها الناس الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام ، ومدار السعادتين ، وأساس الفوز في الدارين « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » فرضها الله على عباده المؤمنين لتكون صلة بحضرتهم ، وتذكيرا ب عظمتهم وجلاله ، وشكرا له على جلالته . ومن رحمته بعبادته جعلها في خمسة أوقات تيسيرا عليهم ، وتذكرا لمن ينسى ، وتركيا لمن يخشى . تقوى ما ضعف منهم ، وتزيدا للمستيقنين يقينا ، والمؤمن إيمانا ، فسبحانه من إله حكيم عليم ، رءوف رحيم . تعلم المرء بما فيها من الركوع والسجود ، والثناء والتعظيم ، كيف يتواضع لخلق الله ، وكيف يشكر من أحسن إليه ، ويكفي من أسدى إليه معروفا ، تورنه

من الرحمة والقناعة ما يجعله رحيماً بالضعفاء ، راضياً عن الله في الشدة والرخاء .
وتفريسه في نفسه من هيبة الله وخشيته ما يحول بينه وبين ما يقضب مولاه من الذنوب
والآثام ، وكيف لا يقنع بما قسم الله ، أو يقسوعلى بانس ، أو يكسب إنما ، بعد ما قال
في كل ركعات الصلاة : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ؟ كيف
يعبد دنياه أو يسأل غير مولاه بعد ما قال وهو بين يديه : إياك نعبد وإياك نستعين ؟
كيف يطلب منه أن يهديه الصراط المستقيم من يسعى في الأرض فساداً أو يكيد
لأخوانه المسلمين ؟ كيف يجترى على ارتكاب ما يقضب الله من امتلأ قلبه خوفاً
أن يكون من المغضوب عليهم المطرودين أو من الضالين الخاسرين ؟ (أيها الناس) :
إن من أقام الصلاة في وقتها واستنار بها قلبه وتأثرت نفسه بما فيها من جلال وكال ،
سارع إلى الخيرات ، وصبر في البأساء والضراء ، وتباعد عن كبائر السيئات وصغائر
الحرمات ، وكان بَرّاً تقياً ، متواضعاً تقياً « إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر
ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » أيها الناس : عليكم بتأديتها في جماعة فإنها
تزيد عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كل درجة منها لا يعلم قدرها إلا علام
الغيوب . قال صلوات الله وسلامه عليه : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد
بسبع وعشرين درجة » . فبالاجتماع فيها تذهب الضغائن وتزول الأحقاد ، وتتآف
القلوب وتتحد الكلمة ، وتظهر عظمة ملك الملوك ورب الأرباب ، ويعم الفيض
وتنزل الرحمة — نادى منادى الصلاة ودعا داعي الفلاح ، فأجابه الفقير والتقى ،
والكبير والصغير ، والأمير والحقير . فإذا اجتمعوا في صعيد واحد وراء إمام واحد ،
إلى قبلة واحدة ، يعبدون رباً واحداً خاشعين خاضعين ، خائفين من عذابه ، طامعين
في رحمته . فلا جرم أن تنزل عليهم البركات ، وتحيط بهم الرحمت « وادعوه خوفاً
وطمأناً إن رحمة الله قريب من المحسنين » فاتقوا الله أيها المسلمون وبادروا إلى الصلاة
في أوقاتها تكونوا من المفلحين ، وفرغوا قلوبكم من الشواغل فيها تصيروا من
الفائزين . « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » في الحديث

القدسي عن رب العزة « عبيد أخذك الشيطان مني لا لعجزى ولكن لضغفك أنت » وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله . وتقول فى الثانية : أيها الناس : يقول الله جل وعلا : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومبارك بظلام للعبيد » فهو تعالى غنى عن العبد وعن عمله ، لانتفمه طاعة ولا تضره معصية . وإنما العبد هو المحتاج إليه تعالى فى جميع أحواله . أليس هو الفائز بالأجر إذا أحسن الصلاة ، أليس هو الظافر بالقبول إذا أخلص فيها لمولاه — ماعذر تارك الصلاة إلا الكسل أو التكبر على طاعة الله ، والتشبه بالكافرين المالكين ، والله تعالى يقول : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » تارك الصلاة يحق الله البركة من عمره ورزقه ، وماله وولده ، ويذهب نور وجهه ، ويحرم من نعمة التوفيق للخيرات ، ويحترى على جميع المحرمات . هذا فى الدنيا ، ويوم القيامة لا يجيب الله له سؤالا ، ولا يتقبل منه أعمالا ، وتعلق فى وجهه جميع أبواب الرحمة ، ويدوق أنواع الذل والهوان — اللهم إنا نعوذ بك من غضبك وعذابك ، ونسألك رضاك ورحمتك ، بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين .

وداع رمضان

الحمد لله الدائم فلا يزول ، الباقي فلا يتغير ، وأشهد الا إله إلا الله أجزل الخير للطائفين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل الصائمين الراكعين الساجدين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » الذين اتقوا هم الذين عظموا أمر الله بامتنال الأوامر واجتناب النواهي ، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته ، والذين هم محسنون هم أهل الشفقة على خلق الله : باحترام الحقوق وحسن المعاملة . ومعنى أنه سبحانه مع هؤلاء أنه يتولاهم بالحماية والرعاية ،

والإحسان والهداية . ومن كان الله معه فقد ربح كل شيء . ومن طرده الله من معيَّته فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

أيها الصائم — ها هو رمضان قد مضى ولم يبق منه إلا القليل ، فهل اتقيت الله فيه وقت بمحقوقه ، وحافظت على آدابه ؟ هل أحسنت فيه المعاملة مع خالق الله ، واحترمت حقوقهم ؟ الصيام يُنورُ القلب ، ويهذب النفس ، ويقوى العزيمة ، ويعرّفُ العبد مقدار النعمة ، ويملأ قلبه رحمة بالضعفاء . فهل استنار قلبك في رمضان بعد ظلمة العصيان ؟ هل تهذبت بالصيام نفسك وقويت عزيمتك ؟ هل عرفت مقدار النعمة بفقدتها فشكرت عليها مولاك ؟ هل امتلأ قلبك رحمة فمطقت على الأرامل واليتامى ؟ تالله لو كان قد استنار قلبك وتهذبت نفسك ، لظهر ذلك في أقوالك وأفعالك ومعاملاتك للناس أجمعين — وكيف يتهدب إنسان كانت نفسه وقت الصيام في ملل وسآمة ، وهذا شأن من لم يذق حلاوة الطاعة ، ولم يخلص في العمل لمولاه . أما كان البعض منا ينتظر انقضاء الشهر باليوم والساعة ، وذلك من علامات الغافلين ؟ وكيف يرجو أجر الصيام من يضجر منه لطول اليوم أم كيف يطمع في الإعتاق من النار من يستكثر عليه صيام شهر في السنة ؟ كيف يفوز بالعمو والغفران من كان فظاً بذىء اللسان غليظ القلب قاسياً ، لم يراف بالضعفاء والبائسين ؟ يا هذا كيف تستطيل أيامه وهو يصلح القلب ويهذب النفس كيف تستنقل صيامه وهو يصحح الأبدان ، ويحلبُ الغفران والرضوان ، أم كيف تسأم من شهر أنزل فيه القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين — أيها الصائم : انقضى شهر العبادة فهل أحبيته بالعبادة ؟ انقضى شهر القرآن فهل اشتغلت فيه بتلاوته ؟ انقضى شهر البر والإحسان فهل أكرمت فيه يتيماً أو أرملة أو سائلاً محروماً ؟ انقضى شهر صلة الأرحام فهل وصلت فيه قريباً أو جبرت بعيداً ؟ انقضى شهر العفو والصفح ، فهل عفوت فيه عن ظلمك أو صفحت عن أساء إليك ؟ انقضى شهر التوبة والقبول فهل صرت من التائبين المقبولين ؟ وكيف يُحسب من المقبولين من أطلق لسانه بالكذب والغيبة والنميمة ولم يستح من خالق الأرض والسماء ؟ كيف يُحسب من

المرحومين من إذا جن عليه الليل اشتغل باللعب عن الطاعة واستماع القرآن ، أو أمضاه في بيوت اللهو وأما كن الفسوق ؟ وكيف يرجو القبول من ساءت أخلاقه في الصيام ولم يكن من الخاضعين المتواضعين . أيها الصائم : هذا يوم الوداع فبأى شيء تودعه وأنت لم تحسن إليه مدة الإقامة ؟ وبأى وجه تقول الوداع ، وأنت تودعه بالكراهة والسامة ، وكيف تفرح بالرحيل وهو عليك من الشاهدين بين يدي أحكم الحاكمين — فيا أيها الصائمون : اتقوا الله وتداركوا ما فرط منكم بالتوبة وصالح العمل ، وصلوا الأرحام وواسوا الأرامل واليتامى « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » وأحيوا ليلة القدر بالطاعة والعطف على البائسين والضعفاء ، وأخرجوا صدقة الفطر فإن الله أوجبها عليكم جبراً لخاطر المساكين ، وكفألم عن السؤال والنذل في هذه الأيام ، ووسيلة لقبول الصيام ، واسعوا في إصلاح ذات البين ، وليستحل كل منكم من ظلمه ، ويستعطف من أساء إليه ، وطهروا قلوبكم من الغل والحسد ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فترج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » — وتقول في الخطبة الثانية — « أيها الناس » إن عزة الأمم وسعادتها منوطان بأخلاقها وآدابها ، واعتنائها للفضيلة ، وابتعادها عن الرذيلة ، فالأخلاق الفاضلة روح الأمم والشعوب لا حياة لها إلا بها ، ولا رقي لها إلا معها ، وعلى مقدار اعتناء الأمة بالتربية الصحيحة ، وتمسكها بالأدب والفضيلة يكون رقيها وفلاحها ، وهناؤها وصفاء عيشها ، « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيهينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - الله أكبر
(نسماً) الله أكبر وهو الكبير الذى عَمَّتْ الوجوه لكبريائه وعظمته . الله
أكبر وهو الحى القيوم الذى دبر الكائنات بحكمته . الله أكبر وهو القادر الذى
أبدع الموجودات وعما بإحسانه ورحمته . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ،
وسبحان الله على الدوام . وأشهد ألا إله إلا الله جعل فى تعاقب الأعياد عبرة
لأولى الألباب . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الهدى والصواب .
اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله ، العاملين
بأحكام الدين « أما بعد فيا أيها المسلمون » إن يومكم هذا يوم سرور لمن صحت
نيته ، وقيل صيامه وقيامه . يوم فرح وتهانٍ لمن طابت سريرته وحَسُنَ فى رمضان
خلقه وكلامه . يوم عفو وإحسان لمن عفا عن عفا وأحسن إلى من أسأ وأصاح
بين الأنام . هذا يوم عيد ولكن العيد فى الحقيقة لمن تمسك بالدين . هذا يوم
الفلاح والنجاح لو كان المسلمون فيه مؤتلفين متحدين . هذا يوم سعيد لو كنا
لستقبلنا عاملين . فى هذا اليوم المبارك يتجلى المولى على المخلصين بمزيد الإنعام .
ينظر فيه إلى أهل الصدق والوفاء والمودة والحبية . ينظر فيه إلى من تاب وراقب فى السر
والعلانية ربه . ينظر فيه إلى من تعافى عن عيوب الناس ولعيوب نفسه تنبه . يميز
فيه من طهر قلبه من الحقد والحسد وتأداب آداب الإسلام . فليس العيد لمن تمتع
بالشهوات ولبس الثوب الجديد . ليس العيد لمن عقى والدية فخرم الرضا فى هذا اليوم
المبارك السعيد . ليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم مولاهم من فضله العميم
المزيد . ليس العيد لخائن غشاش كذاب يسعى بالأذى والفساد بين الأنام . وكيف
يسعد بالعيد من تجمل بالجديد وقلبه على أخيه المسلم أسود . كيف يهنا بالعيد من
استقام فى رمضان وبعده عدل عن الطريق القويم الأحمد . كيف يفرح بالعيد من
أضاع أمواله فى الملاهى وبيوت الفسوق والفجور ، ويمنع حق الفقراء والضعفاء ولا
يخاف يوم البعث والنشور . هيهات هيهات أن يحظى بالفلاح والقبول من أصر

على العداوة والخصام . إنما العيد لمن خاف يوم التناد . إنما العيد لمن اتقى مظالم العباد
إنما العيد لمن فاز بالقبول وحسن الختام . أيها الناس : كم أموال في هذه الأيام تضيع
على الملاحى والملاعب . كم تتعدى فيها أهل الفرور حدود الأدب بأفعال الهمج
وتقليد الأجانب . كم تخرج فيها أهل البدع عن الشرع القويم فيكونون في جانب
والدين في جانب . كم تتبرجج فيها أبناء الشهوات بما اكتسبوه من الشبه والحرام
أين من كان لا يفرح بعيد ولا بسواه إلا بما قدمه من الخير أمامه ، أين من كان
يزجر نفسه عن اللذات خوفاً من ألم العتاب والملامة . أين من كانت عيناه تقيض
عند ذكر أهوال يوم القيامة . أين أهل الشفقة والرحمة على الأرامل واليتامى في هذه
الأيام . أولئك قوم كانت قلوبهم مملوءة بالتقوى عامرة بالهدى ، أخلاقهم كريمة ،
وقلوبهم سليمة ، قانعون صابرون لا يجزعون لحال من الأحوال . تعرفهم بسيماهم
وأنتى عليهم مولاهم بقوله « من المؤمنين رجال » . علوا أن الدنيا وزخرفها ظل
زائل كأنها أضغاث أحلام . فاتقوا الله أيها المسلمون وتباعدوا عن النفاق والشقاق
فإنه يوقع في الوبال والبلاء . وطهروا قلوبكم من الحقد والحسد وكونوا عباد الله إخواناً
في صفاء . وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، واعظفوا على الأرامل واليتامى ، تناولوا
غاية القبول والإكرام . في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن
ينظر إلى قلوبكم » . وروى مسلم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من
صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

في التحذير من العودة إلى المعاصى بعد رمضان

الحمد لله الدائم الباقي فلا يزول ولا يتغير . الحكيم الذى جعل في انقضاء
التسهور وتقلب الليل والنهار عبرة لمن تفكر . لا إله إلا هو جعل الفلاح لمن عمل
بأحكام الدين . وأشهد ألا إله إلا الله فتح أبواب رحمة لمن داوم على طاعته .
وحجب أنوار هديته عن انقضاء شهوته . وانغمس في حمأة رذيلته . وأشهد أن

سيدنا محمداً رسول الله إمام المتقين . وسيد الأنبياء والمرسلين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه « أما بعد فأيها المسلمون) إن كان رمضان قد مضى كأنه طيف خيال . وعزمت على العود إلى التفريط والتقصير في شوال . فالله حيّ أبدى سرمدى لا يدركه زوال . ولا يفنيه تداول الأوقات وتعاقب الأهلة هلالاً بعد هلال . فلا تقولوا الآن ذهب رمضان وتسهلوا شوالاً بالفسوق والعصيان . فإن الله تعالى يرضى عن أطاعه في أى شهر كان . ويفض على من عصاه في كل وقت وأوان . أيها المسلم : عهدناك في شهر رمضان منيباً إلى ربك ، تائباً من ذنبك ، راغباً في رحمته وثوابه ، خائفاً من نقمته وعذابه . عهدناك في رمضان محافظاً على أداء الصلوات في الأوقات . حريصاً على شهود الجمعة والجماعات . مقبلاً على مجالس العلم ومستعداً لقبول النصائح والعظات . عهدناك في رمضان مهذباً نقياً ، متواضعاً تقياً . فعلى أى شيء عزمت بعد انقضاء شهر الصيام . أترك بعد ما ذقت حلاوة الطاعة تعود إلى مرارة العصيان ؟ أترك بعد ما صرت من حزب الرحمن تنقلب على عقبيك فتنتضم إلى حزب الشيطان ؟ أترك بعد ما حسبت في عداد المسلمين تترك الصلاة وهي عماد الدين وشعار الإيمان ؟ وهل يليق بك بعد ما كتبت في جملة الطائمين المرحومين ، أن تصير في زمرة العاصين المحرومين ؟ أليق بك بعد ما كنت في رمضان براً نقياً ، أن تصير في الإفطار جباراً شقيماً ؟ أليق بك بعد ما كنت في رمضان ملكاً كريماً ، أن تصير بعده شيطاناً رجياً ؟ « كلا » ما هكذا تكون المؤمنون . بل ما هكذا تكون العقلاء المتبصرون ، ولا السعداء الموقنون . أيها الناس : الصلاة نور للقلب ، وشكر للنعمة ، وصلة بين العبد وربه . فما الذي يستفيدة ذلك الشقي من ترك الصلاة سوى ظلمة القلب ، وكفران النعمة ، وقطع الصلة بينه وبين مولاه . بل ما الذي يجنيه العاصي من وراء معصيته غير إتلاف ماله والإضرار بعقله وصحته ، وضياع شرفه وسقوط كرامته ، وإغضاب ربه واستحقاق نقمته وعقوبته ؟ « تالله » إن المعاصي لشهوة قصيرة عاجلة ، تعقبها حسرة طويلة

دائمة وشقوة ملازمة ونار حامية . وذل شديد . وعذاب أليم في الدنيا والآخرة .
فيأيتها المسلم : اعلم هداك الله أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا عمل ولا حساب ،
والآخرة حساب ولا عمل . فاتق الله وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك
لموتك ، ومن صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك . وتزود لسفر طويل ، واستعد
لحساب عسير ، وهول عظيم . يوم ينظر المرء ما قدمت يده . يوم يعرض الظالم
على يديه نادماً على ما جناه . « يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات
وبرزوا لله الواحد القهار . وترى الجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايبهم
من قطران وتغشى وجوههم النار ، ايجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع
الحساب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكروا
أولوا الأبواب » - في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب
الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وروى الحاكم عن ابن عباس . قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتيم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ،
وصحتك قبل سقمك . وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك . وغناك قبل
فقرك » . الهرم كبير السن . وبابه طرب .

الحث على الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق والتنازع

الحمد لله الذي جعل الدين رباطاً متيناً بين قلوب المؤمنين . وأمر بالاتحاد
والتعاون ، ونهى عن التفرق والتنازع في كتابه المبين . لا إله إلا الله الحكيم العليم
وأشهد ألا إله إلا الله القوى المتين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ذو القاب
الرحيم ، والخلق الكريم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين طابت
نفوسهم وصفت قلوبهم فكانوا هم السادة الغالبين ؛ (أما بعد) فقد قال الله تعالى :
« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أيها المسلمون : إن دين الإسلام هو حبل الله
المتين ، والحق المبين ، من وقف عند حدوده نجح ، ومن نحى بآدابه سعد ، ومن

تمسك به فقد هدى إلى ضراط مستقيم . وإن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد أوجب عليكم فيه أسراً عظيماً ، إن أنتم أطعتم الله فيه نلتم من الخير ما تحبون ، وبلغتم من الفلاح والرقى الغاية التي تطلبون ، ذلكم هو أن تتحد قلوبكم ، وتتألف نفوسكم ، وتعاونوا على الخير فيما بينكم فإن الاتحاد والتعاون أساس كل خير وسعادة وعماد كل تقدم ورقى ، فما نالت أمة من الأمم نصيبها من رغد العيش ، ولا فاز شعب من الشعوب بحظه من التقدم والرقى ، إلا باتحاد القلوب واجتماع الكلمة ، والتعاون على الأمور النافعة ، والتضامن في تنفيذ كل عمل مفيد ، وشعور كل فرد بأنه عضو من جسم أمته ، عليه واجب يؤديه ، وله وظيفة يقوم بها لخير المجموع بأمانة وإخلاص . أيها الناس — إن التفرق والشقاق والتنازع والاختلاف لمن الجنائيات العامة والجرائم الكبرى ، التي تهدم بنيان الأمم وتضعف قوتها ؛ حتى لا تقوى على الثبات أمام أعدائها ، وتغلق في وجهها أبواب كل خير ، وتندرها بورخامة العاقبة وسوء المصير . لهذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التنازع والاختلاف ، وحذرهم من عواقبه السيئة ونتائجها المؤلمة . قال تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . تفشلوا : تجبنوا — تذهب ريحكم : تضعف قوتكم ولا تنصروا على أعدائكم — إننا إذا قلنا لكم إن الاتحاد والتعاون يثمران كل خير وسعادة ، فلا نشهد على هذا إلا بما كان للسلف الصالح والخلفاء الراشدين من الشرف الرفيع ، والعز المنيع ، والقوة التي قهروا بها الجبابرة ، وأسقطوا عروش الظلم والاستعباد ، ونشروا لواء العدل والمساواة بين الناس في كل مكان ، والله يعلم أنهم ما نالوا ذلك بكثرة عددهم ، ولا بتوفر عددهم . ولكنهم نالوه بفضل الاتحاد والتعاون والصدق والوفاء ، والإخلاص والإخاء . قال تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » . أيها الناس : إن في حوادث الأيام لعبراً جمة ، وعظات كثيرة ، يستفيد منها الرجل الرشيد أكثر مما يستفيدة من خطب الوعاظ ونصائح المرشدين — وها هي الحوادث تمر بنا في كل يوم فهل آن لنا أن نعتبر ونتعظ . هل آن لنا أن نفيق

من سكرتنا وتنبه من غفلتنا ، ونعلم أن فلاحنا موقوف على اتحادنا وتعاوننا ، وصفاء قلوبنا وإخلاص بعضها لبعض ؟ أم نحن سنظل في التفرق والتخاذل والشقاق والنفاق والغل والحسد والضلال القديم ؟ أيها الناس : اتقوا ربكم وتمسكوا بدينكم ، واعملوا بهدى نبيكم ، واقعدوا بأسلافكم الصالحين ، تفلحوا كأفلحوا ، وأسعدوا كما سعدوا اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وتعاونوا على الخير وخير العمل ، بشمسكم الله برحمته وبعملكم بإحسانه ، ولا تسكوتوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . رواه البخارى .

أخرى في الاتحاد وأثره في نجاح السلف

الحمد لله الذى أَلَّفَ بالإسلام بين قلوب المؤمنين . وأوجب الاتحاد وحرّم التفرق فى كتابه المبين . وأشهد الأ إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسولُ الله خير داع إلى الطريق القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تهذب نفوسهم واتحدت قلوبهم ، فكانوا السادة المنصورين (أما بعد فيا أيها المسلمون) لا ريب أن أقوى عامل على رفع منار الأمم ، وأفضل معين على هوضها ونيلها منتهى الحمد والشرف . هو اجتماع القلوب ، واتحاد الكلمة فاستمكت به أمةٌ إلا ظهر سلطانها ، وقويت شوكتها ، ودامت دولتها ، وبلغت فى الرقى ورغد العيش أقصى الغايات ، وأرفع الدرجات . وما تفرقت أمةٌ واختلت كلمتها ، وتنازعت فى أمرها إلا اضمحل سلطانها ، وضعفت قوتها ، ودالت دولتها وتبدل عزها ذلاً ، ورفعتها ضعةً وانحطاطاً . وكان من نصيبها الفشل والحسران المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ، ونهى عن التفرق والتنازع . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقال تعالى . « ولا تنازعوا فتفشلوا ،

وتذهب ربحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . أيها الناس : إن العاقل من غيرد
انعظ . وإن التاريخ لعبرة وعظة ، أنظروا إلى ما كانت عليه الأمة العربية أيام
الجاهلية ، تروها كانت على أسوأ حال : حرب متواصل ، وتفرق دأثم ، وعداء
مستحکم ، وهمجية تمقوتة . يعتدى بعضهم على بعض ، ويبطش القوى بالضعيف ،
لا دين ينعمه ، ولا قانون يردعه ، ولا إنسانية تحجزه ، ولا منصف يقفه عند حده .
إلى أن سطع نور الإسلام فأضاء بلاد العرب ، واستنارت به أرجاء نجد وتهامة ،
وارتجت لأجله بلاد فارس والروم . ولكن أبي الله إلا أن يتم نوره على يدي
هذا الرسول الكريم ، والسيد الصادق الأمين ، فانضم إليه العقلاء ، والتف حوله
السعداء ، فنزع الله من قلوبهم داء العداوة والبغضاء ، وظهرها بدواء الإخلاص ،
والحبة ، وألف بينهم فصاروا روحاً واحدة في جسم واحد ، فجازوا بريح جسيم ،
وظفروا بحجر عميم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله
لكم آياته لعلكم تهتدون » . وكان لدولة الإسلام العزلاذاتي الذي لا يداني ، والسلطان
الذي لا يضاهي . قهروا الجبابرة ، ودوخوا الأكاسرة ، وملكوا مشارق الأرض
ومغاربها ، وأدرکوا بانحدامهم على قلة عددهم ، وضعف عددهم ، ما لم تدركه الجيوش
على كثرتها وقوة عدتها ، فلقد التف الناس حول عمر بن الخطاب رضی الله عنه ،
وانحدت كلمتهم ، وخلصت نيتهم . قهروا دولة الفرس والرومان ، وفتحوا الشام
ومصر ، وانتصروا في كل الوقائع ، ولم تنكس لهم راية ، ولم ينهزم لهم جيش ، وكان
كل واحد منهم يعمل بإخلاص لإعلاء الدين ورفع شأنه ، ناسياً حظ نفسه وكل
مأرب شخصی . لما بويع عمر بالخلافة بادر بعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش .
فعل ذلك عمر لأمر أدركه ، ومصلحة رآها . فحينما بلغ خالد أمر العزل سلم عن طيب
نفس قيادة الجيش إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، ولم يجد في نفسه حرجاً مما رآه
أمير المؤمنين ، ودخل في صفوف المجاهدين كجندي عادي ، وأصبح مرءوساً بمد أن
كان رئيساً . وكل ذلك لم يثن من عزيمته ، ولم يصرفه عن الإقبال على العمل

بصدق وإخلاص (هذا) وقد أصبح كل منا يعمل لحظ نفسه ، ويسعى وراء مصلحته ، ولو كان في ذلك مضرة لأخيه . حتى وقع الكل في قبضة الذل والهوان وعم الجميع طوفان البلاء . ولو أنهم تابوا إلى رشدهم ، وعملوا بتعاليم دينهم ، واتحدوا وكانوا على قلب رجل واحد ، لرجعوا إلى مجدهم ، وعادوا إلى عزمهم ، ولكن الله في خلقه شئون ، وللشقاء قوم وللسمادة قوم آخرون . روى الجماعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحى والسهر » .

في التحذير من الغش في المعاملات وسوء عاقبته

الحمد لله الذى كرم الإنسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ، ونهاه عن الكذب والعش والخيانة ، لا إله إلا هو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله الشديد البطش بالخائنين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله تبرا من الغش وحذر منه جماعة المسلمين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحفاظين لحدود الله . أما بعد فيا أيها المسلمون : إن الأرزاق لا تكون بالخداع ولا بالمقدرة ، وإنما هى كالأجال مقررة عند الله ومقدرة ، فلا يفوت العاجز رزقه ، ولا يحصل فوق ما قسم له القادر القوى ، فيا أيها الغاش هل يأتيك الغش برزق غير المقسوم ؟ ويا أيها الخائف بالإيمان الكاذبة هل يأتيك الحلف المكذوب بشيء سوى ما أراده لك الحى القيوم ؟ « كلا » والله لا بصيبك فى الدنيا إلا ما قضاه الله عليك ، ولا ينالك منها إلا ما قسمه الله لك . فها هذا التديليس الذى لا يكسبك إلا شكاً فى قضاء الله تعالى ، وما ذاك الغش الذى لا يفيدك إلا الوزر والحزى والعار ، وما عاقبة ذلك كله إلا ضياع الثقة وغم المصائب وهم الخسائر — فوالله ما تقدم عامل خان فى عمله ، ولا نجح صانع دلس فى صناعته ، ولا ربح تاجر غش فى تجارته ، وما هى إلا أيام معدودة ثم تنصرف الناس عنه وتغلق فى وجهه أبواب الربح ، وتذهب البركة من عمل يديه ، وربما دارت عليه أو على ذريته الدوائر .

أيها الناس : إن الغش للذنب كبير ، ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية ،
وإن الأيمان الكاذبة لا تصدر إلا عن قلوب مظلمة قاسية . وكلامها تعرير بالناس
وتلاعب بالدين ، وخسران مبین . لقد أغضبت ربك أيها الخالف كذباً لترويج
الصنعة أو البيع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى
لأنك لك أموال الناس بالباطل ، وإهلاك لدينه ، وخروجك على منته . برغت
في ضروب النصب والاحتيال ، وتفننت في أنواع الغش والخداع ، لا تراعى مخلوقاً
ولا تخشى خالقاً . فلا حول ولا قوة إلا بالله — يدخل الإنسان على الصانع ،
أو يقف المشتري أمام البائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبة ما يخدعه به ، ويوهمه
أن هذا الشيء لا نظير له ، وأنه أجود من صناعة أو بضاعة فلان وفلان ، وأرخص
مما يباع فيه جميع الحيوانات ، والله يعلم إنه لكاذب « ويخلفون على الكذب
وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولقد صار الغش
في كل شيء حتى اللبن في ضرع الحيوان ، ولو أمكنهم أن يبيعوا التراب ذهباً ففعلوا
بلا مبالاة ولا حياء . ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام ، وأن كل لحم نبت
من حرام فالنار أولى به ، وليعلم الخالف كذباً أن حقوق الذي خدعه محفوظة
بستوفيتها من حسناته في يوم لا درهم فيه ولا دينار . أيها الناس : إن الصناعات والتجار
من أكثر الناس اعتماداً على الله ، يفتحون محلاتهم كل يوم ينتقون من فضل الله ،
لا يعتمدون على وظيفة ولا مرتب ، فما أحسنهم إذا كانوا أمناء صادقين . قال
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين » وما أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله
والناس ، ولم تشغلهم أعمالهم عن الله « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله
أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » فيا أيها المسلم
اتق الله وارض بما قسم الله لك ، واحفظ نفسك من الإفلاس في الدنيا ومن خزي
يوم القيامة ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى
كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » . في الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحمت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركضُ فيها ركضَ الوحش في البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندى مذموماً » . وفي صحيح مسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ! ! من غشنا فليس منا » . وفيه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنفق ثم يَمْحَق » . أى بروج السلامة ثم يُذهب البركة من كسب البائع .

في مضار الزنا - مسجوعة

الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . الحكيم الذى أعز من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى والفجور . لا إله إلا هو له الملك وإليه مرجع الخلق أجمعين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن محمداً رسول الله جاء بالحق الواضح والشرع القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » (ابن آدم) عمرك في الدنيا وإن طال فأيامه قصيرة . لذاتك مهما حلت لك في الحال فستورثك في المآل حسرات كثيرة . ارتكابك للزنا بلا حياء دليلٌ منك على انطماس البصيرة إذ لو كفت من الراشدين ما سلكت مسالك الزناة الفاجرين . وكيف تقرب الزنا وقد أباح الله لك أربعمائة من النساء ؟ كيف تتسبب لنفسك في الذل والمرض وأنواع البلاء . مالك تنفقُ مالك فيما يغضب ربك ويرضى الشيطان وهو لك عدو مبين . الشيطان يُزين لك الفحشاء ويجرك إلى الأذى والفساد . والله يدعوك إلى الفلاح والهدى والرشاد . فلماذا تركت الرشاد إلى الفساد . وهجرت الهدى إلى الضلال المبين . أيليق بك أن تطيع من يدعوك إلى ما فيه ضياع المال وخيبة الآمال ، وتعصى من يأمرك بما فيه لك العزُّ في الحال

والسعادة في المآل؟ أما تستحي ممن يراك وأنت لاتراه قيل أن تصبح من النادمين .
يا هذا : كيف تُمرِّقُ العفاف وتكشف عن عورة أختك المسلمة ، وكيف تخون أخاك وتعصى مولاك بهذه الجريمة الشنيعة المحرمة ؟ ويلك أيها الزاني فقد تجرأت على هتك الأعراض وكنت من الفاسقين . ألم تعلم أن الزنا يعود عليك في الدنيا بالفقر والوبال . ويوقعك في الحسرة والندامة يوم لا ينفع أهل ولا مال . ويورث العداوة والبغضاء والتفرق بين المسلمين . أما تدرى أن الله مطلع عليك وأنت على هذه الحالة الشنعاء . أما تخشى أن تنزل عليك وأنت تزنى صاعقة من السماء .
أما سمعت قوله تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » فالزنا ياقوم عين الهلاك ورأس كل فساد . ومضئعة الأموال والأعراض والأولاد . ومخل بالشرف والمروءة ومؤد إلى المرض والخزى والعذاب المهين . فهلا زجرك عنه الحياة إن لم يزجرك عنه باعث الدين . هلا منعك منه شرفك الذي تدعيه إن لم يمنعك الخوف من رب العالمين .
أم رضيت أن تكون في الدنيا من الفاسقين وفي الآخرة من الخاسرين . فالخبيبة كل الخبيبة لمن استعبده شهوته لامرأة زانية . والندامة كل الندامة لمن أضع نصيبه من الجنة واستبدل به ناراً حامية . والذل كل الذل لمن جاء يوم القيامة والصديد يسيل من فرجه كما ورد عن سيد المرسلين . فيا أيها المؤمنون اتقوا الله وخصوا أبصاركم واحفظوا فروجكم . راقبوا الله ولا تضيّعوا بالزنا أولادكم وأنسابكم . وتوبوا إلى الله واستغفروه إن ربكم كريم يقبل التائبين . في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . (وفي رواية) : « فإذا فعل ذلك خاع ربقة الإسلام من عنقه . فإن تاب تاب الله عليه » . وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » .

التحذير من الزنا وعواقبه الوخيمة - رسالة

الحمد لله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد ألا إله إلا الله جعل الإحسان للطائعين والذل والعقاب للفاسقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى الخير والصلاح وحذر من الشر والفساد ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين غضوا أبصارهم عن الحرام ، وحفظوا فروجهم عن الفحشاء ، فعاشوا في صفاء وماتوا سعداء .

(أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » أيها الناس : نهانا الله العليم الحكيم عن الاقتراب من الزنا وما يدعو إليه من النظر واللمس ، والاختلاط والخلوة بالأجنبية ، لأنها تؤدي إلى الزنا ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإذا كان الله تعالى قد حذرنا من مقدمات الزنا ودواعيه فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد . لم يحرم الله علينا الزنا عبثاً ، ولم ينهنا عنه إلا لحكمة وفائدة تعود علينا ، فإن الزنا من أخس الفواحش ، وأكبر القبائح ، وأعظمها خطراً على المجتمع الإنساني : يبثد الأموال ، ويهتك الأعراض ويقتل الذرية ، ويؤدي إلى اختلاط الأنساب ، ويفضي بالأمة إلى الفناء . والزنا يفسد الأخلاق ويدعو إلى الشقاق والفساد ، ويوقع في البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة ، وما الزهري (التثوبش) والسيلان والسل الرئوي إلا من آثاره السيئة ، وعواقبه الوخيمة « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . عجباً للزاني يتفضل عليه مولاه بالمال الحلال ، فيضيعة في مبارزته بالتمرد والعصيان ، فكان مثله مع سيده مثل من أنعم عليه السلطان بسيف فخار به . وهذا لؤم لا وفاء ، ودناءة لا مروءة ، وكفران لا شكران . أما كان ينبغي أن يُنفقه على أهله وعياله ؟ أما كان الأولى أن يبذله فيما يرقى أمته التي يمز بعزها ويسعد بسعادتها ؟ أيها الناس : يستتر الزاني عن الأعين عند ارتكاب هذه الفاحشة ، ويخاف أن يراه الناس على تلك الجريمة الشنيعة ، أفلا يخاف الله المنتقم

الجبار؟ أو لا يَسْتَحْي من علام الغيوب » يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » يا هذا أترضى أن يعتدى أحدٌ على حرمة أمك أو ابنتك ، أو اختك أو زوجتك ؟ إذا كنت لا ترضى ذلك لنفسك فكيف ترضاه لأخيك المسلم ، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فهل انحلت الروابط الاجتماعية بين الناس ؟ هل انقطعت الصلة الدينية بين جماعة المسلمين حتى صار المسلم لا يَشعر بألم أخيه ، ولا يبالي بحقه وحرمة ؟ « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : لقد جاب الزانى الأذى لنفسه ، وحنى على أبنائه وبناته وزوجه ، فقد سنَّ لهم سنة سيئة ، وجرأهم على الفاحشة ، فسرت عدواؤه إليهم ، وكان عليهم وبالاً وشراً مستظيراً ، ألا فليتق الله الزناة وليعلموا أن من زنى زنى به : ومن هتك أعراض الناس لا بد من هتك عرضه ، ألا فليتقوا الله وليعلموا أن الزنا وبالٌ عليهم في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وبالٌ على أسرهم ، وبالٌ على أمتهم . وأن الزانى مطرود من رحمة الله ، محقوت لدى الله والناس أجمعين « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » روى مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه » . وتشرح في الثانية ما يأتي : روى البخارى عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ تَضَمْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ولا ينظر إليهم ولم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائل مستكبر » والعائل : الفقير . رواه مسلم .

خطبة عيد النحر

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . الله أكبر (نساء) الله أكبر ما لاحت إمارات الفلاح على من

قصد بيته الحرام . الله أكبر ما تجلت عليهم أنوار الهداية لإقامة شعائر الإسلام .
الله أكبر ما ساروا في البر والبحر تحمُّسهم عناية الملك العلام . الله أكبر
ما فارقوا أموالهم وديارهم لينالوا الرضوان الأكبر . الله أكبر (ثلاثاً)
الله أكبر ما جئوا في السير حتى شاهدوا الكعبة البهية . الله أكبر ما عات
أصواتهم بالتلبية إجابة لنداء الخليل في البرية . الله أكبر ما صلوا في مقام
إبراهيم ونالوا المواهب السنية . الله أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم
المطهر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات .
الله أكبر ما ابتهلوا فيه إلى الله وغفرت لهم جميع السيئات . الله أكبر ما وقفوا
بالمشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السعادات . الله أكبر ما وصلوا
منى ونحروا هداياهم وعلق كل أو قصر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان من أغدق
عليهم سبحانه الرحمة والفران ، سبحان من منتهم زيارة الحبيب سيد ولد عدنان ،
سبحان من أسعدهم بالسلام على المختار وصاحبيه وأجزل لهم الإحسان ، سبحان
من هنأهم بنيل المأمول ، وبلغ المقصود وتم لهم الحظ الأوفر . الله أكبر (ثلاثاً)
سبحان الله والحمد لله وهو أهل التنزيه والثناء . سبحان الله والشكر لله ، وهو
ذو الفضل العظيم واسع الكرم والمطاء . لا إله إلا الله لا رب غيره ولا معبود سواه
وأشهد ألا إله إلا الله جعل الأعياد مواسم الإحسان والرضوان . وأشهد أن سيدنا
محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه
الصادقين المخلصين (أما بعد فيأيها الناس) هذا يوم العيد الأكبر لمن وقف بالأمس
بعرفات فمحييت سيئاته وغفرت ذنوبه . هذا يوم السعد وبلغ القصد لمن كرمت
سجاياه وحسنت نواياه . هذا يوم الفرح لمن تملى بأوار حبيب الله وخاتم أنبياءه .
هذا يوم الهنا لمن بلغ المنى وصلى بالروضة بين القبر الشريف والمنبر . كان هذا يوم
الوفاء وصدق الاخاء بين جماعة المسلمين ، كان يوم تلاقى الإخوان بتقوس صافية
وقلوب سليمة . كان يوم صلة الأرحام والسعي في إصلاح ذات البين . لكننا جعلناه
يوم لهو ولعب وإسراف في اللذات والشهوات ، وإضاعة الأوقات في كل عمل غير

مفيد ولا حميد . تركنا فيه محاسن الآداب إلى بدع وعادات لا يقرها دين ولا يقبلها عقل سليم . لو كان لنا قلوب لذابت أسفاً على حال المسلمين من بين العباد . لو كان لنا شعور حتى لتألمنا لما حل بالإسلام من إذلال واضطهاد واستعباد . والله لو استقمنا كما أمرنا ما نزلت بنا المصائب ولا تحكمت فينا يد الأجانب . لو تمسكنا بديننا لنصرنا على أعدائنا وعاد لنا عزنا ، لو تحلينا بالصدق والوفاء والإخلاص والأمانة لتقدمنا على جميع الأمم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ما أجل هذا اليوم لو كان المسلمون فيه متحدين ، ما أحسنه لو كانوا فيه أوفياء أمناء صادقين . ما أسعده لو كانوا إلى إصلاح القلوب ملتفتين ما أهناه لو كانوا فيما يرق الأمة متضامنين متعاونين . فاتق الله أيها المفتون واسرع إلى حسن المسآب ، اتق الله أيها المغرور ولا تفرح بزينة الظاهر والباطن من الحياء خراب : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . في الحديث القدسي : يا ابن آدم خلقتك بيدي وريبتك بنعمتي وأنت تصيفني وإن رجمت إلىّ تبتُ عليك ، فمن أين تجدلك رباً مثلي وأنا الغفور الرحيم ؟ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا زاتم منصورين على أعدائكم مادتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم ، فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتي) .

وفي الخطبة الثانية بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله والتكبير سبعاً تقول : في هذا اليوم تذبح الضحايا فمن الذى يطعم منها المساكين ويهذى أرحامه وخيرانه ؟ في هذا اليوم يكثر الخير فمن الذى يمنح المحتاجين بعض ما تشتهى أنفسهم وعيالهم ؟ من الذى يعطف على الأرمال واليتامى بقليل من مال الله الذى عنده ؟ من الذى اعتبر بمجواث الأيام وتقلبات الزمان ؟ من الذى أيقن بالموت وفى وحشة القبر وأهوال القيامة تفكر فاتقوا الله وتقرؤا إليه بالضحايا ، وتوددوا إلى بعضكم بالهدايا ، واسعوا في إصلاح ذات البين ، وليصفح كل منكم عن أساء إليه ، وصلوا الأرحام وأكرموا الأيتام ، ومن جاء من طريق فليرجع من آخر لتكثر لكم

الشهادات ، وكبروا الله أيام التشريق عقب الصلوات « واذكروه كما هداكم ولذكروا الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » . روى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ضحى طيبةً بها نفسه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار) .

في الاقتصاد والتحذير من الإسراف والتبذير

الحمد لله الذي دبر شئون خلقه وأرشدكم إلى ما فيه الخير والسعادة ، وأشهد ألا إله إلا الله الرحيم بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الفضيلة ، الناهي عن الرذيلة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن سلك طريق الحزم والكمال . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » . أيها الناس : مالنا يأمرنا الله بالتوسط في أمورنا ، والاعتدال في قضاء مآربنا ، ونحن عن ذلك معرضون ، وفي الإسراف والتبذير واقعون ، وإلى الفقر والذلة صائرون ، مالنا يرشدنا الدين إلى السعادة فلا نهتدي بهديه ، وينصح لنا فلا نعمل بنصحه ، مالنا أخطأنا الصواب وضللنا سبل النجاح ، فأصبحنا من الإفراط في صرف الأموال والتمسادي في رهن المتاع والعقار على شفا جُرْفِ هار ، فانهار بنا في نار الفقر وعذاب الهون . تركنا ديننا فجعلنا نظام حياتنا وتديير شئوننا والرؤية في أعمالنا . فلا يعرف أحدنا لنفسه ميزاناً يزن به عمله ، ولا حساباً يضبط به مورده ومصرفه ، كي يفطن له أن يقتصد بمض ماله ، ليسد به عوزه إذا ألت به ملة ، أو نزلت به نازلة . فهل فينا من تنبه لذلك وتدبر عواقب الإسراف ؟ هل فينا من سلك طريق الاقتصاد فنفع نفسه وأمته ؟ هل منّا من اعتبر بمن أوقعهم سوء التصرف في ذل الدين ، وساقهم التبذير إلى هوة الفقر فأصبحوا نادمين ، وعلى ما جنت أيديهم ملومين محسورين ؟ أيها العامل أو الموظف المسرف ! ويا أيها الزارع المبذر ، ماذا تصنع إذا استندت اعتماداً على عملك أو وظيفتك ، أو حاصلاتك ، فانقطعت عن العمل ، أو نزلت جيوش المعاهد والآفات بالحاصلات فأهلكتها ؟ قل لي ماذا تصنع ؟ أترهن متاعك

ولباسك ، أم تبع عقارك ودارك ، أم تماطل دانتك ؟ أم تعلن بين الناس إفلاسك ؟ كل هذا شر عليك في العاجل والآجل ، ووبال عليك في الدنيا والآخرة ، فتمعظ بتفرك أيها العاقل ، واعتبر بمحادث الأيام . فالسعيد من بغيره اتعظ ، والشقي من كان عبرة للناس . أيها المسلمون : قبيح بنا أن نتقاد لهوانا ، ونركن إلى الطيش ، والغرور فنستدين لتتطاول في البنيان ، ونتفاخر بشييد الدور . وقبيح بنا أن نضيع أموالنا في حانات الخمر وبيوت الملاحى والفجور ، وحرام علينا والله أن نمد أيدينا إلى المصارف الأجنبية ، ونحمل أنفسنا مالا طاقة لها به ، ونوقعها في ذل وهم لا خلاص لها منه ، ولا نبالي بجرمة الربا وعواقبه الوخيمة . ونتأججه السيئة . قبيح بنا أن تكون أعمالنا كعماول المدم تنقض بها ما بنى الآباء والأجداد من الثروة ، وجمعوا لنا من الأموال . لم يكفنا جهلنا بوسائل الثروة ، بل أضعنا ما في أيدينا ، ومكنا المرابين من أساس حياتنا وموارد أرزاقنا ، وجعلنا للأجانب يداً علينا ، كل هذا من إسرافنا وسوء تصرفنا ، « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . هذه أفراحننا ، هل وقفنا فيها عند حدود الشريعة الغراء ، وكلها حكمة ورحمة ؟ هل وقفنا فيها عندما يرضاه العقل السليم والرأى السديد ! هل تركنا فيها الإسراف والتبذير رياء وافتخاراً ! هل تركنا نصب السرادقات وتعليق الرايات ، والمصاييح وإحضار المغنين والمغنيات والمطربين والمطربات ؟ وتلك ما تمننا هل اتبعنا فيها سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وسنة السلف الصالح من بعده ؟ هل منعنا منها نوح التأمحات ونذب النادبات ، « كلا » بل ضللنا سواء السبيل ، وتجاوزنا حد الاعتدال في جميع أمورنا ، واستحوذ الشيطان من ضعفنا على عقولنا ، وكل هذا وبال علينا ، وعلّة ضعفنا ، وسبب تأخرنا « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » . فلا تستسلموا يا قوم لهواكم . ولا تنقادوا لشهواتكم ففضيعوا الأموال فيما لا يجدى نفعاً ، ولا يجلب خيراً ؛ وأمامكم المشروعات النافعة ، والأعمال المفيدة فذلك خير لأمتمكم ، وأبقى لذكراكم . اتقوا الله واحذروا الإسراف والتبذير فإنه شر عليكم في دنياكم ، ووبال عليكم في آخرتكم . اتقوا الله والزموا التوسط المأمور به

في كتابكم ، وسيروا في أعمالكم سيرة سلفكم ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسدوا كما سدوا « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال « رواه مسلم . ويقول في الثانية . روى البيهقي والطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الاقتصاد نصف المعيشة » . ومعنى كونه نصف المعيشة أنها لا تقوم إلا بأمرين : الكسب والاعتدال في الانفاق فإذا انعدم أحد الركنين انهدمت المعيشة وساء حالها . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والدين فإنه همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار .

الدين ضرورى للحياة الاجتماعية

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، ورفع قدر من تمسك بأدابه ، ووقف عند حدوده . وأنهدم ألا إله إلا الله السميع البصير . وأنهدم أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تحلوا بأداب الدين فكانوا هم الفائزين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » عباد الله : إن الإنسان مهما وثى من قوة ليس فى استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ، ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج . وإنه مسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس لتبادل المنافع التى لا بد منها . إذن فاجتماع أفراد الإنسان ضرورى لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم فى هذه الحياة . ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينتظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل ، يردع الظالم عن ظلمه ، وينصف المظلوم من ظلمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال فى جميع شئون الحياة ومراقبتها . هذا القانون الذى يجمع النفوس عن الشر ، ويكفها

عن العدوان ، هو الدين لا سواه — الدين هو الذى يقومُ الطباعَ ويهذب
النفوسَ ويظهرُها من أدران النقائص والذائل . فيحرّم عليها الحقد والحسد ،
والنفس والنفاق ، والتقاطع والبغى والإضرار بالناس ويوجب العدل والمساواة ،
والصدق والأمانة ، والإخلاص والوفاء . وينهى بالتمسكين به ، والمهتدين
بهدية ، إلى منازل الرفعة والكمال . وإذا كانت الأديانُ السامويةُ قد اتفقت
على الدعوة إلى الله تعالى ، والحثّ على التحلى بالآداب العالية والخلال الحسنة ، فإن
الدين الخفيف قد اختص من بين سائر الأديان بأنه أكملها معنىً وأجلها صورة ،
وأوضحها بياناً ، وأقواها حجة وبرهاناً ، وأوقاها بمصالح البشر الدنيوية والأخروية .
بل هو الصراط السوى والمنهج القويم . من سلكه فقد اهتدى ، ومن انحرف
عنه ضلّ وغوى « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى
وسبحان الله وما أنا من المشركين » . دين يخاطب العقول ويألف الأفهام ويمتزج
بالأرواح ويتنقل في أعماق القلوب حتى يأخذ له منها مقرّاً ، ولا تجد بما أرادها منها
مفراً — دين يبهز العقول بآيات لا تشبه بأعمال الساحرين ، وحيل المساكين ،
ولكنه الحق اللامع ، والنور الساطع ، والذهب الإبريز ، جميل له منه عليه
شواهد — دين أساسه التوحيد ، وروحه الإخلاص والمحبة ، وشعاره العدل
والمساواة ، والتسامح والإحسان ، والطهارة والرحمة . فلا عبادة فيه إلا ما يظهر
النفوس من ظلمة الرجس والمصيان ، ويفرس فيها روح التعاون والاجتماع ،
ولا معاملة فيه إلا ما يحفظ نظام العالم من الفوضى والاضطراب ، ويكفل راحة
الاجتمع في تبادل المنافع الحيوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم
الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أيها الناس : هذا
قبس من أنوار دينكم القويم ، ونبذة من أخلاقه الكريمة ، وآدابه الراقية ،
ذكّرناكم بها لتصلوا عليها ، فإن الذكري تنفع المؤمنين . فاتقوا الله ربكم وتمسكوا
بدينكم وجدّوا في إمامة الجهل والابتداع ، وعليكم بكتاب الله وسنة رسول الله .
وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . « فإن توليتم فاعلموا

عما على رسولنا البلاغ المبين » . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف نبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى .

في وجوب الاعتصام بالدين

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، وأعز من تمسك بأدابه ووقف عند حدوده ، وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه . فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها . وما عند الله خير للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . قال الله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . (عباد الله) إن الله تعالى قد وهب للناس عقولاً : وأكرمهم بتكليف شرعى ، وقانون محكم سماوى . ينفادون لأحكامه فلا تختلف بهم الآراء ، ويخضعون لأوامره فلا تلعب بهم الأهواء ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . فإن العقول البشرية وحدها لا تهتدى إلى كل ما فيه صلاحها فى العاجل فضلاً عن الآجل . فالمجتمع الإنسانى لا بد له من الدين ، وإلا كان الناس كاسباع الحيوانية والوحوش البرية — وقد كان المسلمون سادة أقوياء ، أعزاء أصفياء . يوم كانوا متمسكين بدينهم ، مهتدين بهديه واقفين عند حدوده . وقد تبدلت قوتهم ضعفاً ، وانقلب عزمهم ذلاً من يوم تركوا العمل به ، وأعرضوا عن هديه ونصائحه . يا قوم إن فلاح الأمة وسعادتها فى العاجل والآجل موقوف على شيء واحد ، ألا وهو التمسك بالدين الذى أمرت أن تدين به ، وتقف عند حدوده ، وتمتثل لأوامره وتجتنب نواهيه . فإن الدين

ما شرع إلا تهذيب النفوس ، ومنعها من الشهوات الرديئة ، وحفظ النظام من الفوضى والاضطراب . فلا صلاح للناس إلا به . ولا سلامة لهم من مخاطر الشقاء إلا به . الدين أكبر زاجر للضائر ، وأعظم مصلح للسرائر . رقيبٌ في الخلوات ، نصوخ في الملمات . الدين أحكم قانون لإصلاح الحياة واستقامتها ، وأنفع وسيلة لانظامها وسلامتها . بما أرشد إليه من سعادة الدنيا والآخرة ، وما كان به سعادة الدنيا والآخرة فحق العاقل أن يكون به متمسكا ، وعليه محافظاً . وإجمالاً إن الدين الخفيف أساس العمران ، والسبيل الوحيد إلى سعادة الدارين ، وما بلغت الأمة الإسلامية في إبان نشأتها تلك الدرجة العليا : من العز والقوة ، إلا بالوقوف عند حدود الدين . فكانت عاملةً بوصاياه ، محافظةً على نصابه ؛ ناشرةً للفضيلة ؛ محاربةً للنقيصة ، حاكمةً بالعدل في الصديق والعدو ، صادقةً في الأقوال والأفعال ، مخلصه في جميع الأحوال . ففتحت في أقل من عشرين سنة أكثر مما فتحه أكبر دولة في عدة قرون . فيا أيها المسلمون : اتقوا الله وخافوا عواقب ما أنتم عليه من التهاون بأمور الدين ، فإنه لا حياة إلا بالدين ، ولا مساعدة في الآخرة والأولى إلا بالدين . يا قوم راقبوا الله وتمسكوا بدينكم وأحيوا سنة نبيكم تفلحوا وتنصروا : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي : كتاب الله وسنة رسوله » .

الإنسان - مآله ومصيره

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار كسب وعمل ، والآخرة دار ثواب وعقاب . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، وأشهد ألا إله إلا الله الدائم الباقي بعد فناء خلقه . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الله بإذنه . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين جاهدوا في الله حق جهاده ففأشوا أعزة وماتوا سعداء . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « كل شيء هالك

إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» . أيها الناس — كل مدة في الدنيا إلى انتهاء
وكل حي فيها صائر إلى الفناء . وكل شيء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل
« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فهبنا الإنسان يجرُّ
في ثياب صحته ، متمتعاً بنعمة العافية ، فرحاً بقوته وشبابه ، لا يحظر له الضعف
على قلب ، ولا الموت على بال . إذ هجم عليه المرض ، وجاءه الضعف بعد القوة ،
وحل المم من نفسه محل الفرج ، والكدر مكان الصفاء ، ولم يعد يؤنسه جليس ،
ولا يريحه حديث . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قد سئم ما كان يرغبه
في أيام صحته ، وصار لا يشتهي الغذاء ، ويكره تناول الدواء ، على بقاء في ليه ، وصحة
في عقله . يفكر في عمر أفناه ، وشباب أضاعه ، ويتذكر أموالا جمعها ، ودوراً بناها
وقصوراً شيدها ، وضياعاً جدياً وكدياً في حياتها . ويتألم لدنيا يفارقها ، ويترك ذرية
ضعافاً يخاف عليهم الضياع من بعده ، مع اشتغال نفسه بمرضه وآلامه ، وتعلق قلبه
بما يعجل شفاؤه . ولكن ما الحيلة إذا استفحل الداء ولم يقدر الدواء ، وحر الطبيب
ويئس الحبيب : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » . عند
هذا يستشعر الندم على ما مضى ، ويحس بمواقب التفريط والإهمال ، وقد تغير لونه ،
وغارت عيناه ، ومال عنقه وأنفه ، وذهب حسنه وجماله ، وخرس لسانه ، وصار بين
أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل ، ويسمع ولا ينطق . يقلب بصره فيمن حوله
من أولاده وأهله ، وإخوته وأقاربه ، وأحبابه وجيرانه : ينظرون ما يقاسيه من كرب
وشدة . ولكنهم عن إنقاذه أو تخفيف كربهم عاجزون . وبعد أن كانوا يحبون حياته
وبقاءه صاروا يتمنون موته وراحته . وهو يعلم أنه عما قليل مأخوذ من بينهم ؛ حيث
لا يقدر على منعه ، ولا يستطيعون رد روحه إلى بدنه : « فلولا إذا بلغت الحلقوم
وأنت حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم
غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » . ثم لا يزال يعالج سكرات الموت ويشتد به
الترزع وقد تتابع نفسه واختل نبضه ، وتمطل سمعه وبصره ، كما تمطل قبل ذلك لسانه
حتى إذا جاء الأجل ونفذ القضاء ، وفاضت روحه إلى السماء . صار جثة هامدة ،

وحيفة بين أهله وعشيرته ، قد استوحشوا من جانبه ، وتباعدا من قربه ، ومات اسمه الذى كانوا يعرفونه ، كما مات شخصه الذى كانوا يأنسون به ، وأصبحوا يقولون (الميت) بعد أن كانوا ينادونه باسمه حياً إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أخذه الغاسل فجرده من ثيابه ، وصار يقلبه بين يديه عرياناً ، ويضع يده فى سوءته وعورته وقد كان يستحى من ذلك ويخجل منه حال حياته . ثم أدرج فى أكفانه كما يدرج المتاع فى لفافته ، وبعد الصلاة عليه يحملونه إلى حفرة عميقة ضيقة . مظلة موحشة . وتركوه فيها وحيداً فريداً ، لا أنيس له ولا رفيق سوى عمله ورحمة مولاه ، فيضمه القبر وتحضره الملائكة ، يسألونه عن اعتقاده فى الله ورسوله وكتابه ، وعن طاعته وعبادته ، وكيف كانت معاملته للناس . أما المؤمن الطائع فلهم موفى مكرم مرحوم وأما المنافق العاصى فمضطرب مخذول مهان معذب . والقبر بعد ذلك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . فياعباد الله كفى بالموت واعظاً فأكثروا من تذكره ، وأطيلوا التفكير فيما بعده من مخاوف القبر وأهوال يوم القيامة . فإن تذكر الموت يحمل على الاستعداد له ، ويكف المرء عن الشرور والغواية ، ويهون عليه كثيراً من هموم الدنيا ، والدنيا كلها متاع وهموم ، والآخرة راحة وصفاء : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين . ومن لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، فليطلب له رباً سواى » . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . وتقول فى الخطبة الثانية : (أيها الناس) الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل . والناس فيها أقسام ثلاثة ، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، والسابقون المقربون ، ولكل قسم منها جزاء مناسب لعمله ، فإن كان المرء من السابقين

المقربين فله بعد الموت راحة ورحمة ، وإحسان عظيم ، ورزق كريم ، ونعيم يفوق الوصف . وإن كان من أصحاب اليمين فله أنس وتحيات من إخوانه أصحاب اليمين ، مع تكريم الملائكة له : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وإن كان من أصحاب الشمال فله ماء شديد الحرارة ، يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، يتناوله بعد أن يأكل من الزقوم طعام الأثيم ؛ يغلى في البطون كغليان الماء على النار . قال الله تعالى في هذه الأقسام الثلاثة إجمالاً بعد الموت : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ، إن هذا هو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » . وأما العاصي الذي مات على غير توبة فيعاقب على جريمته ، ثم يفضل الله عليه بدخول الجنة آخر الناس . فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتوبوا إلى الله قبل ألا تتوبوا .

في فضل بناء المساجد

الحمد لله الذي أضاف المساجد لنفسه تشریفاً لقدرها فقال تعالى : « وأن المساجد لله » وحث على عمارتها تسهيلاً للعبادة وعناية بأسرها . وأثنى على من أحيائها ببناء أو عبادة ، وجعلها موضع التجلي والتجلي . لا إله غيره ، ولا معبود سواه . وأشهد ألا إله إلا الله يسجد له من في السموات والأرض . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء والشفيع يوم العرض . اللهم صل وسلم على هذا النبي البهي ، أول من أسس المساجد في الإسلام . وعلى آله وصحبه الذين أثنى الله عليهم بقوله : « رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فسي أولئك أن يكونوا من المهتدين » عباد الله : المساجد بيوت الله ، فيها يعبد ، وفيها يذكر اسمه . حقا إنها بيوت الله ، وإن من شأن الكريم أن يكرم من زاره في بيته ، وأن المساجد في الأرض مزار الملائكة في السماء . منها تصعد الأعمال ،

وإليها تنزل الرحمة — وإذا كانت العلماء حماة الدين ، ومصاييح الهدى . فالساجد
حصون الأمان لمن تعلق بها قلبه وأخلص لله في عمله . يعمُرُ المساجد أهل الغيرة
على الدين . والحب للإسلام ، والصدق في الإيمان . تُبنى المساجد لإقامة الشعائر
وإظهار أعلام الدين ، لا لنوم فلان ولا للتحدث مع فلان ، تبنى المساجد فيفرح
بيننا أهل السماء والأرض ، ويجعلها الله مهبط الرحمة والرضوان . تبنى فتُدعى بيوت
الله . فطوبى لمن شيدها ، وطوبى لمن فيها تعبد . المساجد فيها تقام شريعة المصطفى
ومنها تصدر فضائل الأمة — أيها الناس : إن المساجد تشهد يوم القيامة لمن بناها
أو أحيها بالذكر والطاعة . وإن المساجد من أعلام الدين إذا بُنيت ، ومن علامات
النصر والخير إذا عرف حقها المؤمنون . عَرَفَ هذا أهل الخير قبلكم : فبنوا المساجد
مثلكم ، ولم يتركوها عرضة للضياع ، بل وقفوا لها من الغلات ما يصون حياتها ،
ويضمن بقاءها ، وقد فرحوا بها يوم افتتاحها ، وفرح معهم بها أهل الأرض والسماء .
وقد فارقوا الدنيا وتركوا آثارهم ومساجدهم شاهدة لهم بصدق الإيمان وقوة العزيمة .
وإن إقامة هذا المسجد العظيم للسان ناطق ، وشاهد صادق ، على حب من أقامه
للخير ، وغيرته على شعائر الدين . فلئن دعونا للأولين السابقين ، وشكرنا لهم حسن
صنيعهم ، فلن يفوتنا أن نضرع إلى الله الكريم أن يتقبل أعمالكم ، ويميزكم
أحسن الجزاء وأعظم الأجر . ففي الحديث القدسي : « عبدى إذا لم تشكر من
أجريت الخير على يديه لم تشكرنى » . اللهم كما أكرمت المساجد في البلاد أكرمت
المساجد من أهل الغيرة والإصلاح ، وأكرمت المساجد من أهل الهدى والاستقامة ،
حتى يبقى الدين وتبقى الشعائر يارب العالمين . في الحديث القدسي عن رب العزة :
« إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإن رُؤى فيها عمارها ، فطوبى لمن تطهر فى
بيته وزارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره » . وفى الصحيحين « من
بنى لله مسجداً بنى الله له كهنته فى الجنة » — وفى رواية : بنى الله له بيتاً فى الجنة .

عظات متنوعة

يذكرها المرشد في المناسبات ، من الحكم والأحاديث النبوية والقدسية ،
وآثار السلف ، وملح تاريخية ، وفكاهات أدبية ، في الشؤون الاجتماعية — فمن
الحكم المأثورة : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من
بقلبه مرض ستمع الأذن لا ينفع مع غفلة القلب . شيثان لا يعرف فضلها إلا من فقدهما
الشباب والعافية . حلاوة الظفر تمحو مرارة الصبر . ومن الحكم قول الخارت
ابن كلدة طيب العرب : المعدة بيت الداء ، والحلية رأس الدواء ، وعودوا كل جسم
ما اعتاد . غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه . في الدنيا عمل ولا حساب ، وفي الآخرة
حساب ولا عمل . للشدائد تدخر الرجال . وقال الإمام علي رضي الله عنه : عاتب
أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه . من وضع نفسه مواضع التهمة
فلا يلومن من أساء به الظن . لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستفيد يوماً
من عمره إلا بفراق آخر من أجله . السكوت عن الأحمق جوابه . إن لم تكن ملجأ
تصلح ، فلا تكن ذباباً تفسد . من غرّب الناس تخلّوه . خير الأعمال أحلاها
عاقبة ، وخير مالك ما نفعك . لا تعد نفسك من الناس مادام الغضب غالباً عليك .
من أطاع غضبه أضاع أدبه . من عرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب
لم يجز صدقه . آفة المروءة خلف الوعد . من اتكل على زاد غيره طال جوعه . إذا
ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك . وقال عيسى عليه السلام : ألا أخبركم
بمخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى قال : من تذكرم بالله رؤيته ، ويزيد في عملكم منطقتي ،
ويشوقكم إلى الجنة عمله . وقال للحواريين : عجيباً لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها
بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل . وفي الحديث القدسي عن
رب العزة : يا ابن آدم لا تخف من سلطان مادام سلطاناً باقياً ، وسلطاني لا يتقدأبداً .
يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك ، فإنك إن طلبتني وجدتنى ، وإن أنست بغيري
تُتِّك وفاتك الخير كله ، يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب ؛ وقسمت لك رزقك

فلا تنعب . إن كثرت فلا تفرح ، وإن قل فلا تجزع . وفيه : عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحمت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندى مذموماً . وفيه أحب ثلاثاً وحي ثلاث أشد : أحب أهل السخاء وحي للفقير السخى أشد ، وأحب المتواضعين وحي للغنى المتواضع أشد ، وأحب التائبين وحي للشاب التائب أشد — وأبغض ثلاثاً وبغضى ثلاث أشد : أبغض البخلاء وبغضى للغنى البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين وبغضى للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفساق ، وبغضى للشيخ الفاسق أشد . وفيه : عبدى أخذك الشيطان منى لا لعجزى ولكن لضعفك أنت . وفيه : عبدى كم أنحب إليك بالنعم وتتبغض إلى بالمعاصى . خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد . وفيه يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطالبك بعمله ، فإنى لم أنس من عصاى فكيف من أطاعنى . وفيه يقول الله تعالى : من استسلم لقضائى وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى ، كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ، فليخرج من تحت سمائى وليطلب له ربا سواى وفيه يا ابن آدم خلقتك بيدي وربيتك بنعمتى ، وأنت تحالفنى وتعصينى ، وإن رجعت إلىّ تبت عليك ، فمن أين تجدد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم ؟ وفيه : ما أقل حياء من يطعم فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من يحل بطاعنى . وفيه : إني أممٌ بمذاب عبادى ، فانظر إلى عمار المساجد وجلساء القرآن ، وولدان الإسلام ، فيسكن غضبى . وفيه : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم لأقبلوا ، هذا بالمدبرين عنى ، فكيف بالقبلين علىّ وفيه : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامة . آمنته بالمد جعلت له الأمان . رواه ابن حبان فى صحيحه . وفيه يا عبادى إني أوجدتكم من العدم بقدرتى وورزقتكم من الطيبات ، وأتممت عليكم نعمتى ، وأرسلت لكم الرسل الكرام لتعرفوا

أحكام شريعتي ، فلماذا تعرضون عني وأنا الغني الكريم ؟ فوعزتي وجلالي لئن
أطعتموني لنصرتكم على أعدائكم ، وإن سألتوني كنت قريباً منكم ومحيباً لدعائكم
ولكن عصيتموني فوقتم في الذل والعذاب المهين ، ومن كلام ابن مسعود رضي الله
عنه : إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة ، والموت يأتي
بثتة ، فمن زرع خيراً يوشك أن يزرع رغبة ، ومن زرع شراً يوشك أن يحصد ندامة
ولكل زارع مثل ما زرع ما قل وكفى خير مما أكثر وألمى ، خير الغني غنى النفس
وخير الزاد التقوى . والحمر جماع الإثم ، والنساء حياثل الشيطان . والشباب شعبة
من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية . إني لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس في شيء
من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة . من لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم
يزدد بها من الله إلا بعداً ، أطلب قلبك في ثلاث مواطن : عند سماع القرآن ، وفي
مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة . فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن
عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك ، قيل لبعض الحكماء : أي شيء أنفع للإنسان ؟ .
قال : عقل يولد به ، قيل فإن فاته ذلك ؟ قال كرم يستره — قيل فإن فاته ذلك ؟
قال أدب يقومه . قيل فإن فاته ذلك ؟ قال صمت يلزمه . قيل فإن فاته ذلك ؟ .
قال قبر يحويه . وقال بعض الحكماء : اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة
بقدر مقامك فيها ، واعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها .
ثلاثة يضيع المعروف عندهم : اللثيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والشرير فإنه يرى
الذي أسديت إليه مخافة شره ، والأحمق فإنه لا يدري مقدار ما صنعت إليه . ثلاثة
يستأنس بهم ، الصديق المصافي : والولد البار ، والزوجة الصالحة ، جليس الخير
غنيمة ، وجليس الشر شيطان ، جليس السوء كالثقلين إن لم يحرق ثوبك دخنه ،
خير المال ما أخذ من الحلال وصرف في النوازل ، وشر المال ما أخذ من الحرام
وصرف في الآثام . وجه تشبيه الدنيا بالماء (١) أن الماء جار بالطبع ، يجري ولا يستقر
كذلك الدنيا لا تستقر (٢) قليل الماء يكفي وكثيره يهلك (٣) الماء إذا طال حبسه
تغير وفسد واستحال في حق متناوله سقماً ، كذلك الدنيا لمسكها أذى وبلاء .

من الحكم : إذا لم يكن من الموت بد ، فمن العجز أن تكون جباناً ،
وإذا كان بيتك من زجاج ، فلا ترم الناس بالحجارة . قيل للعباس بن مرداس
في الجاهلية : ألا تشرب الخمر ؟ . فقال : ما أنا بأخذ جهلى بيدي فأدخله جوفى ،
ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وأمسى سفيهم . وقال : ألا إن شارب الخمر
عدو عقله ، ومن عادى عقله فقد عادى نفسه ، ومن عادى نفسه فهو عدو الناس
أجمعين ، شبه الشيء منجذب إليه ، روى أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء ،
وكان بالمدينة أخرى فنزلت للمكية على المدينة ؛ فدخلت على عائشة رضي الله عنها
فأضحكتها فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبيتها ، فقالت : صدق الله ورسوله
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها
اختلف وما تناكر منها اختلف » . رواه الحسن بن سفيان في مسنده ، وهو عند
البخارى تعليق مختصر . ودخل عبد الله بن جعفر مكة ومعه أصحابه فلما أصبح قام في
أهل مكة خطيباً فقال : يا أهل مكة عرفناكم في ليلة واحدة . قالوا : وكيف ذلك ؟
قال : جئنا وفينا أختيارنا وأشرارنا فنزل أختيارنا على أختياركم وأشرارنا على أشراركم
فلذا عرفناكم في ليلة واحدة ، ولو أن مجلساً فيه تسعة وتسعون مؤمناً ومناق واحد
جلس المناق على مثله وبالعكس ، فشببه الشيء منجذب إليه : والطيور على أشكالها
تقع . كان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف
من الآخر يناسبه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الطباع
والأوصاف فلا بد أن يفترقا « راجع الإبداع الطبعة الرابعة صفحة ٤٣٣ » * وقال
بعض الحكماء يعدد مرافق الدنيا : تطاب الدنيا لثلاث : للغنى والعزة والراحة ،
فن قنع استغنى ، ومن زهد فيها عز ، ومن قل سعيه استراح . وقال المأمون في
تقسيم الإخوان : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة
كالدواء يحتاج إليه أحياناً ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً . وقال الإمام على
رضي الله عنه : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل .
فأما الرجل فذو الرأي والشورى ، وأما نصف الرجل فالذي له رأى ولا يشاور .
وأما الذي ليس برجل فالذي لا رأى له ولا يشاور .

الدين والمدنية الحاضرة

دل البحث على أن المدنية الحاضرة قامت على العلم والمال والنظام والقوة . فما عظم سلطان أمة وسادت العالم لأنها تلبس زيا خاصاً ، أو لأن المرأة فيها مهتكة ، أو لأن أبنائها تمردوا على دينهم ، ونسقوا عن أمر ربهم ، وخرجوا على تعاليمه ورفضوا العمل بوصاياه . فبالعلم اكتشف النافع واخترع المفيد ، والوقوف على أسرار الطبيعة ، واستخدامها في اقتصاديات المرء وفي شئونه الحربية ، ليتمكن من نشر نفوذه على الأمم ، ومد سلطانه على الشعوب . وليس يكون شيء من ذلك بتهتك المرأة ولبس القبعة . ولولا المال ما انتصر في حروبه ، واستقام له الأمر في داخلته ، وتم له تحقيق رغباته . ولو تجرد من النظام لما تهيات له تلك المشروعات والشركات والجمعيات والمجالس والحكومات ، وما إلى ذلك مما يضمن السعادة والعظمة في شئونه الداخلية والخارجية . وبالقوة تنشر الدولة نفوذها وتخضع الشعوب لأمرها ، ولو تجردت منها ولبس شخص منها ألف قبعة وقبعة لما تم له امتلاك شعب أو إخضاع أمة أو مد سلطان أو نشر نفوذ . وإجمالاً إذا تجردت أمة من العلم والمال والنظام والقوة ثم وجد فيها مائة ألف مليون من فاسدى الأخلاق والمتمردين على الله تعالى ما تم لها سعادة ولا كان لها رقى تفاخر به — للأمم أن يقلد بعضها بعضاً في وسائل القوة وأسباب النظام في المناهج الاقتصادية والوجوه الحيوية والأدبية لأن المعارف البشرية مشاعة بين الأمم ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الأمم الحاضرة بعضها بعضاً ، ولا عار في ذلك ، فثلك سنة الله في خلقه ؛ من سماحة الدين أنه لو أتلف مسلم خمر الذى أو خنزيره يضمنها بالقيمة . ويحكى أن نصرانياً مرَّ بفرس له على عائير عمر رضى الله عنه ففشَّره . ثم مر به ثانياً فهمَّ أن يعشَّره فقال النصرانى . كلما مررت بك عشَّرتنى إذا يذهب فرسى كله . فتركه عنده وذهب إلى عمر رضى الله عنه . فلما دخل المدينة أتى المسجد فوضع يده على عتبة الباب فقال : يا أمير المؤمنين أنا الشيخ النصرانى . فقال أمير المؤمنين : أنا الشيخ الحنفي ؛ قصص

النصراني القصة . فقال عمر رضى الله عنه : أتاك الفوث . فتنكس رأسه ورجع إلى ما كان عليه . فظن النصراني أنه استخف بظلامته فرجع كالحائب . فلما انتهى إلى فرسه وجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبقه : إنك إن أخذت العشر مرة فلا تأخذ مرة أخرى . فقال النصراني : إن ديناً يكون العدل فيه بهذه الصفة لحقيق أن يكون حقاً فأسلم . وعشره بعشره بالضم أخذ منه العشر ، ومنه العاشر . وقفت أعرابية على جماعة فقالت لهم : ما الكرم يرحمكم الله ؟ قالوا : بذل المعروف والإيثار على النفس . قالت : هذا في الدنيا . فما هو في الدين ؟ قالوا : طاعة الله سبحانه وبذل المجهود في العبادة واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده . قالت : أفتر يدون بذلك جزاء ؟ قالوا : نعم . قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . فقالت : سبحان الله ! ! فإذا أعطيتم واحدة على أنكم تأخذون عشراً ؛ فأين الكرم ؟ قالوا : فما هو يرحمك الله . قالت أن يُعبد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء يفعل بكم مولاكم ما شاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم أنكم تريدون شيئاً بشيء .

إذا اشتد الكرب هان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدت شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ؛ فقال : ألستم تذهبون فراغاً وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة . فبلغ ذلك سليمان فشتلهم ذاهبين وراجمين ، فشكوا ذلك إلى إبليس . فقال : ألستم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة لكم نصف دهركم . فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشتلهم بالليل والنهار ، فشكوا ذلك إلى اللعين فقال : الآن جاءكم الفرج . فما لبثوا أن أصيب سليمان ميتاً على عصاه فإذا كان هذا في نبي من الأنبياء لا يعمل إلا بأمر الله تعالى ويقف عند حده فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية هل تكون مع التناهي إلا منقرضة وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة ؟

السن بالسن

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن عمته أم الربيع لظمت جارية فكسرت ثنيتها . فطلبوا إليهم العفو فأبوا ، والأرش فأبوا إلا القصاص ، فاخصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص . فقال أنس بن النضر : أنكسر ثنية أم الربيع قال : والذي بعثك بالحق نبياً لا تكسر ثنيتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنس كتاب الله القصاص » . فرضى القوم فعموا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . متفق عليه . روى أن رجلاً سراً بأبي الدرداء وهو يغرس شجر الجوز ، فقال : أنفوس هذا وأنت شيخ كبير وهو لا يُطعم إلا في كذا وكذا عاماً ؟ فقال : ما على أن يكون لى أجره ويأكل منه غيرى . ومراً أنوشروان على رجل يغرس شجر الزيتون فقال : ليس هذا أو أن غرسك الزيتون ، وهو شجر بطيء الإثمار . فأجابه : غرس من قبلنا فأكلنا ونغرس لئلا نكل من بعدنا . فقال أنوشروان : زه ؛ أى أحسنت . وكان إذا قال زه يعطى من قيلت له أربعة آلاف درهم . فقال : أيها الملك كيف تعجب من شجرى وإبطاء ثمره فما أسرع ما أثمر . فقال : زه ؛ فزيد أربعة آلاف أخرى . فقال الرجل . كل شجر يشمر فى العام مرة وقد أثمر شجرى فى ساعة مرتين . فقال : زه ؛ فزيد مثلها . فضى أنوشروان فقال : إن وقفنا عليه لم يكفه ما فى خزائنا . روى أن عيسى عليه السلام كان مع صاحب له بسبحان فأصابهما الجوع وقد اتھيا إلى قرية ، فقال لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية . وقام عيسى يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة . فأبطأ عليه انصراف عيسى ؛ فأكل رغيفاً ، فانصرف عيسى فقال : أين الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى . فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فدكاه فأكلا منه ، ثم قال عيسى للظبي : قم ياذن الله فإذا هو يشتد ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف ؟ قال : ما كانا إلا اثنين . فضيا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده فشى به على الماء حتى جاوزا الماء . فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى

أراك هذه الآية من صاحب الرغيف ؟ قال ما كانا إلا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ابنٌ ثلاث من ذهب ، فقال عليه السلام : واحدة لى وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عليه السلام : هي لك كلها . وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر قتلوه وأخذوا اللبن . فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام ، فذهب فقال أحد الباقين : تقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا . قال الآخر : نعم . وقال الذى ذهب يشتري الطعام أجعلُ فى الطعام سماً فأقتلها وأخذ اللبن ، فعمل . فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذى جاء به فماتا . فمر بهم عيسى وهم حولها صرعى ، فقال : هكذا الدنيا تعمل بأهلها * وقال أزدشير لابنه : يا بنى إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس . وما لم يكن له حارس فضائع . يا بنى اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد وبشرك لأهل الدين . وسرك لمن عناه ما عناك ، ولتكن من أهل العقل ، وكان يقال الدين والسلطان توأمان . وقال بُرْجَمَهْر : سُوَسُوا أحرار الناس بمحض المودة . والعامّة بالرغبة والرهبّة والسفلة بالتهديد والخافة * وقال معاوية رضى الله عنه : إني لا أضع سبى حيث يكفينى لسانى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خيلتها ، وإذا خلوها مددتها . ونحوه قول الشعبي : كان معاوية كالجمل الطب — وهو الحاذق بالشئ — لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه * قال ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة يزوالها ، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدب أو علم أو دين * من حسن السياسة : أمر عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : أعن موجدة أو خيانة . يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك * وقال لقمان لابنه : يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة . لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه * من دعاء عيسى عليه السلام : اللهم لا تُشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى

صديقي ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى . ومن دعاء عائشة
رضى الله عنها : اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك
من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك
وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تجعل
عاقبة أمرى رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين * كان خالد بن الوليد رضى الله عنه مثلاً
أعلى فى شجاعته وطاعته وإخلاصه : روى أنه قال عند موته : لقد شهدت مائة
زحف أو زهاءها وما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا ذا
أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء * قال حكيم : موت الجبان
فى حياته وحياة الشجاع فى موته فموتوا لتعيشوا فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .
البغى ونقص العهد : فى الحديث « أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأبجل الشر
عقاباً البغى واليمين الفاجرة » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على
جبل لذلك الباغى . وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والمكر
والنكث قال الله تعالى : « إنما بغىكم على أنفسكم » ، « ولا يحق المكر السيء
إلا بأهله » ، « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » * حكى أن سائلاً قال لبعض
العلماء : أين تجد فى كتاب الله معنى قولهم : الجارَ قبل الدار ؟ قال فى قوله تعالى :
« ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لى عندك بيتاً فى
الجنة » فطلبت الجارَ قبل الدار . وروى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم
أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتى على ذلك بشاهد من
كتاب الله تعالى وإلا قتلتك . فقرأ عليه « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب
ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى »
فبعيسى ابن بنته . فسكت * عن محمد بن كعب القرظى قال : دخلت على عمر بن
عبد العزيز رحمه الله فى مرضه الذى مات فيه فجعلت أجدُّ النظر إليه ، فقال لى :
يا ابن كعب مالك تُجدُّ النظر إلى ؟ قلتُ : لما نحل من جسمك وتغير من
لونك . قال فكيف لو رأيتنى بعد ثلاثة فى قبرى وقد سألت حدقتى على
وجنتى ، وابتدر فى وأنى صديداً ودوداً ، كنت لى أشدُّ نُكْرَةً . أعد

على حديثاً كنت حدثتني عن ابن عباس . قلت سمعت ابن عباس يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل شيء شرفاً وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، ومن أحب أن يكون أعز الناس فليتنق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ثم قال ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من نزل وحده ومنع رفقده ، وجلد عبده ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من يبغض الناس ويبغضونه * إن عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيبه فاجتنبوه ، وأمر مختلف فيه فإلى الله ردوه * إبراهيم عليه السلام — يدعى أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده ، وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأولي إسحاق ومنه جميع أنبياء بني إسرائيل ، وأعظمتهم وأبقام أئراً موسى وعيسى عليهما السلام ودين موسى يسمى باليهودية : نسبة إلى يهود أحد أسباط إسرائيل ، وأهو السبط الأكبر الذي كان منه جلة ملوك بني إسرائيل ، ودين المسيح يسمى النصرانية نسبة إلى الناصرة ، وهي أول قرية علم بها المسيح ، فقال العرب : ناصيري وناصري . وكان هو يدعى الناصري . والفرع الثاني كان منه إسماعيل وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً أشربة إبراهيم . مر إبراهيم بن آدم بسوق البصرة فاجتمع الناس عليه وقالوا : يا أبا إسحاق مالنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم مانت بعشرة أشياء (١) عرفتم الله فلم تؤدوا حقوقه (٢) زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته (٣) قرأتم القرآن فلم تعملوا به (٤) أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها (٥) قلت

إن الشيطان عدوكم ولم تخالفوه (٦) قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها (٧) قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها (٨) قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له (٩) انتهبتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم (١٠) دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .
حكى عن بعض الصوفية أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟
قال : أجاهده . قال : فان عاد ؟ قال أجاهده . قال هذا يطول ، ولكن رأيت لو
سررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأرد عليه
جهدى . قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك .
والمستعاض منه الشيطان وأعوانه والنفس والهوى والدنيا . كان الإمام أبو حنيفة رحمه
الله يقول هذه الآية « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » أخوف آية في القرآن
حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه . من
حفظ الله لرسوله ماروى الكلابي عن أبي صالح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
غزا محاربا وبنى أعمار فزولوا ولا يرون من العدو واحداً ، فوضع الناس أسلحتهم
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له ، وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى
والسواء ترش ، فخال الوادى بينه وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم
فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال : قتلتني الله إن لم أقتلك . ثم انحدر من
الجليل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه
وقد سل سيفه من عنقه ، فقال يا محمد من يعصمك مني الآن ؟ فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : الله عز وجل . ثم قال : اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت
ثم هوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب على وجهه من
رأفة زلخها بين كتفيه ، فبدر سيفه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه
ثم قال : يا غورث من يمنك مني الآن ؟ قال : لا أحد . قال عليه الصلاة والسلام
تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيتك سيفك ؟ قال لا ، ولكني
أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك أحدا . فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
سيفه فقال غورث . والله لأنت خير مني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا

أحق بذلك منك . فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فأمن بعضهم . قال : وسكن الوادي فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر « متفق عليه زانحه بالرمح بزليخة زجه وطعنه . بنى عامل للرشيد قصرأ حذاء قصره فبنى به ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته ، فأحبت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك على فأعجبه كلامه . في التحذير من الدين : عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتى بجنابة فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه ثم أتى بجنابة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنائير فصلى عليه » . لعله صلوات الله وسلامه عليه علم أنها تقي دينه . « ثم أتى بالثالثة فقالوا صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنائير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلى دينه . فصلى عليه « متفق عليه ، من آداب الإسلام عن أنى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا : مالنا بد منها إنما هي مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإن أبيتكم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر » رواه البخارى .

الإسلام دين المساواة

في صحيح البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهتمهم المرأة الخزومية التي سرت فقالوا من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترى عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال انشفع في حد من حدود الله ثم قام فخطب قال أيها الناس : إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت

محمد سرقت لقطع محمد يدها . وقال أهل التحقيق طيب العيش يكون بأمر أربعة :
(١) عبادة المنعم سبحانه مع أكل الحلال (٢) الرزق الحلال الطيب (٣) القناعة في
الدنيا والرضا منها باليسير كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : في دعائه اللهم قنني
بما رزقتني (٤) رزق يوم بيوم فمن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
كان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً : والقناعة وحدها تكفي لهذا ، لأنه
ألا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحرير فإنه أبداً في كد
وعناء ، وعيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه . (١) لعلمه أنه تعالى
مدبر حكيم فكان راضياً بكل ما قدره وقضاه ، أما الجاهل فلا ، فكان أبداً في
عناء وشقاء (٢) إن البلبايا هينة عليه لكونها فعل الإله ، فأما الجاهل فهي شديدة
عليه عظيمة التأثير في نفسه (٣) المؤمن يعلم خمسة لذائد الدنيا وسرعة زوالها فلا يفتن
لفواتها بخلاف الجاهل فلا يعرف سعادة تغيرها فلا جرم يعظم حرصه بوجودها ،
وغمه بفقدانها . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ،
ولا الفاحش ولا البذيء » . رواه الترمذي بإسناد صحيح . والطعان هو الوقاع في
أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة ، واللعان الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة
الله تعالى والفاحش ذو الفحش في كلامه وأفعاله والبذيء الفاحش في منطقته وإن
كان الكلام صدقاً . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم
حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب
السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لا نصرنك ولو بعد حين » رواه الترمذي بإسناد
حسن من حديث أبي هريرة . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « يوشك أن تداعى
عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ قال :
بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم
المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب
الدنيا وكرهية الموت^(١) تداعى يدعو بعضها بعضاً للاجتماع على اذلالكم وسلب مافي

(١) رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة مرفوعاً .

أيديكم - والأكلة جمع آكل ككاتب. وكتبة - وغذاء السيل هو ما يحمله من
الزبد والأشياء الطافية على وجه الماء مما لا قيمة له ولا نفع فيه . ضربه مثلاً للمسلمين
إذ أذهبت ريحتهم وتفرقت كلمتهم - والحديث من أعلام النبوة ، وقد تحقق في
هذه الأيام فلقد صار المسلمون اليوم لشدة تنازع الدول القوية عليهم بمثابة القصاع
اجتمع عليهم الأكلة الجياع .

فضيلة الإحسان

حكى أن امرأة جاءت إلى حسان بن سنان فسألته شيئاً ، فجعل ينظر إليها
فإذا هي امرأة جميلة ، فقال : يا غلام ، أعطها أربعائة درهم ، فقيل له : إنها تسألك
درهما . فقال : لما نظرت إلى جمالها خشيت أن تقع في معصية ، فأحببت أن أغنيها
عسى أن يرغب فيها أحد فيتزوجها . وقال الإمام الثوري : الإحسان أن تحسن
إلى المسيء ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة .

في الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي
بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . ويروى أن رجلاً سب الأحنف بن قيس
وهو يماشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا إن كان
بقي معك شيء فقله ههنا ، فإني أخاف إن سمعت فتیان الحى أن يؤذوك . وقال
رجل لأبي ذر رضى الله عنه : أنت الذى نفاك معاوية من الشام ؟ لو كان فيك خير
ما نفاك ، فقال : يا ابن أخى إن ورأى عقبة كؤوداً ، إن نجوت منها لم يضرني
ما قلت ، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت . وقال رجل لأبي بكر رضى الله عنه :
والله لأسبنتك سباً يدخل القبر معك ، قال : معك يدخل لا معي . وقال رجل
لعمر بن العاص : والله لأنفرغن لك ، قال : هناك وقعت في الشغل ، قال : كأنك
تهددنى ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرأ ، قال : وأنت والله لئن قلت لى

عشراً لم أقل لك واحدة . وشم رجل الشعبي فقال له : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك . وشم رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فقال : يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً ، فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . وصر المسيح عليه السلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شراً فقال خيراً ، فقيل له : إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً ، فقال : كل واحد ينفق مما عنده . قيل للأحنف بن قيس : من أحلم ؟ أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهل منكم ؛ إن معاوية يقدر فيحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس به أو أدانيه . وقيل لقيس ابن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتمنعو عن ظلمك . وقالوا : ما قرنَ شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة . وقال الحسن : المؤمن حلیم لا يجهل وإن جهل عليه ، وتلا قوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . وقال يزيد بن أبي حبيب : إما كان غضبي في نعلي ، فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت . وقال الإمام علي رضي الله عنه : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعزة السلطان ، فأنا لمنك اليوم ما تناله مني غداً ، انصرف إذا شئت . وقال الأحنف بن قيس : آفة الحلم الذل ، ولا حلم لمن لا سفيه له ، وما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر
ولما أشد هذا البيت للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يفيض الله فاك »
فماش مائة وثلاثين لم تنفض له ثنية .

في الغيرة على الوطن

خرج أحد الملوك ذات يوم يتفقد جيشه ، وبينما هو يجوس خلال صفوفهم رأى جندياً تتألق على صدره سلسلة ذهبية ، وقد ربط في نهايتها رصاصة بدل

الساعة ، فأراد الملك أن يعرف السبب ، فسأله باسمًا : كم ساعتك ؟ فأجابه الجندى :
إن ساعتى يا مولاي لا تعين الزمن ، ولكنها تذكرنى دائماً بواجب الذود
عن الوطن ، فسر الملك من إجابته ، ووهب له ساعته الخاصة مكافأة له .

فى ثبات الفقير وغرور الغنى

فى صحيح البخارى عن خبّاب رضى الله عنه قال : كنت قينًا فى الجاهلية ،
وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر
بمحمد ، قلت : لا أكفر حتى يميّتك الله ثم يبعثك ، قال : دعنى حتى أموت وأبعث ،
فسئوتى مالاً وولداً ، فأقضيك ، فنزلت : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين
مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ، كلا سنكتب ما يقول ،
ونعد له من العذاب مذبذباً ، وزنه ما يقول ويأتينا فرداً » . القين : الحداد .
فى صحيح البخارى من حديث جابر بن عبد الله يقول : « جاءت ملائكة إلى النبى
صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين
نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً ، فقال بعضهم :
إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى
داراً وجعل فيها مآذبة وبعث داعياً فن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المآذبة ،
ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المآذبة ، فقالوا : أو لوها له يقظها .
فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ،
والداعى محمد صلى الله عليه وسلم فن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ،
ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس » .
* روى الإمام المقدسى عن أبى ذر الغفارى قال : أوصانى خليلى بأربع كلمات من
إلى أحب من الدنيا وما فيها ، قال لى : « يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ،
واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود ، واخلص العمل
فإن الناقد بصير » . * وروى أن سفانة بنت حاتم الطائى فى غزوة الطائف حين

وقمت في الأسر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : شكرتك يد افتقرت بعد غنى
ولا ملكتيك يد اغتنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك
إلى لثيم حاجة « ترجو بذلك أن يمن عليها بإطلاق سراحها . فقال : « يا على جهزها
على جملين وردّها إلى أهلها مكرّمة » ففعل ذلك على رضى الله عنه وكرم الله وجهه *
قيل للحكيم : ما السرور ؟ فقال : عقل يقيمك ، وعلم يزينك ، وولد يسرك ، ومال
يسعك ، وأمن يريحك ، وعافية تجمع لك المسرات * وقالت عائشة رضى الله عنها :
من شقوتنا أن الله تعالى قدمنا حين ذكرت الشهوات : إشارة إلى قوله تعالى :
« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »
هذه الستة أنواع هي المشتبهات التي يحبها الناس وحبها مزين لهم ، وله مكانة من
نفوسهم (أولها) النساء وحبهن لا يعلوه حب لشيء آخر من متاع الحياة ، فبن
مطمح النظر وموضع الرغبة ، وسكن النفس ومنتهى الأنىس ، وعليهن ينفق أكثر
ما يكسب الرجال في كدهم وكدهم ، فكلم افتقر في جهن غنى ، وكلم ذل بعشقه
عزيز . (الثانى) حب البنين فاكفى بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم
(الثالث) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، أى كثرة المال وهو بما أودع
في الفرائز — ولفظ القنطار معناه العقدة المحكمة من المال وهو ما يعبر عنه التجار
الآن بالصر أو الصرة — وقنطار مقنطر مكمل على المبالغة . (الرابع) الخيل المسومة
وهى الراعية ، وقيل المطهمة الحسان ، وقيل المعلمة — وكل من الراعية التي تقتنى
للتجارة ، والمطهمة التي يقتنيها الأغنياء للمفاخرة من متاع الدنيا الذي يتنافس فيها .
(الخامس) الأنعام وهى الأبل والبقر والغنم . (السادس) الحرث : الزرع والنبات
وهو قوام حياة الإنسان والحيوان (ذلك) ما يستمتع به الناس في حياتهم الأولى ،
والله تعالى عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة ، فلا ينبغي أن يجعلوا كل همهم
في هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد للعظيم الباقي . من
كلام عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة إبليس وأهلها حرانون له فيها .

ذكاء صبي وشجاعته

نصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً بصبية يلعبون بينهم عبد الله بن الزبير ، فلما رأوه فروا إلا عبد الله ، فقال له عمر : لم لم تفر مع أصحابك ؟ فقال : لم أكن مذنباً فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقه فأوسع لك * قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة ، وقالوا : لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ، ومنهم من يقول : نفعل ذلك تفاؤلاً حتى نتعمى من الذنوب كما تعرينا من الثياب ، وكانت المرأة منهم تتخذ ستراً تملقه على حقوبها لتستر به عن الحس وهم ، قریش ، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك ، وكانوا يصلون فى ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً . فقال المسلمون : يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك . فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا — وهذا من بدع الجاهلية : التى هدمها الإسلام * قدر الإمام على رضى الله عنه الدنيا بثلاثة أيام يوم مضى قد عرفت ما فيه : ويوم أنت فيه فأنت فيه إن كنت من أهله ، ويوم يأتيك فلا تدري أنت من أهله أو أنت من الراحلين * من الحكم المأثورة : إطاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال على رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبي : إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه — أى فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية . وقال بعض الحكماء : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال غيره : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع والصاحب رفعة فى الثوب فلينظر أحدكم بم يرقع ثوبه . وقال : إذا حاججت فلا تغضب فإن الغضب يقطع عنك الحجة ويظهر خصمك عليك . فى حسن الاستشفاع : قال ابن

المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل فقلت : يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله تعالى : من كانت له عند الله يد فليتقدم فلا يتقدم إليه إلا من عفا عن مذب . فأمر باطلاقه . وأمر عمر بن عبد العزيز بمقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر فافعل ما يحبه من العفو ، وأمر المهدي بضرب عنق رجل فقام إليه الناسك العظيم والواعظ الحكيم ابن السماك فقال له : إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق قال أمير المؤمنين : فما يجب عليه ؟ قال ابن السماك أن تعفو عنه ، فإن كان من أجر كان لك دوى ، وإن كان من وزر كان علىّ دونك . فحلى سبيله - وروى الأصمعي قال : عزم عبد الله بن علي على قتل بني أمية بالحجاز فقال له عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب : إذا شرعت بالقتل في أكفانك فمن تباهى بسطانتك فاعف بعف الله عنك . من الأمثال السائرة « إنما أكلت يوم أكل التور الأبيض » وأصله أن ثلاثة ثيران أحدها أبيض والثاني أحمر والثالث أسود تمرت على صاحبها وقرت إلى البادية فالتقت ببعض الوحوش فطمع فيها ، ورأى أن لا قبل له بها وجها لوجه ، فعمد إلى الحيلة ، فعمد معها صداقة بحجة أنها تأكل العشب وهو يأكل اللحم فلا زحام بينه وبينها ، فليكن الجميع على تعاون : هو يرشدها إلى العشب وهي ترشده إلى اللحم « صفار الصيد » فلما قدم جاء إلى الثورين : الأسود والأحمر ، وقال : إن لوني ولونكما متقارب وغير ظاهر ، ولكن الثور الأبيض مكشوف اللون يرشد الناس إلى اقتناصنا فهلا أعتماي عليه ليخلص لك العشب ونأمن كشف الناس لنا بسببه ؟ فأجاباه فأفترسه . ثم بعد حين جاء إلى الأسود بمثل ذلك فأحسن الضعف فأجاباه فأفترس الأحمر . فلما انفرد بالأسود جاء ليفترسه فتبين له خطأ ما ارتكب أولا وثانيا وقال هذا المثل . وصار مثلا لمن يتخاذل عن نصرة إخوانه طمعا في النجاة من مثل مصيرهم فيعجل لنفسه في اللحاق بهم .

في حسن الجوار

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه . أي من علامة كمال الإيمان أن يحسن المسلم جوار أخيه

بالبشر وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وتحمل الجفا وما إلى ذلك من حسن المعاشرة . وكان من دعاء داود عليه السلام : اللهم إني أسألك أربعة وأعوذ بك من أربعة . أسألك لساناً ذا كراً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً صابراً ، وزوجة تعينني في دنياي وآخرتي . وأعوذ بك من ولد يكون عليّ سيّداً ، ومن امرأة تُشيبني قبل وقت للشيب ، ومن مال يكون نعيماً لغيري ووبالاً عليّ ، ومن جار سوء إن رأى مني حسنة كتّمها ، وإن رأى مني سيئة أفشاها . وكان لأبي حنيفة رحمه الله جار إسكافي بالكوفة يعمل نهاره كله ، فإذا جع الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك وخرم فيطبخ اللحم ويشوي السمك ويأكل ويشرب ، فإذا دب فيه السكر أنشد

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم لا يزال يهذي ويردد البيت ويصيح إلى أن يغلبه الشكر وينام . وكان الإمام أبو حنيفة يقوم الليل كله في عبادة ربه ، ويسمع صياح الرجل وإنشاده . فقد صوته في بعض الليالي فسأل عنه فقيل أخذه العسس « رجال الشرطة » منذ ثلاثة أيام وهو محبوب في سجن الأمير . فصلى الإمام الفجر وركب بغلته وسار إلى أن استأذن على الأمير فقال : ائذنوا له وأقبلوا به راكباً حتى يطأ بساطي هذا بحافر بغلته . فلما دخل أجلسه الأمير مكانه وقال : ما حاجة الإمام؟ فقال له : لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر باطلاقه . فقال : نعم وكل من أخذه من تلك الليلة إلى يومنا هذا إكراماً لجار الإمام . ثم أمر بتخليته وتحليلتهم أجمعين . فركب الإمام وتبعه جاره الإسكافي ، فلما وصل إلى داره قال له الإمام : أترانا قد أضعناك؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جازاك الله خيراً عن حسن الجواز ورعايته ، والله عليّ ألا أشرب بعدها خمرأ . فتأب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه * ومن ورع عمر بن عبدالعزيز ما حدث ابن السماك قال : كان عمر بن العزيز يقسم تفاحاً بين المسلمين فجاء ابن له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه وفك يده وأخذ تلك التفاحة وطرحها في التفاح ، فذهب إلى أمه مستعبراً (باكياً) فقالت له : مالك أي بني ؟ فأخبرها ، فأرسلت بدرهمين فأشترت له تفاحاً وأطعمته ورفعت منه لعمري ، فلما فرغ مما بين يديه دخل إليها فأخرجت له طبقاً من التفاح . فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته

فقال رحمتك الله والله إن كنت لأشبهه . وأتى بماء قد سخن في فم الأمانة فكرهه ولم يتوضأ منه . وقال يوماً أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين والله ما عندنا عود حطب نوقده به ، فذهبوا بالقمم إلى مطبخ المسلمين ثم جاؤا بالقمم فقالوا : هذا القمم يا أمير المؤمنين وهو يفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلمكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ، قالوا : نعم . قال : ادعوا لي صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جر لو تركته تَلَمَدَ حتى يصير رماداً ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال أدوا إليه ثمنه * في تربية الأولاد : روى أن عتبة بن أبي سفيان أوصى مؤدب ولده فقال : ليسكن أول إصلاحك بتي إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما فعلت ، والقبیح ما تركت وعلمتهم كتاب الله ، ولا تملهم فيتركوا ، ولا تدعهم فيهجروا ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يُحكّموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة الفهم ، وهددم بي ، وأدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء ، واستزدي بأدبهم أزدك . ولا تتكلم على عذر مني فقد انككت على كفاية منك * أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إذا كنت وحداك فاحفظ قلبك ، وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، وإذا كنت على الطعام فاحفظ بطنك . فهذه تورثك السلامة والصحة * بالتمسك بالدين اتصروا على أعدائهم * قدمت الروم على هرقل منهزمة وهو بانطاكية فدعا رجالا من عظماهم فقال : ويحكم أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟ — يعني العرب — قالوا بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : وياكم فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين يُوتون . قال : إذا حملنا عليهم صبروا ، إذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلسكم ، فإبالكم كما تصفون ، وهم كما تزعمون ؟ قال الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له من أين هو ؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم . ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ، وتركب الحرام ، ونقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بما يُسخط الله ، وننهي عما يُرضى الله ، ونفسد في الأرض . قال : صدقتني ، والله لأخرجن من هذه القرية ، قال في محبتكم خير وأتم هكذا * في بر الوالدين . جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن لي أما بلغ بها من الكبر أنها لا تقضى حاجتها (البول والفائط) إلا وظهري لها مطية ، فهل قضيتها ؟ أي حقها ، قال ، لا ، لأنها كانت تفعل معك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تفعل معها ذلك وأنت تتمنى موتها . أي فرق بين من يصنع الجليل عن رضا وإخلاص ، ومن يصنعه على خلاف هذا * ظاهرة كريمة . روى أنه حصلت مجاعة في زمن أبي بكر وكان عثمان رضي الله عنه كثير المال ، وقد جاءه ألف راحلة من الشام تحمل قمحا وأرزاً وزبيباً وزيتاً . فجاءه تجار المدينة وسارموه في شرائه ، فقال : كم تبرمجونني ؟ فقالوا : الدرهم بدرهمين . فقال : قد أعطيت زيادة ؟ قالوا : بخمسة . قال : زادوني فقال التجار : ليس في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليه أحد في المساومة . قال : إن الله قد أعطاني بكل درهم عشرة دراهم ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا لا . قال فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . وتصدق بالأحمال جميعها إيماناً واحتساباً لوجه الله . فابقي من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه وأهله . هكذا أدبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأداب الإسلام السمح ، وعودهم على أخلاقه الكريمة (٢) ومن محبتهم للرسول : أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان بن حرب : أشدك الله يا زيد أحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك ! فقال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كـ

أصحاب محمد محمدا . وكذلك قال خبيب بن عدي صاحبه وأشد :

وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيناى فى غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

إقامة العدل ورد المظالم . قال ابن حميد : إني لواقف على رأس المأمون يوما
وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه (وقدم بالقيام) امرأة عليها هيئة السفر
وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فنظر
المأمون إلى يحيى بن أكرم فقال لما يحيى وعليك السلام ورحمة الله يا أمة الله تكلمنى
فى حاجتك فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةً عدا عليها فلم يترك لها سيدُ
وابترَّ منى ضياعى بعد منعتها ظلما وفرَّق منى الأهلُ والولدُ
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلدُ عنى وأفرح منى القلبُ والكيدُ
هذا أو ان صلاة العصر فانصرفى وأحضرى الخضم فى اليوم الذى أعدُ
والجلسُ السبتُ إن يقض الجلوسُ لنا نُنصفك منه وإلا المجلسُ الأحدُ

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت
السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال وعليك السلام ورحمة الله أين الخضم ؟
فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومات إلى العباس ابنه . فقال
يا أحمد بن خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصومة ، فجعل كلامها يملو كلام
العباس ، فقال لها أحمد بن خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك
تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق
أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وعاقب العباس بظلمه لها وأمر
بالكتابة لها إلى العامل ببلدها أن يؤجر لها ضيعتها ويحسن معاوتها وأمر لها
بنفقة . وعن الربيع أنه قال : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أربط جأشا من رجل

رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموال لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرتة ودخلت به إليه فقال له المنصور: قد رفع إلينا خيرُ الودائع التي عنك لبني أمية فأخرج لنا منها . فقال : يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية ؟ . قال لا . قال : فوصي أنت لبني أمية ؟ قال لا . قال- فما سؤالك عن مافي يدي من ذلك ؟ قال : فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين في حقهم ، فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم . فقال : يا أمير المؤمنين نحتاج في ذلك إلى إقامة البيئة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين ، فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : صدق الرجل ياربيع ، ماوجب عليه عندنا شيء ، ثم بش في وجهه ثم قال : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتي أن تُنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم إشخاصي لديك ، وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين . قال : ماهي ؟ قال : أن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك ، فوالله ما لبني أمية عندي ، ولا في يدي وديعة ، ولكنني لما مثلت بين يديك ، وسألتنى رأيت ما قلبته أقرب إلى الخلاص والنجاة . فقال : ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به إلينا ، فجمعت بينهما فقال : يا أمير المؤمنين هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق ، فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره وكذب عليه خوفاً من الوقوع في يده ، فقال المنصور للرجل : نسألك أن تصفح عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه ، وأبرأته من المال ، وأعطيته ثلاثة آلاف أخرى ، فقال المنصور : ما على ما فعلت من مزيد في السكرم * السعادة في ترك الكذب والتزام الصدق * ورد أن أعرابيا أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : إني أريد أن أتبعك غير أنى علمتُ أنك تنهى عن الزنا والسرقة وشرب الخمر ، ولا طاقة لي بتك جميعها ، فإن قنمت منى بواحدة منها اتبعتك ، فعاهده صلى الله عليه وسلم على ترك الكذب ، فصار

كلام بزنا أو سرقة أو شرب الخمر : قال : كيف أصنع إن سألتني النبي صلى الله عليه وسلم فإن صدقته حدثني وإن كذبتني فقد عاهدته على ترك الكذب ، فكان ذلك سبباً لترك الفواحش كلها ، وتاب وحسنت توبته ، فقال لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسن ما داويتني فجزاك الله ماجزى نبياً عن أمته — أو كما ورد ، وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إذا حدثتك نفسك بمعصية الله فاعصه حيث لا يبرك ، أو كل رزق غيره أو أخرج من داره ، ولا ريب أن أي واحد من هذه الثلاثة محال لذاته .

شهادات الأجانب للإسلام

لسنا نريد من ذكر شهادات الأجانب لذلك الدين التويم إقامة البراهين على أنه الدين الحق دين الرقي والمدنية فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل . وقد برهن على نفسه بنفسه . وإنما نريد بهذا أن نذكر للناس أن عقلاء الأمم الأجنبية الذين نظروا إليه بالعيون الصحيحة ، والعقول السليمة المطلقة من قيود الهوى والتعصب المقتوت علموا أن القرآن الحكيم هو منبع الرقي والسعادة وأن الإسلام أساس المدنية والحضارة في كل مكان وزمان . ولو استقصينا كل شهاداتهم لطل بنا الكلام لا سيما أن فريقاً عظيماً منهم تصدى للدفاع عن دين الإسلام وألقوا في ذلك المؤلفات القيمة الناطقة بالحق . وقد انتشرت في بلاد الشرق والغرب ، فلذلك نكتفي ببعض شهادات أشهر علماءهم وفلاسفتهم قال : « دوديانوس الوزير الفرنسي » : جاء الإسلام مخالفاً لكثير من الأديان التي ضاعت حقيقتها ولكنه جاء منزهاً عما لا يقبل من الخرافات والأباطيل .

ومن عجيب أمره والدليل على صدقه أنه كرم المسيح وعظمه وإن خالف المسيحيين في تقرير أن المسيح بشر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله . والإسلام مكمّل للإنسانية لا غموض فيه ، وهو يقرر الوجدانية . فسلم من التناقض والمعارضة العقلية .

الإسلام أمرًا بالسواة والاشتغال بالعمل ، وتبزه الإسلام عن الرهبانية . أما تأخر أهله فنأشئ من أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير مرامه . وقال الفيلسوف (كارلايل) الإنجليزي في كتابه « الأبطال وديانة الأبطال » أى دليل تريد على صحة قول من يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبني لك بيتاً كبيراً يسع الملايين ، من المتانة بحيث يبقى مئات السنين ، كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من أن يأتي للناس بدين يهديهم به ويدفعهم في طريق الحياة الفاضلة ، وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثني عشر قرناً ، إلا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف يمر من يد ويدين ثم يضبط ويعرف أنه زائف ، فلا يرفع به أحد رأساً ، ولكن الإسلام هدى العقول كل هذه الأجيال وأهله أشد اعتداداً وتمسكاً به من أية أمة بدينها في الأرض . وقال جوستاف لبون في كتابه « حضارة العرب » : إن التعاليم الأخلاقية التي جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة . فقد حض على الصدق والإحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا إلى الاستمسك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهود ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيثار ذى القربى ورعى الأراامل والقيام على اليتامى ، ووصى في عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة . تلك هي الآداب السامية التي دعا إليها القرآن وهي أسمى بكثير من آداب الإنجيل . وإنها لشهادة رجل عرف الحق من طريق النظر الصحيح فأبت عليه مروءته أن يكتبه . وقال الفيلسوف الإنجليزي « برناردشو » لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية المضم لأطوال الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس . لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً ؛ وقد بدأ يكون مقبولاً لديهم اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذمى ، ولقد كانوا فى الواقع يرمون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يمتبرونه خصماً

للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلاً مدهشاً فرأيته بعيداً عن محاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفي القرن التالي ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فنعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها فهذه الروح يجب أن تفهموا نبوتى . وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد حتى لم يمكن أن يقال : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ . وما يلفت نظر الباحث في حديث هذا الفيلسوف النصف قوله : إن أوروبا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشاكلها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صل الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . فهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل عرف حقيقة الإسلام وأدرك كيف يؤثر بجماله في القلوب ، ويتسلط بجلاله على النفوس : وليس برناردشو أول من أدرك هذا فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوت الفيلسوف الألماني المتوفى سنة (١٨٣٢ م) وهو يعتبر من أكبر رجال الألمان علماً وعقلاً . يؤثر عنه أنه نظر في الإسلام وأعجبه فقال : إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذأ فيه . وقال الفيلسوف (كيزو) الفرنسي صاحب تاريخ النمدن الأوربي : إن الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيك الظالمين في عشواء العماية ، والقدح في سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء

والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجية لأصول من العقائد ، كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الأغلب . وفى القرآن من ذلك ما لا يحصى كثرة ، وقلما يوجد من الأديان ، ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد ، أو الوحدة فى الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر والكثير يكون واحداً ، مما تنبذه بداهة العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ، ولا يهتدى للدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه ، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه لكنه يعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل يقرب وجوده وأما الثانى فطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ، وقال الحكيم جوستاف لوبون : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب فللدين أثر كبير فى تهذيب الأمم وتربية مشاعرها ووجدانها وترفية عواطفها . فإذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، إذ ما كاد يتصل بالأمّة العربية ذلك الإصلاح الروحى المدنى حتى انتشر العدل ، وزال النفاق والرياء والظلم والعدوان ، وأطلقت العقول من قيودها التى ظلت أدهاراً ترسّف فيها ، وتبدلت حال الأمّة العربية بحال خير منها . ٥١ .

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وكان القراخ من تأليفه صباح اليوم التاسع من ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم ٥

على محفوظ

طبع هذا الكتاب طبق خطة الدراسة ومنهجها لقسم لإجازة الدعوة

والإرشاد على نظام القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦

مراجع الكتاب

التي منها اقتبست ليرجع إليها من أراد الزيادة من العلم

- ١ - إرشاد العقول السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعلامة أبي السعود .
- ٢ - تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا .
- ٣ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .
- ٤ - زاد المعاد للإمام ابن القيم .
- ٥ - سيرة ابن هشام .
- ٦ - الشفاء للقاضي عياض .
- ٧ - تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ محمد بك الحضري .